

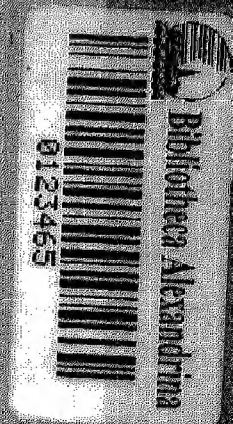
الألف كتاب (الثاني)

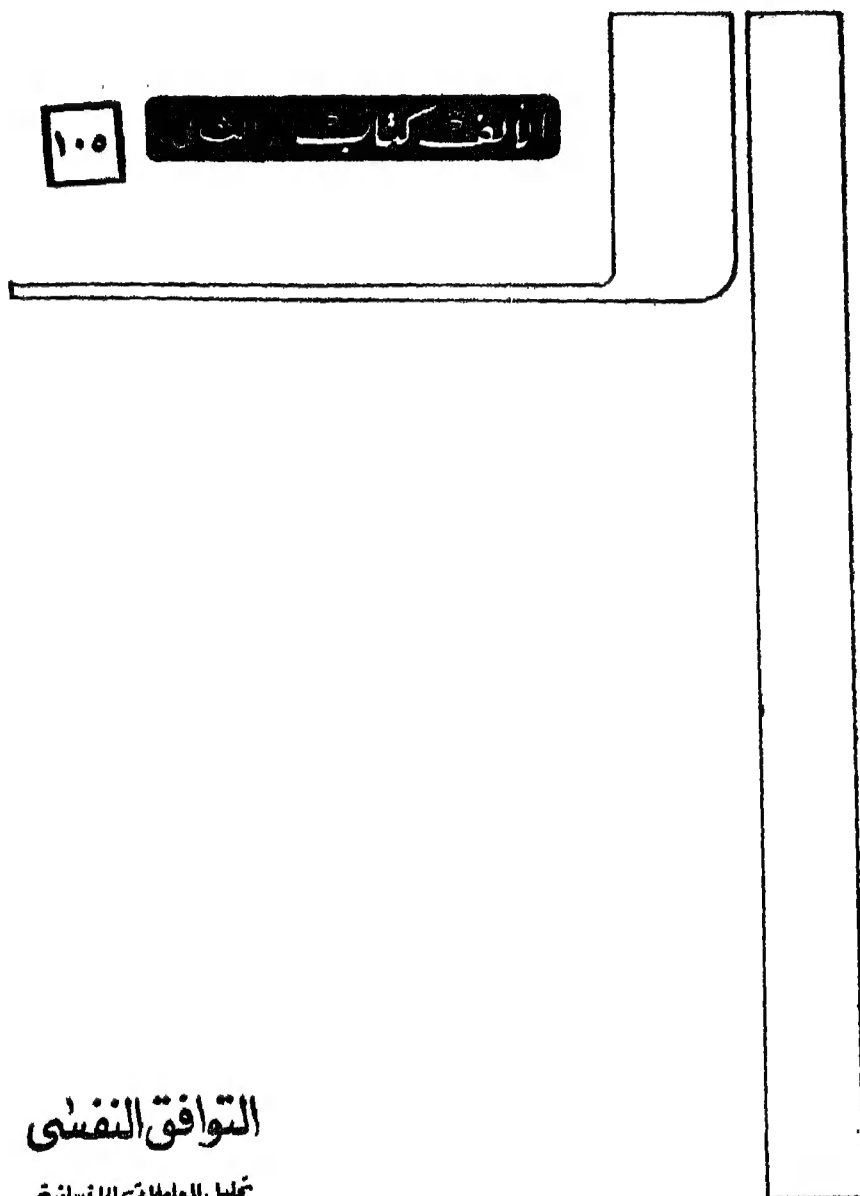
التوافق النفسي

تحليل المعاملات الإنسانية

تأليف : د. توماس أ. هاريس

ترجمة : إبراهيم سلامة إبراهيم





التوافق النفسي

تحليل العلاقات الإنسانية

الألف كتاب الثاني

الإشراف العام

و. سمير سرهان
رئيس مجلس إدارة

رئيس التحرير

لمسعى المطيعي

مدير التحرير

أحمد صليحة

سكرتير التحرير

محمود عبده .

الإشراف الفني

محمد قطب

الإخراج الفني

مراد نسيم

التوافق النفسى

تحليل المعاملات الإنسانية

تأليف : د. توماس ا. هاريس

ترجمة : إبراهيم سلامة إبراهيم



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٢

كلمة المترجم

طالما انشغلت وانشغل غيرى ، بالنظر فى غرابة مصطلحات علم النفس دون غيره من العلوم الحديثة ، وتباعده عن احتلال موقعه الطبيعى كعنصر ضرورى من عناصر الثقافة العامة للناس ، رغم الحاجة اليه - ليس فقط لعلاج المشاكل النفسية للفرد ، تلك التى تؤثر فى علاقته بالمجموع ، بل أيضا كمرشد يحول دون تفاقم هذه المشاكل الى الدرجة التى تستدعى العلاج المتخصص الذى قد يطول سنوات .

وعندما صادفت هذا الكتاب اكتشفت فيه ضالتي التى كنت أنشدها . . انه يقدم للناس فكرة مبسطة عن علم النفس فى أهم مجالاته إلا وهو مجال التحليل النفسى ، مع الاقلال من المصطلحات الصعبة أو على الأقل محاولة تبسيطها . . وللدور الفكرة العامة للكتاب جول أجبول وفوائده استخدام ابتكار جديد فى مجال التحليل النفسى ألا وهو تحليل المعاملات كأسلوب لعلاج العديد من المواقف المنحرفة فى السلوك البشرى ، ولذلك فهو يعرض فى استفاضة لموضوع تحليل المعاملات بصورة تجعله جديرا بالانضمام الى فروع الثقافة العامة .

ولمى رأى الشخصى أن هذا الكتاب استكمال لكتابين آخرين وضعهما استاذ تحليل المعاملات الدكتور اريك برن Eric Berne وهما :

١ - تحليل المعاملات فى العلاج بالتحليل النفسى *

1. Transactional Analysis in Psychotherapy

2. Games People play.

٢ - ألعاب يلعبها الناس *

وقد صدر الكتابان في نيويورك - أولهما سنة ١٩٦١ ويدور حول هذا الفرع الجديد للتحليل النفسى من خلال العلاج الجماعى لمجموعة من المرضى أو الدارسين وملاحظة سلوكهم وردود أفعالهم حيال المواقف المختلفة التى ابتكرها المؤلف وجعل منها برنامجا للعلاج .

وصدر الكتاب الثانى سنة ١٩٦٤ ويدور حول استخدام تصنيفات من الألعاب التى صممت بعناية لكى تلعبها مجموعات المرضى أو الدارسين كممارسة عملية للسلوك البشرى المتحرر والتلقائى ازاء المواقف المختلفة تحت اشراف طبيب نفسى متمرس يقوم بالملاحظة والتصحيح .

وقد اعتمد الدكتور توماس هاريس فى وضع مؤلفه الذى بين أيدينا على هذين الكتابين بصفة أساسية وانتقل منهما الى التوسع فى عرض وتطبيق مبادئ تحليل المعاملات بالنسبة للجوانب المختلفة من حياة الفرد اعتمادا على العناصر الأساسية التالية :

١ - اتباع أسلوب توضيحي يعتمد على بناء النماذج لتسهيل ادراك المفاهيم التى يصعب ادراكها بالتجريد المطلق ، مع اعتماد هذه النماذج على رموز معينة لفظية أو رياضية لتوضيح ما يدور داخل عملية السلوك التى اصطلح على تسميتها : معاملة Transaction

٢ - اعتمد على النموذج الذى قدمه الدكتور اريك برن وأسماء : نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) ومنه نعرف أن الشخصية تنقسم الى ثلاثة عناصر تسيطر على السلوك الفردى الذى ينطلق من العنصر الأقوى سواء كان هو الوالد أو الراشد أو الطفل . وتوصل الى ضرورة الفصل بين العناصر الثلاثة .

٣ - تخيل أن فى كل فرد حاسبا آليا ، تصنف فيه المعلومات الواردة تحت ثلاثة ملفات هى : « الوالد » ، و « الراشد » ، و « الطفل » وفى الوقت المناسب تخرج المخرجات حسب الشريط المسجل عليه المعلومات فى المخ ، منطلقة للتعبير عن العنصر الأقوى من العناصر الثلاثة الداخلة فى بناء الشخصية - وانتهى الى أنه كلما كان « الراشد » هو الأقوى والمسيطر ، كلما كانت المعاملات طبيعىة وبناءة .

٤ - جعل للحياة أربعة مواقف تسيطر على الشخصية بالتدرج منذ الولادة النفسية للانسان لتنتهى به الى التوافق النفسى من خلال موقف (أنا على مايرام ، وأنت على مايرام) وهو الموقف الطبيعى للشخص الطبيعى . على أنه اذا ظل الشخص يعيش تحت تأثير أى من المواقف

الثلاثة الأخرى فانه يحتاج الى العلاج النفسى لتصحيح ما يكون قد ألم به
من انحراف .

٥ - استخدام تحليل المعاملات كأسلوب حديث للعلاج النفسى مع
الاعتماد على الألعاب ، والعلاج الجماعى من خلال تحليل المعاملات ، وتدریس
نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) لمجموعات المرضى أو الدارسين كبداية
لفهم الانحرافات ، ووصولاً الى السلوك الطبيعى للانسان الطبيعى .

والكتاب بوجه عام يساعد القارئ على أن يتعلم كيف يتحكم فى
نفسه ، وفى علاقاته ، وفى مستقبله - بصرف النظر عما يكون قد ترسب
فى عقله الباطن من مفاهيم خاطئة أو أساليب سلوكية غير سوية أو قصور
فى التربية وهى كلها رغم اندراجها فى قائمة أحداث الماضى ، الا أن الماضى
رغم تشكيكه للعديد من أساليب سلوك الناس ، الا أنه لا يرقى الى أهمية
الحاضر ، الذى يبنى عليه المستقبل . كل المستقبل .

وقد أضفنا من عندنا تعليقات وتفسيرات ميزناها بعلامة (★) فى
بدايتها ، أو كلمة (المترجم) فى نهايتها وذلك للفرقة بينها وبين العبارات
الأصلية للمؤلف .

ونرجو أن يساعد هذا الكتاب كل قارئ على أن يعيش الحاضر
كإطلاقة نحو المستقبل ، متحرراً من قيود الماضى بعد أن يتفهم دوافعه ،
وبذلك يبدأ حياة جديدة متحررة من الخوف والقلق والمجهول ، وأن
يبتسم للحياة ، وينظر إليها نظرة التفاؤل والقبول .

المترجم

ابراهيم سلامة ابراهيم

(دبلوم الدراسات العليا فى الاعلام)

تعريف

المؤلف :

الدكتور توماس ا - هاريس Thomas A. Harris طبيب نفسى
متخرج من مدينة ساكرامنتو بولاية كاليفورنيا الامريكية - ولد فى تكساس
وحصل على درجة البكالوريوس فى العلوم سنة ١٩٣٨ من كلية الطب
بجامعة اركانساس - ثم حصل على اجازة الطب سنة ١٩٤٠ من كلية الطب
بجامعة تمبل - وفى سنة ١٩٤٢ بدأ التدريب على الطب النفسى بمستشفى
سانت اليزابيث بواشنطن - ثم خدم بعدها فى البحرية كطبيب نفسى -
وفى سنة ١٩٤٧ عين رئيسا لفرع الطب النفسى بمكتب الطب والجراحة
بإدارة البحرية - وبعد اعتزاله الخدمة فى البحرية برتبة « كوماندير »
قام بالتدريس فى كلية الطب بجامعة اركانساس - ثم أصبح مديرا لادارة
المعاهد بولاية واشنطن - وفى سنة ١٩٦٥ دخل ميدان العمل الخاص فى
ساكرامنتو - وهو مؤسس ورئيس معهد « تحليل المعاملات » هناك ،
ومدير ~~المعهد~~ تحليل المعاملات الدولى .



المترجم : ابراهيم سلامة ابراهيم :

ولد فى روض الفرج بمحافظة القاهرة فى ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٣٨
تخرج من كلية الآداب بجامعة القاهرة فى مايو ١٩٦١ ثم حصل على دبلوم
الدراسات العليا فى الصحافة والنشر من كلية الاعلام بجامعة القاهرة فى
يونية ١٩٨٣ .

يعمل حاليا مدير ادارة بالادارة العامة لمعلومات الطيران بالهيئة
العامة للطيران المدنى بميناء القاهرة الدولى - له مؤلفات فى مجال بحوث
الطيران المدنى ، كما ساهم بقلمه فى العديد من المقالات والدراسات
التي نشرت له بمجلة روزاليوسف وجريدة الجمهورية وجريدة الاخبار
ومن أعماله : المسيحية بين الاعلام والدعاية - والطيران المدنى والسلام
العالمى .

قام بترجمة كتب عديدة منها كتاب : محاكمة يسوع المسيح
لفرانك باول وكتاب الحياة بعد الموت للدكتور ر - ا - مودى .

تنويه

تجدر بنا الإشارة الى أنه يجب قراءة هذا الكتاب من البداية الى النهاية . أما اذا قرئت الفصول الأخيرة قبل الفصول الأولى ، تلك التي تحدد أسلوب ومفردات تحليل المعاملات ، فإن القارئ لن يفقه المعنى الكامل للفصول الأخيرة فقط ، بل أنه سيتوصل أيضا الى استنتاجات مضللة .

ان الفصلين الثاني والثالث ضروريان لفهم كل ما يرد بعدهما . أما بالنسبة للقراء الذين تملكهم رغبة لاتقاوم في القراءة من النهاية الى البداية ، فأننى أود أن أشير الى خمس كلمات لها معان محددة تختلف عن معانيها المعتادة ، وهي كلمات : والد ، راشد ، طفل ، على مايرام (*) . ألعاب . .

المؤلف

توماس ا . هاريسى

(*) يلاحظ أننا في سياق الكتاب سنقتصر على استخدام والد وراشد وطفل باعتبارها مسميات لأجزاء من شخصية الانسان ، لا باعتبارها مسميات تعبر عن علاقات اسرية أو مراحل عمرية لأن هذه سوف نعبر عنها باستخدام الأب أو الأم أو الابوين أو الآباء أو الكبار والصغار الخ . . حسبما يقتضى السياق (المترجم) .

مقدمة

لوحظ في السنوات الأخيرة أن الناس بدأوا يضجون بالطب النفسى ، نظرا لطول أمد العلاج ، وتكلفته المرتفعة ، ونتائجها التى تقبل الأخذ والرد ، ومصطلحاته المبهمة التى لا يفهمها غير المتخصصين ، أن الطب النفسى يظهر للعديد من الناس مثل رجل ضرير يبحث فى غرفة مظلمة عن قطعة سوداء ليس لها وجود . وتقول المجلات واتحادات الصحة العقلية ، أن العلاج النفسى شئ طيب ، ولكن لم تتضح بعد ماهيته أو ما يحققه .

وبالرغم من أن عامة الناس يستهلكون مئات الآلاف من الكلمات عن الطب النفسى كل عام ، فلا يوجد سوى القليل من المعلومات الممنعة ، التى تساعد الشخص المحتاج للعلاج فى التغلب على الصورة الهزلية للأطباء النفسيين وأرائهم الغامضة .

وقد جرى التعبير عن هذا الموقف المتبرم فى صورة القلق المتزايد ليس فقط من جانب المرضى وعامة الناس بل أيضا من جانب الأطباء النفسيين أنفسهم . وأنا واحد من هؤلاء الأطباء النفسيين . ويعتبر هذا الكتاب نتاجا للبحث عن اجابات تقدم للناس الذين يبحثون عن الحقائق المجردة . ردا على استفساراتهم عن الكيفية التى يعمل بها العقل ، لماذا نعمل ما نعمله ؟ وكيف نستطيع التوقف عن عمل ما نعمل اذا رغبتنا فى ذلك ؟ ان الاجابة تكمن فيما أشعر بأنه واحد من أكثر الاكتشافات الواعدة فى الطب النفسى لعدة سنوات .

ذلك هو ما نطلق عليه اسم : تحليل المعاملات

Transactional Analysis

لقد أعطى هذا الاكتشاف راحة للناس الذين ثبطلت عزائهم بسبب الغموض الذى يكتنف العديد من الأنماط التقليدية للعلاج النفسى . كما أعطى اجابة جديدة للناس الذين يريدون أن يتغيروا . أكثر من أن يتأقلموا ، وللناس الذين يريدون الاصلاح أكثر من التعود . وفى الواقع فان ذلك يواجه المريض بحقيقة أنه مسئول عما سيحدث فى المستقبل بصرف النظر عما حدث فى الماضى . والأكثر من ذلك أنه يتيح للأفراد امكانية التغير . واقامة تحكم ذاتى . وتوجيه ذاتى ، واكتشاف حقيقة حرية الاختيار . اننا ندين بالفضل الرفيع للدكتور اريك برن Dr. Eric Berne . من أجل تطوير هذا الاسلوب لأنه وهو بصدد تطوير مفهوم تحليل المعاملات ، ابتكر نظاما موحدا للطب النفسى الفردى والجماعى تميز بالشمول على المستوى النظرى . والفاعلية على المستوى التطبيقي .

وقد حظيت بامتياز الدراسة مع برن خلال السنوات العشر الماضية . والمشاركة فى الحلقة الدراسية المتقدمة التى يديرها فى سان فرانسيسكو . لقد تعرفت لأول مرة على طريقة برن الجديدة للعلاج ، من خلال ورقة قدمها الى الاجتماع الاقليمى الغربى للمجموعة الأمريكية لاتحاد العلاج النفسى الذى عقد فى لوس أنجلوس خلال شهر نوفمبر سنة ١٩٥٧ ، وكان عنوانها : « تحليل المعاملات : أسلوب جديد وفعال للعلاج الجماعى » . واقتنعت بأنها لم تكن « مجرد ورقة أخرى » ولكنها كانت فى حقيقة الأمر رسما تفصيليا للعقل ، لم يقم به أحد من قبل . مع مجموعة من المفردات الدقيقة التى يستطيع أى فرد أن يفهمها لتحديد أجزاء التصميم التفصيلي . لقد أتاحت هذه المجموعة من المفردات امكانية الحديث بين شخصين ، عن السلوك ومعرفة ما يعنيه .

وتتجلى احدى الصعوبات التى ترتبط بالعديد من الفاظ التحليل النفسى فى أنها لاتحمل نفس المعنى بالنسبة لكل شخص . ان كلمة الأنا EGO تعنى للوهلة الأولى أشياء عديدة بالنسبة لأناس كثيرين . وفرويد - على وجه التقريب - مثله مثل كل محلل نفسى جاء بعده - لديه تعريف مفصل ، ولكن هذه البناءات اللغوية الطويلة المعقدة التركيب ، لا تساعد على وجه الخصوص - مريضا يحاول أن يفهم لماذا لا يستطيع الاستمرار فى أى عمل ، خاصة اذا تمثلت احدى مشاكله فى عدم استطاعته القراءة بكفاءة تساعد على اتباع تعليمات العمل . ولا يوجد حتى مجرد اتفاق بين الباحثين النظريين حول معنى كلمة « الأنا » . ان المعانى الغامضة والأفكار المعقدة قد أعاققت عملية العلاج أكثر مما ساعدتها . لقد لاحظ هيرمان ميلفيل أن العالم الحق لا يستعمل سوى القليل من الفاظ

الصعبة ، وذلك عندما لا تستطيع الألفاظ الأخرى أن توفى بالغرض .
بينما يظن صاحب المعرفة السطحية ، أنه يفهم الأشياء الصعبة ، بترديد
الألفاظ الصعبة . ان مفردات تحليل المعاملات هي الأداة الدقيقة للعلاج
لأن أى لغة يستطيع الفرد أن يفهمها ، تحدد الأشياء كما هي في الحقيقة .
حقيقة التجارب التي حدثت بالفعل في حياة الناس الذين عاشوها بالفعل .

وكذلك فإن الطريقة التي كانت مناسبة لعلاج الناس في مجموعات .
تشير الى امكانية سد الفجوة المتسعة بين الحاجة الى العلاج وبين الأشخاص
المدرسين الموجودين لأداء العمل . وخلال السنوات الخمس والعشرين
الماضية أوجدت شعبية الطب النفسي التي أخذت تظهر بكثافة ملحوظة في
السنوات التي تلت الحرب العالمية الثانية مباشرة - توقعات أوسع
مما تستطيع امكانيتنا أن توفى بمطالبها . وقد زاد من هذه التوقعات
سنويا ، ذلك الفيض المتلاحق من الأدب النفسي . سواء كان مطبوعا في
مجلات الطب النفسي أو مجلة المختار (Reader's Digest) ، ولكن يبدو
أن الهوة بين ذلك ، وبين العلاج ، أخذت في الاتساع . وكان السؤال يدور
دائما حول كيفية اخراج فرويد من الأريكة للالتقاء بالجمهور .

لقد عبر مايك جورمان Mike Gorman المدير التنفيذي
للمجلس القومي لمقاومة المرض العقلي - عن التحدي الذي يواجه الطب النفسي
للفاء بهذه الحاجة ، وذلك في كلمته الى الاجتماع السنوي لاتحاد الطب
النفسي الأمريكي بنيويورك خلال شهر مايو سنة ١٩٦٥ حيث قال :

« ما دمتم قد انطلقتم من صومعة صغيرة كانت تضم ثلاثة آلاف طبيب
نفسى سنة ١٩٤٥ الى منظمة متخصصة أكبر ، ضمت أربعة عشر ألف عضو
سنة ١٩٦٥ ، فأنتم مضطرون الى المشاركة في القضايا الكبرى لعصرنا
الحاضر مشاركة متزايدة . انكم لن تستطيعوا فيما بعد أن تختبئوا خلف
متاعب مكتبكم المخصوص المجهز بأريكة جيدة الحشو ، وصورة فرويد عند
زيارته لمدينة روشستر بولاية ماساشوسيتس سنة ١٩٠٩ . اننى أطلب
بأن يطور الطب النفسي لغة عامة ، مصفاة من الغرابة الفنية ، ومناسبة
لمناقشة المشاكل العامة في مجتمعنا . اننى أعرف أن هذا عمل شديد
الصعوبة ، لأنه يعنى استبعاد مصطلحات المهنة المريحة والأمنة والحصينة ،
والتأقلم على حوار المجالس القضائية الأشد حرارة . وبالرغم من صعوبة
هذا العمل ، الا أنه من الضروري اتمامه اذا أردنا للطب النفسي أن يكون
مسموع الصوت في قاعات الحقوق المدنية في أمتنا » .

لقد أنلجت صدرى الكتابات الأخيرة لعدد من أطباء النفس الشبان
تلك التي تكشف عن نفور صحنى من مسألة قضاء الحياة المهنية بكاملها فى
علاج عشرة إلى عشرين مريضاً كل عام .

Melvin Sabshin أما الطبيب النفسى الدكتور ملفين سابشين
فقد كان له تعليق مثالى حيث قال :

« هناك سؤال بسيط يتعلق بما اذا كان فى قدرة الطب النفسى
انجاز هذه المهام أو الأدوار الجديدة بتوظيف مَهَارَاتِهِ التقليدية ومناهج
البحثة النموذجية ، وممارساته الحالية - أم لا ؟ ان جوابى الشخصى على
هذا السؤال هو : النفى - لأننى أعتقد أن هذه العناصر لا تقدم أساساً كافياً
لأداء المهام والتشكيلات الجديدة » .

انه من الضرورى للطب النفسى أن يواجه حقيقة أنه لا يستطيع أن
يبدأ فى الوفاء بمطالب المساعدة النفسية والاجتماعية للفقراء والمتخلفين
بمدارسنا ، والمصابين بالاجباط بين العاملين ذوى الياقات الزرقاء ،
والسكان المصابين بالخوف من الأماكن المغلقة فى مدننا المزدحمة ، وهكذا
دواليك - بلا نهاية .

ان العديد من قادة الفكر يعطون اهتماماً متزايداً للدور الجديد الذى
يتحتم أن يلعبه الطب النفسى خلال عشرات السنين القادمة . ليس فقط
فى توسيع قاعدة تدريب العاملين فى حقله ، ولكن فى الارتباط بالنظم
السلوكية الأخرى على قدم المساواة فى انشاء برامج التدريب للآلاف المؤلفة
من العاملين فى حقل الصحة العقلية الذين سيحتاج اليهم اذا ما قررنا
تحقيق الأهداف التى طالب بها الرئيس كيندى فى رسالته التاريخية عن
الصحة العقلية سنة ١٩٦٣ (١) .

ان برامج التدريب للآلاف من العاملين فى حقل الصحة العقلية
باللغة العادية ، المجردة من الغرابة الفنية ، والمناسبة لمناقشة المشاكل
العامة فى مجتمعنا ، أصبحت ممكنة اليوم عن طريق تحليل المعاملات .
لقد تم تدريب أكثر من ألف أخصائى بهذا الأسلوب فى ولاية كاليفورنيا ،
وهذا التدريب آخذ فى الانتشار السريع الى أجزاء أخرى من الولايات
المتحدة وإلى البلدان الأجنبية . علماً بأن نسبة تقترب من نصف هؤلاء

(١) M. Gorman, "Psychiatry and Public Policy". The American
Journal of Psychiatry, vol. 122 No 1 (July 1965).

الإخصائيين من الأطباء النفسيين ، بينما يشمل النصف الآخر أطباء من تخصصات أخرى (توليد - أطفال - باطنى - ممارس عام) ، وعلماء النفس والعاملين فى الحفل الاجتماعى ، ورجال البوليس الذين يلاحظون المجرمين تحت المراقبة ، والممرضات ، والمدرسين ، ومديرى الأفراد ، ورجال الدين ، والقضاة .

ان تحليل المعاملات يستخدم الآن للعلاج الجماعى فى العديد من المستشفيات والسجون ومؤسسات رعاية الشباب فى ولاية كاليفورنيا . انه يستخدم على يد الأعداد المتزايدة من الأطباء فى استشارات الزواج ، وعلاج المراهقين ، والاستشارات الكنسية ، ورعاية الأسر أثناء وجود الأم فى حالة وضع ، وفى واحدة على الأقل من مؤسسات رعاية المتخلفين عقليا ، وهى مؤسسة لوريل هيلز Laurel Hillis فى ساكرامنتو .

وهناك سبب أساسى يجيب عن السؤال القائل : لماذا يقدم تحليل المعاملات مثل هذا الوعد بسد الفجوة بين الحاجة الى العلاج والوفاء به . وهو أن تحليل المعاملات يقدم أقصى ما فى وسعه للجماعات . انه أداة تدريس وأداة تحصيل أكثر من أن يكون اعترافا ، واستكشافا أثريا للسرايب الطبيعية . ونتيجة لممارستى الخصوصية للطب النفسى أقول أن ذلك قد أتاح العلاج لعدد من المرضى يصل الى أربعة أضعاف ما كان يحدث من قبل . ومن خلال عملى كطبيب نفسى - لعلاج المرضى وإدارة برامج المؤسسات الضخمة - على مدى السنوات الخمس والعشرين الماضية ، فأننى لم أتاثر بشئ يعادل مقدار ما يحدث اليوم من خلال ممارستى . ومن أبرز معانى مساهمة تحليل المعاملات أنه أتاح للمرضى أداة يستطيعون استخدامها . والغرض من هذا الكتاب هو التعريف بهذه الأداة ، التى يستطيع أى فرد استخدامها وليس من الضرورى أن يكون الناس مرضى حتى يستفيدوا منها .

إنها لتجربة عميقة المغزى أن ترى الناس وقد بدأوا يتغيرون ابتداء من الساعة الأولى للعلاج ، فيشعرون بالتحسن ، والنمو ، والتخلص من طغيان الماضى . اننا نؤسس أملنا الأكبر على التأكيد بأن ما حدث يمكن أن يحدث ثانية ، وإذا كان من الممكن أن تكون العلاقة بين شخصين بناءة ومجزية ، فستكون الخطوة التالية هى امكانية أن يؤدى ذلك الى علاقتين أو ثلاثة أو مائة . أو أننا نقنع بأن العلاقات سوف تؤثر فى كل الجماعات الاجتماعية حتى الأمم . ان مشكلات العالم - وهى مشكلات فردية مسجلة يوميا كعناوين للعنف واليأس - ليست بالضرورة مشكلات فردية ، وإذا

استطاع الأفراد أن يتغيروا ، فان ميسار العالم يمكن أن يتغير - وهذا أمل يستحق التأييد .

وأود أن أشكر عددا من الناس لمساندتهم ومساهماتهم في الجهد المبذول في كتابة هذا الكتاب (١) . وأخيرا فانني أعبر عن تقديري لمرضى الذين أتاح لي تفكيرهم الخلاق والمتحرر - التوصل الى الكثير من مضمون هذا الكتاب . لقد كتبت بناء على طلبهم .

• • • • •

معهد تحليل المعاملات
ساكرامنتو - كاليفورنيا
يونيو ١٩٦٨

(١) أورد المؤلف هنا قائمة بأسماء أطباء وعلماء وأشخاص مع وظائفهم ونوعية الخدمات التي قدموها له ، وقد رأينا أن نحذفها لعدم جدواها بالنسبة للقارئ العادي وأيضا لما هو واضح فيها من طابع الخصوصية التي لا تهم سوى المؤلف ، وحتى لا يتضمن حجم هذه الخدمة بدون داع - (المترجم) -

الفصل الأول

فرويد وبنفيلد وبرن

(اننى اتناقض مع نفسى ، فانا كبير ، وانطوى على الكثير)
 والت هويتان

كان هناك انطباع واحد ثابت عن الطبيعة الانسانية على مدى التاريخ وهو أنها تشتمل على عناصر عديدة ، وجرى التعبير عنها غالبا كطبيعة مزدوجة ، وهو ما يلمسه المرء فى الأساطير ، والفلسفة ، والدين وكلها عبرت عنه فى شكل صراع بين الخير والشر ، الطبيعة الأدنى والطبيعة الأرقى . الانسان الداخلى والانسان الخارجى .

قال سومرسيت موم : « هناك أوقات : استعرض فيها العناصر **الخفية** لشخصيتى فى حيرة ، فأتبين أننى قد سويت من أشخاص عديدين ، وأن شخصى الحال الذى له اليد العليا سيتغلب حتما لشخص آخر ، ولكن أى الأشخاص هو الحقيقى ؟ جميعهم أو لا أحد منهم ؟ » .

يستطيع الانسان أن يطمح الى الخير ويحصله ، وهذا أمر واضح على مدى التاريخ كله ، مهما كان فهمه لذلك الخير . لقد رأى موسى النبى الخير فى أعلى درجاته ممثلا فى العدالة ، أما أفلاطون فقد تمثل له فى الحكمة ، أما السيد المسيح فقد ركزه فى المحبة . ولكنهم اتفقوا جميعا على أن الفضيلة ، مهما كان مفهومها ، ظلت مزعزة الكيان بنسبب شىء فى

الطبيعة الانسانية كان فى حرب مع شىء آخر ، ولكن - ما هما هذان الشيطان ؟

عندما ظهر سيجموند فرويد على المسرح فى أوائل القرن العشرين « أخضع هذا اللغز لفحص جديد » هو نظام البحث العلمى « وتمثلت مساهمة فرويد الأساسية فى نظريته القائلة بأن الفئات المتحاربة موجودة فى اللاشعور . وأعطيت مسميات تجريبية للمتحاربين ، واعتبرت الأنا EGO هو القوة المقيدة والمسيطره على الهو ID (الدوافع الغريزية) . وأن الأنا هو الحكم الذى يراقب « مراعاة المصلحة الشخصية من منطلق المنفعة العامة ، بطريقة مستنيرة » .

اننا ندين لفرويد كثيرا بسبب جهوده المضيئة الرائدة لاقامة الأساس النظرى الذى بنى اليوم فوقه . وعلى مدى السنين فان الدارسين والممارسين قد أفاضوا . ونظموا ، وأضافوا الى أفكاره ، الا أن « الأشخاص الذين فى الداخل » ظلوا مراوغين . ويبدو أن مئات المجلدات المكسوسة مع تعليقات مفكرى التحليل النفسى ، لم تقدم بعد أجوبة شافية للأشخاص الذين كتبت عنهم .

وقفت فى صالة العرض بعد عرض فيلم «من يخاف فرجينيا وولف» وأصغيت الى عدد من التعليقات التى ألقاها الأشخاص الذين شاهدوا الفيلم مثل « انتى مرهق ! » أو « لقد حضرتنا الى السينما للخلاص من البيت » أو « لماذا يعرضون مثل هذا الشئ ؟ » أو « لم أفهم الفيلم ، انتى أخمن أنك طبيب نفسى » . وأحسست بأن العديد من هؤلاء الناس قد تركوا السينما وهم يتعجبون لما كان يحدث ، وأنا متأكد أنه كانت هناك رسالة « ولكننى لا أستطيع أن أجده شيئا يخصهم أو ينفث عنهم فيما يتعلق بالأسلوب الذى ينفثون به « اللهو والألعاب » فى حياتهم » .

اننا متأثرون فى أداء أعمالنا ببعض التعبيرات مثل تعريف فرويد للتحليل النفسى بأنه « مفهوم ديناميكى يحصر الحياة العقلية فى حدود تفاعل قوى الدوافع والضوابط المتبادلة » . ومثل هذا التعريف وتفسيراته العديدة قد يكون مفيدا للمتخصصين ، ولكن كيف تكون مثل هذه التعبيرات مفيدة للناس المصابين ؟ لقد استخدم جورج ومرثا فى مسرحية ادوارد الـبى- ألفاظا محددة هى : أحمر ، قانى ، شجاع - وهى كلمات تتكون كل منها من أربعة حروف فقط ، تتسم بالايجاز ومؤدية للغرض « والسؤال هو :

هل نستطيع كأطباء أن نتحدث مع جورج ومرثا بنفس الإيجاز والوضوح
عن « لماذا يمشلان وكيف يتوجعان - بالطريقة التي أديا بها دوريهما ؟ » ■

هل يمكن لما نقوله أن يكون ليس فقط صادقا بل أيضا معاوناً ،
لأننا واضعون ■

■ اتكلم عربى لأن أنا موش فاهم بتقول ايه ؟ » (*)

هذه العبارة لا تعبر عن موقف من الأشخاص الذين يدعون أنهم
أخصائيون في مجالات علم النفس • ان ترديد أفكار التحليل النفسي
الغامضة باستخدام مصطلحات أكثر غموضاً - لن يصل الى الناس حيث
يعيشون • والنتيجة هي أن انطباعات عامة الناس يجرى التعبير عنها
باستخدام الحشو الكثير للشفقة • والأحاديث السطحية مع تعليقات موجزة
مثل : ■ حسنا ، ليست هذه هي الطريقة دائماً ؟ ■ بدون معرفة كيف يمكن
أن تكون الطريقة مختلفة •

وبمعنى آخر ، ان تخلف أساليب الكتابة المتخصصة عن طرق توصيل
المعلومات ، الذى يزيد في توسيع الهوة بين المتخصصين وغير المتخصصين ،
انما يعتبر واحداً من العوامل التى تسبب التباعد بينهما فى عصرنا الحالى -
ان القضاء يفهمه رواده • وفهم السلوك الانساني يدخل فى اختصاص علماء
النفس والأطباء النفسيين • وكذلك فإن التشريع يدخل فى اختصاص أعضاء
المجلس النيابى • وهذه أمور فرضتها طبيعة التقدم العلمى ، ولكن مشاكل
عدم الفهم وقصور الاتصال كثيرة جداً مما يحتم ابتكار الوسائل الكفيلة
بأن تجعل اللغة لا تتخلف عن مواكبة تطور البحث العلمى •

وقد أمكن التوصل الى حل لهذه المعضلة فى مجال الرياضيات عند
تطويرها الى « الرياضة الحديثة » التى تدرس الآن فى المدارس بطول البلاد
وعرضها • وليست الرياضة الحديثة شكلاً جديداً للحساب • بقدر ما هي
توصيل للأفكار الرياضية • وهى لا تجيب عن أسئلة « ماذا ؟ » فحسب •
ولكن أيضاً « لماذا ؟ » وعلى ذلك فإن الاثارة فى الرحلة الى القمر أو استخدام
الحاسب الآلى لن يظل أبى منهما محصوراً فى نطاق العلماء وانما سيوصل
الى الطالب بطريقة مفهومة •

ان علم الرياضيات ليس جديداً ، ولكن الجديد هو الطريقة التى
نتحدث بها عنه • وسنجد أننا متخلفون لو ظللنا نستخدم أنظمة الحساب

(*) فى النص الاصلى : « تحدث بالانجليزية لأننى لا أفهم ما تقول » - المترجم •

التي استخدمها البابليون أو شعب المايا أو المصريون، القدماء أو الرومان .
ان الرغبة في استخدام الرياضيات بأسلوب خلاق أوجدت أساليب جديدة
لتنظيم مفاهيم الاحصاء . ولا شك أن الرياضة الحديثة اليوم قد أتت هذا
النمو الخلاق بحيث أصبحنا نعرف ونقدر التفكير الخلاق الذي قدمته
الأنظمة الأقدم ولكننا لانزح عمل اليوم بتلك الأساليب التي أصبحت الآن
محدودة الفعالية .

وهذا هو موقفى فيما يختص بتحليل المعاملات . اننى أقدر الجهد
المخلص الذى بذله علماء التحليل النفسى النظريون فى الماضى . أما ما أود
أن أقدمه فى هذا الكتاب فهو أسلوب جديد لعرض الأفكار القديمة ،
وأسلوب واضح لعرض الأفكار الجديدة . ليس بالهجوم العدائى أو المعارض
لأنجاز الماضى . ولكن مجرد تأكيد للدليل الساطع الذى يشير الى أن
الأساليب القديمة لا تؤدي الغرض المطلوب منها بكفاءة .

حدث مرة أن كان فلاح عجوز يقود آلة صيد لتسوية الأرض
المحروثة على طريق زراعى ، فاقترب منه شاب جاد من أعضاء جماعة الخدمة
العامة بالجامعة ، كان يتنقل بين المزارع لبيع دليل جديد عن وقاية التربة
وأساليب الزراعة الجديدة . وبعد حديث مهذب سريع ، سأل الشاب
الفلاح عما اذا كان يريد شراء هذا الكتاب الجديد ، فأجابته الفلاح
العجوز قائلا :

« يا بنى ، اننى لا أزرع زراعا جيدا . يتناسب مع ما أعرفه حاليا عن
الزراعة » .

ان الغرض من كتابى هذا ليس فقط عرض معطيات جديدة بل أيضا
الاجابة عن سؤال : لماذا لا يطبق الناس ما لديهم من معارف نافعة على
حياتهم ؟ ربما يعرفون أن الأخصائيين لديهم الكثير مما يقال عن السلوك
البشرى ، ولكن هذه المعرفة لا يبدو أن لها أقل تأثير على تقاليدهم البالية ،
وزواجهم الهش ، أو صغارهم الغريبى الأطوار . قد يتجهون الى أبواب
رسائل القراء لطلب المساعدة ، أو يجدون أنفسهم فى شخصية أحد أبطال
الرسوم الهزلية (*) ولكن هل يوجد شيء يتصف بالعمق والبساطة
ويتناسب الى ديناميكية السلوك الذى سيساعدهم فى العثور على اجابات

(*) Peanuts - سلسلة رسوم هزلية تصور طفلا مريضا بقدرة نفسية ، وتعرض
لحياته مع أصدقائه ، وهى تصدر فى أمريكا وأوربا بصفة يومية ، ونعتبر مثالا على اقبال
الناس هنا على البحث عن الذات فى شخصيات هذه الرسوم الهزلية - المترجم .

جدية لمشاكل قديمة ؟ هل توجد أية معلومات متاحة ، حقيقية وقادرة على تقديم العون في آن واحد ؟

ان بحثنا عن الاجابات . كان حتى سنوات قليلة - محدودا نظرا لضعف ما كنا نعرفه عن كيف يختزن « المخ البشري » الذكريات ، وكيف أن استثارة هذه الذكريات المختزنة ستؤدي الى استبعاد الماضي بحاضرنا .

جراح المخ والمسبار :

يعتمد أى فرض على برهان ملموس لتحقيقه ، حتى وقت قريب كان هناك برهان ضئيل على وظيفة المخ فى عملية الادراك - وباختصار : كيف وأى من الاثنى عشر مليون خلية التى فى المخ - تختزن الذكريات ؟ وكما من الذكريات يمكن اختزانه ؟ وهل يمكن إختفائها الذكريات ؟ وهل الذكريات عمومية أم خصوصية ؟ ولماذا يسهل استرجاع بعض الذكريات دون غيرها ؟

ان الدكتور وايلدر بنفيلد Dr. Wilder Penfield - أحد المستكشفين المشهورين فى هذا المجال ، وهو أحد جراحى الأعصاب من جامعة ماكجيل فى مونتريال ، بدأ سنة ١٩٥١ فى التوصل الى برهان مثير لاثبات وتعديل المفاهيم النظرية التى تكونت كاجابات على هذه الأسئلة (١) (*) . ومن خلال جراحة المخ - أثناء علاج المرضى الذين يعانون من داء الصرع المركزى ، أشرف بنفيلد على سلسلة من التجارب مس خلالها قشرة مخ المريض بتيار كهربائى ضعيف مرسل من خلال مسبار مجلفن . وتراكمت ملاحظاته حول الاستجابات لهذه الاثارات على مدى عدة سنوات . وفى كل حالة كان المريض كامل الوعى تحت تأثير التخدير الموضعى أثناء استكشاف قشرة المخ ، وكان قادرا على الحديث مع بنفيلد . وقد استمع خلال هذه التجارب الى بعض الأشياء المدهشة .

(١) W. Penfield, "Memory Mechanisms". A.M.A. Archives of Neurology

(*) كافة التعليقات والمقطعات التى ستورد فيما بعد خلال هذا الفصل مأخوذة عن هذا المصدر - المترجم .

(لما كان الهدف من هذا الكتاب أن يكون مرشداً عملياً لتحليل المعاملات وليس بحثاً علمياً فنياً ، فأننى أود أن أوضح أن المادة التالية من بحث بنفيلد - وهى المادة الوحيدة فى هذا الكتاب ذات الصبغة الفنية - قد أدرجتها فى الفصل الأول لأننى أعتقد أنها ضرورية لإقامة الأساس العلمى لكل ما يلى . ويبدو من البراهين الماثلة أن كل شيء فى شعورنا الواعى مسجل بالتفصيل ومختزن فى المخ . ويمكن أن نسترجعه فى الوقت الحاضر . ان المادة التالية تتطلب أكثر من قراءة واحدة حتى يمكن تقدير اكتشافات بنفيلد حق قدرها) .

لقد وجد بنفيلد أن القطب الكهربائى المستخدم للأنارة يستطيع أن يستدعى ذكريات من الواضح أنها مستمدة من ذاكرة المريض . وقرر بنفيلد أن « الخبرة البدنية التى نتجت عن ذلك ، تتوقف عندما يستبعد القطب الكهربائى » ومن المحتمل أن تكرر نفسها عند استخدام القطب مرة أخرى . « وأعطى الأمثلة الآتية :

أولاً : حالة المريض سي.ب. الذى استثير عند النقطة ١٩ من التجعيد الأول من فص المخ الأيمن ، مما جعله يقول : « كان هناك بيانو وشخص يعزف عليه . كنت أستطيع أن أسمع الأغنية ، كما تعلم » . وعندما استثيرت النقطة مرة أخرى بدون انذار ، قال : « هذا انسان يتحدث الى انسان آخر » . وذكر اسما لم أستطع أن أفهمه . . . كان يبدو مثل حلم . واثرت النقطة للمرة الثالثة . وبدون انذار كذلك ، وحينذاك لاحظت شيئاً غريباً فقال : « آه ياربى - هناك شخص ما يغنيها » . وعندما أثرت النقطة للمرة الرابعة سمع نفس الأغنية ، وأوضح أنها كانت اللحن الرئيسى المتكرر فى برنامج اذاعى معين . وعندما أثرت النقطة ١٦ بينما كان القطب مثبتاً فى مكانه . قال : « هناك شيء يعيد احدى الذكريات » . أستطيع أن أرى شركة سفن أب لتعبئة الزجاجات . . . ومخبز هاريسون » . وحينذاك نبهناه الى أنه قد استثير ، ولكن القطب لم يكن مثبتاً فى مكانه ، فأجاب : « لا شيء » .

وفى حالة أخرى أثرت نقطة على السطح الأعلى لفص المخ الأيمن فى اخدود سلفيوس (*) للمريضة د . ف . وسمعت المريضة أغنية شعبية

(*) نسبة الى الدكتور فرانز دى لا بوسلفيوس Dr. Franz de la Boe Selvius الذى عاش فى الفترة من ١٦١٤ - ١٦٧٢ فى مدينة لين . وهو الذى ينسب اليه أيضاً ملح السليسلات الذى يساعد على الهضم فيمال Digestive salt of Selvius أى ملح سلفيوس الذى يساعد على الهضم - المترجم .

معينة تؤدي كما لو كانت تعزفها أوركسترا . وتكررت نفس الموسيقى مع تكرار الاستشارات . وعندما كان يوضع القطب في مكانه ، وكانت تدنبن باللحن والقرار والأبيات التي كانت تصاحب الموسيقى التي كانت تسميها على هذا النحو .

أما المريض ل . ج . فقد مر بتجربة شيء قال عنه أنه حدث له من قبل . وقد أدت آثاره في نقطة أخرى من المخ الى أن يرى رجلا وكلبا يسيران بطول طريق قريب من منزله في الريف .

وسمعت امرأة أخرى صوتا لم تفهمه عندما استثير التجعيد الأول للمخ بصفة ميدئية . وعندما أعيد تثبيت القطب على نفس النقطة تقريبا سمعت صوتا ينادى بوضوح : « جيمي ، جيمي » وكان جيمي هنا هو اسم الدلع للزوج الشاب الذي اقترن بها مؤخرا .

ومن النتائج الأخرى الهامة التي توصل اليها بنفيلد ، أن القطب الكهربائي استثار ذكرى واحدة وليس خليطا من الذكريات . وهناك نتيجة أخرى بين ما توصل اليه بنفيلد وهي أن الاستجابة للقطب كانت تلقائية :

تحت التأثير القهري للمسبار ، ظهرت خبرة معتادة في وعي المريض سواء أراد أن يركز انتباهه عليها أم لا ، فتسللت أغنية خلال عقله ، ربما كان قد استمع اليها في مناسبة معينة : وجد نفسه جزأ من موقف معين . تطور وتقدم مع تطور وتقدم الحدث الأصلي الذي كان له بمثابة فصل من مسرحية وهو الممثل والمتفرج في آن واحد .

وربما كان أكثر الاكتشافات أهمية هو أن المخ لم يسجل بالتفصيل الأحداث الماضية فقط ، بل أيضا الأحاسيس التي ارتبطت بتلك الأحداث . فالحدث والشعور الناتج عنه مرتبطان ارتباطا بحيث لا يمكن لأحدهما أن يستثار بدون الآخر . وقد قرر بنفيلد ما يلي :

يشعر المريض مرة أخرى بالانفصال الذي نتج عن الموقف . مع ادراكه لنفس التفسيرات ، سواء كانت صائبة أم خاطئة . تلك التي أعطاها هو نفسه للتجربة في المحل الأول . وعلى ذلك فليست الذكرى التي استثيرت هي صورة فوتوغرافية أو صوتية مطابقة للأحداث أو المناظر الماضية . انها صورة لا رآه المريض واستمع اليه وأحس به وفهمه .

ان الذكريات تستثار بالثيرات المتعلقة بالتجارب اليومية بنفس الطريقة التي استثيرت بها صناعيا باستخدام مسبار بنفيلد الكهربائي .

ويمكننا أن نضف الذكريات المستثارة في كل حالة ، وصفا أدق باعتبارها معايشة جديدة للتجربة أكثر منها استدعاء لها . فالشخص ينتقل مؤقتا الى الماضي استجابة للمثير « أنا هناك ! » وقد تستغرق هذه التجربة جزءا من الثانية فقط ، وربما تستغرق عدة أيام . وقد يظن المريض بعد التجربة الى أنه كان هناك . واليك ترتيب الأحداث أثناء استعادة الذكريات عفويا : ١ - المعايشة (شعور لا ارادى وتلقائى) ٢ - التذكر (تفكير واع تلقائى عن الحدث الماضى الذى جرت معايشته) . ونحن لانستطيع أن نتذكر الكثير مما يجرى حياؤه .

ويصور التقريران التاليان عن اثنين من المرضى الطريقة التى تستثير بها المثيرات الحاضرة أحاسيس الماضى . ذكرت مريضة فى سن الأربعين أنها كانت تسير فى الشارع صباح أحد الأيام ، ومرت بمحل للأدوات الموسيقية فسمعت أصواتا موسيقية أشاعت جوا من الاكتئاب . أحسست بنفسها واقعة فى قبضة حزن لم تستطع أن تفهمه ، وكانت شدته تكاد أن تكون « غير محتملة » وأحسست بأنه لا يمكن لأى شىء فى وعيها أن يفسر ذلك . وبعد أن وصفت لى هذا الاحساس سألتها اذا ما كان هناك شىء فى حياتها المبكرة ذكرت بها تلك الأغنية . فقالت : أنها لاتستطيع أن تقيم أى صلة بين الأغنية والحزن الذى أحسست به . وفيما بعد اتصلت تليفونيا خلال نفس الأسبوع لكى تخبرنى بأنها وهى تندنون بالأغنية مرارا وتكرارا فاجأها خاطر ذكرى « رأت خلالها أمها جالسة الى البيانو وسمعتها تؤدى هذه الأغنية » . وكانت الأم قد توفيت عندما كانت المريضة فى سن الخامسة ، وقد أصابها موت الأم فى ذلك الوقت باحباط شديد استمر لمدة طويلة من الزمن ، رغم ما بذلته العائلة لمساعدتها فى تحويل عواطفها نحو احدى حالاتها التى تكفلت برعايتها ولم يحدث أن تذكرت أنها سمعت هذه الأغنية من قبل أو أن أمها كانت تعزفها ، حتى اليوم الذى سارت فيه بجوار محل الأدوات الموسيقية . وقد سألتها عما اذا كانت استعادة هذه الذكرى المبكرة قد عافتها من الاحباط . فقالت أنها قد غيرت طبيعة أحاسيسها فقد كان هناك احساس بالاكتئاب يعاودها كلما استرجعت ذكرى موت أمها ، ولكنه لم يصل الى درجة اليأس الغامر الذى شعرت به فى البداية .

ويبدو أنها الآن تتذكر بكامل وعيها احساسا هو احياء لاحساس آخر بصفة مبدئية . ففي اللحظة التالية ، تذكرت كيف تحس بهذه الطريقة ، أما فى اللحظة الأولى فقد كان الاحساس هو بالتمام نفس الاحساس الذى انطبع عندما ماتت أمها ، وكان عمرها حينذاك خمس سنوات .

ان الاحاسيس الطيبه تسننار بنفس هذه الطريقة ولاشك اننا نعي جميعاً كيف أن رائحة ، أو صوتاً ، أو لحظة عابرة ، تستطيع أن تولد فرحاً لا يوصف ، ولكنها قد تمر في بعض الأحيان دون أن يلحظها أحد . وإذا لم نركز عقولنا عليها ، فلن نستطيع أن نتذكر أين صادفنا من قبل تلك الرائحة أو الصوت أو المنظر ، ولكن الاحساس حقيقي . وسرد علينا مريض آخر هذه الواقعة : كان يسير في شارع « ال » ستريت بجوار حديقة ساكرامينتوز كابيitol بارك . وعندما شم رائحة الجير والكبريت التي يحسبها الناس سماداً يستعمل لتسميد الأشجار ، أحس بطمأنينة عظيمة وانسراح . وكان من السهل عليه كشف الموقف الأصلي لأن الاحساس كان ساراً . لقد كان هذا هو نوع السماد الذي استخدم في الربيع المبكر في بستان التفاح الخاص بأبيه ، أما بالنسبة للمريض أثناء طفولته ، فقد كانت تتزامن هذه الرائحة مع مقدم الربيع ، واخضرار الأشجار ، وكافة المسرات التي يستمتع بها ولد صغير . ينطلق الى الخلاء بعد الشتاء الطويل ، وكما في حالة المريضة الأولى ، فإن التذكر الواعي بالاحساس كان مختلفاً قليلاً عن انبثاق الاحساس الأصلي الذي عايشه . انه لا يستطيع أن يستعيد ذلك الانتقال الى الماضي كما فعل في هذه اللحظة العابرة . انه يبدو الآن كما لو كان يعايش احساساً يدور حول احساسه أكثر من الاحساس نفسه .

ويصور ما يلي أحد استنتاجات بنفيلد الأخرى : تظل تسجيلات الذكريات سليمة حتى بعد أن يعجز صاحبها عن استعادتها :

تحتجز الذكري المستثارة في قشرة المخ ، تفاصيل التجربة الأصلية . وعلى ذلك فانه عندما يتم التعرف عليها في وعي المريض ، تبدو التجربة كما لو كانت في الحاضر . ربما لأنها تدفع نفسها الى الانتباه بطريقة لا تقاوم ولا يستطيع المريض أن يتعرف اليها كذكرى حية من الماضي الا عند انتهائها .

وهناك استنتاج آخر نستطيع التوصل اليه بناء على هذه المكتشفات الا وهو أن المخ يعمل كمسجل عالي الدقة . يسجل على شرائطه صورة طبق الأصل من كل تجربة ابتداء من وقت الولادة ، وربما أيضاً قبل الولادة . ان عملية اختزان المعلومات في المخ هي عملية كيميائية تتعلق باختزال وتسجيل المعلومات التي لا تكون مفهومة تماماً . وربما كان هذا التشبيه مفرطاً في بساطته ورغم هذا فقد أثبتت مضاهاة الذكرة بجهاز التسجيل فائدتها في عملية التذكر . والنقطة المهمة هي أنه مهما كان أداء التسجيل فان استعداده عالية الدقة (.

ويقول بنفيلد أنه عندما يواجه الشخص العادى انتباها واعيا
 لشيء ما ، فانه فى نفس الوقت يسجله فى كلا شطرى قشرة المخ .
 وهذه التسجيلات متتابعة ومتواصلة .

عندما يلامس القطب الكهربائى قشرة الذاكرة ، ربما يولد صورة -
 ولكن الصورة لا تكون ثابتة فى العادة - انها تتغير ، كما كانت تتغير عند
 رؤيتها فى الأصل ، وربما غير الشخص موضع التجربة اتجاه نظره .
 ان الصورة تتبع الأحداث كما شاهدها الشخص فى الأصل خلال الثوانى
 او الدقائق المتتالية . ان الأغنية الناتجة عن استشارة القشرة تتكشف
 ببطء ، من فقرة الى أخرى ، ومن النص الى القراء .

واستنتج بنفيلد أيضا أن الزمن يبدو أنه الخيط الذى يربط
 استمرار الذكريات المستثارة . أما النبوءة الأصلية فهو محفوظ فى المخ
 بالترتيب .

ويبدو أن خيط التتابع الزمنى فى المخ يربط عناصر الذكريات
 المستثارة معا . ويبدو أيضا أن تلك العناصر الحسية التى لم يكن الفرد
 ينتبه الا اليها هى فقط التى يتم تسجيلها ، وليست جميع المؤثرات
 الحسية التى تنهمر بلا انقطاع على الجهاز العصبى المركزى .

ان استشارة تتابع الذكريات المعقدة يجعلها تبدو مقنعة لدرجة أن
 كل ذكرى من الذكريات التى نستطيع استدعاها لها مسار عصبى
 منفصل .

واذا عرفنا أن قشرة المخ تقوم بتفسير الخبرة الحالية ، سهل علينا
 أن نفهم كيف أن الماضى يؤثر فى الحاضر ، أما الأوهام . . فقد تنتج عن
 استشارة قشرة المخ . . . أما الاحساس الناتج بالاضطراب فهو أحد
 الأحكام على الخبرة الحالية - انه حكم بأن الخبرة عادية . أو غريبة ،
 أو غير معقولة ، أو أن المسافات والأحجام متغيرة ، أو حتى أن الموقف
 الحالى مخيف .

هذه هى خدع الإدراك ، والاهتمام بها يقود الفرد الى الاعتقاد بأن
 تجربة جديدة قد تحفظ مباشرة بطريقة او بأخرى مع تسجيلات التجارب
 المشابهة السابقة ، وعلى ذلك يمكن الحكم بوجود الاختلافات أو التشابهات ،
 ولنضرب مثلا : بعد مرور فترة من الوقت قد يصبح من الصعب على الفرد
 أن يستعيد ذكرى مفصلة ودقيقة لما كان عليه صديق قديم فى سالف

الزمان ، غير أنه اذا قابل الصديق على غير ميعاد ، فمن الممكن أن يلاحظ
حالا - التغيير الذى أحدثه الزمن -

وهو يعرف كل ذلك جيدا - النجديدات الجديدة فى وجهه ،
التغيير فى الشعر ، تهدل الكتف -

ويتوصل بنفيلد الى :

ان اكتشاف الأنماط القشرية التى تحفظ تفاصيل الخبرة الحالية ،
كما لو كانت فى مكتبة متعددة المجلدات ، هو احدى الخطوات الأولى نحو
فسيولوجيا العقل - ان طبيعة النمط ، وآلية تكوينه ، وآلية استلامه
المتوالى ، والعمليات الاندماجية التى تشكل أساس الشعور - هذه كلها
ستترجم الى معادلات فسيولوجية يوما ما .

وعند نهاية العرض قال الدكتور لورنس س . كوبي. Dr. Laurence
S. Kubie من بلتي مور ، وهو أحد المحللين التفسيريين البارزين
فى الولايات المتحدة ، وكان بين الذين يناقشون ورقة بنفيلد - ما يلى :

اننى اشعر بجزيل الامتنان لهذه الفرصة التى اتيت لمناقشة ورقة
بنفيلد ... لأن هذه الورقة ذاتها قد استثارت مخيلتى ، والحقيقة انها
جعلتنى فى حالة انفعال خلال الأسابيع الأخيرة ، أراقب قطع اللغز
المهزق أثناء محاولة وضع كل قطعة فى مكانها على اللوحة حتى تظهر صورة
تلقى بعض الضوء على بعض من العمل الذى كنت أقوم به فى السنوات
الماضية - أستطيع ان أحس بشبح هارفى كاشنج وشبح سيجموند فرويد
وهما يتصافحان من فوق راس هذا الاجتماع الذى طال الى ساعة متأخرة -
بين التحليل النفسى وجراحة الأعصاب الحديثة من خلال العمل التجريبي
الذى عرفه الدكتور بنفيلد -

ويمكن أن نختمم بإيجاز فنقول :

١ - يعمل المخ مثل جهاز تسجيل على الدقة .

٢ - يتم أيضا تسجيل الأحاسيس التى ارتبطت بالخبرات الماضية ،
وترتبط بهذه الخبرات ارتباطا لا ينفصم -

٣ - يستطيع الأفراد أن يعيشوا فى حالتين فى وقت واحد - ان
المريض الذى يعرف أنه كان يتحدث مع بنفيلد على الطاولة ، يعرف أيضا
بنفس القدر أنه كان يرى « شركة سفن أب لتعبئة الزجاجات » ومخبز

هاريسون ■ كان مزدوج الوجود - فهو في وقت واحد ، داخل التجربة وخارجها يراقبها .

٤ - ان هذه الخبرات المسجلة والاحاسيس المرتبطة بها يمكن استعادتها اليوم بشكل شديد الشبه بما كان عند حدوثها . مع تقديم الكثير من المعلومات التي تحدد طبيعة المعاملات اليوم . ولا يمكن فقط استعادة هذه الخبرات بل أيضا احيائها . اننى لا أتذكر فقط كيف احسست ، بل اننى أيضا احس نفس الاحساس الآن .

وتكشف تجارب بنفيله أن عمل الذاكرة ، الذى كنا نتناوله من قبل بمفهوم الاصطلاحات النفسية ، له سمة بيولوجية أيضا ، اننا لانستطيع أن نجيب عن السؤال القديم المتعلق بكيفية اتصال العقل بالجسم ويتصل بذلك أن نعود الى التقدم السريع الذى أحرز فى مجال أبحاث الوراثة عن كيفية ترتيب توارث الصفات داخل جزيء حامض الرايبونوكليك (٢) ، وقد علق الدكتور هولجارهايدن Dr. Holgar Hyden السويدي قائلا :

« ان القدرة على استدعاء الماضى الى الشعور يمكن توقع وجودها فى أحد آليات الوجود البيولوجى العام الأولية ، ولما كان الارتباط الوثيق بآلية الوراثة مهما ، فائنا نجد فى هذا الخصوص أن جزيء حامض الرايبونوكليك مع امكانياته العديدة ، يمكن أن يوفى بالكثير من متطلبات هذه القدرة (٣) » .

أما الدليل الملحوظ الناتج عن هذه الدراسات البيولوجية فانه يساعد على تفسير الدليل الملحوظ فى السلوك الانسانى . كيف تطبق الاسلوب العلمى على السلوك بطريقة تتيح لاستنتاجاتنا أن تشكل كيانا سليما ومفيدا من المعارف - حسب استنتاجات بنفيله ■

(٢) مادة كيميائية معقدة توجد فى كافة الخلايا الحية ، ويظن أنها النمط الذى تتفق وفقه البروتينات والانزيمات فى الخلية ويطلق عليها الاختصار RNA ويعنى Ribonucleic Acid - المترجم .

H. Hyden, "The Biochemical Aspects of Brain Activity, in (٣) S.M. Farber and R. Wilson, eds., Control of the mind (New York : Grove Press, 1964), p. 29.

اتخاذ المعاملة كوحدة أساسية للبحث

يتمثل أحد أسباب وصم علوم العلاج النفسي بمجافاتها لروح العلم والكثير من الخلاف الظاهر في هذا المجال ، في افتقار هذه العلوم الى وحدة أساسية يمكن دراستها واخصاعها للملاحظة . انها نفس الصعوبة التي واجهت علماء الطبيعيات قبل فكرة الجزيء ، والأطباء قبل اكتشاف البكتريا .

ان أريك برن منشئ تحليل المعاملات ، قد فصل وعرف هذه الوحدة العلمية الأساسية :

ان وحدة العلاقات الاجتماعية تسمى « معاملة » . اذا التقى شخصان أو أكثر . فان أحدهما سيتكلم ان عاجلا أو آجلا . أو يبدى اشارة على تسليمه أو اعترافه بوجود الآخرين . وهذه تسمى « حافز المعاملة » "Transactional Stimulus"

وحيث سيقول الشخص الآخر أو يفعل شيئا يرتبط بالحافز بطريقة ما ، وهذا هو « يسمى : « جواب المعاملة » "Transactional response" « (٤) »

ان تحليل المعاملات هو أسلوب فحص هذه المعاملة حيث « أقوم بعمل شيء لك وأنت ترد بشيء مقابل » . وتحديد أى جزء من الشخص ذى الطبيعة المتعددة قد جرى تنشيطه . وفي الفصل التالى وعنوانه : « الوالد ، والراشد ، والطفل » سيجرى تحديد ووصف العناصر الثلاثة لهذه الطبيعة المختلطة .

ان تحليل المعاملات هو أيضا أسلوب لتنظيم المعلومات المستمدة من تحليل هذه المعاملات في كلمات لها نفس المعنى بالتحديد عند كل من يستخدمها .

ويعتبر استخدام هذه اللغة واحدا من التطورات العظيمة الأهمية . ان الاتفاق حول معاني الكلمات بالإضافة الى الاتفاق حول ما يجرى اختبارها ، هما المفتاحان للذهاب الى « الأسرار المتعلقة بالسؤال : لماذا يفعل الناس ما يفعلون ؟ » وهذا الانجاز ليس بالقليل .

E. Berne, Games people play (New York : Grove Press, (٤)
1964), p. 29.

وفي فبراير سنة ١٩٦٠ حظيت بفرصة الاستماع الى أمر خلاّب .
انه حديث يوم كامل ألقاه الدكتور تيموثي ليري Dr. Timothy Leary
الذي كان قد انضم لتوه الى شعبة العلاقات الاجتماعية بجامعة هارفارد .
لقد تحدث الى هيئة التدريس بمستشفى دى ويت الحكومى فى أوبورن
بكاليفورنيا ، حيث كنت أعمل مديرا للتعليم المهني . وبالرغم من
الاستجابات المثيرة للجدل التي يثيرها الآن حول اصراره على استخدام
العقاقير سعيًا وراء التجربة المنبهة Psychedelic ، الا أنني أود
أن أستخدم هنا بعض تعليقاته . لقدرتها على التعبير عن المشكلة بطريقة
مثيرة . وربما نستطيع تفسير ما أطلق عليه اسم « المسار المتعرج لانقشاع
الوهم الناتج » . لقد ذكر أن أحد احباطاته العظيمة كعلاج نفسى ، هو
عجز العلماء عن اكتشاف طريقة لوضع نموذج قياسي للغة والملاحظات
المتعلقة بالسلوك الانساني (٥) (*) .

أود أن أتقاسم معكم بعضا من التخلية التاريخية لما عاينى كعالم
نفسى : عندما انظر الى الماضى أستطيع أن اتبين ثلاثة مراحل من الجهل
والافتقار للمعرفة . مرت بها . أولاها وهي أكثرها بهجة ، يمكن أن
تسميها : مرحلة الجهل البرئ - عندما كنت تحت سيطرة المفهوم القائل
بأن هناك بعض الأسرار الخاصة بالطبيعة الانسانية وأن ثمة قوانين وقواعد
وبعض علاقات العلة والمعلول ، وأننى يوما ما قد أتقاسم هذه الأسرار
لاكون قادرا على تطبيق ما لدى من معرفة على قواعد السلوك البشرى هذه
لمساعدة الآخرين ، من خلال دراستى ، وخبرائى ، وقراءائى .

أما فى المرحلة الثانية التي يمكن أن تسمى : مرحلة « الوهم بالعلم »
فقد اكتشفت اكتشافا مقلقا وهو أنني من جهة أجهل حقيقة السر ورغم
ذلك تبيئت أن الناس من جهة أخرى كانوا ينظرون الى كما لو كانوا
يظنون أنى أعرف السر أو أنني أكثرهم اقترابا منه . . . ولم يتمخض أى
من الأبحاث التي قمت بها أو أى من نشاطاتي عن أسرار تكتشف ، ولكننى
مرة أخرى كنت قادرا على أن أقول : « حسنا ، ليست لدينا حالات بما فيه
الكفاية » ، أو « علينا أن نطور من مناهج البحث » . وكانت توجد دائما
أحكام أظن أنكم معتادون عليها . يستطيع الانسان أن يرجع لحظة
الاكتشاف المؤلم . ولكن فى النهاية تظهر الحقيقة غير السعيدة وهي أنه
بالرغم من أن أشخاصا عديدين قد ينظرون وينصتون اليك ، ومنهم مرضاك

وتلاميذك ، الا أنه بينما أنت ذاهب الى لقاءات التدريب العمل تجد أن الجميع ينظرون اليك بحثا عن السر - وربما تبدأ التفكير . وربما لاتعرف عما تتحدث .

وبعد هذا الاعتراف النادر والظاهر للشكوك ، الذى لايجرؤ الا القليل من المعالجين النفسين على ذكره ، استمر ليرى فى وصف الأنواع المختلفة من الأبحاث الخاصة بالاختبارات والتبويضات والمناهج التى شغلته هو والعاملين معه . ولكنه خلال هذا المسعى واجه مشاكل عدم وجود لغة مشتركة ووحدة عامة للملاحظة :

أى الأحداث الطبيعية سنصادفها بشكل دائم بحيث نستطيع احصاءها ؟ لقد فضلت أن أقوم بتجربة حول امكانية تطوير لغات قياسية لتحليل أية معاملات طبيعية عن دراسة السلوك الطبيعى الحر . ووجدت أن من بين كافة المفاهيم الشعرية ، والجمل الموسيقية ، والأوتار العاطفية، التى نستخدمها تعد كلمات مثل « النمو » و « المساعدة » و « التطوير » أكثرها اغراقا فى الخيال وبعدا عن الواقع .

إننا نعمل فى نطاق القليل من المعلومات المتوفرة عن أنفسنا وعن الآخرين . وليست لدى أية فكرة عن المتغيرات الجديدة فى علم النفس ، أو عن الكلمات أو اللغة الجديدة لعلم النفس . انتهى ببساطة أحاول أن أطور أساليب جديدة تجعل البشر يفهمون ماذا يفعلون ، والضوضاء التى يحدثونها . أن أكثر الأمور إثارة لى فى العالم حتى الآن . هو التوصل الى التناقضات بين الناس الداخلين فى المعاملة الواحدة . لأنك بمجرد أن تتوصل الى ذلك ستواجه سؤالاً هو « كيف تنشأ ؟ »

لقد استهجن غياب لغة قياسية فى السلوك الاجتماعى على شاكلة لغة السماسرة . أو بائعى السيارات . أو لاعبى البيسبول :

وحتى بائعو السيارات لهم كتبهم الزرقاء الصغيرة ، وقد وصلوا الى مستويات فى علم السلوك أفضل منا نحن الذين ندعى بالاختصاصيين . وفى الرياضة . كل لاعب بيسبول ، سلوكه الطبيعى مسجل فى شكل قوائم قياسية مثل الجرى العشوائى . أو متوسط سرعته فى الجرى . وذلك للفهم وعمل التنبؤات عن البيسبول . وإذا قررت بوصفك ناديا أن تبيع لاعب البيسبول الأول لكى تحصل على رام يستخدم اليد اليمنى . فستجد كما من القوائم والفهارس السلوكية . أنهم لا يستخدمون لغة شاعرية مثل « انه يجرى خلف الكرة الطاقرة كالغزال » أو « انه عداء لا يشق له غبار » . أنهم يميلون الى استخدام السلوك .

كنت أجري وراء أسطورة في محاولة لاكتشاف السر • أردت أن
أنمو وأصبح طبيبا ماهرا وقادرا على تشخيص الأمراض • ولكن كافة آمالي
هذه بنيت على افتراض وجود قوانين وترتيبات وأسرار وأساليب يمكن
تطبيقها ، وأن الدراسة والبحث يمكن أن يكشفنا لنا عن هذه الأسرار •

ونقول أن تحليل المعاملات قد عثر على بعض من هذه القواعد والنظم،
لقد وجدنا لغة جديدة لعلم النفس • تلك التي أحس « ليري » بالحاجة
إليها ، وبذلك أصبحنا أقرب من سر السلوك الانساني بقدر كبير •
لقد قدمت في هذا الفصل بعض المعلومات الأساسية التي تثبت فائدتها
لعدد كبير من الناس الذين عولجوا • بين مجموعاتي ، باستخدام تحليل
المعاملات كأداة فكرية لفهم أساس السلوك والأحاسيس • أداة تعمل
غالباً بصورة أحسن • ولها معنى أوسع إذا كانت لدينا فكرة عن كيفية
تطورها ، وكيفية اختلافها • هل اشتقت من معطيات أصيلة أم هي فكرة
أخرى طارئة • هل كان كتاب برن : ألعاب يلعبها الناس Games People
play أحسن الكتب مبيعاً بسبب بدعة ، أم أنه يقدم للناس بعض
الأفكار السهلة الفهم والأصيلة عن أنفسهم ، وهم يكشفون عن ماضيهم في
الألعاب التي يلعبونها حالياً •

سنبدأ في الفصل التالي وصف هذه الأداة ، باستخدام مصطلحات :
الوالد ، والراشد ، والطفل • لأن هذه الكلمات الثلاثة لها معان خاصة
وشاملة تختلف عن معانيها العادية حيث أننا نستعملها في هذا الكتاب
كاصطلاحات ولذلك سينجد كلجات : الوالد والراشد والطفل - ستهرب
خلال الكتاب • وكما سنكتشف في الفصل التالي فإن كلمة « الوالد »
لا تعني الأب أو الأم ، كما أن كلمة « الراشد » تعني شيئاً مختلفاً تماماً
عن معنى الشخص الكامل النمو ، وأن كلمة « الطفل » ليست بمعنى
الحدث الصغير السن •

الفصل الثاني

الوالد - الراشد - الطفل

(ان الولع بالحقيقة ، تخمد الأجوبة التى لها وزن السلطة المسلم بها - بول تيليتش)

لاحظ برن مبكرا فى أثناء تقدم عمله فى كتابه عن تحليل المعاملات ، أنه بينما أنت تنظر وتصغى الى الناس ، تستطيع أن تراهم وهم يتغيرون أمام عينيك . انه نوع كامل من التغيير . وفى نفس الوقت تحدث تغييرات فى تعبيرات الوجه ، والمفردات اللغوية ، والاياءات ، ووضع الجسم ، ووظائف البدنية التى قد تجعل الوجه يميل الى الاحمرار ، والقلب يدق ، أو يتلاحق التنفس سريعا .

ونستطيع أن نلاحظ هذه التغييرات المفاجئة لدى كل شخص : الولد الصغير الذى يندفع فى البكاء عندما لا يستطيع أن يجعل اللعبة تعمل ، الفتاة المراهقة التى يفيض وجهها المكتئب بالسعادة الفامرة عندما يدق التليفون أخيرا ، والرجل الذى يمتقع وجهه ويرتعش عندما يتلقى أنباء الفشل فى صفقة تجارية ، والإب الذى يتحجر وجهه عندما يختلف معه ابنه . ان الفرد الذى يتغير بهذه الأساليب هو نفس الفرد من ناحية تركيب الهيكل العظمى والجلد والملابس . اذن فما الذى يتغير فى داخله ؟ انه يتغير من ماذا الى ماذا ؟

كان هذا هو السؤال الذى خلب لب برن فى الخطوات الأولى لتحليل المعاملات . اعترف لله محام فى الثانية والثلاثين من عمره كان يعالجه فقال : « اننى لست محاميا فى حقيقة الأمر ، انما أنا مجرد ولد صغير . » والحقيقة أنه كان خارج غرفة الطبيب النفسى محاميا ناجحا . ولكنه أثناء العلاج شعر وتصرف كولد صغير . وكان يسأل أحيانا : « هل تخاطب المحامي أم الولد الصغير ؟ » واحتار برن ومريضه لوجود هذين الشخصين الحقيقيين ، أو هاتين الحالتين للوجود . وبدأ يتحدث عنهما بصفتها « الراشد » و « الطفل » . انها حالة « الوالد » وتحدثت بالسلوك الذى جاء نتيجة لما رآه المريض واستمع الى أبويه يعملانه عندما كان ولدا صغيرا . ان التغييرات من حالة الى أخرى تظهر فى الأسلوب والشكل والكلمات والاياءات : جاءتني امرأة فى الرابعة والثلاثين من عمرها للمساعدة فى حل مشكلة الأرق . والقلق المستمر حول تصرفاتها مع صغارها وانفعالها المتزايد ، وخلال الساعة الأولى للعلاج بدأت تبكى فجأة ثم قالت : « انك تجعلنى أحس كما لو كان عمري ثلاث سنوات . » وكانت فى صوتها وأدائها شبيهة بصغير . فسألتها : « ماذا حدث حتى أنك تشعرين بأحاسيس الطفل ؟ » فقالت : « لا أدري » ثم أضافت : « لقد شعرت فجأة بما يشبه الفشل . » فقلت : « حسنا » دعينا نتحدث عن الصغار وعن الأسرة . ربما نستطيع اكتشاف شيء داخلك تنتج عنه هذه الأحاسيس المتعلقة بالفشل واليأس . » وعند نقطة أخرى تغير صوتها وأسلوبها فجأة للمرة الثانية ، أصبحت انتقادية ومتعسفة « بعد كل شيء فان للأبوين أيضا حقوقا ، وعلى الأبناء أن يلزموا الأدب معهما . » وهكذا نرى أنه فى خلال ساعة واحدة تغيرت هذه الأم الى ثلاث شخصيات مختلفة ومميزة : شخصية طفل صغير محفم بالأحاسيس ، وشخصية الوالد البار فى عيني نفسه ، وشخصية امرأة كاملة النضج تلجأ للاستدلال وتستخدم المنطق وأم لثلاثة صغار .

وأيدت الملاحظة المستمرة وجود هذه الحالات الثلاث فى جميع الناس ، وهذا رأى يزعم أن فى كل فرد نفس الشخص الصغير الذى كان عليه فى سن الثالثة ، وكذلك أبواه . وما هؤلاء الا تسجيلات فى المخ للخبرات الطبيعية للأحداث الداخلية والخارجية . وقد حدث أكثرها أهمية خلال السنوات الخمس الأولى من العمر . وهناك حالة ثالثة تختلف عن هاتين الحالتين . ان الحالتين الأولى والثانية تسميان بحالتى « الوالد » و « الطفل » أما الثالثة فهى حالة « الراشد » (أنظر شكل ١) .

وحالات الوجود هذه ليست أدوارا ولكنها حقائق نفسية . يقول برن أن « الوالد » و « الراشد » و « الطفل » ليست مفاهيم مثل الأنا الأعلى

والأنا والهو ... ولكنها حقائق تعبر عن ظواهر (١) • وهذه الحالة تنتج عن الأحداث الماضية المتعلقة بأشخاص حقيقيين • وأزمة حقيقية • وأماكن حقيقية • وقرارات حقيقية • ومشاعر حقيقية •



شكل ١ : الشخصية

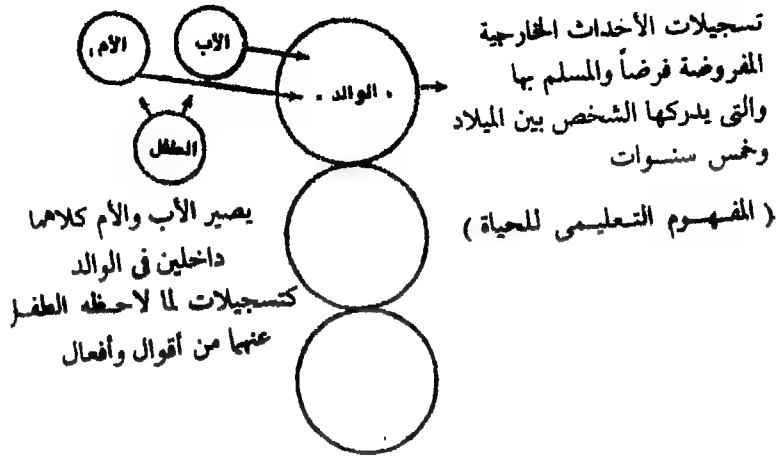
الوالد :

« الوالد » هو مجموعة كبيرة من التسجيلات التي في المنح للأحداث الخارجية التي تناقش ، أو فرضت فرضا ، وقد وعها الشخص في سنواته المبكرة ، وهي مرحلة حددناها بالسنوات الخمس الأولى من العمر • وهذه هي الفترة السابقة على الولادة الاجتماعية للفرد ، قبل أن يترك البيت ، تلبية لطلبات المجتمع فيدخل المدرسة (أنظر شكل ٢) •

والاسم « والد » أكثر دلالة على هذه المعلومات • حيث أن أكثر التسجيلات أهمية هي تلك الواردة في المثال ، وأوامر والديه الحقيقيين ، أو البديلين •

ان كل ما رأى الصغير أبويه يعملانه ، وكل ما سمعهما يقولانه ، يسجل في « الوالد » • وكل فرد لديه « الوالد » بمعنى أن كل فرد قد اختبر الحافز الخارجي في السنوات الخمس الأولى من العمر • « الوالد » يخص كل شخص ، لأنه عبارة عن تسجيلات هذه المجموعة المبكرة من التجارب المرتبطة به •

E. Berne, Transactional Analysis in Psychotherapy (New York : Grove Press, 1961), p. 11



شكل رقم ٢ : الوالد

أما المعلومات الموجودة في « الوالد » فقد سجلت (مباشرة) بدون تصنيف . ان توقف الصغير ، وتبعيته ، وعدم قدرته على بناء المعاني باستخدام الكلمات ، جعلت من الصعب عليه أن يعدل أو يصحح أو يفسر . ولذلك لو كان الوالدان عدوانيين ويتشاجران باستمرار فإن الحركة تسجل مع الغزع الذي ينتج لدى رؤية الشخصين اللذين يعتمد عليهما الصغير في حياته ، وقد أوشك أن يدمر أحدهما الآخر . ولا توجد طريقة لتضمين هذا التسجيل حقيقة أن الأب كان ثملاً لأنه فقد عمله ، أو أن الأم كانت متوترة الأعصاب لأنها اكتشفت لتوها أنها حامل مرة أخرى .

وتحفظ في « الوالد » كافة تسجيلات التأييد والقواعد والقوانين التي استمع اليها الصغير من والديه أو رآها في حياتهما . وترتب هذه التسجيلات على مدى الطريق ابتداء من الاتصالات الأبوية المبكرة مفسرة بلا كلمات ولكن من خلال نبرات الصوت وتعبيرات الوجه والاحتضان أو الإبعاد . حتى أوسع القواعد والتعليمات اللفظية المنطوقة التي أصدرها الوالدان عندما أصبح الشخص الصغير قادراً على فهم الكلمات . وفي هذه المجموعة من التسجيلات يوجد الآلاف من كلمة « لا » الموجهة الى الطفل الذي يخبو ، وكلمة « لا تفعل » التي تتساقط عليه كالقنابل ، ونظرات الألم والغزع في وجه الأم عندما أخرجتها تصرفاته الطائشة التي اتخذت مجالا لها الفازة الأثرية المكسورة للعبة اثيل .

وكذلك تسجل انعطافات فزخة الأم السعيدة ونظرات البهجة للاب المحظوظ . وعندما نعرف أن التسجيل يعمل طول الوقت ، فاننا نبدأ في فهم ضخامة كمية المعلومات المحفوظة في « الوالد » . وفيما بعد يأتي أشد النصائح والتعاليم تعقيدا : « تذكر يا ابني حينما ذهبت في العالم أنك ستجد دائما أن أحسن الناس هم أتباع الكنيسة الميثودية ، لا تكذب ؛ ادفع فواتيرك ؛ وأن المراء مرآة ضديقه ، وستكون ولدا طيبا حينما تغسل الطبق الذي أكلت فيه ، والضياح هو التخطيط الأصلية ، ولا تستطيع أن تثق دائما في رجل أو في امرأة . ستكون ملعونا لو فعلت وملعونا لو لم تفعل . ولا تستطيع أن تثق دائما في شرطي ، واليدان العاملتان يدان سعيدتان ، لا تسر تحت السلالم ، افعل للآخرين ما تود أن يفعلوه لك . ولا تدفع الآخرين الى ما لا تتوقع منهم أن يدفعوك اليه . والنقطة المهمة هي أنه بصرف النظر عن سلامة هذه القواعد أو فسادها في ضوء الأخلاقيات المنطقية . فانها مسجلة كحقائق عن مصدر ثقة ممثل في هؤلاء الذين كان طول الواحد منهم يفوق طول الصغير ثلاث مرات . حينما كان هذا الصغير يهنم بارضائهم وطاعتهم . انه تسجيل دائم ولا يستطيع الانسان أن يمحوه ، وهو صالح للاستماع اليه خلال الحياة بطولها .

واعادة استماع هذه التسجيلات لها تأثير قوى خلال الحياة كلها . وهذه النماذج - وان كانت تملى على الانسان مواقفه وتغريه بها الا أنها في أكثر الأحوال تضع له حدودا وتقيد سلوكه - وهي تعمل في الداخل كنظام ضخم من المعلومات الضرورية لحياة الفرد وسط الجماعة . ابتداء من الأسرة ، وامتدادا مع مسار الحياة ، في سلسلة من الجماعات الضرورية للحياة . وبدون والد طبيعي فان الصغير قد يموت . ويحفظ « الوالد » الداخلى أيضا حياته ويحميها ضد عدد من الأخطار التي أدرك بالتجربة أنها من الممكن أن تسبب الموت . ويوجد في « الوالد » أيضا تسجيل « لا تلمس هذه السكين ! » انه أمر مدو وانذار للشخص الصغير الذي يخال أن أمه ستضربه أو ستنتهره ، أما التهديد الأعظم فهو امكانية جرح نفسه والنزف حتى الموت . انه لا يفهم ذلك لأنه ليس لديه المعلومات الكافية . اذن فان تسجيل « الوالد » يأمر وهو معين ضرورى لاستمرار حياته طبيعيا واجتماعيا .

وهناك خاصية أخرى « للوالد » هي دقة التسجيلات الغير منسجمة ، فيقول الابوان شيئا بينما يعملان شيئا آخر يقول الوالدان : لا تكذب - ولكنهما يكذبان . يقولان للصغار أن التدخين يضر بصحتهم ولكنهما يدخنان . انهما يدعوان الى مراعاة تطبيق مبدأ ديني ولكنهما لا يطبقانه في

حياتهما . انه من غير الممكن للصغير أن يسأل عن عدم الانسجام هذا ولذلك فهو مرتبك لان هذه المعلومات تسبب الارتباك والخوف = انه يحصى نفسه بوقف الاستماع للتسجيل . ونحن نعى « بالوالد » أساسا في تسجيلات المعاملات بين الصغير وأبويه . وقد يكون من بين العوامل المساعدة اعتبار تسجيلات « الوالد » شبيهة الى حد ما بتسجيلات الصوت المجسم ، حيث يوجد مساران للتسجيل ، اذا حدث بينهما الانسجام فانهما ينتجان لحنا جميلا اذا جرى عزفهما معا . واذا ضاع الانسجام فان اللحن يكون نشازا فيستبعد التسجيل ولا يتكرر سماعه الا نادرا . وهذا هو ما يحدث عندما يتضمن « الوالد » مادة مسجلة متنافرة ، فان الوالد « يوقف » أو يحظر الاستماع اليه . وقد تكون الأم « طيبة » بينما الأب « سيئ » أو العكس ؛ وهنا يتوفر قدر كبير من المعلومات المفيدة التي تختزن نتيجة لارسال الماديم الطيبة من أحد الوالدين ولكن طالما كان « الوالد » يتضمن مادة من « الوالد » الآخر (الأب أو الأم) متعارضة ومؤدية للقلق ، فان « الوالد » ككل يأخذ في الضعف أو الانكسار . ان معلومات « الوالد » غير المنسجمة لايتاح لها أحداث أى تأثير ايجابي في حياة الفرد .

وهناك طريقة أخرى لوصف هذه الظاهرة وهي مقارنتها بالمعادلة الجبرية « ضرب الناقص بالزائد يعطي نتيجة بالناقص - بصرف النظر عن العدد المضروب ناقصا كان أم زائدا فالنتيجة دائما بالناقص . . . ينتج « والد » ضعيف أو « والد » غير متكامل . وقد يصبح التأثير في الحياة المستقبلية متناقضا وغير منسجم ويقود الى اليأس - بالنسبة للشخص الذي هو غير حرفي فحص « الوالد » .

ويظهر الكثير من معلومات « الوالد » في الحياة الحاضرة تحت بند « كيف - أن » : كيف تدق مسامرا ، وكيف تجهز سريرا ، وكيف تتناول الشوربة ، وكيف تمخض أنفك ، وكيف تشكر المضيقة ، وكيف تسلم بالأيدى ، وكيف تتظاهر بعدم وجود أحد في البيت ، وكيف تنشر فوط الحمام ، أو كيف تزين شجرة عيد الميلاد . ان بند « كيف - أن » يشكل كمية ضخمة من المعلومات التي تكتسب بملاحظة الوالدين - وهي معلومات واسعة الفائدة تجعل من الميسور بالنسبة للشخص الصغير أن يتعلم كيف ينمو بنفسه . وفيما بعد عندما يصبح « الراشد » أكثر مهارة وقادرا على فحص معلومات « الوالد » قد تصير هذه الأساليب المبكرة لعمل الأشياء غير هابرية المفعول وتحل محلها أساليب أفضل تكون أكثر مناسبة للحقيقة التي تغيرت . ان الشخص الذي كانت تعليماته الأولى مصحوبة بالشدة

فد يجد من الصعب فحص الأساليب الأولى وقد يتعلق بها فترة تتجاوز صلاحيتها لأنه مرغى على أداء « هذه الطريقة وليس غيرها » .

أعادت أم احدى المراهقات قرار « الوالد » الذى حكم اجراءات رعايتها للمبيت الى ما قالت له أمها « لا تضعى قبعة على منضدة أو بالطو على سرير » وعلى ذلك فقد سارت فى حياتها على مبدأ عدم وضع قبعة على منضدة ولا بالطو على سرير . وإذا نسيت أحيانا أو حاول أحد صغارها كسر هذه القاعدة القديمة ، كان هناك رد فعل غير مناسب لموقف كسر أبسط قواعد النظافة ، وأخيرا وبعد العديد من عشرات السنين التى عاشتها مع هذه القاعدة غير المفحوصة ، فان الأم سألت الجدة (وكانت حينذاك فى الثمانين من عمرها) « لماذا يا أمى لم تضعى قبعة على منضدة ولا بالطو على سرير » . وأجابت الجدة أنها عندما كانت صغيرة كان هناك بعض صغار الجيران الذين كانوا « يملأون البيت » وقد حذرتها أمها من عدم وضع قبعات أولاد الجيران على المنضدة أو بلاطيمهم على السرير . انه كلام معقول جدا . وعرفت الطرف الطارئ الذى دعا الى هذا التحذير « وبأسعمال الاصطلاحات التى تتعلق باكتشافات بنفيلد ، عرفنا أيضا لماذا انسجم التسجيل مع الطارئ الأصيل » ان القواعد التى نراعيها فى حياتنا تكاد تشبه هذه القاعدة .

وهناك بعض التأثيرات الأكثر دقة . وجدت احدى ربات البيوت الحديثة أنها ببساطة لم يكن لديها اهتمام بشراء وحدة التخلص من القمامة بالرغم من كافة وسائل الراحة الحديثة فى منزلها . وقد شجعها زوجها للحصول على واحدة « مشيرا الى كافة الأسباب التى تبين أنها سوف تسهل أعمال المطبخ . وكانت تعرف ذلك ولكنها كانت تلتمس العذر تلو الآخر لتأجيل الذهاب الى محل البيع لاختيار واحدة . وأخيرا صارحها زوجها باعتقاده أنها كانت تقصد عدم شراء الوحدة « وأصر على أن تذكر له السبب . كان هناك انطباع جعلها تحس انفعالا مبكرا نحو القمامة فقد كانت سنوات عمرها الأولى هى سنوات الكساد الاقتصادى فى الثلاثينيات . وكانت تحفظ القمامة فى منزلها بعناية لكى تقدم غذاء للخنازير التى كانت تذبج فى عيد الميلاد وتقدم كمصدر مهم للغذاء . حتى الأطباق كانت تغسل بدون صابون حتى يمكن استخدام ماء الغسيل بما فيه من الدسم القليل فى غسالة المطبخ . وأدركت كصغيرة أن القمامة مهمة . وعندما أصبحت سيدة كاملة النضج وجدت أنه من الصعب الاندفاع لشراء آلة للتخلص منها .

« واشترت وحدة التخلص من القمامة وعاشت بعد ذلك فى سعادة) »

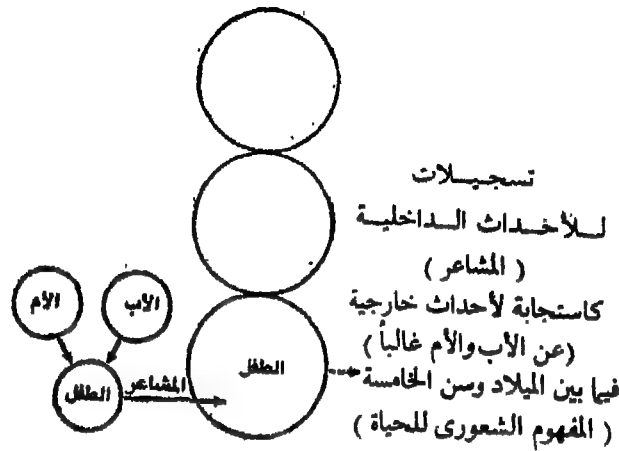
عندما نعرف أن الآلاف من هذه القواعد البسيطة للحياة مسجلة في
مع كل شخص ، نبدأ في تقدير كم هو مخزون المعلومات الشاملة التي
يتضمنها « الوالد » . وتستند الكثير من القرارات الى مثل هذه الأوامر
الإضافية مثل « أبدا » ، و « دائما » و « لا تنس ذلك » وبذلك يصبح
لدينا مسارات عصبية أولية مؤكدة . تمدنا بالمعلومات الجاهزة لمعاملات
اليوم . وهذه المبادئ هي أصول الاكراه والمزاوغة والشذوذ التي تبدو في
السلوك فيما بعد . وسواء كانت معلومات « الوالد » نقمة أو نعمة ، فانها
تعتمد على مدى ملاءمتها للحاضر . وعلى ما اذا كان قد تم تجاوزها في
« الراشد » الذي سنناقش وظيفته في هذا الفصل .

وهناك مصادر لمعلومات « الوالد » بخلاف الأبوين الطبيعيين . ان
الصغير ذا الثلاثة أعوام من العمر والذي يجلس أمام التلفزيون لعدة
ساعات يوميا انما يسجل ما يراه . وتشكل البرامج التي يراها مبدأ
تعليميا للحياة . فاذا كان يشاهد برامج عنف فانه على ما اعتقد يسجل
العنف في « الوالد » . انها الحياة كما يراها . وهذه نتيجة مؤكدة اذا لم
يعبر الأبوان عن المعارضة باغلاق القناة التلفزيونية . واذا استمتع
الأبوان ببرامج العنف فان صغارهم يتحصلون على موافقة مزدوجة على هذا
السلوك من جهة الأبوين ، فينال الصغير تصريحا بممارسة العنف اذا
تطلب الأمر . ان الصغير يجمع أسبابه لتفجير المكان تماما مثلما يشاهد
أحداث العنف في الأفلام التي يمكن تقليدها بسهولة في حياة الصغير .
ان الكثير مما يمكن ممارسته بين أيدي الأقارب الكبار أو أصحاب السلطة
يتم تسجيله في « الوالد » وكذلك أي موقف خارجي يحس فيه الشخص
الصغير بعدم استقلاله ، الى حد أن عدم حريته في السؤال أو الاستكشاف
يختزن في « الوالد » .

(يوجد نوع آخر من الخبرة الخارجية للصغير لا يسجل في « الوالد »
وهو الذي سنتحدث عنه عندما نصف « الراشد ») .

الطفل :

بينما يتم تسجيل الأحداث الخارجية في شكل مجموعة المعلومات التي
تسمى « الوالد » فان هناك تسجيل آخر يتم في نفس الوقت . انه تسجيل
الأحداث الداخلية . انها استجابات الشخص الصغير لما يرى ويسمع
(شكل رقم ٣) .



شغل رقم ٣ : الطفل

ومن المهم في هذا السياق استعادة ملاحظة بنفيلد : -

يشعر الشخص بالانفعال الذي أنتجه الموقف أصلاً . ويعني نفس التفسيرات سواء كانت صادقة أم زائفة ، تلك التي أعطاهما للتجربة في المحل الأول . وعلى ذلك فإن الذكرى المستثارة ليست هي نفس الصورة المرئية أو المسموعة للمناظر والأحداث الماضية . انها نتاج ما رآه المريض واستمع اليه وأحس به وفهمه (٢) .

ان مجموعة معلومات « الرؤية والسمع والتشعور والفهم » هي ما نحدده باسم « الطفل » . ولما كان الصغير يفتقر الى المفردات اللغوية خلال أشده تجاربه المبكرة حرجاً ، فإن معظم ردود أفعاله تكون مجرد مشاعر . . وعلينا أن نضع في أذهاننا موقفه في هذه السنوات المبكرة . انه ضئيل الحجم . ويعتمد على الغير ، وأخرق . وعديم الكياسة ، وليست لديه حصيلة الكلمات الضرورية لبناء المعاني . قال ايمنسون : « علينا أن نعرف كيف نقيم النظرة الغاضبة » . ان الصغير لا يعرف كيف يفعل ذلك . ان تحويل نظرة غاضبة تجاهه لن يؤدي الا الى مشاعر تضاف الى مخزون المعلومات السلبية عند الصغير .

وخلال لحظات الضعف هذه يوجد عدد غير محدود من المطالب

W. Penfield, "Memory Mechanism", A.M.A. Archives of (٢)
Neurology and Psychiatry 67 (1962) : 178-198.

(★) مع مناقشات بعلم كوبي

التي لا تقبل مساومة ، تتراكم على الطفل ٠٠٠ ان لديه الدوافع (التسجيلات الوراثية) التي تدعوه الى التبرز في أى وقت ، والى الاستطلاع ، والى المعرفة ، والى القمع والضرب ، والى التعبير عن مشاعره ، وتجربة كافة المشاعر السارة المرتبطة بالحركة والاكتشاف - هذا من جهة - ومن جهة أخرى فان هناك الطلب المستمر من البيئة المحيطة ، خاصة الأبوين ، بأن يتخلى عن هذه الرغبات الأولية طلباً لرضا الأبوين . وهذا الرضا الذى يمكن أن يختفى بمثل سرعة ظهوره انما هو سر خفى المعنى بالنسبة للطفل الذى لم يوجد عنده بعد أى ربط مؤكد بين العلة والمعلول

ان الأثر الجانبي المهم لعملية التمددين يتمثل فى المشاعر السلبية . وعلى أساس هذه المشاعر يستنتج الشخص الصغير مبكراً أنه ليس على ما يرام . ونحن نسمى هذا التقييم الذاتى الشامل « عدم الرضا أو الطفل غير الراضى » . ان هذه النتيجة والممارسة المستمرة للمشاعر المقبضة التى أدت اليها وأكدتها ، مسجلة بصفة دائمة فى المخ ولا يمكن محوها . وهذا التسجيل المستمر هو بقية مرحلة الطفولة لآى طفل حتى طفل الأبوين العطفين والمحبين والمتفهمين . انه موقف مرحلة الطفولة . وليس قصد الأبوين هو الذى ينتج المشكلة (سنناقش ذلك بالتفصيل فى الفصل التالى عن : مواقف الحياة) . وهناك مثال على مشكلة مرحلة الطفولة تعبر عنه عبارة « بابا .. اذا كان عندى أب على ما يرام وأم على ما يرام ، فكيف اذن أصبحت أنا على غير ما يرام ؟ » .

وإذا كان أطفال الوالدين الطيبين يعانون من هذا الموقف ، فما بالك بأطفال الوالدين المدانين بالاهمال الشنيع والسب والقسوة !

وكما فى حالة « الوالد » فان « الطفل » حالة قد يتحول اليها الشخص فى أى وقت أثناء معاملاتة الحاضرة . وهناك أشياء عديدة يمكن أن تحدث لنا اليوم ، وتنشأ موقف الطفولة ، وتولد نفس المشاعر التى أحسنا بها آنذاك ، وسنجد أنفسنا غالباً فى مواقف نواجه فيها خيارات غير ممكنة ، حيث نجد أنفسنا محاصرين فى الركن ، اما طبيعياً أو بالطريقة التى نراها . وبالنسبة للطفل فان هذا فح ينتج عنه استعادة المشاعر الأصلية المتعلقة بالاحباط والرفض أو التجاهل فنعيش من جديد تجربة مماثلة لهذا الاحباط المبكر للصغير . ولذلك عندما يكون الشخص رهين مشاعره . نقول أن « طفله » قد بدأ يعمل . وعندما يطغى غضبه على منطقته ، نقول : ان « طفله » يتولى الزمام .

وهناك أيضا جانب مشرق في « الطفل » حيث يوجد مخزون ضخم من المعلومات الايجابية . ففي « الطفل » يكمن الابداع وحب الاستطلاع والرغبة في الاستكشاف والمعرفة، وحوافز اللمس والاحساس والتجريب ، وتسجيلات المشاعر الأصيلة العظيمة للاكتشافات الأولى . وتسجل في « الطفل » أعظم التجارب العجيبة التي لا تحصى ، وأحداث الحياة التي تحدث للمرة الأولى في حياة الشخص الصغير مثل الشرب لأول مرة من خرطوم الحديقة ، وأول نربيت على ظهر القطة الناعم وأول مرة يظهر فيها النور استجابة لضغطه على مفتاح التوصيل ، وأول ملاحقة لفقاعات الصابون . وتكرار استعادة هذه الأشياء العظيمة مرات ومرات . ان أحاسيس هذه المباحث مسجلة أيضا مع تسجيلات عدم الرضا . وهناك لحن مصاحب هو إيقاع الرضا لهددة الأم ، والنعومة الحساسة للبطنية المفضلة . انها استجابة طيبة مستمرة للأحداث الخارجية المفضلة (اذا كان هذا بالفعل طفلا مفضلا) وذلك عند استعادتها خلال معاملات اليوم . وهذا هو الجانب الرقيق أي « الطفل » السعيد ، المطمئن النفس ، الولد الصغير الذي يلاحق الفراشات . الصغيرة التي تلتهم الشيكولاتة وهذا هو ما يظهر أيضا في معاملات اليوم . وعلى أية حال فان ملاحظتنا للصغار ثم لأنفسنا كبالغين تقنعنا بأن مشاعر عدم الرضا تتجاوز مشاعر الرضا بمراحل . وهذا هو السبب في اعتقادنا بأن التقييم العادل يدعونا الى القول بأن في كل فرد « طفل » عديم الرضا .

وقد سئلت مرات عديدة : متى تتوقف تسجيلات « الوالد » و « الطفل » ؟ وهل « الوالد » و « الطفل » يتضمنان فقط التجارب التي حدثت خلال السنوات الخمس الأولى من العمر ؟ انني أعتقد أنه في الوقت الذي يترك فيه الصغير البيت الى أول تجاربه الاجتماعية الاستقلالية وهي المدرسة - يكون قد تعرض تقريبا لكل موقف وعظ ممكن من أبويه ، ومنذئذ تصبح كافة الاتصالات الأبوية بالضرورة تأكيداً لما تم تسجيله . كما تسير خاصية تأكيد حقيقة أنه يبدأ الآن ممارسة « الوالد » على الآخرين - في خط متواز مع فكرة أرسطو حول أن ما جرى التعبير عنه يجري التأكيد عليه . وبالنسبة للتسجيلات التالية في « الطفل » فمن الصعب أن نتخيل وجود أي احساس لم يحسه المرء في صورته المكثفة عندما كان عمره خمس سنوات ، ويتمشى هذا مع فكرة التحليل النفسي ويصدق معها . واذا ما خرجنا من الطفولة بمجموعة من التجارب المسجلة في « الوالد » و « الطفل » وهي تجارب لا تنمحي - فما هو اذن أملنا في التغيير ؟ كيف نخرج من فخ الماضي ؟

الراشد :-

فى الشهر العاشر من العمر يبدأ شىء ملحوظ يحدث للصغير . كانت حياته حتى ذلك الوقت تتكون أساسا من استجابات عاجزة أو بدون تفكير فى مطالب وحواجز هؤلاء المحيطين به . كان له « والد » و « طفل » . أما ما لم يكن متوفرا لديه فهو القدرة على اختيار استجاباته أو التحكم فيما يحيط به . لم يكن لديه توجه ذاتى ، أو قدرة على الخروج لمواجهة الحياة . كان بكل بساطة يقبل ما يظهر فى طريقه .

وعلى كل حال فإنه عند سن العشرة شهور ، يبدأ فى ممارسة قوة الحركة ، ويستطيع التحكم فى الأشياء ، ويبدأ فى الخروج محردا نفسه من سجن السكون . والصغير فى سن مبكر ، مثل ثمانية شهور ، قد يبكى ويطلب المساعدة للخروج من موقف مربك لا يستطيع الخروج منه فى الكثير من الأحوال . أما عند سن عشرة شهور فيولى اهتمامه الى تفحص اللعب واستغلالها حسب الدراسات التى قام بها « جيسيل والى » عن الصغير فى سن العاشرة .

... ويستمتع باللعب بالكوب متظاهرا بالشرب ، ويقرب الأشياء من فمه يلوكها ، ويسنمته بحركة اللعب الكبيرة ذات الموتر ، ويحب الجلوس واللعب بعد مساعدته على الوقوف ، والانحناء للأمام ثم الاعتدال بنفسه . انه يفك اللعبة . ويركل . ويمضى من الجلوس الى الزحف ، ويشد نفسه الى أعلى . وقد يخفض نفسه ، ويبدأ فى التقدم للأمام . أما الأنشطة الاجتماعية التى يستمتع بها فهى ألعاب إخفاء الوجه ثم كشفه فجأة . وألعاب الشيفتين . ثم اللعب مع الإمساك بكلمات يديه ، أو وضعه منبطحا على الأرض . أو وضعه فى لعبة هزاة .

وتظهر البنات أولى علامات الشقاوة بتحويل الوجه الى أحد الجانبين عندما يتسمن (٣) .

وتأتى القدرة على الحركة التلقائية التى يتولد عنها « الراشد » لتتأكد فى الحياة المستقبلية عندما يكون الشخص فى خطر . انه يذهب يتمشى

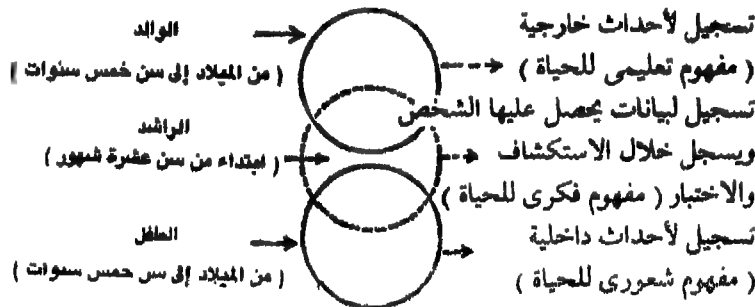
وخلال هذه السنوات المبكرة يكون (الراشد) هشا وعرضة للتجربة فمن السهل « اخضاعه » بأوامر « الوالد » وخوف « الطفل » . الأم تقول .

Arnold Gessel and Frances L. Elg. "Infant and child in the Culture of today (New York : Harper, 1943), p. 116-122. (٣)

لقد اكتشف الصغير ذو العشرة شهور أنه قادر على عمل شيء يعود إلى إدراكه هو وفكره الأصيل . وهذا الاحساس بالذات هو بداية « الراشد » (شكل رقم ٤) .

وتتراكم معلومات « الراشد » نتيجة لقدرة الصغير على أن يكتشف لنفسه ما الذي يختلف من أمور الحياة — عن « مفهوم التعلم للحياة » في « الوالد » و « مفهوم الشعور بالحياة » في « الطفل » . ان « الراشد » يطور « مفهوم التفكير في الحياة » اعتمادا على جمع المعلومات وتصنيفها . وتأتي القدرة على الحركة التلقائية التي يتولد عنها « الراشد » لتتأكد في الحياة المستقلة في خطر انه يذهب يتمشى لكي « يجلو عقله » . ان السير بخطوة وثيدة يبدو كمهدىء للانفعال فهناك تسجيل يفيد بأن الحركة مفيدة وان لها خاصية الفصل وأنها تساعد على أن يرى ماهية المشكلة بوضوح .

وخلال هذه السنوات المبكرة يكون « الراشد » هشيا وعرضة للتجربة ، فمن السهل « اخضاعه » بأوامر « الوالد » وخوف « الطفل » . الأم تقول عن الكأس الكريستال « لا ، لا لا تلمسها » . وهنا قد يتراجع الصغير ويصرخ ، ولكنه عندما تسنح له أول فرصة سيلمسها بأى طريقة ليعرف ماهيتها . نجد في معظم الأشخاص أن « الراشد » يعيش ويستجبر في عمله بكفاءة أكثر وأكثر مع استمرار عملية النضج بالرغم من كافة العقبات التي تعترض طريقه .



شكل رقم (٤) الانبثاق التدريجي للراشد ابتداء من سن عشرة شهور

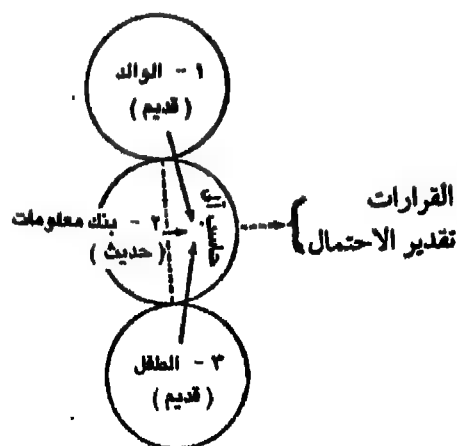
ان الراشد يهتم أساسا بتحويل الدوافع الى معلومات ، ثم تصنيف وترتيب هذه المعلومات على أساس الخبرة السابقة (٤) . انه يختلف عن

« الوالد » الذى هو (أحكام تفرض بطريقة المحاكاة وتسعى لتقوية مجموعات التماذج المستعارة من « الطفل » التى تنحو نحو رد الفعل بطريقة أكثر فجائية على أساس التفكير المنطقى والادراك المختلف أو المشوه) .

ويستطيع الشخص الصغير من خلال « الراشد » أن يبدأ فى ذكر الاختلاف بين الحياة كما علمت وفسرت لله من خلال « الوالد » والحياة كما أحسها أو أرادها أو تخيلها « الطفل » ، والحياة كما يصورها بنفسه « الراشد » . ان « الراشد » حاسب آلى يخرج القرارات بعد أن يتغذى بالمعلومات من ثلاثة مصادر :

« الوالد » ، « الطفل » والمعلومات التى جمعها « الراشد » ولا يزال يجمعها (شكل رقم ٥) . وأهم وظائف « الراشد » هى فحص معلومات « الوالد » ليرى ما اذا كانت حقيقية وصالحة للتطبيق اليوم من عدمه ومن ثم يقبلها أو يرفضها . ثم يختبر « الطفل » ليرى ما اذا كانت الأحاسيس مناسبة للحاضر أو أصبحت بالية ، مع الرد على معلومات « الوالد » البالية . وليس الغرض هو تجاهل « الوالد » و « الطفل » ولكنه فحص هذه المجموعات من المعلومات فى حرية . وحسب تعبير ايمرسون فان « الراشد » (يجب ألا يتعطل تحت مسمى « الخير » وانما يجب أن يفحصه لمعرفة ما اذا كان خيرا أم شرا بالنسبة لهذا الأمر ، مثل القرار المبكر القائل : « أنا لست على ما يرام » .

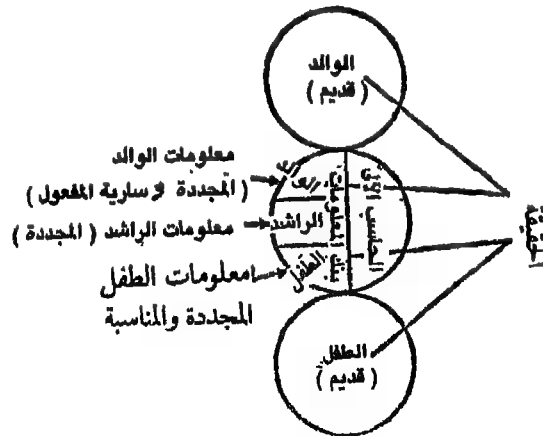
وقد يبدأ فحص « الراشد » لمعلومات « الوالد » فى عمر مبكر . ان النشء السليم هو الذى يجد أن معظم معلومات « الوالد » سليمة : (لقد ذكرنا الى الحقيقة !) .



شكل رقم ٥ : « الراشد » يحصل على المعلومات من ثلاثة مصادر

ان الولد الصغير الذى رأى سيارة تصدم كلبه المدلل فى الشارع يستنتج أن: « السيارات » التى فى الشارع خطيرة حقا » ويظن الولد الصغير الذى تسلم هدية من صديقه : « حقيقة أن الأشياء تصير أفضل عندما أتناقش مع صديقى » . وتستنتج البنت الصغيرة التى تعلمت أن تذهب الى الحمام وحدها « بالفعل أشعر بالراحة عندما لا تكون سراويل مبللة » . ويستطيع الطفل من خلال « الراشد » أن يعرف الأمانة « والاحساس بالذات » ويصمد كل ما يفحصه بالاختيار « وتبدأ المعلومات التى يجمعها من خلال التجارب والفحوص أن تشكل بعض « الثوابت » التى يستطيع أن يثق بها . وتستند قراراته فى المحل الأول الى ما تعلمه .

ومن المهم التأكيد على أن تحقيق معلومات « الوالد » لا يمحو تسجيلات عدم الرضا فى « الطفل » تلك التى نتجت بالغرس المبكر لهذه المعلومات . ان الأم تعتقد أن الطريقة الوحيدة لابعاد جوفى ذى الثلاثة أعباء عن الشارع هى ضربه علقه . انه لا يفهم الخطر والاستجابة عنده هى الخوف والغضب والاحباط مع عدم تقدير حقيقة أن أمه تحبه وهى تحمى حياته . أما الخوف والغضب والاحباط فهذه كلها لا تمحى عندما يعرف أخيرا أنها كانت على حق فيما عملته . ولكن فهم كيفية أن الموقف الأصلى للطفولة قد أنتج العديد من تسجيلات عدم الرضا التى من هذا النوع . يمكن أن يحورنا من استمرار الاستماع الى هذه التسجيلات فى الحاضر . اننا لا نستطيع أن نمحو التسجيلات . ولكننا قد نختار وقت الاستماع اليها . وبنفس الطريقة التى يجرى بها « الراشد » عملية التحديث لمعلومات « الوالد » لتحديد أيها يصح وأيها لا يصح ، يجرى عملية التحديث أيضا



شكل رقم ٦ : عملية تحديث الراشد من خلال اختبار الحقيقة

لمعلومات « الطفل » لتحديد المشاعر التي يمكن أن يعبر عنها بأمان :
نعتبر في مجتمعنا أنه من المناسب للمرأة أن تبكي يوم الزفاف ولكنه ليس
من المناسب لنفس هذه المرأة أن تصرخ في وجه زوجها عند استقباله فيما
بعد . علما بأن كلا من البكاء والصراخ يدخل ضمن عواطف « الطفل » .
ان « الراشد » يجعل التعبير عن العواطف سليما . وسنجد أن وظيفة
« الراشد » في اجراء عملية التحديث « للوالد » و « الطفل » مبنية
بالرسم في شكل رقم ٦ حيث يشير « الراشد » داخل « الراشد » في
هذا الشكل الى البيانات الواقعية التي تم تحديثها (حدثني العقل مرة
أن رحلة الفضاء خيالية ، أما الآن فأنني أعرف أنها حقيقة) .

والوظيفة الأخرى للراشد هي : تقييم الاحتمالات : وهذه الوظيفة
بطيئة النمو في الصغير ، ويبدو أن نمو هذه الوظيفة يجد صعوبة في
ملاحقة الفرد أثناء نموه في الحياة ، فالشخص الصغير محاط دائما
بالاختيارات غير السارة (اما أن تأكل السبانخ أو تحرم من الأيس كريم)
فهو يجد دوافع قليلة لفحص الاحتمالات . وتقف الاحتمالات التي لم تختبر
خلف العديد من نوعيات فشلنا في المعاملات ، كما أن علامات الخطر غير
المتوقعة تستطيع أن تسبب فساد « الراشد » أو تأخيره عما هو متوقع .
فالامر هنا أشبه ببرقيات جهاز التيكروز التي قد تصل متأخرة بسبب ضغط
العمل وكثافته . ولا حل لنا أمام تباطؤ الحاسب الآلى هنا سوى التذرع
بالصبر .

ويمكن زيادة القدرة على تقييم الاحتمالات بجهود الوعي ومثل
العضلة في الجسم فالراشد ينمو ويزداد في الكفاءة من خلال التدريب
والاستعمال . وإذا تنبه « الراشد » الى امكانية حدوث المتاعب من خلال
تقييم الاحتمالات فانه يستطيع أن يبتكر الحلول لمواجهة المتاعب اذا حدثت
وفي نفس وقت حدوثها .

وعلى أية حال فان « الراشد » يتأثر بفعل الضغط الى الدرجة التي
عندها تباشر العواطف عملها بصورة غير صحيحة ، حيث تذوب الحدود بين
« الوالد » ، « الطفل » ، أو تصير غير واضحة المعالم ، وتعرض للهجوم
من تلك الاشارات الواردة التي تنحو نحو إعادة خلق المواقف التي مارسناها
خلال أيام الطفولة التي كنا فيها معتمدين على غيرنا وعديمي الحيلة .
وتنهمر على « الراشد » أحيانا اشارات « الانباء السيئة » فتحتاج كيانه
بحيث ينكمش « الراشد » ليصبح مجرد مراقب للمعاملات ، ولا بد للفرد
الذى يواجه مثل هذا الموقف أن يقول : « أعرف أن ما كنت أفعله خطأ ،
ولكنني لم أستطع أن أمنع نفسي » .

ويمكن رؤية الاستجابات غير الراشدة وغير المنطقية وغير الحقيقية في الموقف الذي نسميه : صدمة عصبية traumatic neurosis . ان اشارة الخطر أو « النبا السيء » تصدم « الوالد » و « الطفل » في نفس الوقت الذي تصدم فيه « الراشد » . أما « الطفل » فيستجيب بالطريقة التي استجاب بها في الأصل أى بأحاسيس سيئة ، وهذا يمكن أن ينتج كافة أنواع الظواهر المنعكسة - ومرة ثمانية قد يشعر الفرد بنفسه صغيرا ضئيلا معتمدا على غيره وعديم الحيلة - وأكثر هذه الظواهر بدائية هو توقف التفكير thought blocking وهو موقف واضح نراه في مستشفيات العلاج النفسى التي تطبق سياسة الباب المغلق . وعندما يفلق الباب على مريض جديد يكون الارتداد سريعا وواضحا . وهذا يبين : لماذا أعراض علاج المرضى بنظام يرتكز على العناية الأبوية فتدليل « الطفل » العاجز الكامن فى المريض يؤدي الى تأخير عملية بناء استعادة « الراشد » لوظيفته التقليدية .

ان المستشفى المثالى قد يكون بنسبونا مريحا به « منطقة لعب » للطفل تحيط بمبنى العلاج المخصص للأنشطة التي صممت لتحقيق الاستقلال الذاتى للراشد . ولن ترتدى الممرضات زيهن الرسمى أو يخدمن المرضى مثل الأبوين ، وبدلا من ذلك فإن الممرضات وهن بملابس الخروج قد يطبقن مهاراتهم وتدريبهن فى مساعدة كل واحد على تعلم شخصية « الوالد » و « الراشد » و « الطفل » :

ونحن نستخدم مع مجموعات العلاج لدينا عبارات عامة مثيرة مثل : « لماذا لا تبقى فى « راشدك » ؟ » وذلك عندما يجد الفرد أن مشاعره قد استبدت به . وعبارة أخرى مثل « ماذا كانت المعاملة الأصلية ؟ » ويوجه هذا السؤال كوسيلة لاطلاق « الراشد » لتحليل التشابه بين الاشارة القادمة حاليا والتي تنتج الضغط الحالى والمعاملة الأصلية ، التى عانى منها الصغير .

ويتمثل عمل « الراشد » فى فحص المعلومات القديمة والموافقة على سريانها أو وقف العمل بها والاحتفاظ بها للاستخدام فى المستقبل . فإذا سار هذا العمل بسهولة وكان هناك غياب نسبي للتعارض بين ما جرى تعلمه وما هو حقيقى ، يصبح الحاسب حرا لأداء العمل الجديد المهم وهو الابتكار . ويتولد الابتكار عن حب الاستطلاع فى « الطفل » كما هو فى « الراشد » . ان « الطفل » يقدم الرغبة « الراشد » يقدم « الكيفية » . أما الضرورة الملحة للابتكار فهي وقت الحاسب ، فإذا كان الحاسب مشغولا بالتعامل مع المعلومات القديمة فسيكون وقته المتوفر للعمل الجديد محدودا . ويصير الكثير من أوامر « الوالد » آليا بمجرد الفحص وبذلك يتفرغ الحاسب للابتكار .

ان العديد من قراراتنا في المعاملات اليومية يجرى آليا ، فعلى سبيل المثال : عندما نرى سهما يحدد شارعا ذا اتجاه واحد ، نمتنع آليا عن السير في الاتجاه المضاد ، ولا نشغل الحاسب في عمليات مطولة لتصنيف المعلومات حول هندسة الطرق العلوية وضريبة المرور أو كيفية رسم علامات المرور . هل نبدأ بالتنقيب في كل قرار أم نعمل كلية بدون المعلومات التي يقدمها « الوالد » ؟ اذا حدث ذلك فان الحاسب نادرا ما يتوفر لديه الوقت لعملية الابتكار .

ويجادل بعض الناس أن الطفل الذي لا يتبع أبواه نظاما صارما في تربيته ، والذي لا تعوقه حدود هو أكثر ابتكارا من الطفل الذي يضغ « والده » الحدود . ولا أعتقد أنا نفسي في صحة هذه المقولة ، لأن الصغير لديه دائما وقت كاف للابتكار والاستكشاف والاختراع والمشاركة والتجميع - اذا لم يضيع الوقت في اتخاذ القرارات التي ليس لديه معلومات كافية عنها . وهناك وقت كاف لدى الصغير لبناء رجل الثلج اذا لم يضيع وقته في جدال طويل مع أمه حول ما اذا كان سيرتدي أحذية الثلج أم لا . واذا تغاضى الأبوان عن صغيرهما « الفنان » الذي يستخدم ورنيش الأحذية للرسم على الجدران ، فلن يتغاضى الجيران عن ذلك في بيتهما ، ولن يكون الصغير مستعدا لتقبل العواقب المؤلمة للعبته هناك . ان النتائج المؤلمة لا تنتج مشاعر حميدة . وهناك نتائج أخرى تستغرق وقتا مثل العلاج في المستشفى بعد حادثة سيارة . ان هناك وقت كاف للحاسب ، ولكن الصراعات تستغرق قدرا كبيرا منه . وهناك تظهر مشكلة عويصة تستهلك الوقت ، عندما يكون الصواب في رأى « الوالد » لا يبدو صوابا بالنسبة « للراشد » أما أكثر الأفراد ابتكارا فهو الشخص الذي يكتشف أن جزءا كبيرا من مضمون « الوالد » يتفق مع الحقيقة . فهو يستطيع حينذاك أن يحتفظ بهذه المعلومات سارية المفعول في « الوالد » ويثق بها وينسى التفكير فيها ويمضى الى أشياء أخرى مثل كيف يجعل الطائرة الورقية تطير ، أو كيف يبني قلعة من الرمال ، أو كيف يحسب التفاضل والتكامل .

وعلى أية حال فان معظم الأحداث مشحونون معظم الوقت بالتعارض ما بين معلومات « الوالد » وما يروونه حقيقة . وتنحصر مشكلتهم المثيرة للقلق في أنهم لا يفهمون لماذا يكبلهم « الوالد » بهذا القيد . وعندما تأنى الحقيقة لندق على باب « الوالد » يقول « الوالد » لا تعال . . . لتناقش معا . والصغير الذي يكون أبوه في السجن وتضطر أمه للسرقة لكى تربيته ، قد يستمع الى تسجيل مرتفع في « الوالد » يقول : « لا تثق في شرطى » . ولذلك فانه عندما يلتقى بشرطى يكن له مشاعر الصداقة

فان « الراشد » يحسب كل المعلومات المتعلقة بهذا الشخص اللطيف ، وكيف يزاوول لعب الكرة في الفناء ، وكيف يعزم أصدقاءه على الفشار ، وكيف يكون مفعما بالصدقة ، وكيف يتحدث بصوت خفيض - هناك اذن مشكلة بالنسبة لهذا الحدث : ان ما يراه حقيقة يختلف عما تعلمه -
 « الوالد » يقول له شيئا بينما « الراشد » يقول له شيئا آخر .

انه يتقبل رأى « الوالد » في رجال الشرطة خلال فترة اعتماده الطبيعي على أبويه من أجل الأمان ، بصرف النظر عن مدى ضالة هذا الأمان - وهذه هي الطريقة التي يتكون بها الرأى المسبق لأنه بالنسبة للولد الصغير قد يكون تصديق الكذبة أكثر أمانا من تصديق عينيه وأذنيه . وعلى ذلك فان « الوالد » يهدد « الطفل » (في حوار ثنائي داخلي متواصل) مما يجعل « الراشد » يتخلى ويتوقف عن الدخول في مناطق التعارض فتظهر عبارة « رجال الشرطة أشرار » في شكل قابل للتصديق - وهذا هو ما يطلق عليه اسم : افساد الراشد Contamination ، وسنفحصه في الفصل السادس .

الفصل الثالث

مواقف الحياة الأربعة

(ان الأسى يخالج المرء حينما يتدبر بروح انسانية منزهة عن الغرض
أو الهوى ، الفكاهات الملهدة ، فيرى أن الوضع المخرج الذى تسخر منه هو
المصير الذى سيؤول اليه أحد الصغار - سورين كيركجارد)

ان كل طفل يتوصل فى وقت مبكر جدا من الحياة الى موقف
« أنا لست على مايرام » بينما يرى أن والديه بالنسبة له هما فى موقف
« أنت على مايرام » . وهذا هو أول ما يتصوره فى محاولته التى تستغرق
كل العمر - للاحساس بذاته وبالعالم الذى يعيش فيه . وهذا الموقف
« أنا لست على مايرام » ، وأنت على مايرام » هو أكثر القرارات المصيرية فى
حياته . انه مسجل دائما وسيؤثر فى كل شئ يعمل به ، لأنه قرار يمكن
تغييره بقرار جديد ولكن ليس قبل أن يفهمه .

ولتأيد هذه الآراء أود أن أكرس الجزء الأول من هذا الفصل لفحص
مواقف الوليد والرضيع والصغير ، خلال سنوات ما قبل النطق وما بعده .
يصر الكثيرون من الناس على أنهم عاشوا « طفولة سعيدة » ولم يستنتجوا
موقفا مثل « أنا لست على مايرام » ، وأنت على مايرام » وأنا أعتقد أن
كل صغير قد استنتج ذلك الموقف ، فعلى الرغم من هذه « الطفولة السعيدة »
فاننى « أولا : أود أن أفحص موقف دخوله الى الحياة » وأن أشير الى
الدليل على أن أحداث ميلاده وطفولته مسجلة « حتى مع عجزه عن تذكرها .

ونسجل ثانية فى هذا السياق - استنتاجات بنفيله حول قيام المخ بثلاثة وظائف : ١ - التسجيل ٢ - استعادة التسجيل ٣ - المعاشية .

وبالرغم من أن الاستعادة منذ البداية المبكرة للحياة مستحيلة . الا أن لدينا دليلا على أننا نستطيع أن نعيش من جديد الخبرات المبكرة فى شكل العودة الى حالة الشعور لدى الوليد . ونظرا لأن الوليد لا يستطيع استخدام الكلمات . لذلك فإن ردود أفعاله تقتصر على الأحاسيس والمشاعر وربما التخييلات القديمة غير الواضحة . انه يعبر عن مشاعره بالصراخ أو بحركات مختلفة للجسم تبين اما عن الخطر أو الراحة . وبالرغم من أن أحاسيسه وتخيالاته لا توصف لعدم قدرته على الكلام وقت تسجيلها ، الا أنها تستعاد بين الحين والآخر فى الأحلام خلال حياته المستقبلية .

واليك نموذج يسهل تصوير الموقف : ذكرت لى مريضة حلما تكرر خلال حياتها . وفى كل مرة شاهدت هذا الحلم ، كانت تستيقظ فى حالة من الفزع الشديد . مع تلاحق دقائق القلب ، وضيق التنفس . وناضلت بشدة لكى تصف الحلم ولكنها لم تجد الكلمات التى تعبر عنه . وفى احدى محاولات وصفه ، قالت أنها أحست كما لو كانت « مجرد ذرة دقيقة وصغيرة ، وقد التفت حولى أجرام سماوية ضخمة ومستديرة مثل المجرات الحلزونية الآخذة فى النمو أكبر وأكبر ، وكانت تهدد بابتلاعى فظهرت كما لو كنت أختفى داخل هذا الشيء الواسع الضخم » . وبالرغم من أن تقريرها كان مصحوبا بملاحظتها عن فقدان شخصيتها ، الا أن طبيعة الفزع الشديد تبين أنه ربما كان هناك خوف من فقدان حياتها كرد فعل بيولوجى أولى تجاه التهديد بالموت . وبعد ذلك بوقت قليل ذكرت الحلم مرة ثانية . وكانت هذه هى المرة الأولى التى شاهدته منذ عام . كانت مسافرة وقد تناولت هى وزوجها الغداء فى مطعم على الطريق ديكوره أفضل من طعامه . ولم تشعر بالراحة عندما عادا الى الفندق . ورقدت لحظة قصيرة واستغرقت فى النوم ، ولم ييضى وقت طويل حتى استيقظت فزعة لرؤية نفس الحلم ، فوجدت نفسها تعاني من تقلصات شديدة فى المعدة « ضاغت من ألمى » ولم أصادف من قبل حدثا جعلنى فى مثل هذا الهياج . وبدا الحلم المزعج وكأن له علاقة مباشرة بهذا الألم المعوى . وكان الحلم لا يزال مستعصيا على الوصف . وعلى أية حال فإنها ذكرت لى احساسا آخر . هو الاحساس بأنها كانت تختنق .

وقد ساعدتنا معلومات معينة عن أم المريضة على تصور الأصل الممكن لهذا الحلم . كانت الأم سيدة ضخمة ممثلة الجسم قد أرضعت صغارها

من منطلق الفكرة القائلة بأنه لا توجد هناك مشكلة طالما كان الطعام هو العلاج . كانت فكرتها عن العناية بالصغار تتركز في اطعامهم جيدا . وكانت في نفس الوقت امرأة مستبدة وعدوانية . وقد استنتجتنا (وهذا هو أقصى ما نستطيع التوصل اليه) أن الحلم كان له أصله الذي يعود الى الوقت الذي لم تكن فيه المريضة قد تعلمت الكلام ، حيث أنها لاتستطيع أن تصف المضمون . أما علاقة الحلم بالمفص الباطني فهي تعبر عن بعض الصلة بتجربة غذائية مبكرة ، والاحتمال الوارد هو أنه اذا كانت المريضة في صغرها قد نالت عناية فائقة واحساسا بالرعاية التامة . فان الأم كانت تصر على أنها في حاجة الى المزيد (كان ذلك في الماضي حينما كانت الأمهات يسرفن في اطعام الصغير حتى لا يشعر بالجوع قبل مضي وقت طويل) . أما أحاسيس « حالة الحلم » والنوم والاختناق وتقلصات المعدة . فربما كانت موجودة بالفعل . أما المضمون (الشيء الصغير الذي ابتلعه شيء كبير ، والأجرام السماوية) فمن الممكن أن تكون استعادة لادراك الصغير حول هذه الحالة - تماما مثل الذرة الدقيقة التي ابتلعها الأشياء المستديرة ، وصدر الأم أو الوجود الضخم للأم نفسها بالنسبة للصغيرة .

وهذا النوع من مادة الأحلام يساند الافتراض بأنه بالرغم من أن تجاربنا المبكرة لا يمكن وصفها ، إلا أنها تسجل ويستعاد مضمونها في الحاضر . وهناك اشارة أخرى على أن التجارب تسجل منذ وقت الولادة ، وهي الاستمساك بالمكاسب الماضية . وبالرغم من أن استجابة الصغير للبدوافع الخارجية تكون غريزية في البداية ، إلا أنها سرعان ما تعكس تجربة مشروطة أو معروفة (أو مسجلة) - فعلى سبيل المثال يتعلم الصغير أن ينتج بناظره نحو مسار خطوات الأم ، فاذا كانت جميع التجارب والأحاسيس مسجلة استطعنا أن نفهم الألم الشديد على أنه معاشية تجربة ماضية قد أحسنا بها كصغار . ونستطيع أن نفكر في ذلك من حيث انه استعادة لسماع الشريط الأصلي . ولكي نفهم المغزى فمن المهم أن نختبر موقف الصغير . بالعودة الى الشكل رقم ٧ نرى خطأ يبين مسافة تبدأ من لحظة الادراك حتى سن خمس سنوات ، والخط الزمني الأول يمثل التسعة شهور المنحصرة ما بين الميلاد والادراك العضوى . وخلال هذه الشهور التسعة حدثت بداية الحياة في أفضل بيئة كاملة يمكن للكائن الانساني أن يعيش فيها ويشار الى هذه الطريقة للحياة بوصفها حالة من الألفة والتكافل .

وعلى ذلك فانه عند الولادة العضوية يندفع الشخص الصغير من الحيز الضيق خلال ساعات قليلة ، الى حالة من التناقض الخطير الذي يتعرض فيه



شكل رقم ٧ : ولادات الشخص من البداية الى سن خمس سنوات

لمواقف شاذة مخيفة ومؤكدة وغريبة مثل : البرد ، والشقاء ، والضغط ، والضجيج ، وعدم المساندة ، والاشراف ، والانفصال ، والتجاهل .
وسرعان ما يصبح الصغير بعد وقت قصير وحيدا ومنفصلا ولا ينتمى لأحد .

ومن الأفكار العديدة عن الصدمة النفسية للميلاد ، افتراض أن الأحاسيس الناتجة عن هذا الحادث مسجلة ومحفوظة بشكل ما في المخ . وهذا الافتراض يسانده العدد الضخم من الأحلام المتكررة عن « أنبوب الصرف » . انها مجموعة متنوعة لدرجة أن الكثيرين من الأفراد واجهوا تجربة الدخول في مواقف تالية من الضغط الشديد . ويصف أحد المرضى حلما اندفع أثناءه من خلال بحيرة مياه هادئة الى بئر أو أنبوب للصرف . إنه يعيش احساس الكثافة المتزايدة والضغط الشديد . وهذا الاحساس نفسه يشعر به المريض بمرض الخوف من الأماكن المغلقة . الصغير يفرق في قبض من الدوافع غير السارة والغامرة ، وتكون الأحاسيس الناتجة في الوليد - على حد قول فرويد - مثالا لكل ما يلي من قلق (٥) . وفي لحظات يجد الوليد منقذاً ، انه كائن انساني آخر يلتقطه . ويلفه في أقماط دافئة ، ويحمله ، وتبدأ العملية المريحة المعروفة باسم « الهددة والتربيت » وهذه هي نقطة الميلاد النفسي . (شكل رقم ٧) . وهذه هي أولى المعلومات الواردة وفحواها أن « الحياة في الخارج » ليست

(٥)

Sigmund Freud, The Problem of Anxiety (New York : Norton, 1963).

كلها سيئة ، انها مصالحة وعودة لاجساس الحماية ، انها تفتح شهيته للحياة - ان المداعبة أو تكرار الاحساس بالتلامس البدني شيء ضروري لبقائه . وبدون ذلك فانه سيموت ، اذا لم يكن موتاً بدنياً فسيكون موتاً نفسياً . وكان الموت النفسى فيما مضى يحدث كثيراً للصغار بسبب الحالة المعروفة باسم Marasmus أى الهزال التدريجى الذى كان يحدث للصغار فى البيوت المخصصة للصغار اللقطاء ويؤدى الى الموت بسببه . انعدام هذه المداعبة المبكرة ، ولم يكن هناك سبب عضوي يوضح حالات الموت هذه سوى غياب الحافز الضروري للبقاء .

وتذبذب جرات الحنان يجعل الصغير فى حالة دائمة من عدم الاتزان - ذلك أنه خلال العامين الأولين من العمر لا يكون لديه أدوات تفكير ادراكية وهى الكلمات - لتفسير وضعه المتقلقل فى عالمه - وعلى أية حال فانه يسجل دائماً المشاعر التى تنبت من العلاقة بينه وبين الآخرين ، وفى المحل الأول الأم - وهذه للمشاعر ترتبط مباشرة بالمداعبة أو عدمها . ان من يربت عليه هو انسان على مايرام . أما تقديره لنفسه فهو غير مؤكد لأن شعوره بأنه على مايرام هو شعور عابر . ويحل محله دائماً شعور بأنه ليس على مايرام - وفى النهاية فإن عدم التاكيد يقنعه بأنه على غير مايرام . ولكن عند أى نقطة يتخذ الصغير قراره النهائى فى الموقف ؟ أنا لست على مايرام ، وأنت على مايرام .

يعتقد بياجيه (٦) استناداً الى مبدأ الملاحظة الدقيقة للصغار ، أن تطوير مبدأ السببية (ماذا يأتى بعد ماذا) يبدأ فى الشهور الأولى من الحياة ويكتسب عند نهاية العام الثانى . وبعبارة أخرى فإن المعلومات التى فى شكل خليط من الانطباعات ، تبدأ فى التراكم فى أشكال متتابعة معينة حتى الوصول الى نقطة يمكن للصغير عندها أن يتخذ وضعاً أو أن يصل الى استنتاج من الأوضاع والاستنتاجات السابقة على مرحلة الكلام .

ويقول بياجيه : « يبدو خلال مسار العامين الأولين من الطفولة ، أن نمو الذكاء الحسى والحركى ، وأيضاً التوسع فى الربط بين الظواهر المحيطة ، يقود الى حالة من التوازن تركز على الفكر المنطقى . واعتقد أن حالة التوازن هذه التى تتضح عند نهاية العام الثانى ، أو خلال العام الثالث هى ناتج استنتاج الصغير عن نفسه وعن الآخرين أى موقفه فى

Jean Piaget, "The construction of reality in the child (New York Basic Books, 1954). (٦)

الحياة - يوما دأب موقفه فقد استقر ، فقد أصبح لديه شيء صلب يعمل به ، نوع من القواعد التي يستند عليها في توقع المستقبل . ويستمر تباينه قائلا أن هذه العمليات العقلية المبكرة غير قادرة على معرفة أو بسط الحقائق ، ولكنها مقصورة على تحقيق النجاح المرغوب . أو التوفيق العملي « إذا لم أكن على ما يرام ، وأنت على ما يرام - فماذا أفعل لكي أجعلك تسندى لي معروفا رغم أنك على ما يرام وأنا تسندى علي ما يرام ؟ ويبدو الموقف غير ملائم ولكنه انطباع حقيقي بالنسبة للصغير ، وهو أفضل من لا شيء . وهذه هي حالة التوازن . لقد مارس « الراشد » في الصغير أولى خطوات السيادة بفهمه لمعنى الحياة عندما وضع حلا لما أسماه أدلر « المشكلة المركزية للحياة » - الموقف نحو الآخرين - وما أسماه سوليفان « المواقف الذاتية » التي يتخذها الشخص إلى « نهاية » - والتي واحدة من أوضح المقولات حول تطور الموقف - أنقلها عن كوبي :

لنأخذ أن نخرج باستنتاج واحد مؤكد وهو نشأة موقف وجداني مركزي Central emotional position في الكثير من الحالات ، أحيانا في الشهور الأولى للميلاد وأحيانا أخرى بعد ذلك . . . وسرعان ما يصير الموقف المؤثر الذي سيعود إليه الفرد تلقائيا بقية أيام حياته ، وبالتالي فإن ذلك قد يشكل أما الوافي الرئيسي ، أو نقطة الضعف الرئيسية في حياته . والواقع أننا قد نتبين أن نشأة هذا الموقف ربما تكون من أولى المواقف العامة التي تندرج في تطور عملية الإصابة بالمرض العصبي ، مادامت ستبدأ حتى في أيام الطفولة السابقة لمرحلة الكلام والتي تسبق فهم الرموز . . . وعندما يكون الموقف الوجداني المركزي مؤلما ، فقد يقضي الفرد حياته كلها في حماية نفسه منه . مستعملا مرة ثانية أدوات الشعور ، وما قبل الشعور ، والألا شعور . تلك التي يهدف منها إلى تجنب الموقف المقمع بالألم (٧) .

ثم يتساءل حول ما إذا كانت هذه المواقف تتبدل خلال الحياة فيما بعد أم لا . وأنا أعتقد أنها تتبدل بالرغم من أنه لا يمكن محو الخبرات المبكرة التي وصلت إلى ذروتها في هذا الموقف . وأعتقد أن المواقف المبكرة يمكن تبديلها . ما تقرر يوما ما ، من الممكن ألا يتقرر .

ويقدم تحليل المعاملات التصنيفي التالي للمواقف الأربعة الممكنة للحياة ، تلك التي تتخذ بالنسبة للفرد وللآخرين :

I.S. Kubie, The Neurotic Process of the Focus of Psychological and Psychoanalytic Research," The Journal of Mental science, vol. 104, No. 435 (1958). (٧)

- ١ - أنا لست على مايرام ، وأنت على مايرام .
- ٢ - أنا لست على مايرام . وأنت لست على مايرام .
- ٣ - أنا على مايرام . وأنت لست على مايرام .
- ٤ - أنا على مايرام ، وأنت على مايرام .

وقبل أن أسهب في شرح كل موقف أود أن أذكر ملاحظات قليلة حول المواقف . اثنى أعتقد أنه عند نهاية العام الثاني من العمر ، أو أحيانا خلال العام الثالث ، يكون الطفل قد استقر على قبول أحد المواقف الثلاثة الأولى - موقف (أنا لست على مايرام ، وأنت على مايرام) هو أول قرار على سبيل التجربة يتخذه بناء على خبرات العام الأول من العمر . وعند نهاية العام الثاني ، اما أن يتأكد ويثبت أو يتخلى عن موقعه للموقف الثاني أو الثالث (أنا لست على مايرام . وأنت لست على مايرام) أو (أنا على مايرام ، وأنت لست على مايرام) . ومع اتخاذ القرار النهائي يبقى الصغير في موقفه المختار ومن ثم يحكم الموقف كل ما يفعله ويظل معه بقية حياته . اذا لم يغيره شعوريا الى الموقف الرابع . والناس لا يغيرون مواقفهم للخلف أو الأمام . ويرتكز القرار كلية بالنسبة للمواقف الثلاثة الأولى على المداعبة من عدمها . ان المواقف الثلاثة الأولى عبارة عن قرارات غير منطوقة لأنها استنتاجات وليست تفسيرات . ولكنها لاتزال أكثر من اجابات مشروطة ، انها ما يسميه بياجي : تدبرات ذهنية في بناء السببية . وبمعنى آخر أنها نتاج معلومات « الراشد » التي خزنت لدى الشخص الصغير .

أنا لست على مايرام ، وأنت على مايرام :

هذا هو الموقف الكلي للطفولة المبكرة . بصفته الاستنتاج المنطقي الطفولي من موقف الولادة والطفولة . والشعور بأنك على مايرام هنا ناشئ عن المداعبة ، لأن كل صغير يتلقى المداعبة خلال العام الأول من الحياة فالواجب يحتم أن يحمل ويعتنى به . ولن يعيش الصغير بدون الحد الأدنى الضروري من الحمل على اليدين . وهناك كذلك شعور مضاد بأنه على غير مايرام . وهذا الاستنتاج يتعلق به شخصيا . وأعتقد أن الدلائل تشير الى أن طغيان الشعور في الصغير بأنه على غير مايرام سيجعله يستنتج أنه ليس على مايرام (على أساس الدليل الذي تكون لديه) وسيكون استنتاجه هذا منطقيا . وعند تحليل المعاملات للمرضى وغير المرضى وجدت بصفة عامة اجابة : : هو هذا . عند تفسير نشأة الصغير الذي يشعر بأنه

ليس على مايرام ، وأعتقد أن الاعتراف بأن هذا « الطفل » فى داخل كل منا هو الأسلوب التعاطفى بل العلاجى الذى يمكننا أن نحلل به الألعاب ، وبالتالي فإننا بالنظر الى عمومية الألعاب تصير عمومية الشعور بأنه على غير مايرام - استنتاجا معقولا . . . وكان خلاف أدلر مع فرويد يدور حول هذه النقطة : لم يكن الجنس أساس صراع الانسبان من أجل البقاء بل هو مشاعر القصور . أى شعوره بأنه على غير مايرام . ورغم أن الصغير بسبب ضآلة حجمه وعجزه ، يعتبر نفسه حتما فى مرتبة أدنى بالنسبة للأشخاص الراشدين المحيطين به . وقد تأثر هارى ستاك سوليفان بآراء أدلر ، وتأثرت أنا كثيرا بآراء سوليفان الذى دارت مساهمته الأساسية فى علم التحليل النفسى حول فكرة « العلاقات المتبادلة بين الأشخاص أى المعاملات » - أى أنه الصغير يبنى كل تقديره لذاته على تقدير الآخرين فيما أسماه « التقدير المنعكس » فقال :

يفتقد الصغير المعدات والخبرة الضرورية لتكوين صورة صحيحة عن نفسه . ولذلك فإن مرشده الوحيد هو ردود أفعال الآخرين نحوه . وليس لديه سبب قوى للشك فى هذا التقدير . وعلى أية حال فإنه بسبب ضعفه أبعد عن أن يتحدى الآخرين أو يشور ضدهم ولذلك فإنه يقبل - بصورة سلبية - الأحكام التى تصدر أولا خلال هذه الفترة فى شكل تأكيدى . بواسطة الكلمات والإيماءات والأفعال . . . وعلى ذلك فإن المواقف الذاتية التى يتعلمها الفرد فى باكورة حياته تستمر معه فى حياته المستقبلية مع مراعاة تأثير الظروف البيئية غير العادية . والتعديلات التى تحدث خلال الخبرات التالية (٨) .

ويشعر الشخص فى المحل الأول بحنان الآخرين فى شكل المديح (٩) انه يشعر بحاجة شديدة للمديح أو التقدير الذى هو الصورة النفسية للمداعبة البدنية المبكرة . وفى هذا الموقف يوجد الأمل بسبب المداعبة فيظهر موقف : أنت على مايرام . حتى اذا لم تكن المداعبة مستمرة . ان الراشد لديه شئ يعمل : ما الذى عمله لأفوز بمديحتهم أو موافقتهم . هناك طريقتان قد يحاول بهما الناس أن يعيشوا هذا الموقف :

From G. S. Blum, "Psychoanalytic Theories of Personality" (٨)
(New York : Mc Graw Hill, 1953), p. 73-74.

(٩) استخدمنا هنا كلمة (مداعبة أو تربييت) للطفل فى العامين الأولين وكلمة (مديح) بالنسبة للكبار - ترجمة لكلمة واحدة هى Stroking - المترجم .

الأولى : أن يعيشوا حوارا حيا (١٠) يؤكد موقف الشعور بأنهم على غير مايرام - الذى كتبته الصغير بلا وعى - وقد يدعو الحوار الى حياة الانسحاب - مادام من المؤلم أن يتعامل مع أناس على مايرام . وعلى ذلك فإن الشخص سيبحث عن المديح أو الجنان من خلال الاعتقاد والاندماج فى رغبة جياشة للحياة بمعنى (اذا كنت أنا - متى أكون) .

وقد يدعو حوار شخص آخر الى سلوك يثير نائرة الآخرين الى درجة أن يتحولوا ضده (تربيت سلبى) وهذا يبرهن مرة أخرى على فكرة (أنا لست على مايرام) وهذه هى قضية (الولد الصغير الردى) . أنت تقول أنني ردىء . إذن فساكون رديئا . ولذلك فانه قد يركل ويبصق ويخدش فى خلال طريقة لممارسة الحياة . وبذلك يحقق تكاملا زائفا مع واحد على الأقل من الثوابت التى يستطيع حصرها : أنا لست على مايرام ، وأنت على مايرام . وفى ذلك يجد نوعا من الاحساس البائس ، لأن تكامل الموقف قد حصل ولكنه يقود لليأس ، والقرار النهائى فى هذا الموقف هو الاستسلام (يتحول الى سلوك راسخ) ، أو الانتحار .

أما الطريقة الثانية فهى الطريقة العادية للحياة فى هذا الموقف عن طريق : **الحوار المعارض** . (اللاوعى أيضا) مع استعارة بعض الخطوط من « الوالد » (تستطيع أن تكون على مايزام اذا ٠٠٠) ومثل هذا الشخص يبحث عن أصدقاء . فيلتصق بهؤلاء الذين لديهم « والد » كبير . لانه يحتاج الى مداعبات كبيرة ، وكلمة كان « **الوالد كبيرا** » ، كانت المداعبات أفضل ، (المداعبات التى تبعث الشعور على أن المرء على مايرام يمكن أن تأتى فقط عن طريق أشخاص على مايرام) و « الوالد » على مايرام كما كان فى البداية . ان هذا الشخص تواق وراغب وموافق لطلبات الآخرين . إن « بعض أفضل أصدقائنا » قد نالوا صداقتنا بسبب هذه الجهود المبذولة لكسب القبول . وعلى أية حال فانهم ربطوا حياتهم بتسلق الجبال . وعندما يصلون الى قمة أحد الجبال ، فانهم ينتظرون جبلا آخر . ان احساسهم بأنهم ليسوا على مايرام يكتب الحوار . انه (أنت على مايرام) ، و (أريد أن أصير مثلك) ذلك الذى يكتب الحوار المعارض ، وليست أعمال تحقيق السعادة أو احساس القيمة المستديمة . لأن الموقف هنا لم يتغير

(١٠) ان تحليل الحوار هو أسلوب كشف القرارات المبكرة التى اتخذت بدون شعور ، مثل كيف نعيش الحياة - واقصد هنا عمومية الحوار . والحوار المعارض . وللعلم فقد أجريت دراسات محددة حول أصول وتحليل الحوار بمعرفة عدد من محلى للمعاملات الانسانية منهم برن Berne ، وأرنست Ernest ، وجرودر Groder ، وكاريمان Carpmann ، وشتاينر Steiner

« بضَرْفِ النظرِ عما أفعله ، فأننى لازلت على غير مايرام » . وحيث ان الموقف لم يسدل عليه الستار أو يتغير فان الانجازات والمهارات التى نتجت عن الحوار المعارض « تستطيع أن تخدم الشخص جيدا عندما يبنى خطة حياة جديدة وواعية مع « الراشد » »

انا لست على مايرام . وأنت لست على مايرام :

إذا توصل جميع الأطفال الذين يعيشون الطفولة الى موقف : (أنا لست على مايرام ، وأنت لست على مايرام) مبدئيا ، فماذا يحدث لكى يتوصلوا الى الموقف الثانى : (أنا لست على مايرام . وأنت كذلك) . فماذا جرى لموقف : (أنت على مايرام) ؟ ماذا حدث لمصدر المداعبات ؟ لقد حدث شيء ذو معنى للرضيع عند نهاية العام الأول . انه يمشى . انه غير محتاج لمن يحمله فيما بعد . واذا صارت أمه باردة ولم تعد تداعبه . واذا تعاونت معه فقط خلال العام الأول لأن ذلك كان مفروضا عليها ، فان تعلمه المشى يعنى أن أيام « طفولته » قد ولت ، وتوقف المداعبة نهائيا . وبالإضافة الى ذلك تصير العقوبات أقسى وأكثر عددا لأنه قادر على النزول من سريريه ليعبث بما حوله . ويرفض البقاء ساكنا هادئا . حتى الاصابات التى يسببها لنفسه . أصبحت أكثر حدوثا لأن حركته تجعله يمر على معوقات ، وتجعله يسقط من على السلالم .

ان الحياة التى كان لها بعض المباهج خلال العام الأول ، ليس بها شيء الآن . واذا استمر هذا الحال من الإهمال والصعوبة بدون ترفيه خلال العام الثانى من العمر ، فان الصغير يستنتج : (أنا لست على مايرام ، وأنت لست على مايرام) . وفى هذا الموقف يتوقف « الراشد » عن النمو حيث أن إحدى وظائفه الأولية وهى تلقى المداعبات . قد أحبطت لعدم وجود مصدر للمداعبة . ويستسلم الشخص فى هذا الموقف لعدم وجود أمل . انه يمضى خلال الحياة ببساطة . وقد ينتهى فى مصحة عقلية ، فى حالة انسحاب شديد ، مع سلوك متخلف يعكس رغبة قديمة باهتة فى العودة الى الحياة كما كانت فى العام الأول الذى تلقى فيه المداعبات الوحيدة التى عرفها - كرضيع كان يحمل ويطعم بمعرفة الآخرين .

ومن الصعب أن نتخيل شخصا يمضى فى طريق الحياة بدون مداعبات . وحتى مع وجود أم لا تداعبه . فلا بد بالتأكيد من ظهور أشخاص مؤهلين لرعاية الشخص الذى يمر بهذه الحالة وهم الذين يمنحونه الحنان فى الحقيقة . وعلى أية حال فما دام قد استقر على موقف معين ، فان كل

الخبره نتحول لمساندة هذا الموقف اختياريا . واذا استنتج شخص :
 « أنت لست على مايرام » ، فان ذلك ينطبق على جميع الناس ، ويرفض
 مداعباتهم مهما كانت مخلصه . لقد وجد مقياسا آخر للتكامل أو الاحساس
 فى استنتاجه المبكر . ولذلك فان التجارب الجديدة لاتمزقه سريعا .
 وعنده هى الطبيعة المصيرية للمواقف . وأيضا فان الشخص فى هذا الموقف
 يتوقف عن استخدام « راشده » بالنسبة لعلاقاته مع الآخرين ولذلك
 فانه حتى أثناء العلاج يكون من الصعب الوصول الى « راشده » خاصة مع
 العلم بأن المعالج أيضا فى موقف « أنت لست على مايرام » وهناك حانه
 واحدة قد يصير فيها موقف (أنا لست على مايرام ، وأنت لست على مايرام)
 هو الموقف الأول وليس موقفا ثانويا بالنسبة للموقف الأساسى : انها
 حالة « الصغير » الهارب من الواقع ، الذى يظل غير مولود نفسيا . ويبدو
 أن هذا الهروب هو رد فعل كامن يفتقر للنضج العاطفى فى مواجهة
 الضغوط المفجعة الآتية من المحيط الخارجى الخالى من المداعبة . وهذا
 النوع من الصغار هو من لم يشعر بأن هناك من ينقذه خلال الأسابيع
 الأولى الحرجة من حياته . ان الأمر يبدو كما لو كان لم يجد أحدا فى
 الخارج هناك بعد نفيه المفجع الى معتزك الحياة .

ويستنتج سكوبلر (١١) أن هناك عاملا نفسيا يرتبط بعدم كفاية
 المداعبة بحيث ينتج « الصغير » الهروبى ، ويظن أن هذا العامل هو حاجز
 مرتفع أمام الثيرات بحيث يفل المداعبة التى بذلت للصغير . ربما لا يكون
 قد حرم تماما من المداعبة ، ولكنه حرم من احساسه بها أو تراكم
 احساسه بها . وحينذاك فان الصغير يراه الأبوان كما لو كان صغيرا
 لا يستجيب . (انه لا يجب أن يمسه أحد ، وانما يرقده هناك ، انه مختلف
 عن غيره) ، وحينذاك سيتوقف أبواه عن مداعبته لأنه « لا يجب أن يمسه
 أحد » . ومن الجائز أن التدليل الكثير (أكثر مما يبذل عادة) قد
 كسر الحاجز .

وقد لاحظت مرة ولدا هروبيا وأبكم فى سن الحادية عشرة يعطى
 دليلا على الادراك الواضح لموقف (أنا لست على مايرام ، وأنت لست
 على مايرام) بما يقدم عليه من الضرب العنيف المتكرر بقبضته ، أولا
 للمشرف . ثم لرأسه هو ، فظهر كما لو كان يعبر عن وجهة نظره فى
 الحياة : (أنت لست على مايرام ، وأنا لست على مايرام) فدعنا نحطم
 كلانا الآخر .

E. Schopler, "Early Infant Autism and Receptor Processes", (١١)
 Archives of General Psychiatry. Vol. 13 (October 1965).

أنا على مايرام ، وأنت لست على مايرام :

ان الصغير الذى عومل بقسوة لفترة طويلة من أبويه اللذين كان يشعر فى البداية بأنهما على مايرام ، سينتقل الى الموقف الثالث أى موقف بأن المرء على مايرام ، ولكن من أين يأتى هذا الاحساس ؟ أين مصدر الاجرام : (أنا على مايرام ، وأنت لست على مايرام) . هنا يوجد احساس المداعبة اذا كنت أنت (لست على مايرام) ؟ أما اعتبار أن الموقف يتقرر فى العام الثانى أو الثالث من عمر الصغير فهو يشكل سؤالاً صعباً ، لأنه اذا استنتج الصغير ذو العامين أنه على مايرام ، فهل هذا يعنى أن موقفه نتاج « مداعبة ذاتية » ؟ فاذا كان الأمر كذلك ، فكيف يداعب الصغير نفسه ■

اننى أعتقد أن هذه المداعبة تحدث حقيقة خلال الوقت الذى يتداوى فيه الشخص الصغير من إصابات مؤلمة وكبيرة مثل تلك التى يبتلى بها الحدث الذى يعرف باسم « الطفل المحطم » *Balard child* . وهو الطفل الذى ضرب بشدة حتى تكسرت عظامه وتمزق جلده - وأى شخص كسرت له عظمة أو أصابته رضوض شديدة يعرف هذه النوعية من الألم . والاصابات المؤلمة العادية فى الصغار المحطمين مثل الضلوع المكسورة ، والكلى الممزقة والجماجم المشدوخة . فما هو شعور من لم يتعلم المشى عندما يعانى من صعوبة التنفس بسبب الاضلاع المكسورة ، أو الصداغ المبرح بسبب نزيف الدم من العمود الفقرى ؟

اننا نجد فى كل ساعة أن خمسة صغار فى هذا البلد (الولايات المتحدة) يصابون إصابات من هذا النوع بأيدى والديهم . وأعتقد أنه بينما يكون هذا الفرد الصغير تحت العلاج بمعنى أنه « راقد هناك يلحق جراحه » فإنه يعيش احساس الوحدة بمفرده وبنفسه ، واذا لم يكن لسبب آخر ، فإن تحسنه يتناقض مع الألم الشديد الذى عاناه . ويبدو كما لو كان يشعر بالموقف قائلاً : « سأكون بصحة جيدة ، اذا تركتمونى وحدى - أنا على مايرام وحدى » . وعندما يظهر الأبووان المتوحشان ثانية ، فإنه قد يرتعش فى فزع متوقعا تكرار ما حدث .

« أنت تؤذينى ! - أنت لست على مايرام . أنا على مايرام وأنت لست على مايرام » . ان التاريخ المبكر للعديد من المجرمين ، الذين يعيشون فى هذا الموقف ، يكشف عن هذا النوع من الانحراف النفسى الكبير .

ومثل هذا الشخص الصغير قد عانى من القسوة . بالرغم من بقائه حياً . لسان حاله يقول : « ماحدث يمكن أن يحدث ثانية » . اننى أحيا ،

وسأظل أحياء . انه يرفض الاستسلام . وعندما يتقدم به العمر يبدأ في رد الضربة بمتلها . لقد رأى القسوة ويعرف كيف يكون قاسيا . ولديه أيضا تصريح (فى الوالد) بأن يكون قاسيا وعنيفا . وتسانده الكراهية بالرغم من أنه قد يتعلم اخفاءها وراء قناع الأدب المحسوب . قال كاريل تشيسمان Caryl chessman : « ليس هناك شيء يساندك مثل الكراهية ، ومن الأفضل أن تتصف بأى شيء ما عدا الخوف » .

وبالنسبة لمثل هذا الصغير ، فان موقف « أنا على مايرام ، وأنت لست على مايرام » يعتبر قرارا مصيريا . أما المأساة بالنسبة له وللمجتمع فانها تتمثل فى أنه يمضى فى الحياة رافضا أن ينظر الى الداخل . انه غير قادر على أن يكون موضوعيا فيما يتعلق بالمشاركة فيما يحدث له . انها دائما « غلطتهم » « كلهم » . ويقف المجرمون العتاة فى هذا الموقف . انهم أشخاص « بلا وعى » مقتنعون بأنهم على مايرام بصرف النظر عما يفعلون . وأن الخطأ الكلى فى كل الحالات هو خطأ الآخرين .

وهذا الموقف الذى كان يعرف فى وقت ما باسم « البلاهة الأخلاقية » هو فى الحقيقة حالة طرد فيها الشخص جميع المعلومات الواردة اليه عن صلاح الآخرين . ولهذا السبب فان علاجه صعب . حيث أن المعالج لايتفق مع أى شخص آخر . وينحصر التعبير النهائى عن هذا الموقف فى « قتل الغير » كاحساس يحتاج من القاتل الى تبرير (بنفس الطريقة التى دبر بها تبرير اتخاذ الموقف فى المحل الأول) . ان الشخص فى موقف (أنا على مايرام ، وأنت لست على مايرام) يعانى من الحرمان الشديد من الحنان . وأى قدر من الحنان يجب أن يتساوى مع شدة من يعطيه ، ولكن لا يوجد أشخاص طيبون . ولذلك فليس هناك حنان حقيقى . ومثل هذا الشخص قد يشكل عصابة من الرجال الموافقين أى الذين يمتدحونه ويداهنونه بشدة . ولكنه يعرف أنه مديح كاذب لأنه هو نفسه الذى أجبرهم عليه . وبنفس الطريقة فان عليه فى المقام الأول أن يفرز شعوره بالحنان . وكلما ازدادوا فى مدحه ازدراهم أكثر حتى يرفضهم فى النهاية من أجل تشكيل عصابة أخرى . ان هناك تسجيلا قديما فى ذهنه يقول : « اقترب منى حتى أنال منك » وهذه هى الطريقة التى بدأ بها حياته .

« أنا على مايرام ، وأنت على مايرام » :

وهناك موقف رابع - هو الذى ينطوى عليه أملنا - انه موقف (أنا على مايرام ، وأنت على مايرام) . كما أن هناك اختلافا متوازنا بين المواقف الثلاثة الأولى والموقف الرابع . فالثلاثة مواقف الأولى غير واعية -

سم ندوينها في أوائل الحياة - وجاء موقف (أنا لست على ما يرام ، وأنت على ما يرام) في البداية واستمر لدى معظم الناس على مدى الحياة - وقد تغير هذا الموقف لدى الصغار غير المحظوظين ، الى الموقفين الثاني والثالث - ويتثبت أحد هذه المواقف في كل شخص عند العام الثالث من العمر - وربما كان الاستقرار على أحد المواقف هو أحد الوظائف الأولية لدى « راشد » الصغير في محاولته للاحساس بالحياة ، وبذلك يجرى تطبيق مقياس للتنبؤ بالمستقبل بالنسبة لمشكلة الدوافع والمشاعر - ويتم التوصل لهذه المواقف على أساس المعلومات الواردة من « الوالد » ، « الطفل » - انها تنبئ على المشاعر والأحاسيس دون الاستفادة بالمعلومات الخارجية المعدلة -

ونظرا لأن الموقف الرابع (أنا على ما يرام ، وأنت على ما يرام) قرار ادراكي ولفظي ، فانه من الممكن أن يتضمن ليس فقط قدرا أكبر من المعلومات اللا نهائية عن الفرد والآخرين ، بل أيضا احتواء الامكانيات التي لم تختبر بعد - والتي تمتد في الأفكار الفلسفية والدينية المجردة - ان المواقف الثلاثة الأولى تركز على المشاعر - أما الرابع فيركز على الفكر والمعتقد ووزن الفعل - ان المواقف الثلاثة الأولى تتعامل مع لماذا ؟ أما الرابع فيتعامل مع لماذا لا ؟ وأن فهمنا للمواقف لا يرتبط بتجاربنا الشخصية - لأننا نستطيع أن نتجاوزها الى الغرض الاسمي المجرد من أجل جميع الناس -

ونحن في ذلك لاننجرف الى قرار جديد - ولكن الى قرار نتخذه عن تدبير وتفكير - وهو في هذا الصدد يشبه تجربة تحويلية - اننا لانستطيع أن نقرر الموقف الرابع بدون قدر أكبر من المعلومات بما يزيد عن معلومات معظم الناس الآخرين المتاحة لهم عن الظروف المحيطة بالمواقف الأصلية التي تقررت في بداية حياتهم - ويالهم من محظوظين ! هؤلاء الصغار الذين نالوا مساعدة مبكرة في الحياة ليكتشفوا أنهم على ما يرام بالتعرض المستمر للمواقف التي يستطيعون فيها أن يدللوا لأنفسهم على قيمتهم الذاتية وقيمة الآخرين - ولسوء الحظ فان معظم المواقف العادية تتمثل في ذلك الموقف الذي يتقاسمه الأشخاص « الناجحون » و « غير الناجحين » على حد سواء - ألا وهو موقف (أنا على ما يرام ، وأنت على ما يرام) ويتركز أكثر الأساليب استخداما للتعامل مع هذا الموقف - في ممارسة الألعاب -

ويعرف برن اللعبة بأنها :

سلسلة مستمرة من المعاملات المتتالية تتقدم الى نانج مستقبل واضح التحديد ، يمكن التنبؤ به - ويوصف بأنه مجموعة متكررة من

العلامات . تتكرر غالبا في شكل يمكن تصديقه ظاهريا ، مع حافز مستتر ، أو بأكثر عهومية . انها سلسلة من التحركات التي تنطوي على فنج أو حيل (١٢) .

وأنا أعتقد أن جميع الألعاب لها أصل في الطفولة الساذجة . ويمكن ملاحظة اللعبة بسهولة في أى فريق أفراد في سن الثالثة . « ما لدى أفضل مما لديك » . وهذه اللعبة هدفها التخفيف من عبء الشعور بأن المرء ليس على مايرام . وهي ضرورية لتثبيت معاني (أنا لست على مايرام ، وأنت على مايرام ، في ذهن الصغير في عامه الثالث . (ان موقف أنا لست على مايرام) يعنى : ان طولى قدمين ، وأنا ضعيف ، وعاجز عن الدفاع عن نفسى ، ومتسخ الجسم ، ولا أعمل شيئا سليما . وأنا عديم الكياسة . وليست عندي كلمات أحاول بها أن أجعلك تفهم الاحساس بكل هذه الأمور . أما (أنت على مايرام) فتعنى : ان طولك ستة أقدام ، وأنت قوى . وعلى صواب دائما ، ولديك كل الإجابات . وأنت أنيق ، وتستطيع أن تتحكم فى شخصى أنا بالموت أو الحياة . وتستطيع أن تضربنى وتؤذينى ، وتظل الحياة متوافقة .

ويرحب الطفل بأى تخفيف من وطأة هذه الظروف غير العادلة . ان طبقا كبيرا من الأيس كريم ، أو الاندفاع للوقوف فى أول الصف ، أو الضحك من أخطاء الإخت ، أو ضرب الأخ الأصغر ، أو ركل القطة ، أو الحصول على لعب أكثر . كل ذلك يعطى راحة وقتية حتى لو صادفته نكبة مرعبة أخرى فى الطريق . كان يضربه الأخ الأصغر ، أو تخمسة القطة . أو أن يجد صغيرا آخر لديه لعب أكثر .

للكبار أنماط أرقى من لعبة « ما لدى أفضل مما لديك » . . . بعض الناس يجد راحة مؤقتة فى تكديس الممتلكات ، أو بالمعيشة فى منزل أكبر وأحسن عما تمتلكه عائلة جونس ، أو حتى الشباهى بتواضعهم : أنا أكثر تواضعا منك . ان هذه الألعاب التي تركز على ما أسماه أدلر : « القصص المرشدة » قد تعطى راحة مقبولة حتى لو حدثت عقبة فى الطريق فى شكل وثيقة رهن تمسقى ، أو فواتير استهلاكية ، تلك التي تدفع الشخص الى حياة المشقة الدائمة . وفى الفصل السابع سنتحدث عن الألعاب بالتفصيل على أنها « حل » منتج للشقاء . يمزج الشقاء الأصلى ويؤكد موقف عدم الموافقة .

ان الهدف من هذا الكتاب هو اثبات أن الطريقة الوحيدة التي يتحسن بها الناس أو ليشعروا بأنهم على ما يرام ، هي الكشف عن مأزق الطفولة الذي يبرز المواقف الثلاثة الأولى ويبرهن على أن السلوك الحالي يخلد المواقف .

وأخير فمن الضروري معرفة أن موقف (أنا على ما يرام ، وأنت على ما يرام) هو موقف وليس احساسا .

ان الاحساس بأن المرء ليس على ما يرام في « الطفل » لا تنمحي تسجيلاته بقرار في الحاضر . والطريقة المناسبة هي أن تبدأ مجموعة من التسجيلات التي تتيح للمرء الاحساس بأنه على ما يرام في معاملاته . والنجاح حسب مفهوم تقدير الاحتمالات الصحيح ، والنجاح حسب مفهوم الأعمال المتكاملة التي لها معنى . والتي يتم تخطيطها بمعرفة « الراشد » وليس بمعرفة « الوالد » أو « الطفل » والنجاح الذي يركز على الأخلاقيات التي يمكن مساندتها منطقيا . ان الرجل الذي عاش سنوات عديدة حسب قرارات « الراشد » المتحرر لديه مجموعة كبيرة من تلك الخبرات الماضية ويستطيع أن يقول بالتأكد « أنا أعرف هذه الأعمال » .

ان منطق عمل (أنا على ما يرام ، وأنت على ما يرام) يتركز في أن الاحساس بالفرح أو السكينة عاجلا ، أمر غير متوقع . في أحد الأيام استكنى أحد المطلقين في إحدى مجموعاتي - بغضب قائلا : « اذهب أنت وفكرك الملعون الى الجحيم » لقد ذهبت الى حفل في الليلة الماضية وقررت أن أكون لطيفا بقدر الاستطاعة ، وقررت أن أعتبر كل فرد من الموجودين هناك على ما يرام ، ولاهبت الى تلك المرأة التي أعرفها وقلت : « لماذا لا تأتين وتتناولين القهوة معي في وقت ما ؟ » وإذا بها تسخر مني كما لو كنت صغيرا بقولها : « حسنا . اننى أود ذلك ، ولكنك تعرف أن الوقت غير متوفر لدى كل فرد للجلوس والنثررة طول اليوم كما تفعل أنت . ان هذا عمل الطيور . . التي لا تعمل ! » .

ان العواصف الشخصية أو الاجتماعية لاتخمد بمجرد أن نتخذ موقفا جديدا . ان « الطفل » يريد نتائج عاجلة - مثل القهوة السريعة . أو الراحة العاجلة من عسر الهضم . ولكن « الراشد » يستطيع أن يدرك أن الصبر والايمان ضروريان . اننا لا نستطيع أن نضمن مشاعر الموافقة باتخاذ موقف (أنا على ما يرام ، وأنت على ما يرام) . اننا حساسون لوجود التسجيلات القديمة . ولكننا نستطيع اختيار ايقاف الاستماع اليها عندما تعاد بطريقة تضعف الايمان الذي نعتقده في ضرورة انتهاز أسلوب جديد

للحياة ، ذلك الذى سوف يؤدى الى نتائج جديدة وسعادة جديدة فى حياتنا
عندما **يحين الوقت المناسب** . ويستطيع « الراشد » أيضا أن يعرف
استجابات « الطفل » لدى الآخرين . ويمكنه أن يختار عدم رد الكيل
بالكيل . أما التغيير الذى سيجلبه هذا ، وكيف أن هذا التغيير ممكن ،
فهو موضوع الفصل التالى .

الفصل الرابع

نستطيع أن نتغير

(يتباهى كل الناس برقى مجتمعاتهم ، ولكنهم هم أنفسهم لا يتطورون
الى الأفضل - رالف والدو امرسون)

لن ينبغي أن نكتفي بالإعتراف بأن لدينا مشكلات ، والأولى أن نعترف بأن معظم طاقتنا تستنفد يوما بعد يوم في صنع القرار . يقول المريض في الغالب : « لا أستطيع أن أتخذ قرارا ، قل لي : ماذا أفعل » . أخشى أن أتخذ القرار الخاطئ ، أو يقال في مواجهة العجز عن البت في الأمور : « إنني دائما على حافة التمزق » . إنني أكره نفسي ولا أبدو قادرا على عمل شيء . بالمرة . ان حياتي سلسلة من الأعمال الفاشلة » .

ورغم أن هذه الأقوال يمكن أن تقاوم للتعبير عن المشاكل ، إلا أنها جميعا تعود في أصلها الى الصعوبة التي تحيط بصنع القرار . ان الطبيعة غير المستقرة للعجز عن الحسم يجرى التعبير عنها أحيانا بالعدر الجزافي : « اعمل شيئا . أى شيء » - فقط اعمل شيئا . ونرى أثناء علاج المريض صعوبتين ملحتين تتعلقان باتخاذ القرار : ١ - « إنني دائما أتخذ القرار الخاطئ » . ويصدر هذا القول عن الشخص الذي تأتي قراراته والأنشطة التي تليها بنتيجة سيئة بالنسبة له ، ٢ - « إنني أفتش وأفتش عن نفس الشيء » . ويصدر هذا القول عن الشخص الذي ازدحم برنامج حاسبه الآلى الوهمى بسبب العمل الذي لا ينتهى أو القرارات المعلقة » .

أما الخطوة الأولى في حل أى من هاتين الصعوبتين ، فتنحصر في معرفة أنه يوجد في كل قرار ثلاث مجموعات من المعلومات التي يجب التعامل معها : المجموعة الأولى من المعلومات توجد في « الوالد » والثانية في « الطفل » والثالثة في « الراشد » . ان معلومات « الوالد » و « الطفل » محددة التاريخ . أما معلومات « الراشد » فتمثل حقيقة خارجية كما أنها توجد في الحاضر . مصحوبة بقدر ضخم من المعلومات المتراكمة في الماضي ، مستقلة عن « الوالد » و « الطفل » ، وتصب المعلومات الواردة من المصادر الثلاثة كلها في الحاسب استجابة لحافز المعاملات - اذن أى من هذه المعلومات ستتضمنه الاستجابة - « الوالد » أم « الراشد » أم « الطفل » ؟ ربما كانت أفضل طريقة لشرح هذه العملية هي أن تضرب مثلا :

سنقول أن رجل أعمال متوسط العمر ، له سمعة طيبة كاب ناجح ، وزوج ناجح ، ومواطن مسئول ، عليه أن يتخذ قرارا حول ما اذا كان ينبغي أن يوقع التماسا سيظهر في الجريدة المحلية من عدمه . وهذا الالتماس يؤيد مشروعا للمساكن المناسبة بحيث يستطيع الأفراد من كافة الأجناس أن يعيشوا حسب امكانيات الدخل . ان الطلب يأتي عن طريق التليفون وبمجرد أن يعيد السماعه الى مكانها يكتنفه ضيق عظيم ومغص في معدته مع الاحساس بأن يوما سعيدا قد فسد .

عليه أن يتخذ قرارا . ومن الواضح أن هناك قدرا كبيرا من الصراع يدور في داخله - فمن أين تأتي المعلومات المتضاربة ؟ « الوالد » هو أحد المصادر . ومن بين التسجيلات التي تدور ما يلي : « لا تجلب العبار على الأسرة » و « لا تقحم نفسك » و « لماذا أنت بالذات ؟ » و « يجب أن تأتي أسرتك وأولادك في المقام الأول » وهاك نغمات أخرى يدور حولها التسجيل الذي لا يقاوم . والذي انقطع خلال سنواته الأولى في بيته في إحدى مدن الجنوب ، « عليك أن تضعهم في مكانهم » . والحقيقة أنه يوجد تصنيف كامل من معلومات « الوالد » تحت « لفظ زنجي » الذي يطل برأسه ولم يكن متاحا للحوار من قبل . وقد أغلق الباب على هذه المعلومات خلال سنوات الطفولة المبكرة بواسطة التوجيهات الشديدة الحاسمة : « لا تسأل أسئلة » - « انه زنجي وهذا هو السبب » - « لا تجعلني أسمعك تتحدث عن هذا الموضوع ثانية » (وحتى بعض الأغاني المتداولة تدور حول نفس تلك الفكرة) .

وتقوى هذه التسجيلات المبكرة مع مرور الزمن باستمرار أوامر « الوالد » ومع دليل تال هو أن وجود الزنوج يمكن أن يكون سببا للمتاعب

(على سبيل المثال - يوجد في بعض المدن الأمريكية مثل ليتل روك وواتس وديترويت ، قوة ضغط تنادي بمساندة القرار الذي سيتخذه هذا الرجل) .

وتكمن قوة هذه المعلومات الواردة في قدرتها على توليد الخوف في « الطفل » . ومرة ثانية يعمل « الوالد » الضخم ، في « الطفل » الضئيل لكي يجعله يمثل . وعلى ذلك فإن المجموعة الثانية من المعلومات تأتي عن طريق « الطفل » ، وهي معلومات تعبر عن نفسها في شكل مشاعر : خرف ، ماذا سيقولون ؟ ماذا سيحدث لو تزوجت ابنتي زنجيا ؟ ماذا ستكون قيمة ممتلكاتي ؟ توجد هنا متاعب حقيقة ولكن شدة المشاعر لا ترتبط كثيرا بالمصاعب الحقيقية مثلما ترتبط بالصعوبة الأصلية المتمثلة في خيال الصغير ذي الأعوام الثلاثة المعتمد على أبويه طلبا للأمان . وهذا يولد الغص في المعدة والعرق في اليدين . ويمكن أن تكون المشكلة أكثر إيلاما عندما يتوجه الرجل الى الشراب ، أو يؤدي بعض الأنشطة البديلة للهروب من ضغط « الوالد » .

وستكون هذه معركة حياة قصيرة اذا لم تكن من أجل مجموعة أخرى من المعلومات النى تغذى الحاسب أيضا . انها المعلومات الواردة من الحقيقة وتوجد في المجال الخاص بها في « الراشد » - ان الرجل البسيط أو « غير المفكر » لا يقلق كثيرا للحقيقة . انه يسلم « للوالد » ببساطة . ان شعاره هو « السلام للطفل » بأى ثمن . والطرق القديمة هي أفضل الطرق . انها الطبيعة الانسانية والتاريخ يعيد نفسه . مثل المقولة الأمريكية الشائعة « اترك الامر لجورج » .

انه فقط الرجل ذو « الراشد » النشيط ، ذلك الذى يضع في اعتباره التهديد الجاد لاستحكام الأزمة العنصرية حتى بالنسبة لرفاهيته الذاتية . ويستطيع « الراشد » فقط أن يطلب معلومات أكثر . كما أنه يستطيع أن يقيم مدى خطورة الاسترقاق أو معاملة الأشخاص كالأشياء . وهذا هو ما أوجد احساس التحقير واليأس الذى دمر العديد من الزنوج . والذى جرى التعبير عنه في ليتل روك أو سيلما أو واتس أو ديترويت . و « الراشد » فقط مثل لينكولن ، هو الذى يستطيع أن ينظر بموضوعية الى كل المعلومات ويتقدم طالبا معلومات أكثر .

في عملية « التعريف الفصل » هذه تعمل المجموعات الثلاث من المعلومات التى نبدأ تنظيمها خارج فوضى المشاعر والتردد - على اتخاذ القرار . وطالما حدث الفصل . فان مجموعات المعلومات الثلاث يمكن فحصها بواسطة « الراشد » لمعرفة أيها سارى المفعول .

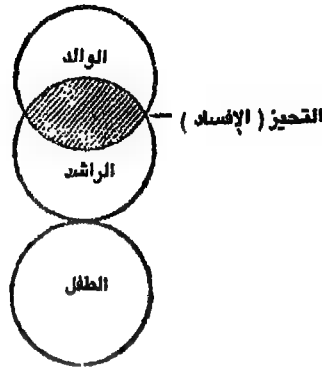
أما الأسئلة التي سيوجهها رجل الأعمال المتضايق عند فحص معلومات « الوالد » فهي : « لماذا يعتقد أبواه في هذه الأشياء ؟ » ماذا كان نوع « الوالد » لديهما ؟ لماذا كان الطفل لديهما مهتدا ؟ ماذا كانت قدرتهما أو عجزهما بالنسبة لفحص مبدأ « الوالد - الراشد - الطفل » عندهما ، وهل كان ما يعتقدانه صائبا ؟ هل الأشخاص البيض متفوقون على السود ؟ لماذا لا ؟ وهل من الخطأ ألا يغامر الإنسان ؟ وهل يجلب الموقف المعارض للتفرقة العنصرية الخزي للعائلة ؟ وهل من الممكن أن يجلب الشرف ؟ وهل يتحتم عليه أن يضع عائلته وأولاده في المقام الأول إذا لم يشترك في وضع حل منطقي للمشاكل العنصرية في مجتمعه ؟ » ولابد أنه من المفيد أن يسأل عما يعتقد أبواه اليوم من آراء تخالف ما كانا يعتقدانه عند تسجيل معلومات « الوالد » لديه .

وعلى « الراشد » لديه أن يفحص أيضا المعلومات الواردة من « الطفل » : لماذا يشعر بأنه مهتد إلى هذا الحد ؟ لماذا تتلوى معدته بالمقص ؟ هل هناك خطر فعلي ؟ وهل خوفه اليوم حقيقي أم أنه كان حقيقيا فقط عندما كان عمره ثلاثة أعوام ؟ ربما كانت لديه مخاوف حقيقية عن الفوضى والعنف . ربما كان قد قتل ، ولكن عليه أن يفرق بين الخوف الناتج عن الأحداث الواقعة والخوف الذي أحس به في الثالثة من عمره . إن خوف العام الثالث من العمر أكبر ، لأنه حينذاك لم يكن يقدر على تغيير الحقيقة . ولكنه يستطيع ذلك الآن وعمره ثلاثة وأربعون عاما . أنه يستطيع اتخاذ خطوات لتغيير الحقيقة ، وتغيير الظروف التي أوجدت الخطر الفعلي كلبية .

ومن الضروري فهم مخاوف سن الثالثة ، لتحرير « الراشد » وتصنيف معلومات جديدة . إنه الخوف - الخوف القديم من « الوالد » الذي يملك كل القوة - الذي يجعل الأفراد يحكمون في الأمر قبل النظر فيه ، أو الذي يجعلهم متعصبين . والشخص المتعصب يشبه الولد الصغير الذي تجدنا عنه في الفصل الثاني ، ذلك الذي يقبل فكرة أن « رجال الشرطة أرياء » على أنها حقيقة فعلية . وهو يخاف أن يفعل ما يخالفها .

وهذا هو ما يتمخض عن محادثة « الراشد » (شكل رقم ٨) .

وهذا التحيز يسمح بالتعصب أو بأن تصير معلومات « الوالد » التي لم تختبر حقيقة خارجية .



شكل رقم ٨ : التحيز أو المعايضة

ونستطيع أن ننسج على منوال كلمات سقراط القائل : « ان الحياة التي لا تختبر لا تستحق أن تعاش » . فنقول أن « الوالد » الذي لا يختبر لا يستحق أن تعتمد عليه حياة الفرد ، فقد يكون خاطئا .

الراشد المطلق السراح :

الغرض من تحليل المعاملات هو إتاحة حرية الاختيار للفرد - حرية التغيير حسب الإرادة ، تغيير الاستجابات حسب الدوافع المتكررة والجديدة - ان معظم هذه الحرية تضيق في الطفولة المبكرة - علامة على بدء ما يسميه كوبي « العملية العصبية » وهذه العملية تدخل باستمرار في حل المشاكل القديمة للوصول الى النتيجة التي تتعامل بكفاءة مع حقيقة اليوم -

قد تنطوي جذور العملية العصبية في ... ظاهرة الطفولة و / أو الطفولة المبكرة - وتكوين أشكال السلوك النمطية أو التعلق ببعض الأشياء أو الأفراد تعلقا مرضيا - هذه كلها قد تتضمن عروضاً مؤثرة - مثل البكاء والصراخ والكوابيس والأداء الغريزي من علمه - مثل : تناول الطعام والتأمل والقيء والاسترجاع ورفض الطعام واختيار الطعام اضطراريا وأنماط الإخراج أو الإمساك وأنماط نشاط الجهاز التنفسي مثل الشهيق والزفير ... وهكذا - أو أنماط الأفعال العامة مثل تشنج الوجه لا إراديا ، وخبط الرأس ، والاهتزاز والرضاعة وهكذا -

ولا يمكن اعتبار أى من هذه الأفعال عرضا داخليا شاذا في حد ذاته أو بسببه ، ما دام من الممكن تغييرها في حرية ، استجابة لتغير الإشارات

الخارجية أو الداخلية فتظل عادية • ان فقدان حرية التغيير هو الذى يبين بداية العملية العصبية (١) •

ان استعادة حرية التغيير هى الهدف من العلاج • وتنمو هذه الحرية من معرفة الحقيقة حول ما هو موجود فى « الوالد » وما هو موجود فى « الطفل » وكيف تدخل هذه المعلومات فى معاملات اليوم الحاضر • وسى أيضا تحتاج الى الحقيقة أو الدليل عن العالم الذى يعيش فيه • ومثل هذه الحرية تحتاج الى معرفة أن كل شخص يتعامل معه الفرد له « والد » و « راشد » و « طفل » انها تحتاج استكشافا ليس فقط فى المناطق « المعروفة » بل أيضا فى المناطق التى لا يمكن تحديدها « التى يمكن معرفتها جيدا باستخدام مصطلحات وظيفية أخرى « للراشد » وهى إمكانية التقييم •

ومن حقائق الأزمات الانسانية أن علينا أن نتخذ القرارات غالبا قبل مثل كافة الحقائق • وهذا حقيقى فى كل ناحية • انه حقيقى فى حالة الزواج ، وهو حقيقى فى حالة الادلاء بالأصوات • وهو حقيقى فى حالة توقيع التماس ، وهو حقيقى فى ترتيب الأولويات • انه حقيقى بالنسبة لتلك القيم التى نحتضنها باستقلال - وهو موجود فى « الراشد » • ان « الطفل » فىنا يطلب اليقين فهو يريد أن يعرف أن الشمس ستشرق كل صباح ، وأن الأم ستكون هناك ، وأن الشرير سينال عقابه فى النهاية • ولكن « الراشد » يستطيع قبول حقيقة أنه ليس هناك يقين دائما • يقول الفيلسوف التون تروبلاد :

ان حقيقة انه ليس لدينا يقين كامل بالنسبة لآى استنتاجات بشرية • لا تعنى أن عمل البحث غير مثمر • ومن المسلم به أن علينا أن نتقدم دائما على أساس الاحتمال • ولكن وجود الاحتمال يعنى وجود شىء • اما ما نبحت عنه فى أى مجال من الفكر الانسانى فانه ليس يقينا مطلقا • لأنه ليس فى وسع البشر • ولكنه مسار هؤلاء الذين يميزون درجات الاحتمال (٢) •

ويقع هذا فى مجال استكشاف الفلسفة والدين • وهو ما سننظر فيه فيما بعد فى الفصل الثانى عشر وعنوانه : « مبدأ (الوالد - الراشد - الطفل) والقيم الأخلاقية » •

(١) Lawrence Kubie, "Role of Polarity in Neurotic Process.",
Frontiers of Clinical Psychiatry. Vol. 3. No. 7 (April 1st., 1966).
(٢) Elton Trueblood, "General Philosophy", (New York : Harper, 1963).

ان « الراشد » في رجل الأعمال الذي واجه مشكلة التماس الاسكان . يستطيع الاعتذار بأن الدخل الناتج عن التوقيع غير مضمون . فاذا وقع بامضائه فانه قد يتعرض للاستهزاء ، واذا تضمن موقفه (أنا على مايرام ، وأنت على مايرام) جميع الأشخاص ، بصرف النظر عن الجنس أو العقيدة . فقد يهاجمه الأشخاص المتعصبون الذين هم في موقف يمكنهم من الاضرار بدخله . وعضويته في نادي الجولف ، أو علاقته بزوجه . ولكنه يستطيع أن يزن أيضا امكانية أن مساهمته في حل الاضطراب العنصرى في مجتمعه قد يقود الى تخفيف واضح لحدة المشكلة ، وعلى المدى الطويل قد يأتى ذلك بمداخلة « الطفل » فيه ، في شكل سمعته كرجل مبدأ وشجاعة .

وعندما يسود « الوالد » أو « الطفل » يمكن التنبؤ بالنتيجة . وهذا هو أحد المعالم الضرورية للألعاب . وهناك أمان معين في الألعاب . انها دائما قد تنقلب مسببة للألم ، ولكنه ألم نعلم اللاعب أن يتعامل معه . وعندما يسيطر « الراشد » على المعاملات ، لا يمكن دائما التنبؤ بالنتيجة . هناك احتمال الفضل ، كما أن هناك احتمال النجاح ، والأهم من ذلك أن هناك احتمال التغيير .

ما الذى يدفع الناس لطلب التغيير ؟

هناك ثلاثة أشياء تجعل الناس تريد التغيير . أحدهما هو أنهم قد نالوا الكفاية من الأذى . لقد دقوا رؤوسهم في نفس الحائط مدة طويلة حتى قرروا الاستكفاء . لقد وضعوا نقودهم في نفس الصندوق دون عائد لمدة طويلة حتى أنهم صاروا في النهاية راغبين اما في وقف اللعب أو الانتقال الى صندوق أخرى . لقد تصدعت رؤوسهم وتقرحت معدتهم . انهم سكارى . لقد اصطدموا بالقاع ، وهم يطلبون الراحة . انهم يريدون التغيير .

والشيء الثانى الذى يدفع الناس الى طلب التغيير هو نوع بطيء من اليأس يسمى الملل أو الضجر . وهذا هو ما يحس به الشخص الذى يمضى في الحياة قائلا : « ثم ماذا ؟ » حتى يسأل في النهاية سؤالا حتميا « ثم ماذا ؟ » انه قابل للتغيير . والشيء الثالث الذى يجعل الناس تطلب التغيير هو الاكتشاف المفاجئ لقدرتهم . وقد كان ذلك أحد الآثار الملحوظة لتحليل المعاملات من خلال المحاضرات ، أو بالسماع عنه من شخص آخر .

وأناحت هذه المعرفة الاندهاش فيما يتعلق بالامكانيات الجديدة ، تلك التي قادت فيما بعد الى استفسارهم ورغبتهم الشديدة فى التغيير - وهناك أيضا ذلك الطراز من المرضى وهو المريض الذى بالرغم من معاناته للأعراض المضنية - الا أنه لا يزال لا يريد التغيير فعلا ، ان بطاقة علاجه تقول : « اننى أعد بأن أدعك تساعدنى اذا لم تتحسن حالتى » . وهذا الموقف السلبى يتغير عندما يبدأ المريض يرى أنه توجد طريقة أخرى للحياة . ان المعرفة العاملة لمبدأ « الوالد - الراشد - الطفل » تجعل من المسور للراشد اكتشاف أبعاد جديدة ومثيرة للحياة ، وهى رغبة كانت موجودة طوال الوقت ، ولكنها كانت مدفونة تحت حمل عدم المرضا أو العجز عن التوافق .

هل الانسان عنده ارادة حرة ؟

هل يستطيع الانسان أن يتغير حقيقة - اذا أراد ؟ واذا استطاع ذلك ، فهل يعتبر تغييره نتاجا لعملية اشتراط conditioning سائلة ؟ هل للانسان ارادة ؟ ان احدى المشكلات الأشد صعوبة للموقف الذى وصفه فرويد تتمثل فى الحتمية مقابل الحرية او الجبر والاختيار . لقد قرر فرويد ومعظم السلوكيين أن ظاهرة العلة والمعلول - التى تظهر فى كل شيء - تصدق تماما بالنسبة للكائنات البشرية . وفجوها أنه «هما يحدث اليوم فمن المستطاع فهمه نظريا تحت ضوء ما حدث فى الماضى » فاذا قتل رجل اليوم رجلا آخر ، فاننا قد تعودنا حسب توجيه فرويد أن ننظر فى ماضيه لنكتشف السبب ، والافتراض هنا يدور حول حتمية وجود سبب أو أسباب ، وأن هذا السبب أو الأسباب يكمن فى مكان ما فى الماضى .

أما الذين يعتنقون مذهب الجبر البحت فيقولون : ان سلوك الانسان ليس حرا ، وهو فقط نتاج ماضيه ، والنتيجة الحتمية تتركز فى أن هذا الرجل ليس مسئولاً عما يفعله . ويعنى هذا فى الحقيقة أن ارادته ليست حرة ، وتظهر العضلة الفلسفية بصورة درامية فى المحاكم حيث يعتبر الموقف القضائى أن الرجل مسئول . أما مذهب الجبر الذى يقف خلف شهادة الطب النفسى فانه يتركز فى أن الرجل غير مسئول بالنظر الى أحداث ماضيه .

ونحن لانستطيع أن ننكر حقيقة العلة والمعلول . اذا ضربنا كرة بلياردو فاصطدمت بعدد آخر من الكرات ، التى ستضرب بدورها كرات

أخرى تحركها ، ومن ثم علينا أن نقبل البرهان على فكرة الترتيب المتسلسل للعلّة والمعلول ، أما مذهب الوحدة فيزعم أن هناك قوانين من نفس النوع تؤثر على سائر مظاهر الطبيعة - أما التاريخ فيبرهن على أنه بينما لم تتطور كرات البلياردو عما هي عليه وهي تتصام في دراما العلّة والمعلول إلا أن البشرية تطورت الى أكبر مما كانت عليه . ان برهان التطور والخبرة الشخصية ، يقنعنا بأن الانسان قد صار أكبر من أسلافه . وقد علق ول ديورانت على الفيلسوف الفرنسي هنري برجسون الذي عاش في القرن التاسع عشر الذي جرف قضية الجبر الى اللا معقول ، فقال :

وأخيرا هل بات مذهب الجبر أكثر وضوحا من مذهب الإرادة الحرة ؟ إذا لم تتضمن اللحظة الحاضرة اختيارا حيا وخلاقا ، وصارت كلية وتلقائية نتاجا لموضوع البحث وحركة اللحظة السابقة ، إذن فقد كانت تلك اللحظة هي التأثير التلقائي للخطّة التي سبقتها ، وهذه أيضا نتاج لما سبقتها . وهكذا ، حتى نصل الى السديم الأزل الموعّل في القدم ، كسبب كلي لكل حدث تال ، لكل سطر من مسرحيات شكسبير ، وكل معاناة نفسية عاش فيها ، حتى بلاغة كل من هاملت وعطيل وماكبث واير ، في كل جملة وكل فقرة . . . كلها قد كتبت في السموات البعيدة والأزمنة السحيقة . . . تكوينات ومحتويات تلك السحابة الأسطورية . يالها من مسودة للسحابة . . . لقد كانت هناك مادة كافية للثورة هنا ، وإذا فُقر برجسون الى الشهرة بأقصى سرعة فذلك لأنه كان لديه الشجاعة لأن يشك فيما آمن به كل الشكاكين (٣) .

وتكمن الإجابة ليس في تفنيد طبيعة العلّة والمعلول ، وأثرها على الانسان من جهة السلوك ، بل في البحث عن السبب في كل مكان وزمان ، وليس فقط في الماضي . ان الانسان يفعل ما يفعله لأسباب مؤكدة . ولا تعود جميع هذه الأسباب الى الماضي . وقد سئلت في مقابلة تليفزيونية عن السبب الذي جعل تشارلس هويتمان يتسلق برجاً في جامعة تكساس ويطلق الرصاص على أهداف من الناس الذين على الأرض أسفله . وبعد استعراض عدد من الأسباب الممكنة سئلت : « ولكن لماذا يفعل بعض الناس أشياء من هذا القبيل بينما الآخرون لا يفعلون ؟ ولا يزال السؤال ماثلاً . إذا كان موقفنا هو أننا ببساطة لانعرف الكفاية عن التاريخ الماضي بالنسبة

Will Durant, "The story of Philosophy", (New York : Simon & Schuster, 1933, pp. 337-338). (٣)

للفرد ، اذن فائنا لانزال فى نفس الموقف القائل بأن الاجابة تكمن فى الماضى .
فى مكان ما .

وعلى أية حال فان هناك فارق ضرورى بين الانسان وكرة البلياردو ،
فالانسان قادر من خلال التفكير على النظر الى المستقبل ، انه يتأثر بطراز
آخر من نظام السببية ذلك الذى يطلق عليه تشارلس هارتشورن اسم :
« السببية الردفعية reactive causation » (٤) .

ويشرح التون تروبلاد هذه النقطة بافراض أن أسباب السلوك
الانسانى تكمن ليس فقط فى الماضى بل فى قدرة الانسان على تأمل المستقبل .
أو تقدير الاحتمالات :

ان العقل الانسانى يعمل الى حد كبير وهو ينظر الى الأسباب
النهائية . وهذا امر شديد الوضوح لدرجة أنه قد يبدو من غير المستطاع
استخدام القياس التمثيلى للسببية بكرة البلياردو ، وبالطبع فان كرة
البلياردو تتحرك مبدئيا حسب السببية المؤثرة ، ولكن الانسان يعمل
بطريقة مختلفة تماما . ان الانسان مخلوق ينشغل حاضره دائما بالعودة
الى اللا موجود ، ولكنه على الرغم من ذلك قوى وينظر الى المستقبل . ان
غير الموجود يؤثر فى الموجود . اننى أواجه مشكلة صعبة ولكن المخرجات
ليست بالضرورة ، نتيجة لمجموعة من القوى الميكانيكية ، التى تصدق
بالنسبة للجسم الطبيعى ، وبدلا من ذلك اظن ، ومعظم تفكيرى ينصب على
ما يمكن أن ينتج بشرط امكانية اتخاذ بعض الخطوات (٥) .

ويعرف أورتيجا الانسان بأنه « كائن لايتكون من الكثير مما هو عليه ،
مثلا يتكون مما سيكونه فيما بعد » (٦) .

ويقول تروبلاد :

« لا يكفى أن نقول أن المخرجات محددة حتى بشخصية الانسان .
فى الماضى ، لأن الحقيقة فيما سنتقاسمه هي أن البدعة الأصلية يمكن أن
تنبثق من فعل التفكير » ان التفكير كما نمارسه يوميا ، ليس بالضرورة

See, "Causal Necessities, an Alternative to Hume, The Phi- (٤)
losophical Review, ٨٨ (1954), pp. 479-499.

Trueblood, General Philosophy. (٥)

J. Ortega Y. Gasset, "What is Philosophy." (٦)

مجرد ادراك الفعل ، مثلما يلج مذهب الظواهراتية epiphenomenalism
ولكنه سبب حقيقى وخالق " ان شيئا يحدث عندما يفكر
الانسان ، وهو شيء لا يمكن أن يحدث ان لم يفكر فيه الانسان وهذا
هو ما نعنيه باعتبار السببية الذاتية self-causation احتمالا ثالثا
اصيلا ضمن احتمالات المشكلة التى تحيرنا دائها (٧) .

وعلى ذلك فائنا نرى أن « الراشد » هو المكان الذى يستقر فيه
الفعل ، وفيه يسكن الأمل ، وفيه أيضا يمكن أن يحدث التغيير .

الفصل الخامس

تحليل المعاملات

(لأنى لست أعرف ما أنا أفعله - القديس بولس فى رسالته الى أهل

رومية - ٧ : ١٥)

الآن وقد وضعنا أساسا لحديثنا ، نأتى الى الجانب الفنى الذى يتمركز حوله ، وهو استخدام لغة الحديث لتحليل المعاملة : تتركب المعاملة من حافز أو مثير من شخص ، واستجابة من شخص آخر ، والاستجابة تصبح بدورها حافزا جديدا للشخص الأول لكى يستجيب لها . والغرض من التحليل هو : اكتشاف أى عناصر الانسان - « الوالد » أو « الراشد » أو « الطفل » هو منشأ كل مثير واستجابة .

وهناك اشبارات عديدة تساعدنا على تحديد المثير والاستجابة مثل . « الوالد » و « الراشد » و « الطفل » . وهذه بدورها لاتتضمن الكلمات المستعملة فقط ، بل أيضا نبرة الصوت وإيماءات الجسم وتعابير الوجه . وكما صرنا أكثر مهارة فى التقاط هذه الاشارات ، كلما اكتسبنا معلومات أكثر فى تحليل المعاملات . وليس علينا أن نغوص فى أحداث الماضى لاكتشاف ما هو مسجل فى « الوالد » و « الراشد » و « الطفل » لأننا نكتشف هذه العوامل فى أنفسنا يوميا . ونقدم فيما يلى قائمة بالاشبارات البدنية واللفظية لكل حالة :

اشارات الوالد : البدنية : تقطيب الجبين - زم الشفتين - التلويح
 باصبع السبابة - هز الرأس - النظرة المربعة - النقر بالقدم - وضع اليد
 فى الخصر - شبك الذراعين على الصدر - التربيت على الرأس - فرقة
 اللسان - التأوه - عصر اليدين - وتلك هى ايماءات « الوالد » التى تخص
 « والد » الشخص - وعلى سبيل المثال - اذا كان لدى أليك عادة تسليك
 حلقه والنظر الى السماء فى كل مرة كان يدلى فيها بتعليق حول سلوكك
 الردىء - فان هذا السلوك سيظهر بلا شك كلازمة خاصة بك عند كل
 تعليق « والدى » حتى اذا لم يكن ذلك مرثيا - « كوالد » - فى معظم
 الناس - وأيضا هناك اختلافات ثقافية - وعلى سبيل المثال ، فان الناس
 فى الولايات المتحدة يزفرون عندما يتشاءبون ، بينما الناس فى السويد
 يشهقون عندما يتشاءبون .

اشارات الوالد : اللفظية : سأضح جدا نهائيا لهذا - ان هذا فوق
 طاقتى - والآن تذكر دائما . . . (دائما ، وأبدا ، وغالبا : هذه كلها كلمات
 « الوالد » التى تكشف محدودية النظام القديم الذى أغلق أمام المعلومات
 الجديدة) - كم مرة قلت لك ؟ لو كنت مكانك . . . وقد تفصح الكثير
 من كلمات التقييم سواء كانت انتقادية أو مؤيدة ، عن هوية « الوالد »
 اذا كانت تقدم حكما على آخر ، مؤسسا على الاستجابات التلقائية القديمة
 لا على تقييم الراشد - والأمثلة على هذه الأنواع من الكلمات هى : غبى ،
 شقى ، مثير للاستهزاء ، مقزز ، مثير للاستفزاز ، أحمق ، كسول ، تافه ؛
 سخيف ، عديم القيمة ، مثير للشفقة ، لا ! لا ! يا ابنى العزيز « بلهجة
 بائعة متشددة » ، كيف تجرؤ ، شاطر ، هات من الآخر ، مرة أخرى ،
 من المهم أن تحفظ فى ذهنك أن هذه الكلمات ليست الا مفاتيح اشارة
 وليست استنتاجات حاسمة - وقد يقرر « الراشد » بعد تفكير عميق ،
 على أساس نظام « الراشد » الأخلاقى ، أن أشياء معينة غبية ومثيرة
 للاستهزاء ومقززة ومثيرة للاستفزاز - وهناك كلمتان هما : يجب ،
 ويتحتم ، غالبا ما يفصح استخدام أى منهما حالة « الوالد » ، ولكن وكما
 سيرد فى الفصل الثانى عشر ، فان كلمتى : يجب ، ويتحتم - يمكن أيضا
 أن تكونا بين كلمات « الراشد » - انه الاستخدام التلقائى القديم
 وبلا تفكير - لهذه الكلمات التى توضح عمل « الوالد » - ان استخدام
 هذه الكلمات مع ايماءات الجسد - وسياق المعاملات ، يساعدنا على
 تعريف « الوالد » .

اشارات الطفل : البدنية : حيث أن استجابات الطفل المبكرة للعالم
 الخارجى كانت غير لفظية - فان أوضح اشارات « الطفل » تظهر فى

التعبيرات البدنية • وأى من الاشارات التالية يشير الى انغماس « **الطفل** »
 فى المعاملة : الدموع ، ارتعاش الشفة ، التبويض والنبرة العالية • والتموج
 الحركى ارتفاعا وانخفاضا ، والصوت الممتزج بالأنين • والعينان الزائغتان •
 والكتفان المهتزتان بلا مبالاة • والعينان المنكسرتان • والمزاح • والفرح •
 والضحك • ورفع اليدين للاستئذان فى الكلام ، وقضم الأظافر • والتلوى •
 والقهقهة •

اشارات الطفل : اللفظية • كلمات عديدة • بالاضافة الى الكلمات
 الطفولية ويمكن أن نتعرف عليها ومنها : أرغب ، أريد ، لا أعرف ، سأفعل ،
 لا أهتم ، أخمن ، عندما أكبر ، أكبر ، الأكبر • أحسن ؛ الأحسن ؛
 (تتولد صيغ تفضيل عديدة فى **الطفل** مثل « قطع اللعب » فى لعبة
 « لعبتى أفضل » ؟ • وبنفس الروح نجد كلمات مثل « انظرى ياماما
 » اختفت يدعى « التى يقولها لى يبهز » الوالد « ولتغلب على حالة
 » لست على مايرام » •

وهناك مجموعات اخرى من الكلمات التى تقال باستمرار عن طريق
 الصغار ولكنها ليست اشارات • للطفل • بل تشير أكثر • للراشد •
 الذى يعمل فى الشخص الصغير ، وهذه الكلمات هى : لماذا ؟ وماذا •
 وأين ؟ ومتى ؟ ومن ؟ وكيف •

اشارات الراشد : البدنية : ماذا يشبه « الراشد » ؟ اذا حولنا جهاز
 الفيديو عن شريط « الوالد » و « الطفل » فماذا سيظهر لنا على الشاشة ؟
 هل سيظهر وجه فارغ - أم عطوف ؟ أم بليد ؟ أم تافه ؟ يقول ارنست (١) :
 « ان الوجه الخالى من التعبير لايعنى وجه « الراشد » • وهو يلاحظ أن
 الانصات الى « الراشد » يتحدد بالحركة المستمرة - للوجه والعينين
 والجسم ، مع رمشة العين كل ثلاثة الى خمسة ثوان • أما عدم الحركة
 فبمعنى الانصات • • ويقول ارنست : « ان وجه « الراشد » معتدل ، واذا
 مالت الرأس ، يكون الشخص منصتا بزاوية فى العقل • ويسمح « الراشد »
 أيضا « **للطفل** » المتعجب المستغرب بأن يطل بوجهه •

اشارات الراشد : اللفظية : وكما ذكرنا من قبل ، فان الكلمات
 الأساسية لدى « الراشد » تتكون من : لماذا ؟ وماذا ؟ وأين ؟ ومتى ؟ ومن ؟
 وكيف ؟ والكلمات الأخرى هى : بكم ؟ وبأى طريقة ؟ ونسبيا • وحقيقو •

(١) محاضرة العام F. Ernest عن « الاسماع » بمعهد تحليل الملامح ،
 ساكرامنتو بكاليفورنيا يوم ١٨ أكتوبر سنة ١٩٦٧ •

وزائف ، ومحتمل ، وممكن ، وغير معروف ، وموضوعي ، وأظن ، وأرى !
 وأنه رأيي ... الخ . وكل هذه الكلمات تشير الى نشغيل بيانات
 « الراشد » . وفي عبارة « انه رأيي » قد يكون الرأي مشتقا من « الوالد »
 ولكن المتحدث هو « الراشد » اذ أنه يعرف أن ذلك رأى وليس حقيقة .
 « من رأيي أنه يجب منح طلبة المدرسة العليا حق التصويت » . وهذه
 العبارة ليست هي نفس العبارة القائلة : « يجب أن يمنح حق التصويت
 لطلبة المدرسة العليا » .

وبهذه الاشارات التي تساعدنا ، نستطيع أن نبدأ فى تعريف
 « الوالد » و « الراشد » و « الطفل » فى المعاملات التي نندمج فيها نحن
 والآخرون (*) .

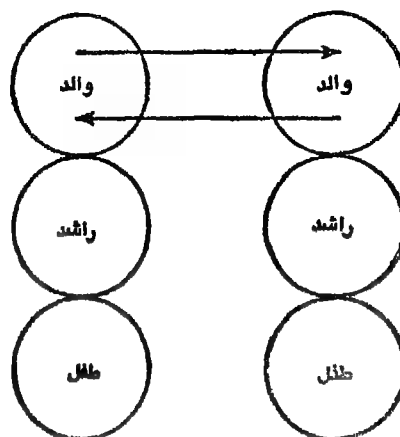
واى موقف اجتماعي يحفل بالأمثلة لكل نوع من المعاملات التي
 يمكن تصورها . ومنذ عدة سنوات مضت ، أنفقت يوما كاملا فى أتوبيس.
 أثناء سفرى الى بيركلى ، ولاحظت عددا من المعاملات . كانت الأولى متبادلة
 بين « والد » و « والد » (شكل رقم ٩) جرت بين سيدتين عابستين .
 جالستين احدهما بجوار الأخرى فى مواجهة . وكانتا تتحدثان فى فلسفة
 عميقة حول النقطة الخاصة بما اذا كان هذا الأتوبيس سيصل الى بيركلى.
 فى موعده أم لا . وقد أدارتا بمعرفة عظيمة وإيماءات مشجعة بالرأس .
 حوارا طويلا بدأ بالمعاملات التالية :

السيدة الأولى : (تنظر الى ساعتها وتملؤها وتهتمهم . وتنظر الى السيدة
 التي بجانبها ، ثم تنهد فى ارهاق) .

السيدة الثانية : (ترد التنهد ، وتزحزح فى غير راحة ، وتنظر الى
 ساعتها) .

السيدة الأولى : يبدو أننا سننتأخر مرة أخرى .

(*) شك أن الاشارات التي أوردتها المؤلف فى هذا الفصل تمثل نموذجاً على
 سبيل المثال وليس الحصر لتلك المستعملة فى الانجليزية وليست بالضرورة هي نفسها المستعملة
 فى العربية خاصة اللهجات المحلية أو العامية . ليس هذا فقط بل أن الاشارات بشكل عام
 تختلف من قطر الى قطر ومن شعب الى شعب من حيث المعانى والدلالات والنوعيات . ورغم
 ذلك أوردنا الاشارات الواردة فى المتن لارتباطها بمعانى إيجابية مميّنة فى الألعاب وتحليل
 المعاملات . ونوصى القارئ بأن يعود فى هذا الخصوص الى الفصل الخاص بالاشاوات
 الاجتماعية - فى كتاب : علم النفس الاجتماعي - للدكتور عبد الحليم محمود - الاسناذ بكلية
 الآداب جامعة القاهرة - المرجع .



شكل رقم ٩ - معاملة بين (والد - والد)

السيدة الثانية : انك لا تخطئين أبدا .

السيدة الأولى : هل رأيت فى حياتك كلها أتوبيسا يصل فى موعده ؟

السيدة الثانية : أبدا .

السيدة الأولى : هذا هو نفس ماكنت أقوله لهيربرت هذا الصباح -

انك لن تحصل مرة أخرى على خدمة مثل أيام زمان .

السيدة الثانية : انك على حق تماما . انها سمة من سمات العصر .

السيدة الأولى : ولكنها مضيعة للعمر ، وأى ضياع .

هذه المعاملات متبادلة ما بين « والد » و « والد » وعلى ذلك فهي تمضى بدون استفادة من البيانات ، وهى تشبه ذلك النوع من الأحاديث الذى سمعته حينما كانتا طفلتين من والدتيهما وعماتهما وهما تتحدثان عن ركوب الأتوبيس فى الزمن الماضى . وقد استمتعت السيدتان باستعادة الذكريات ، أكثر من الاستمتاع المنتظر فيما لو كانتا قد ذكرتا الحقائق ، وهذا بسبب الاحساس الطيب الذى يأتى من اللوم والبحث عن الأخطاء . عندما نلوم ونبحث عن الأخطاء . نستعيد اللوم المبكر وعمليات تصيد الأخطاء ، المسجلة فى « الوالد » وهذا يجعلنا نحس بأننا على مايرام . لأن « الوالد » على ما يرام . ونحن نتفق مع « الوالد » ، أما الاهتداء الى شخص يوافقك ويلعب معك اللعبة ، فانه ينتج احساسا بالقدرة على كل شىء .

بدأت السيدة الأولى الحركة الأولى ، وكان يمكن للسيدة البائية أن توقف اللعبة لو أنها أجابت عن أى نقطة بعباراة من « الراشد » على أى من عبارات السيدة الأولى :

السيدة الأولى : (تنظر الى ساعتها وتملؤها وتهتمهم ، وتنظر الى السيدة التى بجانبها ، وتتنهد فى ارهاق) .

احتمالات اجابة « الراشد » :

- ١ - تجاهل التنهد بالنظر بعيدا .
- ٢ - ابتسامة بسيطة .
- ٣ - (اذا كانت السيدة الاولى متضايقه بما فيه الكفاية) : هل أنت على ما يرام ؟

السيدة الأولى : يبدو أننا سنتأخر مرة أخرى .

احتمالات اجابة « الراشد » :

- ١ - كم الساعة الآن ؟
- ٢ - هذا الأتوبيس يصل عادة فى موعده .
- ٣ - هل تأخرت قبل ذلك ؟
- ٤ - سأسأل عن ذلك .

السيدة الأولى : هل رأيت فى حياتك كلها أتوبيسا يصل فى موعده ؟

احتمالات اجابة « الراشد » :

- ١ - نعم .
- ٢ - أنا لا أركب الأتوبيس عادة .
- ٣ - لم أفكر فى ذلك مطلقا .

السيدة الأولى : هذا هو نفس ماكنت أقوله لهربرت فى هذا الصباح .
انك لن تحصل مرة أخرى على خدمة مثل أيام زمان .

احتمالات اجابة « الراشد » :

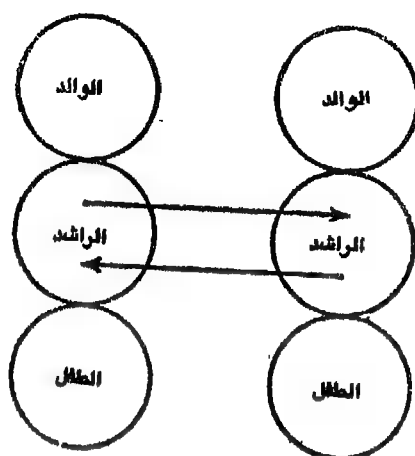
- ١ - أنا لا أوافق على ذلك .
- ٢ - أى خدمة تقصدين ؟
- ٣ - ان مستوى المعيشة مرتفع أكثر من أى وقت آخر ، حسب ما أراه .
- ٤ - ليس عندى مبرر للشكوى .

هذه الاجابات البديلة تنتمى الى « الراشد » ولكنها ليست تكميلية . ولا يرحب من يستمتع بلعبة « أليس ذلك مخيفا ؟ » باندخل الحقائق . وإذا كانت مجموعة من الزوجات يستمتعن كل صباح بالحديث حول « الأزواج الأغبياء » فانهن لن يرحبن بالجارة الجديدة التى تعلن فى سعادة أن زوجها جوهرة .

ويأتى بنا ذلك الى القاعدة الأولى من قواعد الاتصال فى تحليل المعاملات « عندما يتوازى الدافع والاستجابة فى نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) للمعاملات » يصبح التعامل تكميليا « ويستطيع أن يمضى الى أجل غير مسمى » ولا يعنينا السبيل الذى يمضى فيه الموجهون (والد - والد ، أو : راشد - راشد ، أو : طفل - طفل ، أو : طفل - راشد) اذا كانوا متوازين .

ان السيدتين الأولى والثانية لم يكن كلامهما معقولا من جهة الحقائق ، ولكن حوارهما كان تكميليا واستمر حوالى عشر دقائق . ان « الأسى الممتع » للسيدتين انتهى عندما سأل الرجل الذى أمامهما السائق عما اذا كانوا سيصلون الى بيركلى فى الموعد المحدد من عدمه . فقال السائق : (« نعم » فى الحادية عشرة والربع) . وكانت هذه أيضا معاملة تكميلية بين الرجل والسائق « راشد - راشد » (شكل رقم ١٠) كانت اجابة مباشرة على سؤال مباشر لطلب المعلومات . ولم يكن هناك عنصر « الوالد » (هل يمكن أن نصل الى بيركلى فى الميعاد ، ولو مرة واحدة ؟) وبدون عنصر « الطفل » (لا أعرف لماذا يحدث دائما أننى أستقل أبطأ الآتوبيسات) . انه تغيير غير انفعالى . وهذا النوع من المعاملات يحصل على الحقائق .

وكان هناك خلف السيدتين ، شخصان آخران يرسم نشاطهما نوعا آخر من التعامل هو « طفل - طفل » . كان لأحدهما وجهه مجعده الشعر ،



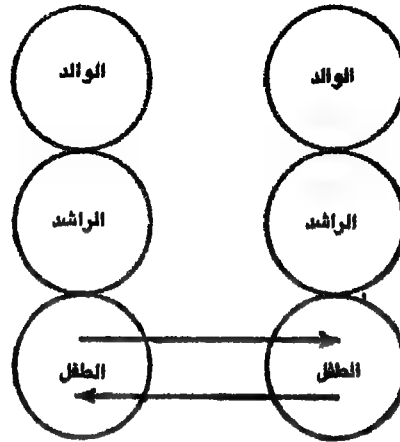
شكل رقم ١٠ - معاملة بين (راشد - راشد)

وكان بالتأكيد يبدو كطفل بشعر أشعث ومرتديا بنطلونا أسود ومغطى بالتراب ، وفوقه جاكيت أسود من الجلد . أما المراهق الآخر فقد كان يرتدى ملابس مشابهة مع نظرة خلاعة مختصبة . وكانا كلاهما منهيكين في قراءة نفس الكتاب ذى الغلاف الرقيق ، وعنوانه : أسرار طقفوس التعذيب . ولو كان هناك اثنان من القساوسة منكبين على نفس الكتاب - لتطوع الانسان بالقول أنهما يبحثان عن معلومات « الراشد » حول هذا الموضوع الغريب ، ولكن بمراقبة هذين المراهقين يأخذ الانسان على عاتقه القول بأن هذا كان تعامل « طفل - طفل » . انهما بذلك ينغمسان الى حد ما في نفس القسوة التي يجدها صغيران في سن الخامسة ، عندما يكتشفان كيفية خلع أجنحة الذباب . لنفترض أن المراهقين قد تصرفا حسب معلوماتهما الجديدة ووجدا سبيلا لتعذيب شخص ما كما هو مبين في الكتاب . لن يكون هناك تغذية « الراشد » بالمعلومات (عدم فهم النتائج) أو تغذية « الوالد » بالمعلومات (من المفزع عمل شيء كهذا) .

وحتى اذا تحول التعامل الى أسوأ بالنسبة لهما (وصول البوليس - أو الأم في حالة طفلي الخامسة اللذين يخلعان أجنحة الذباب) فإن الشخصين المندمجين في المعاملة نفسها ، سيكونان على توافق ، ولذلك فالمعاملة هنا تكميلية « طفل - طفل » (شكل رقم ١١) .

صور إضافية للمعاملات التكميلية :

معاملة « والد - والد » : (أنظر شكل رقم ٩) :



شكل رقم ١١ - معاملة بين (طفل - طفل)

- الحافز : ان واجبها هو البقاء في المنزل مع الصغار .
- الاستجابة : من الواضح أنه ليس لديها احساس بالواجب .
- الحافز : من المتير للاسمئزاز تلك الطريقة التي تغذى بها الضرائب كل هؤلاء التافهين من جيوبنا .
- الاستجابة : الى ماذا سيؤول الأمر ؟
- الحافز : اولاد هذه الايام كسالى .
- الاستجابة : انها من علامات الزمان .
- الحافز : ساستأصل هذا الشر الى الأبد .
- الاستجابة : على بركة الله ، عليك أن تقضى على الفساد في مهده .
- الحافز : أنت تعرف أن هذا غير مشروع .
- الاستجابة : أوه . ذلك يفسر ما حدث .
- الحافز : فصل جون . كيف يجروون على عمل مثل هذا الشيء ؟
- الاستجابة : « يستأهل » يا عزيزى . أنا لا أعرف لماذا عمل لدى تلك الشركة الغبية من الأول .
- الحافز : لقد تزوجته من أجل ماله .

- الاستجابة : حسنا - هذا هو كل ما حصلت عليه .
- الحافز : لا تستطيع أبدا أن تثق بأحد هؤلاء الناس .
- الاستجابة : تماما ! انهم جميعا متشابهون .
- معاملة : راشد - راشد « : (أنظر شكل رقم ١٠) :
- الحافز : كم الساعة ؟
- الاستجابة : ساعتى تقول : الرابعة والنصف .
- الحافز : هذه بداية جيدة الشكل .
- الاستجابة : أشكرك .
- الحافز : هذا الحبر الجديد يجف بسرعة .
- الاستجابة : هل هو أغلى من النوع الآخر .
- الحافز : من فضلك ناولنى الزبد .
- الاستجابة : هاك الزبد .
- الحافز : ما هذه الرائحة الطيبة ، يا عزيزى ؟
- الاستجابة : فطائر القرفة فى الفرن ٠٠٠ انها جاهزة تقريبا .
- الحافز : لا أعرف ماذا أفعل . لا أستطيع أن أقرر ماهو صواب ؟
- الاستجابة : لا أظن أن عليك محاولة صنع قرار عندما تكون شديد التعب .
- لماذا لا تذهب الى السرير وسنتحدث عنه فى الصباح .
- الحافز : أعتقد أنها تمطر .
- الاستجابة : هذا هو ما يقوله التنبؤ الجوى .
- الحافز : العلاقات العامة احدى وظائف الادارة .
- الاستجابة : تعنى أنه لايمكن ترتيبها من خلال احدى الوكالات .
- الحافز : السفينة لورلاين ستبحر فى الساعة الواحدة يوم الجمعة .
- الاستجابة : ما الوقت الذى علينا أن نكون فيه هناك ؟
- الحافز : يبدو جون متعبا مؤخرا .
- الاستجابة : لماذا لا ندعوه للغداء .

الحافز : أنا متعب .

الاستجابة : لنذهب للسريير .

الحافز : أرى أن الضرائب سترتفع هذا العام مرة ثانية .

الاستجابة : حسنا . ليست هذه بالأنباء الطيبة . ولكن اذا كنا سنستمر في الصرف ، فعلينا أن نحصل على النقود من مصدر آخر .

معاملة « طفل - طفل » : (أنظر شكل رقم ١١) :

يظهر أن هناك القليل من الألعاب الحرة التي تدور حول معاملة « طفل - طفل » التكميلية . هذا لأن الطفل مخلوق يطلب الحنان أكثر من أن يعطيه . ويقيم الناس العلاقات للحصول على الحنان . قال برتراند راسل : « لا يستطيع الانسان أن يفكر بقوة من منطلق الاحساس المجرد بالواجب . . . أريد نجاحا قليلا من وقت لآخر للمحافظة على مصدر للطاقة (٢) » .

وبدون انغماس « الراشد » في المعاملة لن يحصل أن شخص على حنان أو مديح ، « تصبح العلاقة غير تكميلية أو تموت من الملل » .

وتعتبر حركة الهيبيز (*) نموذجاً اجتماعياً واضحاً لهذه الظاهرة . إذ يحب هؤلاء الصغار الذين في عمر الزهور ، حياة يمارسون فيها معاملة « طفل - طفل » ولكن الحقيقة المفزعة بدأت تظهر : ليست هناك متعة في عمل ما تريد اذا كان كل شخص لا يجد المتعة الا في عمل الشيء الذي يريده . وهم باستئصال المؤسسة ، استأصلوا « الوالد » أي عدم الموافقة و « الراشد » أي الواقع المألوف ، ولكنهم مع استئصال عدم الموافقة هذا ، وجدوا أنهم قد استأصلوا أيضاً مصدر المديح « قد يقرر اثنان عمر

B. Russell, "The Autobiography of Bertrand Russell", (٢)
(Boston : Little Brown, 1967).

(*) الهيبيز : حركة شبابية معارضة ظهرت بالولايات المتحدة الأمريكية في السبعينيات ، خرج أفرادها على نماذج السلوك العادية في المجتمع الأمريكي ، وعبروا عن معارضتهم بارتداء ملابس غير عادية ، والعيش معاً في جماعات ، وكان بعضهم يتناول المواد المخدرة لاستجلاب المتعة . وقد انتشرت هذه الحركة في مجتمعات أخرى ، ووصلت الى المجتمع المصري ، ولكنها اندثرت بسرعة لأن مجتمعنا لم يستطع أن يهضمها كما أن شبابنا لم يتجاوب معها أو يستسيغها لأنها لم تكن أصيلة بل بدعة مستوردة . وسيقوم المؤلف هنا بمناقشة حياة أفراد هذه الحركة من منطلق تحليل المعاملات - المترجم .

كل منهما أربع سنوات أن يهربا من البيت ، ولكنهما يتخيلان عن الفكرة عندما يفكران أنه من الأفضل الحصول على فم من الايس كريم . وهذا يستدعى وجود الأم) . ان الصغيرين اللذين فى عمر الزهور كانا يبحثان عن الحنان ، ولكن الأمر صار أكثر وأكثر موضوعية وبدون معنى . قال الولد للبنت : « اننى أحبك طبعاً . اننى أحب كل شخص ! » وعلى ذلك فقد بدأت الحياة تستقر بأساليب للمداخلة أكثر وأكثر بدائية . منها هذا الحنان الغريب (الهروب بتعاطى المخدرات) والنشاط الجنسي المستمر . ويمكن للجنس وحده أن يكون نشاطاً « طفل - طفل » طالما أن الحافز الجنسي تسجيل ورائى فى « الطفل » ، مثل كافة الحوافز البيولوجية الأخرى . وأكثر أنواع الجنس جلباً للسعادة يزداد على أية حال عندما يوجد فى « الراشد » عناصر المراجعة واللفظ والمسئولية نحو مشاعر الآخرين . وليس كل الهيبز مجردين من هذه القيم ، كما أنهم ليسوا جميعاً مجردين من « الوالد » و « الراشد » فالكثيرون منهم يعيشون على أية حال - على أساس مبدأ البحث عن الذات ، ويبحث كل منهم لدى الآخر - من وجهة نظر خاصة - عن الحافز الجنسي .

اننا نكتشف فى علاقات الهيبز السعيدة أو صداقات الطفولة المليئة باللهو ، أنها لا تقتصر على علاقات « طفل - طفل » بل تنطوى على بيانات « الراشد » وقيم « الوالد » أيضاً . وعلى سبيل المثال ، اليك هذا الحوار بين فتاتين صغيرتين تلعبان :

الفتاة الأولى « طفل » : سأمثل دور الأم وأنت تمثلين دور الفتاة الصغيرة .

الفتاة الثانية « طفل » : لماذا يتحتم أن أكون الفتاة الصغيرة دائماً ؟

الفتاة الأولى « راشد » : حسناً . دعينا نتبادل الأدوار . أنت تمثلين دور الأم أولاً ، وفى المرة الثانية سأكون أنا الأم .

وهذا التبادل لا يمثل معاملة « طفل - طفل » لأن مدخلات « الراشد » (حل المشاكل) ظاهرة فى العبارة الأخيرة وكذلك فإن العديد من معاملات الأطفال الصغار تأخذ صورة « راشد - راشد » ، بالرغم من أنها قد تبدو طفولية المظهر « بسبب نقص المعلومات » .

الطفلة الصغيرة : انظروا ، انظروا ! لقد فقدت « بازى » (القطعة) إحدى أسنانها .

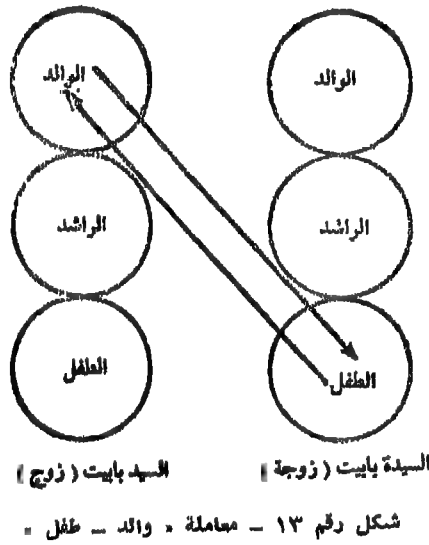
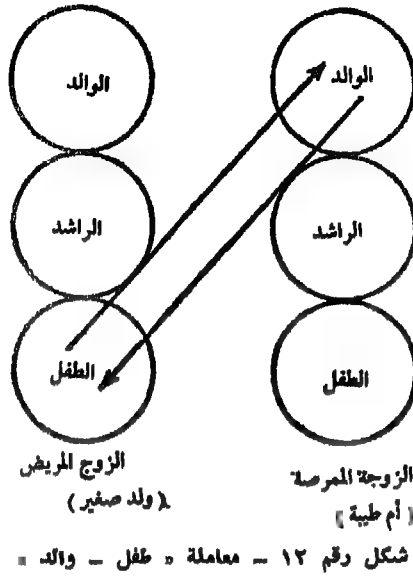
الأخت : هل ستعطيها الشمس « سنة العروسة » ؟

ان كلا من الحافز والاستجابة يعبران عن « الراشد » : انهما عبارتان ساريتا المفعول على أساس المعلومات المتوفرة . انها عملية تصنيف جيدة للمعلومات . المعلومات الخطأ ! - ويمكن ملاحظة معاملات « طفل - طفل » للتكميلية فيما يفعله الأشخاص معا أكثر مما يقوله الواحد للآخر ، وهذا صحيح بالنسبة للصغار - ان الفتى والفتاة اللذين يتشبث كل منهما بالآخر وهما يركبان أرجوحة سريعة خطرة ويصرخان ويصيحان ملء شديقيهما ، انما يؤديان معاملة « طفل - طفل » . ويمكن القول بأن المثلين المعروفين باسم : تاجليا فيني وتاسي ناري ، وهما يؤديان الفصل الثالث من أوبرا ميفيستوفيلي « غناء ثنائيا أي دويتو » - انما يؤديان دورا مكثفا لمعاملة « طفل - طفل » . ويمكن القول بأن الجدة والجد الذين يسيران عاريا الاقلام على شاطئ البحر - انما يؤديان دور معاملة « طفل - طفل » ، ولكن « الراشد » هو الذي يرتب مثل هذه التجارب السعيدة - لقد دفع الصبيان نقودا لدخول مدينة الملاهي وركوب الأرجوحة كذلك تدرب المغنيان سنوات طويلة لاتقان أداء هذا الغناء الباعث للنشوة - أما الجدة والجد فقد تقاسما لذة أن يكونا معا ، تلك التي صارت مستطاعة مع حياة العطاء والأخذ . ان العلاقة بين الناس لا يمكن أن تستغرق وقتا طويلا بدون « الراشد » - وعلى ذلك فقد نقول أن معاملات « طفل - طفل » تدوم باذن واشراف « الوالد » وعندما لا يكون « الوالد » مراقبا « يكشر » الطفل عن أنيابه في معاملات متقاطعة ، سنقوم بوصفها فيما بعد في نفس هذا الفصل .

معاملة « والد - طفل » :

تعتبر المعاملة ما بين « والد - طفل » (شكل رقم ١٢) طرازا من المعاملات التكميلية - الزوج (طفل مريض بالحمى ، ويريد العناية - الزوجة (والدة) تعرف مدى احساسه بالمرض وترغب في مراعاته مثل الأم . ويمكن لهذه المعاملة أن تستمر بطريقة حسنة طالما كانت الزوجة راغبة في أداء دور الأم .

وتنتمي بعض الزيجات الى هذا النوع - اذا أراد الزوج أن يلعب دور « الولد الصغير » ورغبت زوجته في أن تكون « والدة » - تتحمل مسؤولية كل شيء وترعاه ، فان هذا الزواج يمكن أن يكون مجزيا طالما أنه لم تبد أية رغبات في تغيير الدور . واذا تجاوز الواحد أو الآخر هذا الترتيب ، فان العلاقة المتوازنة تنفصم ، وتبدأ المتاعب - وقد صورنا في



شكل رقم ١٣ معاملة تكلميلية بين جورج ف . بابيت (والد) والسيدة بابيت (طفل) :

مستر بابيت (وهو ينظر الى الجريدة) : « أخبار كثيرة . اعصار رهيب في الجنوب . حظ سيء » . حسسنا . ولكن هذا يقول :

هذا كلام فارغ . بداية النهاية لهؤلاء الرفاق ! مجلس مدينة نيويورك
أجاز بعض القوانين التي ستجزم الاشتراكيين ! وهناك اضراب لعمال
المصاعد فى نيويورك . وعدد كبير من طلبة الجامعة يحلون محلهم " هذا
هو الكلام ! واجتماع عام فى برمنجهام طالب بطرد هذا المشاغب الايرلندى
المدعو دى فاليرا . عين الصواب . يا للعجب ! جميع هؤلاء المشاغبين دفع
لهم الذهب الألماني بطريقة ما . وليس لنا ما نعمله للتدخل مع الايرلنديين
أو أى حكومة أجنبية أخرى لننفض أيدينا نهائيا ، وهناك اشاعة جيدة
الحبكة من روسيا تقول أن لينين قد مات . هذا حسن . لا أستطيع أن
أفهم لماذا لا نخطو الى هناك ونطرد هؤلاء البلشفيك خارجا . »

السيدة باييت : « وهو كذلك » (٣) .

معاملة « طفل - راشد » :

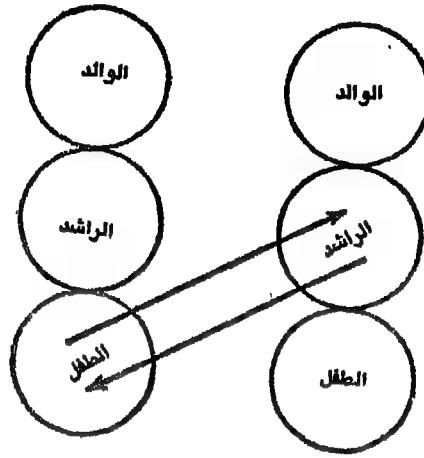
المعاملة بين « طفل - راشد » تمثل نوعا آخر من المعاملات التكميلية
(شكل رقم ١٤) . شخص واقع تحت ضغط مشاعر أنه ليس على مايرام ،
قد يمد يده الى شخص آخر طالبا تأكيدات حقيقية . ربما يخشى زوج
مجاوبة عمل وشيك الحدوث ، يعتمد عليه للحصول على ترقية . وحتى
مع كفاءته له من جميع النواحي ، الا أنه منقل بجمال بيانات « الطفل »
الموجودة فى الحاسب " « لن أنجح فى القيام به » ولذلك فهو يقول
لزوجته :

« لن أنجح فى القيام به » . على أنها قد تعيد عليه ذكر الأسباب
الواقعية التى تجعل فى قدرته القيام به اذا لم يدع « طفله » الذى يشعر
أنه ليس على مايرام ، يضيع فرصته فى النجاح . انه يعرف أن لديها
« راشد » طيب وهو « يستعيره » عندما لا يكون « راشده » على مايرام ،
وتكون استجابتها مختلفة عن استجابة « الوالد » التى لا بد وأن تكون
مؤكدة حتى اذا لم تتوفر للوالد البيانات الواقعية أو قد تتجاهل مشاعر
« الطفل » ببساطة : « طبعا ستقوم به ، لا تكن أحمقا ! » .

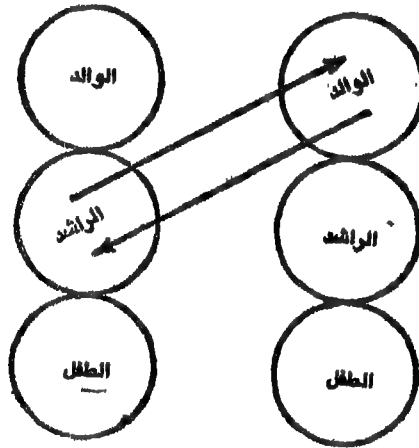
معاملات « راشد - والد » :

المعاملة بين « راشد - والد » تمثل نوعا آخر من المعاملات التكميلية
(شكل رقم ١٥) « ويمثلها رجل يريد التخلي عن التدخين . ان لديه معلومات

Sinclair Lewis, "Babbitt", Major American Writers, ed. (٣)
H. M. Jones & E. E. Lelsy. (New York, Brace, 1945), pp. 17-36.

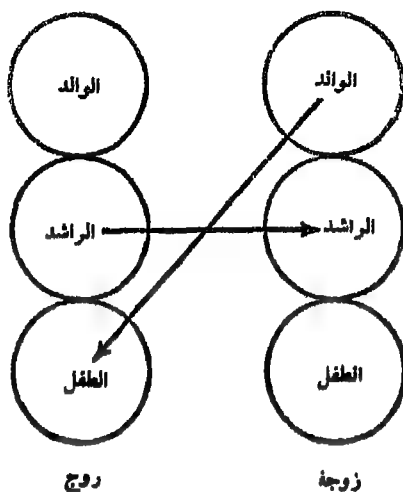


شكل رقم ١٤ - معاملة « طفل - راشد »

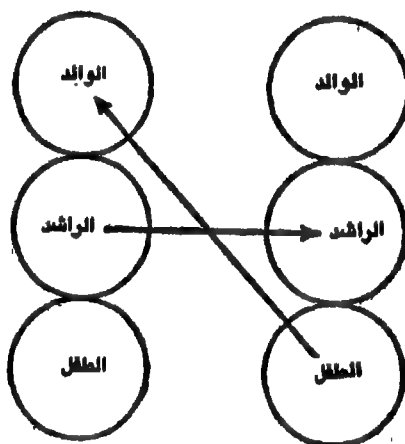


شكل رقم ١٥ - معاملة « راشد - والد »

« راشد » كافية لتفسير أهمية هذا الأمر بالنسبة لصحته . وبالرغم من هذا فإنه يسأل زوجته أن تلعب دور « الوالد » بأن تهلك سجائره عندما تجدها ، وأن تعترض بشدة عندما يشعل واحدة . وهذه المعاملة لها امكانيات اللعبة الجيدة ، وبمجرد أن يحيل الزوج المسؤولية الى « والد » زوجته ، يمكنه أن يصير ولدا صغيرا شقيا ويلعب دور « لولك لقممت بذلك » أو « حاول أن تمسك بي » .



شكل رقم ١٦ - معاملة متقاطعة



شكل رقم ١٧ - معاملة متقاطعة

المعاملات غير التكميلية أو المتقاطعة :

أما المعاملات المتقاطعة فانها تمثل نوعية المعاملات التي تسبب المتاعب (شكل رقم ١٦) والنموذج الكلاسيكى الذى وضعه برن لهذا النوع يتمثل فى المعاملة بين زوج وزوجة - حيث يسأل الزوج : « أين ذراير قميصى يا عزيزتى ؟ » (حافز من « الراشد » يطلب معلومات) وتكون

الاجابة التكميلية من الزوجة كما يلى : « فى الركن العلوى الأيسر من درج ثيابك » أو « لم أرها ولكننى سأعاونك فى البحث عنها » - وعلى أية حال اذا كانت عزيزته قد قضت يوما عابسا ولا يزال لديها كمية من الأذى والعبارات المجنونة فانها ستصيح قائلة : « أين تركتها ! » وستكون النتيجة معاملة متقاطعة - لقد كان الحافز « راشدا » ولكن الزوجة حولت الاستجابة الى « الوالد » -

ويأتى هذا الى القاعدة الثانية للاتصال خلال تحليل المعاملات .
عندما يتقاطع الحافز والاستجابة فى الرسم البياني الخاص بمعاملة (والد - راشد - طفل) ، يتوقف الاتصال - ولا يستطيع الزوج والزوجة أن يتحدثا عن أضرار القميص مرة أخرى ، فعليهما أولا أن يناقشا - لماذا لا يضع كل شيء فى مكانه - وما دامت استجابتها تنسب الى « الطفل » (« لماذا تصرخ فى وجهي دائما ؟ ») فسنصل الى نفس الموقف الذى لامخرج منه . هذه المعاملات المتقاطعة يمكن أن تشغل سلسلة كاملة من التراشقات المتبادلة ، التى تنتهى بانفجار عند بعض العبارات الثائرة التى قد تصل الى حد تبادل الألفاظ النابية (شكل رقم ١٧) .

وتكرار هذه النوعية من التراشقات يشكل ألعابا مثل : أنت السبب فى كل ماحدث ، و « لولاك لاستطعت » ، « الصخب » ، و « الآن أمسكت بك يا ... » وسنشرح ذلك فيما بعد فى الفصل السابع .

ويمكن أصل الاستجابات غير الراشدة فى موقف « أنا لست على مايرام » فى « الطفل » والشخص الذى يسيطر عليه هذا الاحساس ، يقرأ فى التعليقات التى تقال أشياء غير موجودة فيها : « من أين حصلت على شريحة اللحم » ، « ما بالهم » و « أحب تسريحتك الجديدة ! » ، « لم تعمل مثلها منذ فترة طويلة » . « اننى أسمعك تتحرك » ، « لانستطيع فى الوقت الحالى الانتقال الى مسكن جديد ولكن الحى ينحدر الى الأسوأ » ، « ناولنى البطاطس يا عزيزى » ، « وتدعونى سميئا » . أو كما قالت احدى مريضاتى : « يقول زوجى انه لا يستطيع أن يفهم كتب الطهى » .

صور أخرى للمعاملات المتقاطعة :

المريض (أ) : أحب أن أعمل فى مستشفى مثل هذا .

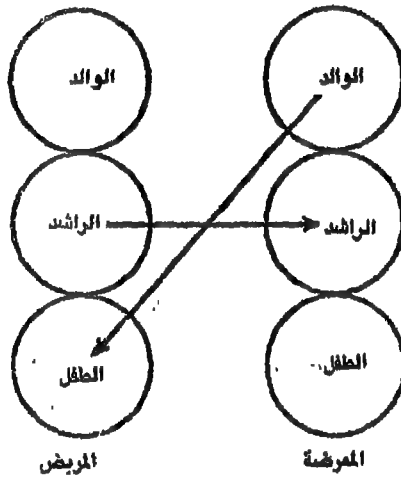
المرضة (والد) : أنت لا تستطيع حل مشكلاتك الخاصة (شكل رقم ١٨) .

الأم (والد) : اذهبى ورتبى غرفتك .

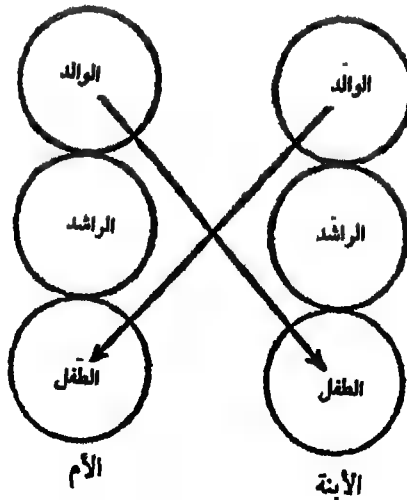
الابنة (والد) : ليس لك أن تأمرينى . أنت لست صاحب الأمر والنهى
هنا . أبى هو صاحب الأمر والنهى . (شكل رقم ١٩) .

الطبيب النفسى (راشد) : ما هو هدفك فى الحياة ؟

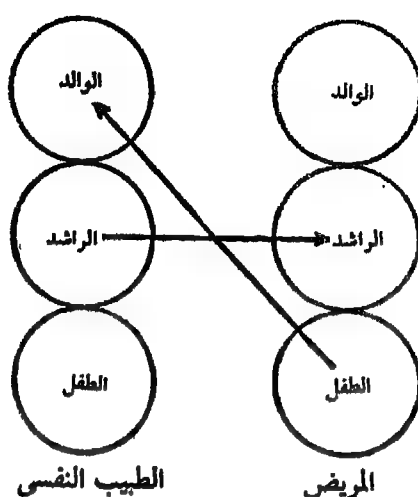
المريض (طفل) : الروتين ، الروتين (يضرب المنضدة) عليه اللعنة ،
انه الروتين (شكل رقم ٢٠) .



شكل رقم ١٨

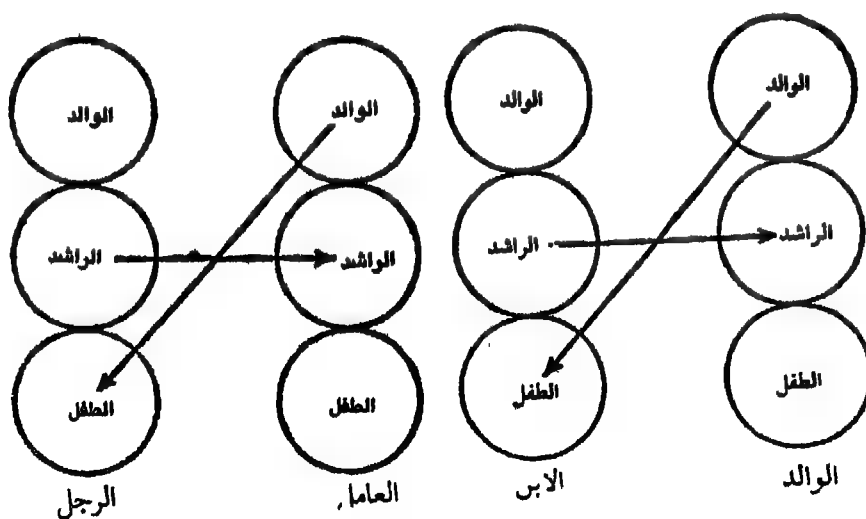


شكل رقم ١٩



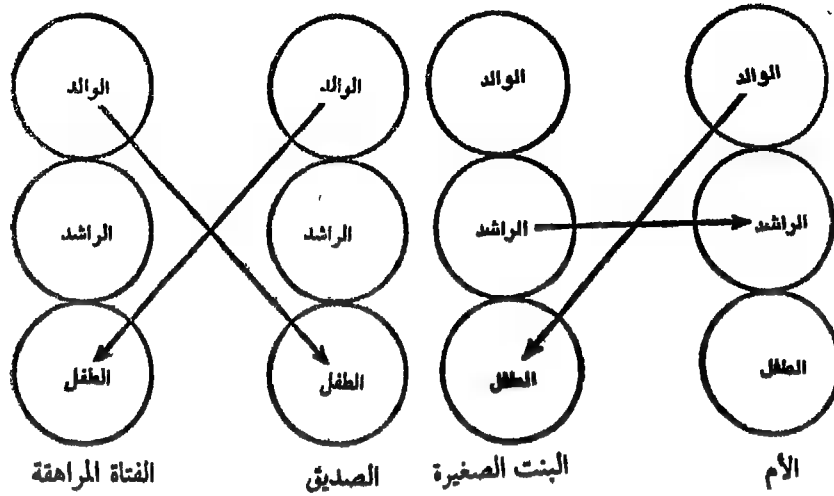
شكل رقم ٢٠

- الابن (راشد) : « يجب أن أنهى التقرير المليلة » انه مطلوب غدا »
- الأب (والد) : لماذا تترك الأشياء دائما حتى آخر دقيقة ؟ (شكل رقم ٢١)
- الرجل (راشد) واقفا مع صديق : كنا نحاول فتح هذا الغطاء وأسقطنا المفتاح خلف الرفرف . هل تستطيع معاونتنا فى اخراجه ؟
- عامل محطة البنزين (والد) : من الذى أسقطه (شكل رقم ٢٢)



شكل رقم ٢٢

شكل رقم ٢١



شكل رقم ٢٤

شكل رقم ٢٣

الفتاة الصغيرة (راشد) : القمصان القادرة دافئة .

الأم (والد) : اذهبي وخذي حماما (شكل رقم ٢٣) .

الفتاة المراهقة (والد) : حسنا ، بصراحة ، أبى يحب منطقة بالم سبرنجز أكثر .

الصديق (والد) : تحاول أسرتنا تغادى الأماكن السياحية (شكل رقم ٢٤) .

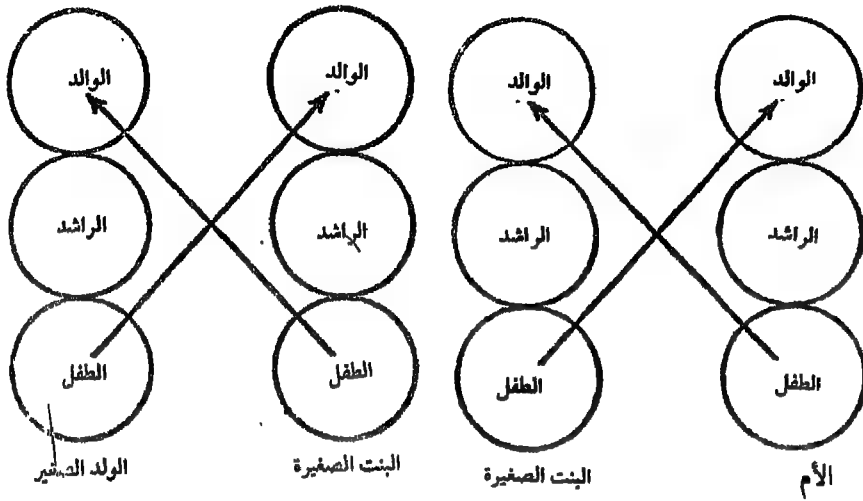
البنت الصغيرة (طفل) : اننى أكره الشووبة . لن أتناولها . أنت تطبخين طبيخا رديء الطعم .

الأم (طفل) : اننى على وشك الخروج وعندك تستطيعين أن تطبخي طعامك الرديء الطعم . (شكل رقم ٢٥) .

الولد الصغير (طفل) : أبى عنده مليون دولار .

البنت الصغيرة (طفل) : هذا يساوى لاشئ ، ان أبى لديه دسليون دولار (دسليون تعنى عند الصغير عدد لانهاى) (شكل رقم ٢٦) .

فيرونا ابنة بابيت (راشد) : اننى أعرف ، ولكن - أوه ، أريد أن أشارك هل أستطيع أن أجعل أحد المتاجر الكبرى يساهم فى تحسين أثار بيوت الفقراء ؟



شكل رقم ٢٦

شكل رقم ٢٧

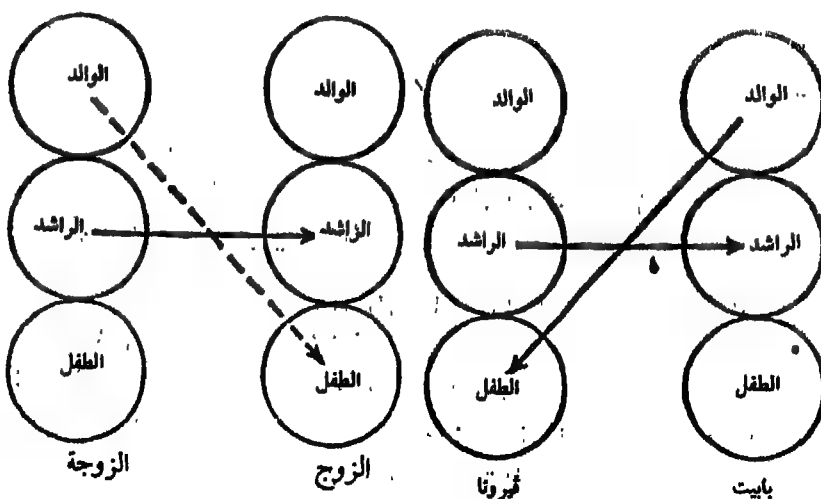
بابيت (والد) : ما هذه الترهات ! ان أول شيء عليك أن تفهميه هو أن كل هذه المشاريع الاجتماعية ، لا تساوى شيئاً فى عالم السماء ، ولكنها اسفين من أسافين الاشتراكية . ان المرء اذا أدرك أن الحياة لن تدلله ، وأن السماء لا تمطر ذهباً وفضة ، أو أنه لن يحصل على الكثير لأولاده الا من كده يديه ، فسرعان ما يلتحق بالعمل وينتج . وينتج ! هذا هو ما تحتاجه البلد . وليسبت كل هذه الأوهام هى التى تكاد تنهك طاقة الرجل العامل وتقدم لأولاده قدراً كبيراً من المفاهيم أعلى من طبقتهم . وأنت - لو تتجهين الى العمل بدلا من التصرفات الغبية والشغب الذى تبددين فيه وقتك كله ! عندما كنت شاباً ، اخترت طريقى وتمسكت به فى السراء والضراء . ولذا ارتقيت الى ما أنا عليه اليوم (شكل رقم ٢٧) . (٤) =

ان استجابات « الوالد » الشبيهة باستجابات بابيت ، يبدو أنها تركز على شعور « مالا يرام » فى « الطفل » لقد أحس بأن أولاده لم يقدروه . وأنهم لم يفهموا كم ناضل بشدة . وأنه لا يزال يشعر باحساس « مالا يرام » نحو هؤلاء الذين لديهم أكثر مما لديه . ولو كان قد سمح للطفل « فيه بأن ينشط ، فربما كان قد بكى ، ولذلك فانه تبع المسار

الأسلم وأدوار المعاملة الى « الوالد » الذى يكمن فيه الخير والبصواب ،
و « كل الاجابات » .

أما الشخص الذى يكون « طفله » دائما « ليس على مايرام » فانه
لايستطيع الاستمرار فى المعاملة التى ستطور تعامله مع الواقع ، لأنه مهتم
دائما بعمل لم ينته ، متصل بالواقع الماضى لا الحاضر . انه لا يستطيع
أن يقبل الثناء بامتنان لأنه لا يظن أنه يستحقه . فيخال أنه يبطن السخرية .
انه منغمس فى محاولة مستمرة لتحقيق تكامل الموقف الذى نشأ فى مرحلة
الطفولة . والشخص الذى يجعل « طفله » يندفع دائما الى رد الفعل .
انما هو فى الحقيقة يقول : « أنظر الى ، أنا لست على مايرام » والشخص
الذى يجعل « راشده » دائما يندفع الى رد الفعل ، انما هو فى الحقيقة
يقول : « أنظر الى ذاتك . أنت لست على مايرام » . (وهذا يجعلنى أشعر
بالتحسن) . والحركتان كلاهما تعبير عن موقف « ماليرام » وكل منهما
يساهم فى اطالة أمد اليأس .

ان موقف « ماليرام » لايعبر عنه فقط بالاستجابة : بل هو أيضا
يمكن أن يوجد فى المثير . يقول الزوج للزوجة : « أين أخفيت فتاحة
العلب » ان الحافز الرئيسى « راشده » لأنه يبحث عن معلومات ايجابية .
ولكن هناك « اتصال ثانوى » فى كلمة « اخفاء » (شئون منزلك تمثل
سرا بالنسبة لى ، وسنفلس اذا صرت غير منظم مثلك . أتمنى لو أننى
استطعت مرة ؛ أن أجد شيئا فى مكانه ا) وهذا هو « الوالد » انه نقد
مخفى بركة . وهذا يعطى حافزا لمعاملة مزدوجة (شكل ٢٨) .



شكل رقم ٢٨

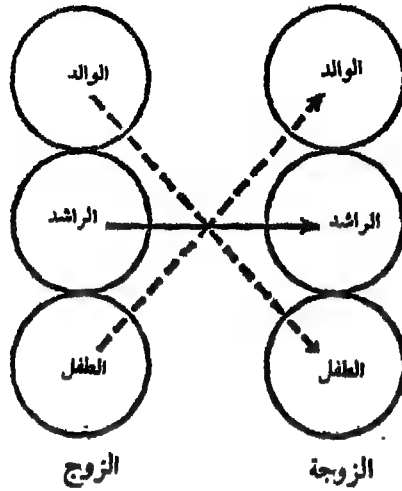
شكل رقم ٢٧

ويعتمد تطور المعاملة على أى الحوافز ترغب الزوجة فى الاستجابة لها . اذا أرادت أن تجعل الأشياء ودودة وأن تشعر بأنها على مايرام بما يكفى لعدم شعورها بالتهديد ، فانها سوف تستجيب : « لقد أخفيتما بجوار ملاعق المائدة يا حبيبى » . وهذه الاستجابة تكميلية لأنها تعطيه المعلومات التى يريد ، وتقر أيضا بنبرة رقيقة جهله بأسلوب ادارة المنزل . واذا قدر « راشدها » أنه من المهم بالنسبة لزوجها أن تفعل شيئا ازاء اشارة زوجها الخفية ، فانها سوف تفهم التلميح ، وتصير أكثر تنظيما . واذا شغلت « راشدها » معها لارادة المعاملة ، فانها سوف تستطيع تحقيق ذلك .

وعلى كل حال فانها اذا استثرت « طفلها » الذى يشعر أنه ليس على مايرام ، فان استجابتها الأولية ستكون لكلمة « الاخفاء » وقد تستجيب على طول خط عبارة : « اذن فما هو شأنك ؟ هل أنت أعبى أم أى شىء ؟ » وهنا ينتهى السؤال عن فتاحة القلب ، بينما هما يتجادلان حول مزايا وتقائص كل منهما فى مجال التنظيم ، والعجز عن الرؤية ، والغباء . . الخ . ولا تزال علبة البيرة مغلقة ، ولعبة « الضوضاء » تسير على أحسن مايرام .

ويمكن لبعض المعاملات من هذا القبيل أن تقدم حافزا واستجابة على كافة المستويات : رجل يأتى الى البيت ويكتب « أنا أحبك » على الغيار الذى يكسو منضدة القهوة . ان « الراشد » يتحكم فى الموقف رغم أن « الوالد » و « الراشد » كليهما منغمسان فى الموقف (شكل رقم ٢٩) . ان « الوالد » يقول : « ألا تنظفين هذا المكان أبدا ؟ » ويقول الطفل : « من فضلك لاتغضبى عندما أنتقدك » . وعلى أية حال فان « الراشد » يتجمل المسؤولية على أساس أن اظهار الحب مهم لزواجه ، ولذلك فانه لن أدع « والدى » أو « طفلى » يثار . اذا قلت لها اننى أحبها ، فانها لن تغضب منى . بل ربما عملت بالفكرة القائلة بأنه من المهم قبل كل شىء لرجل فى مثل مركزى أن يكون لديه منزل جميل المنتظر .

ويمكن لذلك أن يتحول الى معاملة تكميلية اذا كانت الزوجة « على مايرام » بما فيه الكفاية لقبول نقد بناء . وسيكون النتائج سعيدا اذا نظفت المنزل واستقبلت زوجها عند الباب بمشروب بارد كبير الحجم ، وقالت له كم هو زوج لطيف وعاطفى وواسع الخيال : ان الأزواج الآخرين يزمجرون ويننون فقط ، ولكن هاكم الجوهرة التى نلتها ! ومثل هذا الاقبال يؤكد النجاح . وعلى أية حال ، اذا لم تستطع أن تقبيل ذلك ، فانه من



(شكل رقم ٢٩)

المحتمل أن يجيب « والدها » بجدّة : « متى نظفت الجراج آخر مرة ؟ »
أو أن يرسلها « طفلها » خارجاً لتتسوق سلعا باهظة الثمن ترهق بها
زوجها . وهذه المعاملة تصور لنا أنه بالرغم من أن « الوالد » و « الطفل »
منغمسين في المعاملة « إلا أن الناتج يمكن أن يكون ودياً ، ويحقق زواجا
طيبا إذا كان « الراشد » هو الذى يتولى المسئولية .

و « الراشد » له حق الاختيار فيما يتعلق بالاجابة على المثير ، بطريقة
تكميلية تحمى كلا من العلاقة والأفراد الداخلين في العلاقة . ويتخذ ذلك
فى بعض الأحيان شكل حساب بديهي سريع جدا :

المنظر « حفل كوكتيل » وتبدأ المعاملة عن طريق رجل يغازل « طفله »
سيدة مغازلة وقحة فيقصرصها فى خدها ، فتجيب :

(راشد) : ان أمى تنصحنى دائما بأن أدير خدى الآخر .

لماذا عرفنا هذه الاجابة بأنها صادرة عن « الراشد » ؟

كانت من الممكن أن تجيب اجابة من « الوالد » فتقول : « أيها العجوز
القدر ! » أو حتى تصفعه .

أما اذا أجابت من « الطفل » فانها قد تصرخ ، أو ترتبك ، أو تغضب،
أو ترتعش ، أو تبتسم .

وعلى أية حال فإن اجابته صدرت عن « الراشد » لأنها تضمنت اجابته الواحدة قدرا كبيرا من المعلومات :

- ١ - لي أم قالت لي دائما - اذن فأنت تحت المراقبة !
- ٢ - أعرف الكتاب المقدس أيضا وهذا ما تعنيه ادارة الخلد الآخر . وهكذا ترى أنني لست من الفتيات العابثات .
- ٣ - المزاج الصافي لهذه التمثيلية الكلامية دله على أن « طفلي » يضحك ، وأنت على مايرام ، وأنا أستطيع أن آخذ الأمر على سبيل المزاح .
- ٤ - تمت المعاملة .

والشخص الذى ينجح دائما فى التغلب على المواقف الحرجة . لا يفعل ذلك مصادفة . ان لديه « راشد » على السرعة . ينجده فى موقف يلم به فى سرعة . وهو عنصر هام فى الحياة الاجتماعية مثل الموقف السابق ، ولكنه أهم بكثير فى المنزل ، فانت تستطيع أن تهرب من حفل الكوكتيل ، أما الهروب من البيت فشئ آخر .

وهنا يبرز السؤال : كيف يستطيع « الراشد » أن يعمل أفضل وأسرع ؟ عندما يدق شخص على الباب الأمامى للحياة ، فمن يذهب الى هناك أولا - « الوالد » ، أم « الراشد » ، أم « الطفل » ؟

كيف تبقى فى « الراشد » :

ينمو « الراشد » متأخرا عن « الوالد » و « الطفل » . ويبدو أن مواكبة نموه لنمو الانسان ليست من الأمور اليسيرة . ان « الوالد » و « الطفل » يحتلان الدوائر الاولى التى تأتى تلقائيا استجابة للحافز ، ولذلك فإن الطريق الأول هو بناء قوة « الراشد » بحيث يصبح حساسا لاشارات « الوالد » و « الطفل » . وتعتبر المشاعر المثارة مفتاحا يكشف عن أن « الطفل » قد التقط الطعم . وأول متطلبات تشغيل بيانات « الراشد » هى معرفة المرء « للطفل » الكامن فيه . وأن يصبح حساسا لمشاعر (ليس على مايرام) ، اذ أنه لو أحسن أن « هذا هو « طفلي » الذى لبسه ، على مايرام » لبات بوسعه أن يتجنب الافصاح عن هذه المشاعر فى شكل أفعال . وتشغيل هذه البيانات يستغرق لحظة ، ويعتبر العد من واحد الى عشرة ، طريقة مفيدة لتأخير الاجابة التلقائية لكى يحقق « الراشد » التحكم فى المعاملة . ويمثل مبدأ « عندما تشك ، اتركها » تدريبا جيدا لتأخير ردود أفعال « الطفل » القديمة أو المسمرة . وقد صرح أرسطو بأن

المظهر الحقيقي هو أن يتمالك المرء نفسه بالتحكم في استجابات « الوالد » و « الطفل » التلقائية القديمة ، وانتظار أن يحسب « الراشد » الاستجابات المناسبة للموقف . ويمكن التحكم في اشارات « الوالد » بنفس الطريقة . ومن المفيد برمجة أسئلة معينة « للراشد » في الحاسب حتى يمكن تطبيقها على بيانات « الوالد » : هل هذا حقيقي ؟ وهل يمكن تطبيقها ؟ وهل هي ملائمة ؟ ومن أين واتتني هذه الفكرة ؟ وما هو الدليل ؟ وكلما زاد ما نعرفه عن مضمون « الوالد » و « الطفل » كلما سهل علينا أن نفصل « الوالد » و « الطفل » عن « الراشد » . ويقر بنا هذا من النصيحة القديمة بأن يرتب المرء عناصر شخصيته . انها بالضبط هي العملية المطلوبة لتطوير « الراشد » . وكلما كان الانسان حساسا بالنسبة « للوالد » و « الطفل » كلما صار « الراشد » أكثر انفصالا واعتزازا بنفسه وأشد قوة .

ان التحكم في الحوار الداخلي هو الطريق الوحيد للتعرف على « الوالد » و « الطفل » . وهذا الأمر ميسور الى حد ما طالما أنه لا يوجد هناك مطالب خارجية تستدعي الاستجابة ، وأن الفرد لديه الوقت لفحص المعلومات . وعندما يشعر الفرد بأنه ليس على مايرام ومكفهر ونام ومغتم ، فإنه يستطيع أن يسأل السؤال : (لماذا يضرب « والدى » طفلى ؟) وتصبح المحادثات الثنائية الداخلية التي تتضمن الاتهام عادية الحدوث . لقد كتب برتراند راسل عن ألفريد نورث هويتهد قائلا : « كان مثله كمثّل الرجال الآخرين الذين عاشوا نمطا صارما من الحياة . عرضة لنوبات مزعجة من مناجاة الذات . وعندما كان يظن أنه بمفرده . كان يوبخ نفسه من أجل نقائصه المفترضة (٥) » .

وعندما يكون الانسان قادرا على أن يقول : « هذا هو والدى » أو « هذا هو طفلى » يستطيع أن يقولها بالنسبة « للراشد » ، ومن ثم يمكنه عن طريقة الاستفهام أن ينتقل الى « الراشد » . ان بوسع الانسان أن يشعر بالراحة العاجلة في موقف مغمم بالاجهاد ، ببساطة عن طريق توجيه السؤال : « من الذى يقوم برد الفعل ؟ » . وعندما يصير الانسان حساسا بالنسبة « للطفل » الخاص به . يصبح بالتالى حساسا بالنسبة « لطفلى » الآخرين . ولا يوجد انسان يحب الانسان الذى يخاف منه . اننا نخاف « الوالد » فى الآخرين ، ولكننا نستطيع أن نحب « الطفل » فيهم . ومن التدريبات المفيدة في المعاملات المختلفة ، أن ترى الولد

Ru sell, "The Autobiography of Bertrand Russell."

الصغير ، أو البنت الصغيرة ، فى شخص آخر ، وان نتحدث الى هذا الولد أو تلك البنت ليس بأسلوب التفضل ، بل بأسلوب مقفم بالحب والحماية . وعندما تكون فى شك ، قدم الحنان . وعندما يستجيب الانسان « لطفل » انسان آخر فانه لا يكون خائفا من « والد » الشخص الآخر . ويظهر المنال التالى عن « الحديث الى الولد الصغير » فى كتاب ادبى روجرز سيانت جونس ، وعنوانه : لا تقل لأحد Tell no man . وفيه يقول هانك جافين :

استطعت أن أنفذ الى باطنها من خلال مظهرها وسلوكها ، لقد حدث لى هذا من قبل مرتين وأنا أعقد صفقات مع بعض الرجال . رؤساء الشركات - لقد استطعت النفاذ الى ذواتهم . وكأنها بانث جلودهم شفافة . فرأيت فيهم أحيانا رجلا يائسين حزاني وغرباء - مثل صبي خرج للصيد بدود للصنارة . قد يبدو ذلك غير قابل للحسوث ولكنه حدث مرتين . فتعاملت معهم على هذا الأساس ونجحت فى عقد الصفقة (٦) .

ان الراوى هنا تعامل مع « الطفل » الكامن فى هؤلاء الرجال .

وهناك طريقة أخرى لتقوية « الراشد » وذلك بأن تقضى الوقت الكافى لاتخاذ بعض القرارات الكبرى حول القيم الأساسية ، التى ينتج عنها عدد كبير من القرارات الأصغر غير الضرورية . وهذه القرارات الكبرى يمكن اختبارها دائما ولكن الوقت الذى تستغرقه لاتخاذها يجب ألا ينقضى فى فحص كل حدث صغير يمكن أن تنطبق عليه القيم الأساسية . وهذه القرارات الكبرى تشكل أساسا أخلاقيا للأسئلة التى تبادرنا كل لحظة : ماذا نعمل ؟

واتخاذ هذه القرارات الكبرى يتطلب جهدا وإعيا . لأنك لاتستطيع تدريس الملاحة وسط عاصفة . وبالمثل ، فانك لاتستطيع بناء نظام للقيم فى طرفة عين ما بين قول « طفلك » : « لقد ضربنى جوى قبضته فى أنفى » . واستجابتك . لاتستطيع أن تستمر فى معاملة بناء مع « الراشد » المسئول . اذا لم تتدبر القيم الأساسية والأولويات من قبل . اذا كان لديك قارب فانك تصير ملاحا ماهرا . لأنك تعرف النتائج المترتبة على فشلك فى قيادة الزورق . انك لن تنتظر حتى تهب الريح ، لكى تفكر كيف تدير الراديو . واذا كنت متزوجا ، فانك تصير شريكا خبيرا لأنك ربت نفسك للنتائج المترتبة على الفشل . وستقيم نظاما للقيم يدعم

A. Rogers st. Jones, "Tell no man", (New York : Doubleday, (٦)
1966).

زواجك » ومن ثم يخدمك عندما تشتد الأزمات • اذن فان « الراشد »
قد استعد لتغطية المقابلات بسؤال مثل : « ماهو الشيء المهم هنا ؟ » •

ويستطيع « الراشد » وهو يؤدي دور الخبير في تقييم الاحتمالات -
ان يعمل نظاما للقيم يشمل ليس فقط علاقة الزواج • بل كافة العلاقات •
وعلى عكس « الطفل » فانه يستطيع تقييم النتائج ولا يتعجل المكافأة •
انه يستطيع انشاء قيم جديدة مؤسسة على اختبار أكثر شمولاً للأسس
التاريخية والفلسفية والدينية للقيم • وعلى عكس « الوالد » فانه مهتم
أكثر بالحفاظ على الفرد أكثر من الاهتمام بالحفاظ على التقاليد الاجتماعية •

ويستطيع « الراشد » أن يتمسك عن وعى بموقف يحرص فيه على
محبة الآخرين له • و « الراشد » يستطيع أن يرى في فكرة « مغبوط هو
العطاء أكثر من الأخذ » أكثر مما يراه الأب الوصى على تصرفات ابنه •

وهذا هو نوع العطاء الذي ينعكس عليه « الراشد » كما تحدث عنه
أريك فروم :

يخطئ الناس أشد الخطأ حينما يتصورون أن « العطاء » يعني
« التنازل » أو « التضحية » أو « الخسران » ! ان هؤلاء الذين يسلكون
دروبا عظيمة غير منتجة هم الذين يحسبون أن « العطاء » القار لهم ...
وهم يحسبون بهذه الشعور • ولأنهم يجدون العطاء مؤلماً • لذلك يجعلونه
واجبا • فضيلة العطاء لديهم تدرج تحت باب التضحية •

وبالنسبة لسلوك الانتاج « راشد » فان العطاء له معنى مختلف
كلية • فالعطاء هنا هو أعلى درجات التعبير عن القدرة • وأنا أجرب من
خلال فعل العطاء - قوتى وثروتى وقدرتى • وهذه التجربة المفعمة بالحيوية
والقدرة العالية تملؤنى بالفرح • اننى أختبر نفسى كشخص حى يفيض
ويصرف ، ومن هنا يأتى الفرح • ان العطاء أكثر اسعادا من الأخذ • ليس
لأنه حرمان ولكن لأن فعل العطاء يتضمن التعبير عن حيويتى (الموافقة) (٧) •
وهذا النوع من العطاء يمكن أن يكون طريقا مختارا للحياة • وهو اختيار
يبرز كافة القرارات • عندما يسأل « الراشد » قائلا : « ما هو الشيء
المهم هنا ؟ هل أنا محب ؟ » وما دمت قد اتخذت هذه القرارات التقييمية

E . Fromm, "The art of loving", (New York : Harper, 1956). (٧)

فان الفرد يستطيع أن يتصنّدى بطريقة بناءة قائلا : « أين أخفيت فتاحة العلب ؟ » ويمضى من خلال تقوية موقف « أنا على ما يرام ، وأنت كذلك » يوما بعد يوم . وبالاختصار فان « الراشد » القوى يبنى على ما يلي :

١ - تعلم أن تعرف « طفلك » بما فيه من نقاط ضعف . ومخاوفه ، وطرائقه الرئيسية للتعبير عن هذه المشاعر .

٢ - تعلم أن تعرف « والدك » بما فيه من مواعظ وفروض ومواقف ثابتة وأساليبه فى التعبير عن هذه المواعظ والفروض والمواقف .

٣ - كن حساسا بالنسبة « للطفل » الذى فى الآخرين - تحدث اليه ، وأظهر الحنان نحوه ، وأعطه الحماية والتقدير .

٤ - عد من واحد الى عشرة عندما يكون ذلك ضروريا حتى يجد « الراشد » الفرصة لتصنيف المعلومات وفضل « الوالد » و « الطفل » عن الحقيقة .

٥ - عندما تكون فى شك ، دع الأمور تسير ، فلن يهاجمك أحد على قول لم تنطق به .

٦ - اصنع لنفسك نظاما للقيم . انك لاتستطيع أن تتخذ قرارات ، بدون اطار أخلاقى .

أما كيف يصنع « الراشد » نظاما للقيم ، فهذا هو موضوع الفصل الثانى عشر ، وعنوانه : (نموذج : الوالد - الراشد - الطفل) والقيم الأخلاقية .

الفصل السادس

كيف نختلف

(تصبح أدوات العقل عبئا عليه ، عندما تنتهى الظروف المحيطة التى جعلتها ضرورية - هنرى برجسون)

ان جميع الناس متشابهون من حيث البنيان ، بمعنى أن لكل منهم « والد » ، « راشد » ، و « طفل » . وهم يختلفون بطريقتين فى مضمون كل من « الوالد » و « الراشد » و « الطفل » التى هى واحدة عند كل شخص من حيث كونها تسجيلات للتجارب الواحدة عند كل شخص .
ويختلفون فى ترتيبات التشغيل أى وظيفة كل من « الوالد » و « الراشد » و « الطفل » وقد خصصنا هذا الفصل لفحص هذه الاختلافات الوظيفية .
وهناك نوعان من مشاكل التشغيل هما : الافساد ، والاستبعاد (٨) .

الافساد :

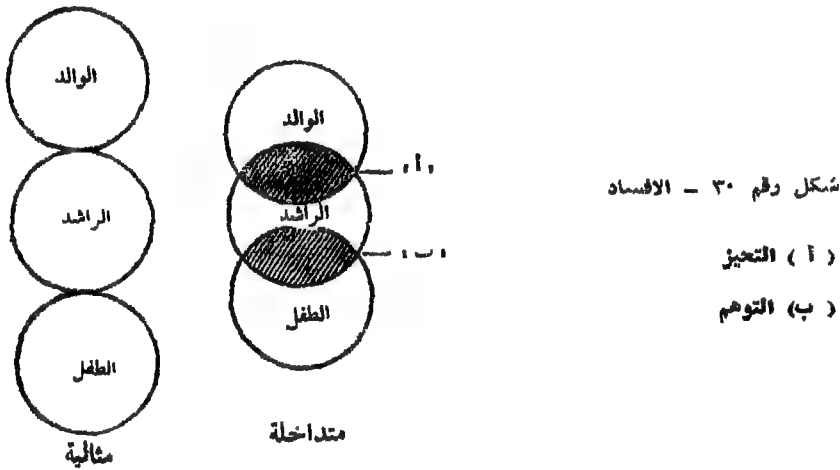
فى نهاية الساعة التمهيدية التى شرحت فيها نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) لفتاة فى سن السادسة عشرة ، كانت محاولة من شعبة الخدمة الاجتماعية . وقد كانت فتاة منطوية عاجزة عن التواصل وليست

(٨) E. Berne, "Transactional Analysis in Psychotherapy", (New York : Grove Press, 1961).

على شيء كبير من الثقافة ، وقد تركت المدرسة قبل أن تكمل دراستها ،
سألتهما السؤال التالي :

« هل تستطيعين أن تذكرى لى ما يعنيه نموذج : الوالد - الراشد -
الطفل ، بالنسبة لك الآن ؟ »

وبعد صمت طويل قالت : « انه يعنى أننا جميعا مكونين من ثلاثة
أجزاء ، والأفضل لنا أن نحافظ عليها منفصلة حتى لا نواجه المتاعب » .
ان المتاعب التى تنتج عندما لا تنفصل هذه الأجزاء تسمى : « افساد الراشد » ،
والوضع المثالى لدوائر « الوالد والراشد والطفل » (شكل رقم ٣٠) هو
الفصل بينها . وعلى كل حال فان هذه الدوائر الثلاثة تتداخل لدى بعض
الناس . ان التداخل « أ » فى الشكل يمثل افساد « الراشد » بواسطة
معلومات « الوالد » القديمة وغير المفحوصة التى تظهر حقيقية وهذا هو
ما يسمى : **التحيز** .



وعلى ذلك فان بعض المعتقدات مثل « البشرة البيضاء أفضل من
البشرة السوداء » ، « المتعاملون باليد اليمنى أفضل من المتعاملين باليد
اليسرى » ، « رجال الشرطة أهدياء » . تظهر فى المعاملات على أساس
قاعدة « الحكم المسبق » (*) قبل تطبيق المعلومات الحقيقية « للراشد »
عليها .

(*) نسمى هذه الظاهرة فى الاعلام أى علوم الاتصال البشرى باسم : الصور النمطية
Stereo-types ومعناها : وجود فوالب سائفة الجهيض يفرغ فيها الشخص معلوماته
عن الاشخاص الآخرين أو أفعالهم وينسج عن ذلك اصدار حكم مسبق غير مفحوص - المترجم .

وينشأ « التحيز » في الطفولة المبكرة . عندما يخلق باب التساؤل حول بعض الموضوعات المعينة على يد « الوالد مانح الأمان » وهنا لايجرؤ الصبى على فتحه خوفا من تبكيت « الوالد » .

ونعرف جميعا كم هو صعب الحوار المنطقي مع شخص متحيز . ويستطيع الانسان أن يستعرض مع بعض الناس قضية منطقية وواضحة ، متعلقة بموضوعات : التمييز العنصرى ، أو استخدام اليد اليسرى ، أو أى موضوع يتحيز الفرد اليه ، ولكن « الوالد » فى هؤلاء الناس يحتل بثبات جزءا من « الراشد » . وسيحيطون قضاياهم الانحيازية بكافة أنواع المجادلات الخارجة عن الموضوع لمساندة موقفهم . وتبدو صلابتهم فى التمسك بموقفهم الآمن ، غير منطقية مثل موقفهم ذاته . وكما أوضحنا فى الفصل الثانى فانه من الأسلم للصغير أن يصدق كذبة من أن يصدق عينيه وأذنيه ، ولذلك لا يستطيع الفرد أن يقضى على رأى متحيز بمجرد مناقشته مناقشة راشدة . والطريقة الوحيدة لاستبعاد التحيز تتمثل فى كشف حقيقة أنه لا يوجد خطر مائل فى الاختلاف مع « والد » الشخص ، وتحديث معلومات « الوالد » بمعلومات منبثقة من واقع اليوم . وعلى ذلك نستطيع أن نرى العلاج متمثلا فى الفصل ما بين « الوالد » و « الراشد » واسترجاع الحدود بينهما .

أما التداخل « ب » فى شكل رقم ٣٠ ، فيمثل افساد « الراشد » بواسطة « الطفل » فى شكل مشاعر أو خبرات قديمة تظهر فى غير مظهرها . وهناك اثنان من الأعراض العادية لهذا النوع من التحيز هما : **الأوهام والهلوسة** . والأوهام تجد لها أرضية فى الخوف . ان المريض الذى قال لى : « ان العالم بشع » . كان يصف كيف ظهر له الغالم فى حديثه . فأى صبى صغير يعانى من خوف مستمر من تعرضه لقسوة « والد » لا يمكن التنبؤ بتصرفاته ، يصبح عرضة - كشخص بالغ تحت تأثير الضغط - لأن ينغمر تحت نفس الخوف الى حد أن يلقى منطقا يبرر به البيانات المخزونة فى عقله . فقد يظن أن البائع المتجول المتجه نحوه من آخر الشارع . قادم فى الحقيقة ليقتله . وإذا واجه حقيقة أنه مجرد بائع ، فإن هذا الشخص قد يؤيد خوفه بأن يقول جملة مثل : « لقد كشفته فى نفس الدقيقة التى رأيته فيها . انه هو ! انه مطلوب أمام مكتب التحقيقات الفيدرالى . لقد رأيت صورته فى مكتب البريد . وهذا هو سبب مجيئه لى يقتلنى » . وكما هو فى حالة التحيز فان هذا الوهم لا يمكن أن يستبعد بالاكتفاء بالقول بأن هذا الرجل ليس سوى بائع ، وانما يكشف

حقيقه أن التهديد الأصلي « للطفل » لم يعد موجودا في الظاهر اذ لا يستطيع « الراشد » أن يتعامل مع البيانات الواقعية الا اذا ت ظهر من الشواهد .

وتعتبر الهلوسة نوعا آخر من أنواع « افساد الراشد » بواسطة « الطفل » . والهلوسة ظاهرة تنتج عن الضغط الشديد ، تطفو فيها الى السطح من جديد ، التجارب الخارجية التي كان قد تعرض لها المرء والتي عانى فيها من شعور بالانحطاط والرفض والنقد . وقد تطفو هذه الظواهر دون استئارة من أحد . وتظهر التجربة المسجلة للمريض كما لو كانت حقيقة واقعة . ويسمع الشخص الأصوات التي عاينها في تجربة واقعية في الماضي . واذا سألتها عما تقوله الأصوات ، فانه سيصف بصفة خاصة ، المحنويات ، على أنها كلمات النقد والتهديد أو العنف . وكلمات زادت غرابة الهلوسة ، كلما زادت غرابة الحياة بالنسبة له كصغير . والهلوسة الخارجة عن المؤلف لا تستعصى على فهمنا عندما نمنع النظر في النوعيات المختلفة من المعاناة التي يخضع لها بعض الصغار ، لفظية كانت أم مادية .

الاستبعاد Exclusion :

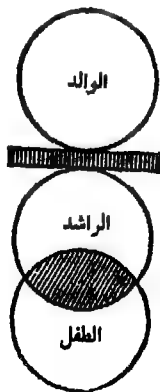
بالإضافة الى التحيز هناك اضطراب رئيسي آخر يوضح لنا كيفية الاختلاف ، وهو : الاستبعاد . يتجسد الاستبعاد في موقف نمطي يمكن التنبؤ به ، ويتمسك به المرء لأطول فترة ممكنة ازاء موقف التهديد ، وينتج « الوالد » الثابت و « الراشد » الثابت و « الطفل » الثابت - جميعهم ، من الاستبعاد الدفاعي للعاملين التكميليين في كل حالة (٩) . وهذا الموقف يستطيع فيه « الوالد » المستبعد أن يوصد « الطفل » ، كما أن « الطفل » المستبعد يستطيع أن يوصد « الوالد » .

الشخص الذي لا يستطيع اللعب :

ان نموذج « الراشد » الذي يهيمن عليه « الوالد » الذي يستبعد « الطفل » يتمثل في الرجل المثقل بالأعباء ، الذي يعمل في مكتبه حتى

ساعة متأخرة ، منشغلا بالعمل طول الوقت ولا يميل لمشاركة أفراد أسرته ، في لهوهم ومرحهم مثل القيام برحلات للأماكن الخلوية . أنسا نخال أنه متوقف عند نقطة ما في حياته ، كان واقعا فيها كلية تحت ضغط والدين جادين وصارمين وملتزمين بأداء الواجب . لدرجة أنه وجد أن الطريقة الوحيدة الآمنة للتقدم في الحياة إنما تتمثل في استبعاد « طفله » تماما . أو أن يوصده « لقد وجد بالتجربة أنه في كل مرة يطلقه ، كانت تحدث متاعب » « اذهب الى غرفتك » ، « لا ينبغي أن يسمح للطفل صوت » ، « كم مرة يتحتم أن أقول لك » ، « عليك أن تكبر ! » . وإذا كوفى هذا الشخص الصغير أيضا للالتزام الكامل والجهد الدؤوب والاذعان وتنفيذ ما يطلب منه تماما ، فسيبدو له أن طريق الحكمة هو الالتزام الكامل بشخصية « الوالد » ومن ثم فإنه يعتاد الاغلاق الكامل على « الطفل » وعدم مسايرة الطفولة . وهذا الطراز من الأفراد لديه القليل جدا من السعادة المسجلة في « الطفل » ، ومن المحتمل ألا يستطيع الافراج عن « طفله » السعيد لأن الصغير الذي لديه « محدود السعادة » . (أنظر شكل رقم ٣١) .

ويمكن مساعدته بإيضاح أن موقفه ليس عادلا بالنسبة لأسرته وأولاده ، وأن زواجه في الحقيقة قد ينقسم إذا أصر على محاولة الاغلاق على « الطفل » في زوجته وأولاده . ويستطيع من خلال الجهد الهادف عن طريق « الراشد » أن يقوم برحلة مع أسرته ، ويقطع ساعات عمله بالمكتب ، وينصت في حب (تقويم الراشد) لحكايات أولاده . وأن يشترك في حياتهم . ويستطيع عن طريق « راشده » تحقيق قيمة الحب أو المحافظة على أسرته . انه لن يغير طبيعة « والده » أو ينشئ « طفلا » سعيدا هو



شكل رقم ٣٢ - راشد تدخّل معه
الطفل وأقصى عنه الوالد



شكل رقم ٣١ - راشد تدخّل معه
الوالد وأقصى عنه الطفل

أصلا غير موجود عنده ، ولكنه يستطيع أن يتبصر الطرق التي تجعل ذلك مستطاعا لبناء حياة راضية في الحاضر .

الشخص المجرد من الضمير

ويمثل « الراشد » المهيمن عليه « الطفل » ، و « الوالد » الموصد (شكل ٣٢) صعوبة شديدة جدا بالنسبة للمجتمع .

وتتطور هذه الحالة في الشخص الذي كان أبوه الحقيقي ، أو هؤلاء الذين أشبعوا دور « الوالد » فيه ، متميزين بالوحشية والارهاب ، أو على النقيض ، مفرطين في التدليل الى حد البله بحيث تمثلت الطريقة الوحيدة للحفاظ على الحياة في « اغلاق الوالد » أو « طرده » . وهذا هو الطراز النموذجي للسيكوباتية (*) ، وهو الشخص الذي يترك الموقف الأول (أنا لست على مايرام ، وأنت على مايرام) في السنوات الأولى من حياته ، ويتخذ موقفا جديدا هو موقف (أنا لست على مايرام ، وأنت لست على مايرام) . ويستنتج هذا الشخص الصغير تماما أن أبويه هما في الحقيقة (ليسا على مايرام) الى درجة أنه يطردهما خارجا تماما . وقد يبالغ في ذلك حتى يصل الى القتل . وإذا لم يفعل ذلك فهو على الأقل يستبعدهما نفسيا ، ولذلك فانه من وجهة نظره الخاصة ، ليس لديه « والد » . انه لا يطرد « الوالد » المؤلم فحسب ، ولكنه يطرد أيضا الخير القليل الموجود في « الوالد » ، ويمثل هذا الشخص لا يوجد في معاملاته الجبرية أي شرائط مسجلة تمده بالمعلومات التي تتعلق بالانضباط الاجتماعي ، والتعليمات الصحيحة حول « ما يجب وما لا يجب » ، والمعايير الثقافية ، أو ما يمكن العودة اليه كضمير . ان سلوكه مسير « بالطفل » الذي يستطيع من خلال « الراشد » الفاسد ، أن يستميل الأفراد الآخرين لتحقيق أغراضه . ان « راشده » يستطيع تقييم النتائج ولكنها تلك التي تتعلق بما لو كان سيقع أم لا ، ونادرا ما تتضمن عناصر الاهتمام بالآخرين . وبالرغم من أنه قد توجد استثناءات ، إلا أن القاعدة العامة هي أننا لا نتعلم أن نكون محبين ان لم نكن قد نلنا الحب مطلقا .

وإذا تمثلت السنوات الخمس الأولى بكاملها في معركة حرجة من أجل البقاء الطبيعي والنفسى ، فان هذه المعركة قد تستمر طوال الحياة .

(*) اضطراب عقلى يجعل من الفرد عدوا للمجتمع - المترجم .

والطريقة الوحيدة لتحديد ما اذا كان الشخص لديه « والد » من علمه ، تتمثل في تحديد استمرار مشاعر الخجل . ان هذه المشاعر التي تبقى في « الطفل » تنطلق مع ضربات « الوالد » « للطفل » . واذا لم تستمر هذه المشاعر ، فمن المحتمل أن يكون « الوالد » مقيدا . ولنا أن نستنتج أنه اذا لم يعبر رجل اعتدى على صغير ، عن أية مشاعر للاحاساس بالذنب أو بالندم ، سوى ندمه على وقوعه في يد الشرطة ، فان هذا الرجل يفتقر الى « والد » يعمل في ذاته ، وينطوي ذلك على دلالات هامة قد تنفع المهتمين باصلاح المجرمين ، ومن الصعب علاج مثل هذا الشخص ، فلا يمكن للانسان أن يثير « الوالد » لأنه غير موجود . وقد أجرى عدد من التجارب على القردة التي فصلت عن أمهاتها الحقيقية وربيت مع أمهات بديلات في شكل دمي من السلك مغطاه بطبقات من القماش القطنى السميك . ووجد أن القردة قد كونت في مستهل الطفولة انجذابا قويا نحو هذه الأمهات البديلات ، ولكنها حينما وصلت الى مرحلة النضج ، قلت قدرتها على التناسل وتربية الصغار (١٠) . لقد أصبحت تفتقد الكفاءة فيما يتعلق بخبرة الأمومة التي يحسبها الكنيرون غريزة من الفرائز . ان خبرة الأمومة لم تكن مسجلة في « الوالد » ولذلك لم يظهر منها شيء عند تشغيل التسجيل .

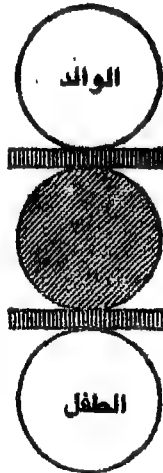
ان هذا التنبؤ قد لا يصدق على الانسان الذى قيد « والده » لأنه على خلاف القرد ، لديه ١٢ مليار خلية في عقله بمقام ١٢ مليار كومبيوتر ، يستخدمها في تقييم الحقيقة وبناء الاجابات . حتى لو لم تكن قد سجلت مبكرا .

ان المجرم المضطرب عقليا يستطيع أن يفهم نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) الخاص به لدرجة أن « راشده » يستطيع توجيه أنشطته بطريقة تجعل من الممكن تغيير مصيره من اقتراف جريمة والقاء القبض عليه ثم سجنه . وهكذا قد لا يكون لديه « والد » عامل لمساندة « راشده » ولكن « راشده » يمكن أن يصير قويا بما فيه الكفاية ليقوده الى حياة ناجحة يحظى فيها بالقبول وربما أيضا بتقدير الآخرين . وهذا هو الاحتمال الذى يجب أن تعتمد عليه جهود اصلاح المجرمين وتقويم سلوكهم .

H. F. Harlow, "The Heterosexual Affectional System in Monkeys", American Psychologist, 17 (1962) : 1-9. (١٠)

الراشد الموقوف

ان الشخص الذى عنده راشد « موصد » (شكل رقم ٣٣) هو مصاب بالذهان (مضطرب عقليا) • ان « راشده » لا يعمل ولذلك فانه منفصل عن الواقع • ومن ثم يفتح الطريق أمام « والده » و « طفله » مما ينتج في الكثير من الأحوال خليطا مهوشا للمعلومات القديمة والتجارب المبكرة التى تبدو غير منطقية حاليا ، لأن المعلومات لم تكن منطقية عند تسجيلها • وقد لوحظ ذلك فى مريضة بمستشفى لأمرض النساء تخلل أداؤها للتراثيل الدينية « والد » ألفاظ بذية تدور حول وظائف الجسد « طفل » • ان المضمون خارج عن المألوف • ولكن يبدو أنه ترديد لصراع قديم بين « الوالد والطفل » حول الخير والشر ، ما يجب وما لا يجب ، الخلاص والهلاك • وقد كشف مضمون هذه المخرجات اللفظية عن قدر كبير مما يتغلق « بوالدها » و « طفلها » • أما حقيقة أن « راشدها » غائبة فقد أظهر عنف الصراع • ان المعركة عنيفة جدا • « لن أحاول » ولا يعنى هذا القول أنها تجد راحة فى الاستسلام • فقد كانت واقعة تحت رحمة المشاعر المرعبة التى عانتها فى طفولتها •



شكل رقم ٣٣ - الراشد الموصد أو الموقوف (المريض العقل)

وتتركز الخطوة الأولى لعلاج المضطرب عقليا فى تقليل مشاعر الفزع هذه • ومن الأمور الأساسية لشفاء المريض ، احساسه من الوهلة الأولى للقائه بالطبيب النفسى - بالموقف الواضح (أنا على ما يرام وأنت

على مايرام) . فى سنة ١٩٦٣ أبلغنى زميلى جوردون هايبرج - بأثر هذا الموقف على مرضى الاضطراب العقلى ، الذين كان يعالجهم حينذاك فى مستشفى ولاية ستوكتون :

يبدأ العلاج مع بداية تبادل النظرات بين الطبيب النفسى والمريض ، عندما يدخل الطبيب المعالج من الموقف الأساسى (أنا على مايرام) وأنت على مايرام) . ان المضطربين عقليا متلهفون على إقامة علاقة أقوى مع الناس وعندما يواجه هؤلاء الأفراد السريعو الفهم عادة ، شخصا يتخذ موقف (أنا على مايرام وأنت على مايرام) فان ذلك يشكل تجربة جديدة ومثيرة بالنسبة لهم ، ويقع « الراشد » فى شبكة هذه المواجهة الانسانية ويبدأ فى التساؤل قائلا : « كيف تكون أنت فى الخارج بينما أنا فى الداخل ؟ » ولا يتلقى ردا سريعا على السؤال ، وانها فى الوقت الذى يحدث فيه المعالج أنه مهيا لاستقباله بعد ان يكون الطبيب النفسى قد انتهز الفرصة لتحديد أكثر المناورات او اللعبات التى يستخدمها الشخص تقميرا ، يقال للمريض ببساطة وبطريقة مباشرة مثلا : « أنت تخيف الناس وتفزعهم » أى أننا نخبره صراحة أنه على مايرام . انه يشعر بالأهمية بسبب تفرد وجوده البشرى مما يشبع فى نفسه الأمل . وعندما يستطيع « الراشد » أن يبدأ فى تصنيف المعلومات ، والانصات ، والتعلم ، والمعاونة فى اتخاذ القرارات ، تبدأ القوى التوليدية الجديدة فى العمل وحدها وتبدأ عملية العلاج تبعا لذلك (١١) .

وكثيرا ما تحتوى مجموعات العمل الخاصة بى والتى تتضمن فى أى وقت عددا يتراوح ما بين عشرة الى عشرين مريضا ، على مرضى بالذهان . وعند اعداد فريق متعاقد على أساس نموذج (أنا على مايرام وأنت على مايرام) ، يشعر المريض بالذهان - بأنه يتلقى المعاونة والمديح والطمأنينة . وهنا يكون المسرح قد أعد لعودة « الراشد » .

وفى إحدى مجموعات المستشفى ، أخذت إحدى السيدات فى تسوية جونلتها مرات ومرات وشدها الى أسفل ركبتها خلال الجلسة التى استمرت ساعة ، بالرغم من أن هذا العمل لم يمر دون ملاحظة ، فان أحدا لم يفعل شيئا حياله ، أو ينظر باستنكار . وبالتالى استمرت المجموعة فى المناقشة . وكانت هناك ثلاثون دقيقة من هذه السانغة لتعليم نموذج

(١١) G. Halberg, "Transactional Analysis with State Hospital Psychotics", Transactional Analysis Bulletin, Vol. 2. No. 1 (October, 1963).

(الوالد - الراشد - الطفل) ثم يلي ذلك المناقشة . وعند نهاية الساعة اذا بالرجل المجاور للمرأة يقول لها « هل تعرفين أننى أحصيت عدد المرات التى سويت فيها جونلتك . لقد فعلت ذلك تسع عشرة مرة » .

فقال فى عجب يخالطه شعور بالسعادة لهذا الاكتشاف : « أنا فعلت ذلك ؟ » .

كانت قادرة على قول هذه الاجابة الصادرة عن « الراشد » دون خوف من التهديد . أما انبثاق « الراشد » مهما كان ضئيلا ، فانه هو بداية اعادة الاتصال بالحقيقة . وأن المسرح معد لدراسة نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) الذى يجرى من خلاله أوسع اكتشافات المريض لسلوكه الذاتى .

ويرتبط بالعلاج الجماعى ، استخدام العقاقير للمساعدة فى رفع الروح المعنوية وتهدة الهياج الشديد . وفى حالات الاحباط الشديد ، يستخدم العلاج بالصدمة الكهربائية وتأثيره هائل جدا فيصبح المريض بعد جلستين أو ثلاثة ، بشوشا ، ومسترخ ، وراغبا فى الحديث . ويمحو العلاج مؤقتا ، التسجيلات المؤلة القديمة ، ويسمح بعودة « الراشد » ومن ثم يستطيع المريض تحت قيادة « الراشد » أن يبدأ فى تعلم نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) ، لمعرفة من أين تاتى المشاعر القديمة . وكيف يستطيع التخلص منها بنفسه .

الانغلاق المرحلى فى الشخصية المصابة بالهوس الانقباضى

: Manic-depressive

ان الشخص الذى لديه « والد » مسنقر أو « طفل » مسنقر . يطفى على العنصرين الآخرين ويستبعدهما - يستجيب للأحداث المحيطة به بطريقة ثابتة يمكن التنبؤ بها ، وتبقى حالته النفسية ثابتة أيضا .

والكثيرون منا لديهم تغيرات مزاجية . حيث أن كل جزء من جهازنا المكون من (الوالد - الراشد - الطفل) يساهم بدوره فى تفكيرنا وسلوكنا . وفى بعض الأيام نشعر بأننا على مايرام . وفى بعض الأيام الأخرى يخامرنا شعور معاكس . واذا حاولنا فاننا نسنطيع عادة أن نكتشف سبب ارتفاع معنوياتنا . أو هبوطها . وفى بعض المرات تكون الأسباب مراوغة ، أو لاتبدو متعلقة بأى علامة محددة فى الحاضر . وقد اختبر كثير من الناس حالة تقلب المزاج مع تغير الفصول . وفى موسم

الاجازات تكثر حالات الاحباط كما هو واضح من تزايد الحالات المرضية في عيد الميلاد . كذلك قان مقدم فصل الخريف يؤدى الى البهجة لدى الكثير من الناس حيث يعاد تشغيل اشربة العودة للمدرسة القديمة ، و « نستنشق » مرة أخرى النكهة المثيرة لصناديق الاقلام ، والأرضيات المدهونة بالزيت ، وأقلام الرصاص . ونفس هذه الروائح قد تؤدى الى الاحباط لدى بعض الناس ، اعتمادا على ما حدث فى تلك السنوات الدراسية المبكرة . ويعاد تشغيل العديد من التسجيلات القديمة لتنتج « المعنويات المرتفعة أو المنخفضة » التى خبرناها جميعا . والكثيرون منا يتجاوزون المشاعر الحزينة ، ويستمتعون بالمشاعر الطيبة . لأن « الراشد » يظل مسيطرا ويجعل سلوكنا سليما .

وهناك حالة تصبح فيها تغيرات هذه الأمزجة متطرفة ، وتؤدى الى سلوك مبالغ فيه ، لا يكون « للراشد » سيطرة عليه . ولا يكون « الراشد » غير قادر على التحكم فى السلوك فقط ، بل أيضا غير قادر على اكتشاف سبب تغير المزاج . وتوجد هذه الحالة لدى الشخصية المريضة بالهوس الاقبحاضى ، ويصاب المريض به - بين حين وآخر - بتقلبات مزاجية شديدة وليس لها تفسير . وفى حالة الهوس أى عند الحالة القصوى ، يشعر بالابتهاج وأنه يقف على قمة العالم . وأنه مغم بالحيوية . وقد يصبح كثير الكلام أو عدوانيا . ويبدو كما لو كان « طفله » يفر معه من هذا العالم .

ويبدو أن « الوالد » ليس له تأثير يحد من هذه الحالة عند الوصول الى هذه المرحلة . ويشعر الشخص بأنه لا يقدر أن يرتكب خطأ ، ويقفز من شئ الى آخر ، صارفا سعادته فى نشاط واحد ، لا يتخلى عنه الا للقيام بعمل مبهج مغم بمغامرة أكثر . كما لو أنه كان من وجهة نظره الخاصة - يختبر الى أى مدى يستطيع أن يمضى فى نوبة سعادته هذه . والمشكلة هى أنه رغم شعوره بالعظمة الا أن « راشده » قد أضر ، أو أفسد . ولم يعد سلوكه حقيقيا . وقد يتعالى على الآخرين . واذا اشتد به الأمر فقد يلزم احتجازه ، أو يودع فى مستشفى . وفى النهاية ، يهبط ويستعيد ما يبدو أنه فترة استقرار قد تستمر لمدة طويلة . وخلال هذا الوقت يكون « الراشد » مسيطرا على سلوكه الذى يبدو حقيقيا ومناسبا ، ثم يغوص لسبب لا يعلمه ، فى خضم فترة من الاحباط الشديد ، ويختفى الاحساس بأنه على ما يرام بطريقة سرية مثلما ظهرت ، وتبدو الحياة فارغة . وتتبدل حيويته ، ويعود « والده » بالانتقادات المخزونة والاستبداد القديم . ومرة ثانية يصاب « الراشد » بالضرر . ويسكن الشخص فى حالة الاحباط .

ويختلف المصاب بهذه الحالة عن الآخرين الذين يعيشون كل يوم حالات النشوة والاكتئاب العادية من حيث حقيقة أن هذه التغيرات المزاجية تبدو مستعصية على التفسير . كذلك فإن هذه التغيرات المزاجية تحدث على فترات ، ومتكررة . ولكي نفهم ما الذي يجري أثناء تلك الدورات ، فمن الضروري معرفة أن كلا من الاحساس بالقدرة على كل شيء المصاحب لحالة الخلل ، والاحساس بالتفاهة المصاحب لحالة الاحياط ، يمثل المشاعر المسجلة في « الطفل » . ويمثل كلاهما استجابات للتسجيلات القديمة في « الوالد » . وفي كلتا الحالتين يكون الحوار الداخلي دائرا ما بين « الوالد - الطفل » وفي مرحلة الاحياط يكون « الوالد » منهما في ضرب « الطفل » . أما في حالة الهوس فيمدح « الوالد » « الطفل » وكما هو الحال في تحليل كافة المشاعر ، فمن الضروري توجيه هذا السؤال : « ماذا كانت المعاملة الأصلية ؟ » وغالبا ما نجد في الشخصية المريضة بالهوس الانقباضى « والدا » قويا ، ان لم يكن مستبدا ، يتضمن أوامر وتصاريح متناقضة مسجلة مبكرا ، ربما على أساس قاعدة ملاحظات يبايحه . خلال العامين الأولين من العمر - عندما كان « الراشد » في الشخص الصغير قد ارتبط لأول مرة بعمل نظام العلة والمعلول . وفي هذه الفترة العصبية . لو كانت هناك تناقضات عاصفة ومخالفات . فإن « الطفل » قد يقعد عن محاولة التوصل الى بناء للسببية قائم على التفكير والتدبر (ليس للأمور معنى مهما قبلت على أوجهها) . وقد ينظر لما يحدث له على أنه مسألة « وقت » وليس علاقة الأشياء بالأحداث . ولا يستطيع الشخص المريض بالخلل العلى أن يقرر ما الذى يدفعه الى الاحساس بالانقباض أو النشوة بالنسبة الى الأمور التى كانت عليها . حالته فى البداية . ويكون مزاجه غير متوقع فى المستقبل فى اللحظة الحاضرة مثلما كان فى اللحظة السابقة ، لأن الأبوين اللذين يعاقبان ويمتدحان لا يمكن التنبؤ بلحظة ظهورهما . وقد كتبت فريدا فروم رايشمان أن الشخص الذى يظهر عليه تذبذب الهوس الانقباضى قد وقع - كقاعدة عامة - تحت ظل تناقض عظيم . ولم يستطع « الراشد » فى نفس الصبى أن يدرك التغيرات المرحلية فى أبويه . ولذلك اعتزل « الراشد » فى محاولة أخيرة لاتخاذ موقف (أنا لست على مايرام ، وغير متأكد بالنسبة لك) . ان « الطفل » صار يعرف على أى حال « ان الوقت قد أوقف لحدث شيء ما » . أو أن « كافة الأشياء الطيبة لابد أن تنتهى » . لقد حدث بالفعل . وسيحدث الآن . ان حقيقة وجود أشياء طيبة ، وأشياء طيبة جدا ، التى يعاد سماعها فى حالة الهوس ، قد تظهر أن « الوالد » (وهو فى العادة الأم حيث أنها كانت أكثر الأشخاص تأثيرا فى العامين الأولين من العمر) ، أعطت فى

الحقيقة حنانا عظيما وقبولا يضافان الى احساس المريض بالتبذ • ولم تكن استجابة الأم « الوالد » للطفل ترتجع بداية الى ما فعله الصغير ، ولكن الى تقلباتها المزاجية أو التغيرات المؤثرة في شخصيتها •

فكروا معي في مدى الصعوبة التي يلقاها الصغير ذو العامين في محاولة فهم ما يجري عندما تتغير الأم دوريا وكنية من احدى نوعيات الشخصية الى نوعية أخرى • ان في استطاعتنا احصاء عدد من الأسباب لهذا النوع من التغير • أحدها هو تعاطي المسكرات • الأم هنا تبص بالنشوة ، انها تحتضنه وتدلكه وتدغدغه حتى يصرخ ، وتلعب معه لعبة المسابقة حول المنضدة • انها تقذف به في الهواء • انها تصفق بيديها وتضحك في هستيرية عندما يمسك القطعة من ذيلها ويطوح بها في الهواء • ياه ! ان الحياة عظيمة ! ثم تفقد الأم وعيها وتترك الصغير وحيدا عند ساعات • انه جوعان ، وفارغ •

لقد مضت • • ومضى الحنان • • كيف يستعيدنا ؟ ماذا حدث ؟ انه لايعرف • وفيما بعد تستيقظ مريضة • انها لا تستطيع أن تنظر اليه • انها تدفعه بعيدا ولكنه يبكي ويعود اليها ثانية • انها تضربه • ماذا حدث ؟ ماذا عمل ؟ لقد كانت تمنحه احساسا طيبا من قبل • انها الآن تمنح احساسا سيئا • انه يصرخ ويصرخ حتى ينام • ويأتي الغد • ان الروح المعنوية للأم مرتفعة مرة ثانية • ونمضي معا • لقد كانت الليلة الماضية سيئة جدا • وهاهي ذى الآن تتحسن ثانية • وبالطبع ستسوء مرة ثانية • أنا لا أعرف لماذا • ولكن كل شيء سيتغير في وقته • انها حالة طيبة بصورة مخيفة (هوس) وسيئة بصورة مخيفة (انقباض) • ان الخوف هو الذي نوصف به اكثرا الحالتين بسبب الواقع المعاش الذي يخبره أن التغير سيأتي فجأة ، وشاملا ، ودون توقع •

وهناك حالات أخرى في الأبوين تؤدي الى هذه النوعية من التقلبات مثل : ادمان المخدرات • التطرف الديني (الانشغال الزائد عن الحد ، أو الاستبعاد الزائد عن الحد • بالشئون الصوفية الدينية) • أو الذهان (اختلال عقلي حاد يؤثر على شخصية المضاب تأثيرا شاملا) • أو تكون الأم ذات شخصية منقبضة • لا تستجيب للكحول ، بل للتسجيلات القلبية التي يظهر تأثيرها الآن في ولدها • ان الخلل العقلي يجري في دم العائلات • ومن السهل رؤية كيفية انتقاله • ان احساس « الطفل » بأنه على غير مايرام • يتعظم في مثل تلك الأحوال • فهو قد يرى خلاصه في محاولة ارضاء « الوالد » أي أنه يستطيع أن يكون على مايرام (لو) ، ولكن أسلوب

الشرط حفظ التغيير (في الليلة الماضية عندما طوحت بالقطة من ذيلها ابتسمت واحتضنتني . وقد فعلت ذلك مرة أخرى صباح اليوم . ولكنها تضربني) . وعندما يكبر الصغير تقوى هذه الأنواع من الاستجابات غير المستقرة . ان الصغير يعاقب بشدة لاستخدام « كلمات بذينة » . ولكنه في هذه الليلة يسمح أباه الثمل وهو يقيم وليمة لأصدقائه وهم يلعبون البوكر مع حكايات عن براعة ابنه ، وفي النهاية ينأى الصبي مصمما (على عكس الأمر السابق) على أن يقص على العم هاري التكتة التي حكاها من قبل .

وعلى ذلك فان الشخصية المصاية بهذا الهوس يمكن رؤيتها كشخص أبعد « راشد » النامي عن عملية بناء نظام العلة والمعلول القائم على موافقة أو توبيخ « الوالد » . وحيث أن هذه الموافقة أو التوبيخ قد فسرت غالبا بواسطة الاستحسان أو التوبيخ الشفوي فان المزاج المتأرجح للكبار المصابين بهذا الهوس ، يؤدي أيضا الى الاحساس أثناء حالة الاختلاف بأن « الحياة غنية » والاحساس خلال حالة الاحباط بأن « الحياة فارغة » .

ومن الضروري كما هو حادث في علاج كافة المشاكل الوجدانية ، ربط « الراشد » باختبار الاحاسيس ، وتشجيع « الراشد » على السؤال بكلمة : لماذا ؟ . أما الصعوبة العظيمة البادية في علاج حالة الهوس الانقباضى فتتمثل في أن « الطفل » قد توقف مبكرا عن السؤال بكلمة : لماذا ؟ وهو في الحقيقة قد قرر ألا يعاود السؤال .

ويذكر فروم رايشمان أن الهوس الانقباضى يتصف « بفقدان القدرة على الملاحظة الصحيحة ، وفقدان الاهتمام ، والتدريب المبكر على الاستبطان أى قدرة المرء على فحص أفكاره وتصرفاته وتفهمها » . وهذه القدرات المبنية على الملاحظة ، انما هي نتاج القرار المبكر . ويتكون العلاج من إعادة « الراشد » الى موقفه السابق اعتزاله أى الذى كان فيه يدير مبدأ « العلية - Causality » . وحيث أن الفاصل بين « الراشد » و « الطفل » والشخص قد تحطم ، وأن الشخص قد اكتشفته المشاعر ، فمن الضروري غالبا ، اعطاء المريض المساعدة من خلال العلاج باستعمال العقاقير المهدئة ، أو المضادة للاجباط ، أو الصدمة الكهربائية . ومادام « الطفل » قد هدا - فان « الراشد » يبدأ في العمل . ويمكن مساعدته على كشف أسباب النوبات المزاجية غير القابلة للتفسير . لقد كان « الطفل » في البداية تحت رحمتها ، والآن يستطيع الشخص أن يتوصل لمعرفة أن ما يفعله هو الذى يحدد المديح أو التانيب الذى سيناله . أما المديح أو التانيب الذى

يلقاه اليوم فقد لا يكون في مثل كثافة ذلك الذى تلقاه فى الطفولة -
ولن يؤدي المديح الى الخلل الشديد ، كما أن الاحباط لن يؤدي اليه
التأنيب - ولكنه متحرر من القلق الشديد الخاص بعدم القدرة على التنبؤ
بالمستقبل الذى يساوره حتى فى حالة الهوس .

الملل المستقر :

وهناك طراز من الافراد باهتى الشخصية الذين تتميز تسجيلاهم
فى « الوالد » و « الطفل » بأنها تافهة. لدرجة أن الواحد منهم يفتقد بحق ،
المواد الخام الضرورية لتلوين الشخصية ، وفى الغالب فان ذلك يعبر عن
نفسه مرضيا ، فى الشخص الذى يعانى من اكتئاب غامض (السعادة
للآخرين) أو أنه ببساطة قد أحس بالملل من الحياة - لقد كان أبواه
غبيين وعاجزين عن التعبير عن رأيهما ، وجمعان بين موقفين متعارضين ،
وكانت العقوبة نادرة ، والمكافأة أيضا نادرة ، كما كان هناك حماس قليل
تجاه أى شئ . وهو كشخص صغير لم يتعرض لاثارة العالم الخارجى ،
ونادرا ما كانت له علاقات بالصغار الآخرين . وبالرغم من أنه كان ولدا
طيبا اذ لم يسبب أى متاعب خاصة ، الا أنه لم يكن بالصغير الذى يلاحظه
أحد - لقد أدرك « راشد » الحقيقة . ولكنها لم تكن بالحقيقة السارة -
وربما يكون قد كبر بحيث يتمتع « براشدا » متحرر . ولكنه « راشد »
لا يرى أية قيمة ايجابية فى محاولة التواصل مع الآخرين (يلبس المرء
هذا النوع من القيم لأول مرة فى « الوالد » لو صح حقا أنها قيمة من قيم
« الوالد ») . ان شخصيته تشبه الحاسب الآلى « فبينما يتمتع الآخرون
أنفسهم فى حفل ، فانه يقلب مجلة فى ركن ، مؤديا العمل الوحيد الذى
يعرف أن يعمل : غرلة المعلومات . واذا حضر فى النهاية للعلاج ، فان
سؤاله سيكون شيئا مثل : « ألا يوجد ما هو أكثر من ذلك فى الحقيقة ؟ »
وبالرغم من أنه لا يمثل مشكلة للمجتمع الا أنه يعتبر مشكلة بالنسبة
لنفسه . ان حقيقته محدودة بنفس محدودة واقعه فى بداية حياته .

وينطبق هنا رأى الفريد نورث هوايتهيد من وجهة نظر خاصة
حيث يقول ان « تعليم الأخلاقيات غير مستطاع بعيدا عن الرؤية المعتادة
للعظمة » . واذا فكرنا فى الأخلاقيات على أنها نظام قيمى ، واذا لم تكن
« مملة » أو كانت « مثيرة لاهتمام الآخرين » أو « خلقة ومنتجة » ، فانها
تكون قيما ايجابية . ومن الواضح أن الشخص الذى كانت انطباعاته

الأولية عن الحياة فاترة ، سيكون هو نفسه بليدا ، اذا لم تظهر في طريقه بعض العلاقات العظيمة .

وهناك أسباب أخرى للملل ، فنجد مثلا أن الشخص الصغير الذي تلج عليه أسئلة في مطلع حياته مثل : لماذا يرتفع الدخان ؟ ولماذا ينزل المطر ؟ ومن صنع الله ؟ ومن صنعه ؟ انه يتلقى باستمرار اجابات مراوغة ، تزيد من حيرته ويتضح له فيما بعد أنها خاطئة - وفى نهاية الأمر يتخلى عن السؤال ، ويتخلى عن الاستكشاف ، ويتوقف عن الاهتمام ، ويبدأ حياة الملل ، ويبدأ حاسبه فى الانغلاق على مناطق واسعة تتطلب الاهتمام ، لأن الاجوبة على أسئلته لم تزد الا من حيرته ، ويظهر هذا النوع من الملل بين طلبة المدارس العليا والكليات حيث ينمو الملل لديهم من الاجابات المبسطة التى يتلقونها خلال البحث عن الحقيقة ، والموانع التى فرضت على متابعتهم للحقيقة ، والى أين تقودهم ، فيتصورون أن عليهم الاختيار بين الايمان والحقيقة ، وأن كليهما ينفى الآخر ، ورغم أن من رجال الدين من لا يجد حرجا فى النقاش ، ويتعمق فى البحث ، الا أن الكثير من المجتمعات الدينية تطرح العقيدة طرح المسلمات التى لاتناقش .

ومع تقدمنا فى الدراسة رأينا كيف أن الناس تختلف حسب الترتيبات البنائية المختلفة لدى « الوالد » و « الراشد » ، و « الطفل » وتظهر أغلب هذه الاختلافات كمشاكل مرضية ، وتختلف أيضا اختلافات صحية ، لأن « تعريف الصحة » يتمثل فى أنها « راشد » متحرر مسئول دائما عن كل المعاملات - ويعنى هذا أن « الراشد » يأخذ البيانات من « الوالد » ومن « الطفل » ومن الحقيقة ، ثم يتوصل الى قرار حول ماذا يجب أن يفعل - وكلما أخذت المعلومات عن مصدر غنى ، كلما زادت احتمالات الاشباع . ان الصغير الذى تضمنت تجاربه المبكرة استكشافا غير معوق ، للقصور والحلل ، والطين الممتد بطول أحواض الزهور ، والحشرات ، والأصدقاء ، والرحلات الى الريف ، والأمسيات التى تحكى له فيها القصص ، والاجازات التقليدية فى البيئة المحيطة ، واللعب التى يتحكم فيها ، والتسجيلات التى يستمع اليها ، والمحادثات المفتوحة الودودة مع الأبوين غير المتعجلين ، والعديد من المشاعر الايجابية فى حياته - هو أفضل من الشخص الصغير المنعزل والذى يحاط بالحماية الزائدة ، والشخص الصغير الذى يختبر مبكرا أساليب التغلب على موقف الاحساس بأنه هو أو غيره ، ليسا على مايرام . انما يقوى « راشده » ، ويتشجع للتقدم نحو الاستكشاف والتحكم الأوسع ، ومن ثم يتحول الى « طفل لامع » يكتسب لنفسه المديح والثقة بالنفس اللذين يدفعانه لأن يصير أكثر لمعانا .

أما حقيقة أنه يجلب الثقة للأسرة فإنها لا تقلل من حقيقة أنه يكتسب الثقة لنفسه ، اذا لم يمارس أبواه ضغطا مفرطا ، ويفرضان عليه طلبات ليست في حدود اهتمامه « خلال هذه العملية » .

ومن خلال فهمنا لنموذج (الوالد - الراشد - الطفل) في كل منا نستطيع أن نصل الى فهم ما يدور في « الوالد » و « الطفل » بل وأيضا مالا يدور هناك . فاذا استطاعت الفتاة التي تتحسر لأنها تشعر بأنها بسيطة وغبية . . . ولا تزيد على ذلك ، أن تقدر العجز في « والدها » و « طفلها » لأن معرفتها بالحياة بسيطة ساذجة ، تستطيع حينذاك أن تتحرر مع « راشدها » للوصول الى الحقيقة واكتشاف أن الحياة تزخر بأشياء مثيرة . وقد تستغرق فترة لتدركها ، ولكنها تستطيع أن تجد المساعدة لمعرفة أنها صاحبة الاختيار . واذا قلت « أستطيع أن أكون مختلفا » ، فإن ذلك يساعدك كثيرا .

الفصل السابع

كيف نستخدم الوقت

(ان الوقت هو ما نريده أكثر من غيره ، ولكن يا للعجب ! اننا نستخدمه اردا استعمال - ولیم بن)

يعتبر استكشاف الفضاء واحدا من أكثر المغامرات العلمية اثارة في هذا القرن ولا يكفينا أن نعرف أنه لا نهائي ، لأننا نريد معرفة المعالم التي تسهل التعرف على النقاط البارزة لكي نتحدث عنها - بما في ذلك منصات لأقمارنا الصناعية ، ومواقع محسوبة رياضيا نستطيع أن نصوب اليها مركباتنا الفضائية . اننا نريد أن نستوعب الفضاء ونضع له تعريفا حتى نستخدمه أفضل استخدام .

أما الحقيقة الكونية الأخرى فهي الوقت . قد نتأمل في نهاية وجودنا على الأرض ، وقد نؤمن بالخلود في مواجهة الموت الذي يتعذر فهمه ، ولكن علينا في تعريفنا للوقت أن نبدأ من حيث نقف تماما مثل مجهوداتنا الخاصة بمحاولة وضع تعريف للفضاء ، وكل ما نستطيع أن نعرفه هو أن متوسط ما يخص الفرد من الزمن لا يتعدى سبعين عاما ، ماذا نفعل بنصيبنا المحدد ، هذا هو ما يعني . وما يعني بالأكثر هو ماذا نفعل بالمجموعات الصغيرة من الزمن التي في أيدينا : الاسبوع القادم ، واليوم التالي ، والساعة التالية ، وهذه الساعة الحالية .

ونحن جميعا نشاطر دزرائيلي الاحساس بأن « الحياة أقصر من أن تكون صغيرة » . ولكن الاحباط الأعظم يتمثل في أن معظم الحياة ربما كان

هو ما يتفوق على استكشاف الفضاء معنويا ودراميا ، وأعني به فحص
استخدامنا للوقت . قال جون هاو : « يالها من حماقة أن نرتعد من فكرة
التخلص من الحياة مرة واحدة ، ولكننا لا نأبه أن نبددها على دفعات » .
وكما هو الشأن بالنسبة للفضاء ، فاننا لانكتفى بفهم الزمن على أنه مجرد
شيء لانهاى . والسؤال الملح بالنسبة لآناس كثيرين هو : « كيف سأتحرك
خلال الساعة القادمة ؟ » وكلما كان هناك تخطيط أكثر للوقت كلما خفت
صعوبة هذه المشكلة ، ولا يملك الناس المنشغلون تماما بالمطالب الخارجية
العديدة وقتا ضائعا إذ أن « الساعة التالية » قد تم التخطيط لها جيدا .
وهذا التخطيط أو البناء هو ما يحاول الناس أن يحققوه ، وعندما
لا يستطيعون ذلك بأنفسهم ، فإنهم يطلبون من أشخاص آخرين أن
يضعوا لهم برامج زمنية « قل لى ماذا أفعل ؟ » ، « ماذا أفعل بعد ذلك ؟ » ،
« ان ما نحتاج اليه هو القيادة » .

ان الحاجة الى التخطيط تفوق الحاجة الى المعرفة التى تنمو من
الحاجة المبدئية للمديح . ان الصغير ليست لديه المعرفة الضرورية بالوقت
حتى يخطط له ، ولكنه ببساطة يرتب لعمل الأشياء التى يشعر أنها طيبة
لحظة بلحظة . وبينما هو يتقدم قليلا فى العمر يتعلم أن يرجى التشجيع
لأجل مكافآت أعظم : « أستطيع أن أخرج للعب مع سوزى الآن ، ولكننى
إذا انتظرت عشرين دقيقة أخرى وارترديت فستانى الرقيق ، أستطيع أن
أذهب الى المركز التجارى مع أبى » . وهذه المشكلة أساسية فى التخطيط
للوقت : أى الاختيارين سيكون أكثر امتعا . وأيهما يؤدي الى مكافأة
أكبر ؟ ومع تقدمنا فى السن يكون لدينا اختيارات أكثر وأكثر . وعلى أية
حال فان موقف (ليس على مايرام) يحفظنا من ممارسة هذه الاختيارات
بحرية أكثر مما نظن ، ونحن قادرون من خلال ملاحظتنا للمعاملات بين
الناس - على اقامة ستة أنماط من الخبرات ، متضمنة كل المعاملات :

هذه الأنماط هي : الانسحاب ، والطقوس ، والأنشطة ، وتبيلية
وقت الفراغ ، والألعاب ، والألفة .

وبالرغم من أن الانسحاب لا يعتبر معاملة مع شخص آخر ، الا أنه
مع ذلك يمكن أن يحدث فى الإطار الاجتماعى . ان الرجل الذى يتناول
الغداء مع جماعة من الرفاق المثيرين للملل ، الذين يهتمون براحتهم أكثر
من راحتهم ، ينسحب الى أوهام الليلة الماضية . عندما كانت المجاملة
أفضل ، وبينما لا يزال جسده على منضدة الغداء ، فانه هو نفسه غير موجود .
ان فضول الدراسة فى يوم ربيعى لطيف مزدهمة بالأجسام التى تهيم

أرواحها في ذكريات المرح في حوض السباحة ، أو اللهو مع الأصدقاء أو مغازلة الفتيات . وعندما ينسحب الناس بمثل هذه الطريقة فمن المؤكد أن الانسحاب يبعدهم عن هؤلاء الذين يجاورونهم بالجسد . وهذا لا يضر إذا لم يحدث طول الوقت .

أما الطقوس فهي استخدام للوقت مخطط اجتماعيا حيث يوافق كل فرد على عمل نفس الشيء . انه في أمان . ولا يوجد التزام نحو شخص آخر أو تورط معه ، والنتائج محسوب مسبقا ، ويبعث على السعادة طالما أنت ملتزم بالخطوات أو منفذ للشيء الصحيح . وهناك طقوس للعبادة ، وطقوس للتحية ، وطقوس لحفلات الكوكتيل ، وطقوس لغرفة النوم . ان الطقوس قد رسمت ليتمكن فريق من الناس من تضيئة الوقت المعين دون أن يضطروا الى التقرب الى أى شخص ، وربما حدث ذلك التقرب ، ولكنه غير مفروض عليهم فالعلاقات الجنسية فى الظلام ، أقل اجراجا بالنسبة للأفراد الذين لا ترقى درجة علاقتهم الشخصية الى دفع علاقتهم الجنسية ، وهناك فرصة أقل للاندماج فى حفل كوكتيل عنها فى تناول غداء لستة أفراد . هناك التزام أقل ، وبالتالي اشباع أقل ، فالطقوس مثل الانسحاب يمكن أن تحافظ على الفوارق بيننا .

أما النشاط كما يراه برن ، فهو طريقة عمومية ومناسبة ومريحة ونفعية ، لتخطيط الزمن بمشروع مصمم للتعامل مع الواقع الخارجى أو المادى (١) . ان الأنشطة العامة تحفظ مواعيد العمل ، وعمل أطباق الطعام ، وبناء المنازل ، وتأليف الكتب ، وجرف الثلوج ، والاستعدادات لامتحانات .

أما هذه الأنشطة من حيث كونها منتجة وخلاقة ، فقد تتضمن فى حد ذاتها أعلى درجات الرضا ، أو أنها قد تقود الى الرضا فى المستقبل على هيئة الثناء الذى قد يناله المرء عندما يؤدي عملا باقتان ، ولكن لا توجد حاجة للاندماج الحميم مع شخص آخر خلال وقت أداء النشاط ، وقد يكون ذلك موجودا ولكنه غير مفروض . ان بعض الناس يستعملون عملهم لتفادى الالفة فيعملون بالمكاتب ليلا بدلا من العودة للبيت ، مكرسين حياتهم لاكتساب الملايين بدلا من اكتساب الأصدقاء .

E. Berne, "Transactional Analysis in Psychotherapy", (New York : Grove Press, 1961), p. 95 (١) .

ان الانشطة يمكن أن تبتعد بنا بعيدا ، تماما مثل الانسحاب .

اما تسلية وقت الفراغ فهي وسيلة لقضاء الوقت . ويعرف برن التسلية لتمضية الوقت بأنها :

علاقة تكون فيها المعاملات صريحة . . قد تنطلق تسلية وقت الفراغ من أجل التسلية ذاتها وتؤدي الى ارضاء الذات اذا تمت مع اناس سعداء او منظمين جدا . على أن تكون قبلتهم على الاستمتاع سليمة لم تفسد . أما التسلية مع غيرهم خاصة المصابين بأمراض عصبية فتكون حسب دلالة اسمها . مجرد طريقة لتمضية الوقت (أى تخطيطا للوقت) ، وحتى يصل الانسان الى معرفة الناس جيدا . وحتى يتم انجاز هذه الساعة ، أو على نطاق واسع حتى وقت النوم . أو حتى وقت الاجازة ، أو حتى بداية الدراسة ، أو حتى حلول العلاج . أو حتى حلول شكل من أشكال الموهبة . أو النجدة . أو الموت . وتعتبر التسلية بفرض تمضية الوقت - من وجهة النظر الوجودية - طريقة لتجنب الذنب . أو اليأس ، أو المودة . أو أداة أوجدتها الطبيعة أو الثقافة لتخفيف اليأس البطيء . وهي تعتبر من الوجهة المتفائلة على أحسن الفروض ، شيئا يستمتع به الانسان لذاته ، وهي تعمل على الأقل كوسيلة للتعارف . يهدف منها المرء الى تحقيق التفاهم المرغوب مع الكائنات البشرية الأخرى . وعلى أية حال فإن كل المشتركين يستخفونها بطريقة الفرصة المتاحة ليحققوا منها أية مكاسب أولية ولانوية مستطاعة (٢) .

أما هؤلاء الذين لا يستطيعون المشاركة في تسلية وقت الفراغ فليسوا موهوبين اجتماعيا ، ويمكن النظر الى تسلية وقت الفراغ على أنها نوع من الفحص الاجتماعي . حيث يطلب الانسان معلومات عن المعارف الجدد بطريقة تخلو من التهديد وغير متميزة . وتنحصر ملاحظة برن في أن تسلية وقت الفراغ تشكل قاعدة لاختيار المعارف ، وقد تقود الى الصداقة ، وفيما بعد قد يتمتع الذين يمارسونها بخاصية « تأكيد الدور وتثبيت الموقف » .

وقد أعطى برن بعض الأسماء السارة الساحرة لبعض من ألوان أنشطة وقت الفراغ ، التي يمكن ممارستها في حفلات الكوكيتيل ، وغداء السيدات ، وجلسات العائلات . والنوادي الخاصة ، حيث تدور نوعيات

E. BERNÉ, "Transactional Analysis in Psychotherapy". (New York : Grove Press), p. 85. (٢)

من الأخاديت العامة عن المهن المختلفة ، فمثلا يتحدث العاملون في جنرال موتورز عن (المقارنة بين السيارات) ، أو يتحدث رجلان عن « برامج التلفزيون » أو يتحدث السيدات في شئون البقالة والمطبخ والملابس ، أو كيفية عمل شيء ، أو الأسعار ، أو بعض أماكن الذكريات أو الاستفسار عن معرفة بعض الأشياء ، أو الأصدقاء القدامى أو توقعات الغد ، أو أنواع المشروبات (٣) .

ويمكن أداء لعبة تسلية وقت الفراغ عن طريق « الوالد » أو « الراشد » أو « الطفل » - وقد تبدأ اللعبة بين « والد - والد » بالمعاملة الآتية :

مود : تقصدين أنك تقومين بتنجيد المفروشات ؟

بيسى : فقط عند الضرورة .

ويقود ذلك الى مناقشة حول أسعار التنجيد ، وتدهور مستوى العمل الآن أو الأوكازيونات .

أما لعبة تسلية وقت الفراغ التي تبدأ بين « طفل - طفل » فهي المشاركة في اختيارات مستحيلة ترمز الى موقف الطفل الصغير من اختيار أحد أمرين أحلاهما مر . ويمكن لهذا اللون من ألوان النشاط أن يخفف من القلق ، ليس لأن المشكلة قد وجد لها حل ، ولكن لأنه قد شارك فيها شخص آخر - « حاول مع هذه المشكلة لحظة ! » - لقد سمعت هذه الأسئلة خلال حديث متبادل بين شخصين عمر كل منهما خمسة أعوام : « هل تفضل أن تأكل تلاتا مملوءا بالنمل ، أو تشرب دلوا مملوءا بالدواء المغلي ؟ وهل تحب أن يطاردك ثور وحشى أو تلبس فردة حذاءك اليمنى في قدمك اليسرى والعكس طول اليوم ؟ وهل بودك أن تجلس على فرن ساخن أو تدخل الفسالة الكهربائية خمسين مرة ؟ وهل تريد أن تلدغك آلاف الزنابير أو تنام في حظيرة الخنازير ؟ - أجب باختيار واحد من الأمرين ؟ أى عليك أن تختار واحدا من كل اثنين » ويمكن أن تكون أسئلة الكبار أكثر حنكة مثل : هل أنت ديموقراطى أم جمهورى ؟

ويمكن للراشد أن يلعب تسلية وقت الفراغ بموضوعات مثل الطقس لعمل علاقة تستمر حتى ظهور شيء يثير الاهتمام أو يؤدي الى المذبح :

مستتر أ : يبدو أن عاصفة ستهب .

مستتر ب : هذه السحب تبدو سوداء في حقيقتها .

مستتر أ : انها تذكرني بالوقت الذي كنت أقود فيه طائرتي ، ودخلت في عاصفة مفاجئة فوق خليج سان فرانسيسكو .

مستتر ب : أوه . أنت طيار ؟

وما دامت تسلية وقت الفراغ مفيدة في مواقف اجتماعية معينة . فمن الواضح أن العلاقات التي لا تتقدم الى أبعد منها تموت - أو على الأقل تعيش في يأس بطيء وملل متزايد - وتسلية وقت الفراغ مثل الانسحاب ، والطقوس ، والأنشطة ، يمكن أن تأخذ الناس بعيدا .
أما الألعاب فهي ظاهرة معاملات هامة حتى أن برن قد وضع كتابا كاملا عنها هو أفضل كتبه توزيعا ، وعنوانه :

(ألعاب يلعبها الناس - Games People Play) . ومعظم الألعاب تسبب الضيق ، انها تمثل محطتي العلاقات ، ومنتجي البؤس . وتكمن اجابة السؤال : لماذا يحدث لي ذلك دائما ؟ ، في فهم هؤلاء جميعهم . يقول برن : ان كلمة (لعبة) يجب ألا يساء فهمها وهي لا تنطوي بالضرورة على اللهو أو حتى المرح . وأنا أنصح من يرغب في فهم تلك الألعاب فهمها حقيقيا بقراءة كتابه . وعلى أية حال فاننا تقدم فيما يلي تعريفا موجزا يؤدي الغرض من هذا الدليل الخاص بتحليل المعاملات :

تمثل اللعبة تطور سلسلة متصلة من المعاملات التكميلية الكامنة خلف السطح نحو مخرجات جيدة التعريف ومستقبلية . انها بالتحديد مجموعة دورية من المعاملات ، تتكرر في الغالب ، وتبدو مقنعة ظاهريا . مع حافظ خفي . أو انها ببساطة أكثر . سلسلة من التحركات ذات مصيدة أو طعم . والألعاب تختلف بوضوح عن الاجراءات والطقوس وتسلية وقت الفراغ في صفتين أساسيتين : ١ - أنها كامنة تحت السطح ٢ - أنها مثمرة .

أما الاجراءات فقد تكون ناجحة . كما أن الطقوس قد تكون ممتعة ، كما أن تسلية وقت الفراغ قد تكون مفيدة . ولكنها في مجموعها صريحة وأصحة . فهي قد تسبب المنافسة ولكنها تسبب الصراع . وقد تكون نهايتها مشيرة ولكنها غير درامية . ومن الناحية الأخرى فإن كل لعبة في

أساسها غير شريفة ، وناتجها يتسم بشيء من الدرامية التي نستطيع أن نميزها عن الآثار التي تحدثها (٤) .

وكما بينا في الفصل الثالث فإن كل الألعاب لها أصلها الذي يعود إلى لعبة الطفولة البسيطة التي اسمها « مالدی أفضل مما لديك » ، والتي يمكن ملاحظتها بسهولة في أى فريق من الصغار الذين فى سن الرابعة ، الذين يلعبونها كما يلعبها الكبار ، لتوفير بعض الراحة الوقتية من حمل عبء الاحساس بأن المرء ليس على مايرام . وكما فى حالات الكبار الأكثر حكمة فإنها خفيفة من حيث أنها لاتعبر صراحة عن حقيقة ما يشعر به الفرد . وعندما يقول الصغير « ما لدى أفضل مما لديك » يخالجه احساس « أنا لست مثلك » . انه دفاع هجومى من حيث سعيه لتحقيق الاستقرار الداخلى . وفيها أيضا رد أو وفاء مثل ألعاب الكبار . وعندما يستغرق اللاعب فى لعبة « ما لدى أفضل مما لديك » فإن اللعبة تنتهى بدفعة شديدة أو صفة على الوجه ، أو يتحقق الصغير من أن ما معه مثلا ليس هو الأفضل ، وهى حقيقة موجعة وهى تعيد الشخص الصغير مرة أخرى إلى مكانه بعد أن تبرهن مرة أخرى على موقف « أنا لست على مايرام » وللإبقاء على هذا الموقف الثابت ، يخالج الصغير نوع ما من الاحساس الضعيف بالأمن .

وهذا هو جوهر كل الألعاب . انها طريقة لاستهلاك الوقت بالنسبة للناس الذين لا يستطيعون احتمال فقدان الحنان الناتج عن الانسحاب ، ومع ذلك لايزال موقفهم (أنا لست على مايرام) يمثل عقبة كؤودا أمام تحقيق الشكل النهائى للانتماء والمودة . وبالرغم من وجود البؤس الا أن هناك شيئا . وكما قال الممثل الهزلى : « أن تنبعث الرائحة الكريهة من فمك ، أفضل من ألا تتنفس مطلقا » . نقول أن مواجهة القسوة فى الألعاب أفضل من عدم وجود علاقة على الإطلاق .

وقد كتب الدكتور ريتشارد جالدستون عن الصغار الذين يعانون من سوء المعاملة ، ما يلى : « أن [الصغير] النامى أكثر عرضة لأن يتغلب على مرارة القسوة ، منه على مرارة التجاهل واللامبالاة (٥) » .

E. Berne "Gomes People Play", (New York : Grove Press, (٤) 1964), p. 48.

R. Galdston, M.D., "Observations of Children Who Have Been (٥) Physically Abused and Their Parents", American Journal of Psychiatry, Vol. 122, No. 4 (October, 1965).

وعلى ذلك فإن الألعاب نقيذ جميع اللاعبين فهي تحمي سلامة الموقف
دون أن تهدد بالفضيحة .

ولتحديد طبيعة الألعاب بصورة أوسع سنورد الحركات الخاصة
بلعبة واحدة هي : « لماذا لاتفعل » نعم ولكن ، ، واللاعبان هما امرأة شابة
تدعى جين ، وصديقتها (وهذه اللعبة تؤدي غالبا في موقف المساعدة ،
أو مكتب رجل الدين ، أو مكتب الطبيب النفسي ، أو مطبخ جارة تعاني من
مشكلات طويلة الأمد) .

جين : اننى ساذجة جدا ، وغير منسقة المظهر لدرجة تنفر منى الرجال .
الصديقة : لماذا لاتذهبين الى صالون تجميل ممتاز ، وتقومين بتغيير
تسريحتك ؟

جين : فكرة رائعة ، ولكن ذلك يكلف مبلغا كبيرا من المال .

الصديقة : طيب ، ولم لاتشترين مجلة من مجلات التجميل وتستفيدين
منها في تصنيف شعرك ؟

جين : ومن قال اننى لم أحاول ذلك ؟ ولكن شعري ناعم جدا . انه
لا يثبت على تسريحة معينة . أما اذا عقصته ، فسيبدو على الأقل
مقبول الشكل .

الصديقة : وماذا عن استخدام الماكياج لتجميل ملامحك ؟

جين : نعم ، ولكن بشرتى حساسة بالنسبة للماكياج . لقد عملته مرة
فصارت بشرتى خشنة وثشققت .

الصديقة : هناك كميات ضخمة من الماكياج المضاد للحساسية . فلماذا
لاتذهبين لزيارة طبيب الأمراض الجلدية ؟

جين : نعم ، ولكننى أعرف ما سيقوله . سيقول اننى لا أتناول الغذاء
الصحيح . أعرف اننى أتناول كميات كبيرة من الحلوى ، ولا أتناول
وجبات متوازنة . وهذا هو ما يحدث عندما تعيش بمفردك .
أوه . حسنا ، ان الجمال شيء سطحي .

الصديقة : حسنا . هذا صحيح ، وربما يساعدك أن تحصل على بعض
الدراسات الخاصة بتعليم الكبار ، فى مجال الفن ، أو الأحداث
الجارية . انها تساعدك على أن تكونى متحدثة جيدة كما تعلمين .

جين : نعم ، ولكن هناك حقيقة أن هذه الدراسات كلها مسائية ،
وأنا أكون خائفة القوى بعد انتهاء العمل .

الصديقة : حسنا ، ادرسى بعض المناهج بالمراسلة .

جين : نعم ، ولكن ليس لدى وقت لكتابة الخطابات لأقاربي ، فكيف أجد
وقتا للدراسة بالمراسلة .

الصديقة : ستجدين الوقت ، لو كانت الدراسة مهمة بما فيه الكفاية .

جين : نعم ، ولكنه من الميسر لك أن تقولى هذا القول ، لأن لديك
طاقة كبيرة ، أما أنا فان قوتى خائرة دائما .

الصديقة : لماذا لاتذهبين للسريير ليلا ؟ لا عجب فى أن تشعرى بالتعب
عندما تجلسين وتشاهدين « فيلم السهرة » كل ليلة .

جين : نعم ، ولكننى تعودت أن أشاهد عملا ترويحيا . وهذا هو
كل ما تفعلينه عندما تكونين مثلى .

نرى هنا أن المناقشة اتخذت دائرة كاملة . وقد هدمت جين بأسلوب
منتظم كل اقتراح من اقتراحات صديقتها . انها تبدأ بالشكوى من أنها
ساذجة وغير منسقة المظهر ، وتنتهى بادئة بالسؤال الذى يحمل السبب
الآخر . انها ساذجة وغير منسقة المظهر لأن « هذا هو حالى » . وأخيرا
تنفض صديقتها يدها منهزمة ، وربما تتوقف أخيرا عن زيارتها ، فتضاعف
من احساس جين بأنها ليست على مايرام . وهذا « يبرهن » لجين على أنه
لا أمل لها حقيقة ، وأنها لاتستطيع حتى الاحتفاظ بأصدقائها . ويبرز هذا
دخولها فى لعبة أخرى هى : « أليس الأمر مزعجا » وتنحصر الفائدة التى
تنالها جين فى أنها ستوفر على نفسها عبء العمل لأنها كررت البرهان
على أنه لا يمكن عمل شيء .

أما لعبة « لماذا لاتفعل ؟ نعم ولكن » فمن الممكن أن تمارس بأى
عدد من الأفراد حسب قول برن :

يطرح لاعب ما مشكلة « ويبدأ الآخرون فى تقديم الحلول ، ويبدأ
كل منهم بعبارة « لماذا لا تفعل ؟ » ولكن اللاعب يرفض كل حل مستعملا
عبارة « نعم ولكن » ويستطيع اللاعب الممتاز أن يتفوق على باقى المجموعة
بلا حدود حتى يستسلم الجميع ، وهنا يفوز هذا اللاعب عليهم .

وحيث أن جميع الحلول قد رفضت بلا استثناء ، فمن الواضح أن هذه اللعبة لابد وأن تخضع غرضاً خفياً - والفخ الموجود في لعبة « لماذا لاتفعل ؟ نعم ولكن » هو أنها لاتمارس من أجل غرضها الظاهري (راشد يطلب معلومات أو حلولاً) ، ولكن لتأكيد وتشجيع (الطفل) . وقد يخال من يقرأ الحوار أنه أمام « راشد » ، ولكنه إن استمع الى اللاعب أو اللاعب لوجدتهما يقدمان نفسيهما « كاطفال » غير مؤهلين لمواجهة الموقف . بينما يكون الآخرون قد تحولوا الى آباء حكماء متشوقين لتقديم حكمتهم لمصلحة ذلك المسكين وهذا هو ما يريد اللاعب ، حيث أن رفضه يهدف الى بث الحيرة في هؤلاء الآباء الواحد بعد الآخر (٦) .

(وهذه صورة حديثة من لعبة « ما لدى أفضل مما لديك » التي تنكر فكرة حقيقية « وهي أنك أفضل مني » ومع انتهاء اللعبة « يحزن جميع هؤلاء الذين قدموا نصائحهم لأنهم فشلوا في مساعدة اللاعب بينما يبرهن هو على أن مشكلته في حقيقة الأمر ، ليس لها حل ، وهذا يجعل في إمكانه أن يدخل « طفله » في لعبة جديدة هي : « أليس الأمر مزعجاً ؟ » أي أن هذا هو الواقع وهذه هي طريقتي (ولذلك لا أستطيع أن أفعل شيئاً حيال الأمر لأنه كما رأينا « لا يوجد ما يمكن عمله » .

ويصف برن في كتابه الخاص بالألعاب حوالي ستة وثلاثين لعبة وعناوين هذه الألعاب موضوعة بالعامية الدارجة ، وأغلبها دقيقة المعنى ، تضع اصبعك على الشخصية الرئيسية في اللعبة مثل : « أليس الأمر مزعجاً ؟ » و « لو لم تكن لك كنت أستطيع » و « هيا تشاجرا » و « الآن قد أمسكت بك يا ابن الـ ٠٠٠ » (٧) . ونظراً لأن العناوين بالعامية فإنها غالباً ما تدعو الى الضحك ، والحقيقة هي أن الألعاب ليست مسلية ، انها دفاعات لحماية الأفراد من درجات أكبر أو أقل من الألم الذي يتضخم من موقف « أنا لست على مايرام » . أما شعبية كتاب برن عن الألعاب ، فقد أدت الى ظهور لعبة من ألعاب تزجية وقت الفراغ بين أبناء بعض الأوساط الراقية . ويمكن أن يكون مبدأ الألعاب أداة علاجية مفيدة .

E. BERNE, "Transactional Analysis," P. 104.

(٦)

(٧) نورد هنا عناوين هذه الألعاب الأربعة التي أوردها المؤلف كنموذج مرتبة من اليسار الى اليمين وذلك بعد العودة الى الكتاب الأصلي وهو Games people play كما يلي :
Ain't It Awful. * If it weren't for you, I could *
Let's you and him Fight * Now I've Got you, son of a Bitch.

- للترجم -

عندهما تستخدم مع فهم مسبق لنموذج « الوالد - الراشد - الطفل » ولكن ان غاب هذا الفهم يمكن ببساطة أن تتحول اللعبة الى طريقة أخرى للعبوان . ويستطيع الأفراد مع فهم نموذج « الوالد - الراشد - الطفل » أن يستخدموا مناقشة أكاديمية للالعب بتطبيقها على أنفسهم ، ولكن اذا استدرج المرء الى اللعبة دون فهم أو اهتمام فقد تؤدي الى انبثاق مشاعر الغضب . ابني مقتنع أشد الاقتناع من الملاحظة الطويلة لهذه الظاهرة أن تحليل الألعاب يجب أن يحتل دائما مكانة ثانوية بالنسبة لتحليل المعاملات . ولا تتيح لك معرفة اللعبة التي تلعبها - في حد ذاتها - أن تتغير . وهناك خطر ينطوي عليه نزع الدفاع قبل أن يساعد الشخص أولا على فهم الموقف - وموقف الطفولة الذي نشأ منه ، والذي جعل ذلك الدفاع ضروريا . ويمكن أن نذكر ذلك بطريقة أخرى وهي أنه اذا كانت هناك ساعة واحدة من الزمن متاحة لمساعدة شخص ما ، فان طريقة الاختيار ستنحصر في التعليم الدقيق لنموذج « الوالد - الراشد - الطفل » وظاهرة المعاملة . وأعتقد أن هذا الاجراء يقدم فرصة أكبر للتغيير باستخدام العلاج القصير الأجل أكثر من تحليل الألعاب .

وباختصار - فاننا نرى الألعاب كأدوات لتخطيط الوقت وهي مثل الانسحاب والطقوس والأنشطة وتسلية وقت الفراغ ، تباعد بين الناس . اذن - ما الذي نستطيع أن نفعله بالوقت بحيث لا يبعد بيننا ؟ يقول جورج سارتون :

« أعتقد أن الانسان يستطيع تقسيم الناس الى فئتين رئيسيتين : هؤلاء الذين يعانون من الرغبة الشديدة في الاندماج هؤلاء الذين لا يعانون منها . وتوجد هوة بين النوعين . أما التوافق الى الاندماج فهو المتضايق . وأما الآخر ففي سبيل » .

لقد غلبت على حياة الانسان منذ عدة آلاف من السنين ، أساليب الانسحاب ، والطقوس ، وتسلية وقت الفراغ ، والأنشطة ، والألعاب . وربما كان الشك في هذه التشكيلة يواجه على أحسن ما يكون بتذكر التكرار الدؤوب للحرب على مدى التاريخ ، والحرب هي أكثر اللعبات قسوة . وقد سلم معظم الناس بأن هذه النماذج هي الطبيعة البشرية ، والمسار الحتمي للأحداث ، وأعراض التاريخ التي تكرر نفسها ، وكان هناك سلام معين في قبول هذا النوع من الآراء ، ولكن كما يقول سارتون ، فان أشد الناس احساسا بالضيق على مدى التاريخ هم هؤلاء الذين رفضوا اخضاع أنفسهم لحتمية التباعد ، والذين استمروا في التقدم برغبة شديدة.

فى الاندماج ، لقد كان المركز الديناميكي المحور للفلسفة هو دافع الاتصال أو التواصل . كان الأمل موجودا دائما ، ولكنه لم يهزم الخوف التكاملى فى النفس من اقتراب المرء من الآخرين ، ومن فقدان الذات فى نطاق الآخرين ، ومن التآلف الذى يعتبر أخسر الاختيارات التى يختارها الانسان .

أما علاقة الالفه بين شخصين فقد يظن أنها موجودة مستقلة عن الأساليب الخمسة الأولى لتخطيط الوقت وهى : الانسحاب ، وتسليية وقت الفراغ ، والأنشطة ، والطقوس ، والألعاب . أنها تركز على قبول الناس الذين يتخذون موقف (أنا على مايرام ، وأنت على مايرام) كما تركز حرفيا على الحب المفعم بالقبول ، حيث يصبح تخطيط الوقت الدفاعى غير ضرورى . ان العطاء والمشاركة هما تعبيران عفويان عن الفرح أكثر منهما استجابتان لطقوس مخططة اجتماعيا . ان الالفه هى علاقة خالية من الألعاب لأن الأهداف غير خفية . ان الالفه مستطاعة فى الموقف الذى يتيح فيه غياب الخوف ، الإدراك التام ، حيث يمكن رؤية الجمال منفصلا عن المنفعة ، وحيث يصبح الامتلاك غير ضرورى بالنسبة لتحقيق المالك .

انها علاقة يصبح فيها « الراشد » مسئولا فى الشخصين كليهما . ويسمح بظهور « الطفل الطبيعى » ، و « الطفل » فى هذا الصدد قد يظن أن له طبيعتين : « الطفل الطبيعى » (خلاق وعفوى ومحب للاستطلاع وواع ومتحرر من الخوف) « والطفل المطوع » (طوع نفسه لمطالب « الوالد » الأصلية المتمدينة) ويمكن لتحرير « الراشد » أن يتيح « للطفل الطبيعى » الظهور مرة أخرى ، كما يستطيع « الراشد » تحديده مطالب « الوالد » حسب ماهيتها القديمة - ويعطى الاذن « للطفل الطبيعى » بالظهور مرة أخرى ، دون خوف من عملية التمددين المبكرة ، التى غيرت ، ليس فقط سلوكه العدواني غير الاجتماعى ، بل أيضا سعادته وقدراته الخلاقة . وهذه هى الحقيقة التى تجعله حرا - ليكون واعيا مرة أخرى ، وليسمح ويشعر ويرى بطريقته الخاصة . ويمثل هذا جزاء من ظاهرة الالفه . وعلى ذلك فإن الهدية المكونة من حفنة من أزهار الربيع قد تكون تعبيرا عفويا عن الحب والفرح أكثر من هدية من العطر الباريسى الفاخر تقدم فى احدى المناسبات الاجتماعية المهمة . ان نسيان عيد الزواج لا يمثل كارثة للزوج والزوجة المحبين . ولكنه غالبا كذلك بالنسبة لهؤلاء الذين تدوم علاقتهم بفضل الطقوس .

وهذا هو السؤال الذى يدور غالبا : هل الانسحاب ، وتسليية وقت الفراغ ، والطقوس ، والأنشطة ، والألعاب - رديشة دائما بالنسبة

للعلاقات ؟ من الأسلم القول بأن الألعاب هدامة في معظم الأحوال مادامت حركتها خفية ، وخاصية الإخفاء هي تقيض الألفة . ان الأربعة الأول غير هدامة بالضرورة الا اذا أصبحت شكلا سائدا للتخطيط للوقت ، ومن الممكن أن يكون الانسحاب شكلا استرخائيا ومنشطا من أشكال التأمل الانعزالي . أما التسلية انمضية وقت الفراغ فيمكن أن تكون طريقة سارة لتهدئة المحرك الاجتماعي . أما الطقوس فيمكن أن تكون ترفيحية ، مثل حفلات أعياد الميلاد ، والاجازات ، والجرى للملاقة الأب عند عودته من العمل الى البيت - وبذلك فهي استعداد ثافية للحظات السعادة التي يمكن توقعها ، وعمل حساب لها ، وتذكرها .

أما الأنشطة التي تتضمن العمل فهي ليست فقط ضرورات للحياة . ولكنها مكافآت في حد ذاتها ، لأنها تسمح بالسيطرة ، والامتياز ، والمهارة في الصنعة ، والتعبير عن تشكيلة كبيرة من المهارات والمواهب . وعلى أية حال فإنه اذا لم تتوفر الراحة في علاقة بين شخصين عندما تتوقف هذه النماذج من تخطيط الوقت ، فمن الأسلم القول بأن هناك ألفة قليلة ، وبعض الأزواج يخططون كل وقتهم معا بنشاط ملحوظ . والنشاط نفسه غير مدمر مالم يكن الدافع للانفعال يماثل الدافع للانعزال .

ويقفز السؤال الآن : اذا جردنا أنفسنا من الوسائل الخمسة الأولى لتخطيط الوقت . فهل نكون قد حققنا الألفة آليا ؟ أم نكون قد حققنا لأشياء ؟ ويبدو أنه لا توجد وسيلة بسيطة لتعريف الألفة . ولكن يمكننا الإشارة الى تلك الأحوال الأثيرة جدا بسبب مظهرها : غياب الألعاب ، وتحرير « الراشد » والالتزام بموقف (أنا على مايرام ، وأنت على مايرام) .

ومن خلال « الراشد » المطلق السراح . نستطيع أن نصل الى المناطق الرحبة لمعرفة ما يتعلق بعالمنا . وما يتعلق بنا ، والى استكشاف أعماق الفلسفة والدين ، وملاحظة ما هو جديد ، دون أن يكسره القديم . وربما نجد أجابات تحل لنا كلا من عناصر ذلك التساؤل المميز : « ما الهدف من هذا كله ؟ » سيرد شرح لهذه الفكرة في الفصل الثاني عشر .

الفصل الثامن

نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) والزواج

(اننا نعطي وعودا حسب آمالنا ، وننجزها حسب مخاوفنا -
فرائسوا دوق دي لاروشفوكو)

يروى أحد أصدقائي القصة التالية حول موقف حدث عندما كان ولدا صغيرا - عند نهاية وجبة غذائية أعلنت أمه للأخوة والأخوات الذين كان عددهم خمسة ، أن الحلوى ستكون هي ما تبقى من الفطائر التي صنعتها - ومن ثم أحضرت برطمان الفطائر ووضعتها على المائدة ، وتبع ذلك تدافع الصغار في ضجة للوصول الى البرطمان ، وكان أصغر الاخوة وعمره أربعة أعوام هو الأخير كالعادة - وعندما وصل الى البرطمان لم يجد سوى فطيرة متبقية ، وقد ضاعت قطعة منها ، وهنا اختطفها وألقى بها على الأرض باكيا في غمرة من اليأس ، وصرخ قائلا : « لقد تهشمت فطيرتي كلها ! » .

وهذه هي طبيعة الصغير أن يحسب خيبة الأمل كارثة ، ويفسد الفطيرة كلها ، لأن قطعة منها ضاعت ، أو لأنها ليست كبيرة أو لذيدة مثل فطائر الآخرين - وقد بقيت هذه القصة في أسرته كنموذج قياسي للرد على أي شكوى فيقال : « ما الخبر ؟ هل تهشمت فطيرتك ؟ » وهذا هو نفس ما يحدث عندما تفشل الزيجات ، ان « الطفل » يباشر عمله في أحد الشريكين أو كليهما معا ، ويتحطم الزواج كله عندما تبدأ النقائص في الظهور -

ان الزواج هو أكثر العلاقات الانسانية تعقيدا فقليل من العلاقات هي التي تستطيع أن تنجح مثل هذه الانفصالات المتطرفة ، أو يستطيع الانتقال بسرعة من ممارسات النشوة الغامرة الى هذه القسوة العقلية الباردة والتي تؤدي في النهاية الى الانفصال الشرعى . وعندما يتوقف الانسان لتقييم المضمون الهائل للمعلومات القديمة التي يدخلها كل شريك في عملية الزواج من خلال المساهمة المستمرة لكل من « والده » و « طفلة » يستطيع الانسان أن يرى سريعا ضرورة وجود « راشد » متحرر في كل من الطرفين لجعل هذه العلاقة فعالة ، ولكن عقد الزواج المتوسط يتم على يد « الطفل » الذي يفهم الحب على أنه شيء تحس به وليس شيئا تعملة . ويرى السعادة كشيء تسعى خلفه وليس ناتجا ثانويا للعمل نحو تحقيق سعادة شخص آخر سواء . أما الشركاء الشبان الذين يتضمن « والدهم » المشاعر الخاصة بما يجب أن يكون عليه الزواج الناجح . فانهم سعداء وقليلون في نفس الوقت . وهناك أفراد عديدون لم ير الواحد منهم الآخر . ولذلك فانهم يستعيرون مفهوم الزواج من القصص الخيالية التي تتشبع بالرومانتيكية والتي قرأوا عنها ، حيث يكون للزوج عمل ممتاز كمدير تنفيذى مساعده في شركة اعلانات كبرى . ويعود الى البيت كل ليلة ومعها باقة من الزهور لتقديسها الى الزوجة الرشيقه المتألقة التي تنتظره في البيت الفخم ، الذي كسيت أرضياته بالسجاد الفاخرة . وأخذت نوافذه تتلألأ بما تكشف عنه من أضواء الشموع الخافتة . مع الموسيقى التي تنبعث من الستريو لتوفير جو الحب . وعندما يبدأ الوهم في الانقشاع ، وتبلى السجاجة ، ويتوقف الستريو عن العزف ، ويفقد الزوج عمله ، ويتوقف عن قول : « اننى أحبك » . فان « الطفل » يظهر ومع « شريط » الفطيرة المهشمة « وينتهى العرض كله . وقد تحطم كل شيء الى قطع صغيرة أما الذي يتبقى فهو الوهم ، وما يبدو باللون الأزرق هو « الطفل » . لقد أفسدت المشاعر القديمة الخاصة بموقف « ليس على ما يرام » الراشد في كلا الشريكين ، ومع عدم وجود مكان آخر ينقلبان عليه ، ينقلب الشريكان كل منهما على الآخر . لقد عرف منذ مدة طويلة أن أفضل الزوجات تنمو عندما يكون لدى الشريكين كليهما نفس الخلفية ونفس الاهتمام بالحقيقة . وعلى أية حال عندما يتولى « الراشد » مسئوليته في تخطيط الزواج فان الاختلافات المهمة يجري تجاهلها غالبا ، ويتم توقيع عقد فحواه « شركة حتى الموت » مرتكزا على مثل هذا الثمائل غير الكامل من نوع « نحن الاثنان نحب الرقص » أو « نحن الاثنان نريد الكثير من الأطفال » أو « نحن الاثنان نحب الخيول » أو « نحن الاثنان متشاحنان » . أما الكمال فيظهر في الاكتاف العريضة ، والأسنان

اللامعة ، والصدور الناهدة ، والسيارات الفارهة ، وغير ذلك من العجائب القابلة للغناء .

وفى بعض الأحيان يقوم الارتباط على أساس اجتماع الاثنين على معارضة موقف ما ، بناء على افكرة الخاطئة التى تقول أن عدو عدوى هو صديقى ، بنفس الطريقة التى يواسى بها صغيران غاضبان من أمهما ، أحدهما الآخر . ويتعاقب بعض المتزوجين بطريقة « نحن ضد العالم » كاحتجاج ضد هؤلاء ذوى النوايا السيئة . أو أن الزوجين يكره كل منهما عائلة الآخر ، أو يكرهان أصدقاءهما السابقين ، أو أنهما يكرهان تلك المعاهدة السخيفة التى تمثل السطحية الأمريكية ، أو لعبة الباولنج ، أو البيسبول ، أو السباحة ، أو العمل . انهما يعيشان حماقة يتقاسمان فيها نفس الأوهام . وسرعان ما يصبحان أداتين تجلبان المرارة لنفسيهما ، وما يجرى فى لعبة « انها غلطتهم » يتحول الى لعبة « انها غلطتك » .

ومن أكثر الوسائل معاونة فى اختيار التشابهات والاختلافات هو استخدام تحليل المعاملات فى الاستشارة السابقة للزواج لعمل تخطيط شخصى للشخصين المقدمين على الزواج . والهدف ليس هو فقط استعراض المتشابهات والاختلافات الواضحة ، بل أيضا اجراء استكشاف كامل لما هو موجود فى « الوالد » و « الراشد » و « الطفل » لدى كل منهما . والزوجان اللذان يدخلان فى مثل هذا الاستكشاف سيتمتعان بعوامل كثيرة تعمل فى صالحهما اذا كانا جادين فى مشروع الزواج بما فيه الكفاية لائقاء نظرة متعمقة قبل اقدام . وعلى أية حال فانه من الممكن للطرف الذى يشكك جديا فى صلاحية الطرف الآخر ، أن يقوم بهذا الاستكشاف على نفقته الخاصة ، والمثال على ذلك سيدة شابة كانت بين احدى مجموعاتي العلاجية . سألتنى أن أرتب ساعة منفصلة لأجلها بغرض مناقشة مشكلتها اذ كانت قد التقت بشاب منذ فترة قصيرة وقد تقدم هذا الشاب لطلب يدها . كان « طفلها » منجذبا اليه . ولكن كانت هناك معلومات أخرى داخلية فى « حاسبتها » دفعتها الى السؤال عما اذا كان الزواج فكرة جيدة أم لا . لقد تعلمت أن تستخدم نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) بدقة وطلبت أن أساعدها فى فحص هذه العلاقة على أساس فحص نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) فى كل منهما .

وفى البداية أجرينا مقارنة بين « والد » كل منهما . فوجدنا أن لديها « والدا » قويا اشتمل على قواعد للسلوك لاحصر لها ، والعديد من الأوامر والنواهي . ومنها تحذير بالآ تنذف فى الزواج بدون تفكير .

وكانت هناك عناصر معينة تدور حول استقامتها الشخصية ، مثل « نحن من أفضل الناس » . وتضمنت أفكارا مثل : « المرء مرآة صديقه » و « لا تفعل شيئا أقل من مستواك » . وتضمنت السمات المبكرة لحياة البيت المنظمة جدا . حيث كانت الأم ترأس البيت ، وحيث كان الأب يعمل في مكتبه يجدد الى وقت متأخر . وكان هناك مخزون من مادة « كيف أن ؟ » كيف تنظم عيد ميلاد ؟ ، وكيف تزين شجرة عيد الميلاد ؟ ، « كيف تربي الصغار ؟ » ، وكيف تكيف نفسك في المواقف الاجتماعية . لقد كان « والدها » ذا تأثير مهم في حياتها لدرجة أن الانطباعات كانت ثابتة تقريبا . وبالرغم من أن التشدد كان جائرا أحيانا ، وأنتج احساسا ملحوظا بأنها ليست على مايرام في « طفلها » الا أن « والدها » استمر كمصدر ثابت للمعلومات في كل معاملاتها في الوقت الحاضر .

ثم تحولنا الى فحص « الوالد » في الشاب . كان أبواه قد انفصلا عندما كان عمره سبع سنوات . وقامت أمه على تربيته ، ورغم أنها أغدقت عليه المتع المادية ، الا أنها أعطته اهتماما متقطعا ، وكانت هي نفسها واقعة تحت سيطرة « الطفل » و«الفعالية» ، وعبرت عن مشاعرهما في سفهما في انفاق الأموال ، وراودتها فترات متقطعة من العبوس ، والانسحاب ، والشراسة . ولم يظهر « والده » في التسجيلات أبدا الا في صورة « وغد دنيء فاسد مثل كل الرجال » . وعلى ذلك فإن « والد » الشاب كان مختلا ومحطما وغير منسجم في تصرفاته . لدرجة أنه لم يظهر خلال المعاملات كمؤثر متحكم أو معدل لنزواته الطائشة ، وسلوكه الخاضع لسيطرة « الطفل » . ان « والدها » و « والده » لم يكونا جد نقبضين فحسب ، بل أن « والدها » كان يرفض « والده » ، لقد ظهر سريعا أن هناك قاعدة ضمنية هوجودة لاقامة معاملة (والد - والد) حول أى موضوع بحيث تخكم أى شيء تكميلي على هذا المستوى .

وبعد ذلك أجرينا استجوابا حول قوة « الراشد » في كل منهما ، وتقييما لاهتماماتهما بالحقيقة ، فكانت هي شابة ذكية ، ومثقة . تمعت بتشكيلة كبيرة من الاهتمامات . كانت تحب الموسيقى الكلاسيكية ، وتسائر التقاليع الموجودة . وكانت قارئة جيدة للأدب الكلاسيكي . ومتمعت نفسها بعمل الأشياء اليدوية ، وأحبت أن تعمل أشياء خلاقة وجميلة في أو كان المنزل ، وكانت تستمتع بمناقشة الأفكار الفلسفية والدينية ، وبالرغم من أنها لم تتقبل معتقدات أبويها الدينية الا أنها كانت تشعر بأهمية وجود نوع من الاعتقاد . كانت خبيرة في ادارة المحادثات ، وفضولية . وكانت تهتم بنتائج ما عملته . كما أحست بالمسؤولية تجاه نفسها . وكانت

فى شخصيتها مناطق معينة للمحابة تعبر عن افساد «الوالد» للراشد ، مثل « كل رجل تجاوز عمره الثلاثين عاما ولم يتزوج » لا ترتجى منه فائدة . ، « المرأة التى تدخن ، تعمل أى شئ » . « أى شخص لم يدخل الجامعة فى أيامنا هذه يكون كسولا » و « ماذا تتوقع من رجل انفصل عن زوجته » .

وعلى العكس منها ، كان « راشد » صديقها قد أفسده « الطفل » . كان منقادا للملذات « مثلما كان وهو ولد صغير » وكان طالبا غير مجتهد خلال دراسته بالمدرسة الثانوية . ثم ترك الكلية خلال الفصل الدراسى الأول لانها « لم توافقه » ، ولم يكن ذكيا ولكن كان لديه اهتمام قليل بالموضوعات الجادة التى كانت مهمة بالنسبة للبنات . وكان يظن أن كل العقائد مخادعة بنفس الطريقة التى ظن بها أن جميع البالغين مخادعين فانصرف عنها وعنهم ، وكان يتعثر فى القراءة ، ولا يقرأ سوى تعليقات الصور الموجودة بمجلة لايف ، وقالت عنه « انه من هؤلاء الرجال الذين اذا سألتهم عن باخ حسبوك تتحدث عن نوع من البيرة الألمانية » وكانت لديه أفكار سطحية عن السياسة مع الاحساس بأن الحكومة سيئة لأنها « تنجرك من جريتك » ، كان حاضر النكتة وذكيا . ولكنه فارغ المضمون . وكان اهتمامه المبدئى بالحقيقة منصبا على سيارات السباق ، التى كان لديه معلومات واسعة عنها . وكان من الواضح أنه لا يوجد سوى القليل مما يمكن تطويره فى علاقة « راشد - راشد » بين الاثنين . وقد أوجد هذا المستوى من المعاملة احباطا لديها ، وضجرا لديه .

ثم تحولنا الى عمل اختبار « للطفل » فى كل منهما . كان طفلها يخس بالجوع للحنان ، والاشتياق للبهجة . ويشعر بالاكثاب غالبا ، كما كان حساسا بالنسبة لمؤشرات الانتقاد الواردة اليه ، والتى أوجدت احساسا قويا بعدم الرضا ، ولم تتجاوز حقيقة أن « أى شخص أتيق » لابد أن يقع فى حبها . ولم يكن لديها أصدقاء كثيرون . وظنت فى نفسها أنها ساذجة . أما ملامحها فقد كانت عادية بحيث لا يستطيع الفرد أن يعرفها بعد لقاء واحد . وكانت ما أن ترى شابا أشقر محبا للهو حتى يجتاح قلبها حب جارف . ولا تستطيع أن تتحفظ حيال شعورها الجياش بأن تكون محبوبا ومطاردة من الشبان ، وعندما كانت معه ، كانت تشعر بأنها على مايرام بطريقة لم تشعر بها من قبل ، لم تكن تستطيع أن تتخلى عن هذا الشعور بسهولة . وأما من الجهة الأخرى فإن « طفلة » هو كان عدوانيا ، ومحببا للذات ، وميلا للسيطرة و « يعرف طريقه » دائما وقد خطط للوصول اليها أيضا . وكان ذلك جزءا من المشكلة حيث أن

« والدها » لم يكن يسمح لها بأن تستمتع بالمباهج النادرة التي عرضها للتعرف إليها ، وعلى ذلك يكون « طفله » قد أفسد « راشده » . أما « والده » فكان ضعيفا جدا ، لدرجة أنه لم يعجز عن تقدير النتائج فقط ، بل أنه ظن أن فكرة النتائج كانت ساذجة ، ومتزمتة بصفة عامة ، وأنه كان مثل سكارليت اوهارا يفضل أن « يفكر في ذلك غدا » .

ومع نمو علاقتهما قل الحديث بينهما شيئا فشيئا ، فلم تكن هناك معاملات على مستوى (والد - والد) وكانت هناك معاملات قليلة على مستوى (راشد - راشد) . أما على مستوى (طفل - طفل) فقد نتج عنها مضايقات ضخمة في « والد » الفتاة . ومن هنا بدأت العلاقة تستقر على طراز (والد - طفل) مع قيامها بدور الشريك المستول والناقد ، وقيامه هو بدور « الطفل » الشقي صعب المراس وأخذ يعيد تمثيل موقفه الأصلي في الطفولة .

كان هذا التقييم المتعلق بنموذج (الوالد - الراشد - الطفل) مختلفا تماما عن الحكم على كل من الشريكين بأنه طيب أو ردي . كان بحثا عن معلومات ايجابية تدور حول كل منهما ، على أمل التنبؤ بنوعية العلاقة الممكنة في المستقبل . وبعد لقاء الضوء الكثير على هذه المادة ، قررت الفتاة إنهاء العلاقة لأنها لم تكن توحى بالسعادة المنتظرة لكل منهما . وقد ساعدتها على رؤية كيف كان طفلها الذي يشعر أنه ليس على مايرام . يخشى من محاولات الرجال الذين كانوا يسعون للتقرب منها لأنها ، رغم أن منهم من كان أقل منها ، تشعر بأنها ليست جديرة بالاقتران بانسان مثالي . وقد اكتشفت السبب في عدم تكامل هذه العلاقة كما فطنت الى ما كانت تبحث عنه في الرجل ، وتغير موقفها من الشعور بأنها ليست على مايرام . الى موقف آخر تحترم فيه ذاتها . ولا تتناقض كافة العلاقات بمثل وضوح هذه العلاقة . لقد كان لها « والد » قوي ، بينما كان له « والد » ضعيف .

وهناك حالات عديدة يكون فيها « الوالد » قويا لدى الطرفين كليهما . ولكن بمضمون مختلف ومتنافر في الغالب . فاختلاف المضمون الديني والثقافي يمكن أن ينتج متاعب جدية اذا شعر كل طرف بالحاجة الشديدة للالتزام بتوجيهات « والده » غير المختبرة . وأحيانا يحدث التغاضي عن هذا الاختلاف في المرحلة المبكرة للزواج ، ولكن سرعان ما ينطلق في اندفاع ضارية عند انجاب الصغار . فقد يوافق الرجل اليهودي مسبقا على تربية أولاده حسب العقيدة الكاثوليكية طبقا لرغبة

عروسه الكاثوليكية ، ولكن هذا لا يعنى أنه لن يكون قلقلًا جدا حول هذا الموضوع فيما بعد .

والحقيقة هنا هى أن « عقيدتى أحسن من عقيدتك » وأن « أهلى هم أفضل من أهلك » ، سزعان ما تتحول الى : أنا أفضل منك . ولا يعنى هذا القول بأن الاختلافات التى من هذا النوع تستعصى على الحل ، ولكنها تحتاج « راشدا » متحررا فى كلا الطرفين ينطلق على أساس موقف (أنا على مايرام ، وأنت على مايرام) .

ربما تعرف هذه الاختلافات قبل الزواج ، ولكن ذلك نادر الحدوث . ان الطرفين قد وقعا فى الحب ، واذا رغبا فى عمل أى استشارة قبل الزواج ، فانهما يقضيان جلسة سطحية لمدة ساعة مع رجل الدين ، ثم يمضيان على أساس تحقيق رغبتهما فيما يطلق عليه اسم : الزواج السعيد ، غالبا دون تحقيق الفائدة المرجوة من هذه الزيارة .

اذن فما هى احتمالات بناء أو انقاذ الزواج الذى دخل فيه الطرفان دون الاستفادة من هذا النوع من التحليل ؟ وحيث أنه لا يوجد شخصان متشابهان ، فإن فكرة المطابقة الكاملة تكون فكرة مضللة . ويمكن أن نفرض المشكلة بصورة أفضل اذا استخدمنا مصطلح مقارنة الصعوبات : انه من الصعب تجاوز الاختلافات وعمل تسويات . ولكن البديل صعب أيضا . ونعنى به فسخ الزواج . ان الانسان لا يستطيع أن يمضى فى العمل على أساس التعبيرات المطلقة مثل « الطلاق خطأ دائما » لأن هناك مبادئ أخرى يمكن تطبيقها . أما الاصرار على مبدأ أن تعيش المرأة مع زوج متعنت ووقح ، ولا تجد السعادة أبدا مع أى شخص آخر ، فانه يلغى أهمية الكرامة الانسانية الى يوم الحساب : (هذا اختيارك وعليك تحمله) وهذا يعنى الاصرار على أن يستمر الرجل فى تحمل زوجة كسولة حقودة ، تنكر أى مسئولية عليها فى تدهور زواجهما ، وهو تجاهل لنفس مبادئ الكرامة الانسانية . ولا يعنى ذلك القول بأننا لانستطيع الحصول على الزواج المثالى كرابطة مستديمة . ولكننا يجب ألا نراه رخصة للايقاع بالناس فى شرك يرتبطون فيه الى الأبد بواجبات شرعية ولكنها غير أخلاقية . وفى بعض الأحيان لا يبدأ الناس فى فحص زيجاتهم حتى يرون الطلاق قادما نحوهم . وحينئذ تبدأ صعوبات المقارنة النسبية فى الظهور ، ويبدأون فى فهم طبيعة الاختيارات التى يجب اتمامها .

ان الزواج النعس ربما يجعل حياة المطلق السعيد أو العازب المرتاح البال تبدو عظيمة حقاً ، ولكن الاختيار الطائش على أساس فرض غير مفهوض

قد يقودنا فيما بعد الى المزيد من اليأس . ويعالج مورتون م . هنت في أحد كتبه (١) : حياة الأزواج السابقين ويرى أن تجربة انتهاء الزواج لم تكن بالمدمرة تماما ، ويذكر هذا المؤلف الحقائق العديدة التي تلي الطلاق والتي يجب على من يزمعون الطلاق أن يأخذوها في الاعتبار لكي تجعل قراراتهم قائمة على أساس مقارنة الصعوبات : صعوبة الوحدة بصفتها ألما متواليا ، وفقدان الأصدقاء القدامى الذين لا يريدون أن (ينحازوا الى أحد الجانبين) ، وفقدان الصغار ، وتمزيق قلوب الصغار ، والخراب المالي ، والتورط في الفشل والتعب الناتج عن ضرورة أن يبدأ الإنسان من جديد . ان على « الراشد » عند تقييم موقف الشخص أن يأخذ هذه الحقائق في الاعتبار . وبعد ذلك يجب أن يتجه البحث الى الزواج نفسه . اننا نجد في الغالب أن شريكا واحدا فقط هو الراغب في بدء الفحص حيث أن واحدة من أكثر ألعاب الزواج شهيوها هي « انها غلطتك أنت وحدك » ، فاذا جاءنا أحد الشريكين وليكن هو الزوجة التي تتعلم نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) فاننا حينذاك نتعمق في الطرق التي نستطيع بها أن نشبك « راشد » زوجها . ونجعله يهتم بأن يتعلم اللغة جيدا ، لأنه لا يمكن البدء في التقدم على أساس قاعدة (راشد - راشد) دون الاعتماد على لغة مشتركة . فاذا رفض أحد الطرفين التعاون في هذا ، فان فرص إنقاذ الزواج ستكون معدومة . أما اذا كان الطرفان مهتمين بما فيه الكفاية للعمل في سبيل استمرار الزواج ، فان نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) سيمدهما بأداة لفصل ذاتيهما عن توجيهات « الوالد » القديمة ويجقق لهما أساليب ممتازة لممارسة اللعبة (٢) .

ويعتبر عقد الزواج نفسه أحد أوليات الأشياء التي سيفحصانها بعد أن يتعلما اللغة . ان عقد الزواج العادي هو عقد سيء لأنه يمثل عقد صفقة متكافئة ويركز هنا على الحسابات المادية . ويسمى اريك فروم هذا النوع من عقد الزواج : « المتاجرة بطرود الشخصية » أو « المقايضة الغيبية للشخصيات » . انها ستكون مجرد معين له - اليسا زوجين لطيفين ؟ - ألا يكمل أحدهما الآخر ؟ ان مثل هذه الأقوال تحيلهما الى أشياء لا أشخاص ، في سوق المنافسة . ان عليهما أن يستمررا في تقاسم هذا العائد المادي والا انهار الزواج القائم على المصلحة . ويكون هذا العقد من عمل

(١). M. Hunt, "The World of the Formerly Married", (New York : McGraw-Hill 1966).

E. F., "Trade of Personality Packages.

(٢)

« الطفل » - ان « الطفل » يفهم العدالة وتقاسم الأرباح ، ولكنه في موقف (ليس على مايرام) لا يعرف مبدأ أكثر عمقا ، مبدأ لا يسعى فيه لمجرد حصوله على نصيبه من الصنفقة . بل يكون فيه راغبنا في التفاوض عن العائد . ويكرس فيه وقته لشريك حياته في اطار الأهداف المشتركة التي يرسمها « الراشد » . ويعبر بول شيرر في كتابه التأمل الرائع عن هذه الفكرة بهذه الطريقة : « ان الحب مسرف ، لا يأبه للحساب ، ولذلك فهو دائما مدين (٣) » .

ان « الطفل » وهو يريد الحب ، لا يرى الحب بهذه الطريقة . أما « الراشد » فانه يستطيع . هناك حساب للباس في عالم اليوم . لأن كل شخص يبحث عن الحب ولكن يبدو أن القليلين هم القادرون على تقديمه . وهذا بسبب التأثير الدائم لسيطرة موقف (أنا لست على مايرام ، وأنت على مايرام) على « الطفل » . وهو تأثير موجود في كل شخص . وعلينا أن نتذكر كيف أن الشخص الصغير يحاول أن يخفف هذا الحمل عن نفسه مبكرا في بداية الحياة بلعبتين أصيلتين هما : « ما لدى أفضل » ، و « حصلت على الأكثر » . ومن الحق القول بأن فكرة تقاسم الأرباح تبدأ في الظهور ، ولكن يبدو أن موقف (ليس على مايرام) يزحم فكرة العدالة مبكرا في بداية الحياة .

في صباح أحد الأيام كانت ابنتي هايدى ذات الأربعة أعوام - على وشك شراء قطعة من الحلوى مع زميلتها ستاشي . وأخذتا تفكران في أي منهما ستحصل على القطعة الأكبر ، بالرغم من تذكيرهما مرارا بأن هذا النوع من المنافسة يؤدي دائما إلى المشاكل . وحينئذ أعطت الأم لكل منهما فطيرة . وكان واضحا للبنتين أن هاتين الفطيرتين كانتا متساويتين . ولكن مع التسليم بهذا التماثل ، ظلت هايدى غير قادرة على مقاومة الاعتراض الذي بدأته وتمسكت به : « ها . ها . ها . لقد حصلت على فطيرة مائلة لفطيرتك . أما أنت فخلاف ذلك ! » وهذا نوع من المناورات المحفوظة في « الطفل » والتي تظهر فيما بعد عند زواج الصنفقة .

ولذلك يجب على الشريكين اللذين يبحثان عن إنقاذ لزوجيهما ، أن يبذلا جهدا مشبثا لتجريب « الراشد » حتى يمكن فحص (الاحساس بأن المرء ليس على مايرام) في « الطفل » والمضمون التأثير للمضايقات في

P. Scherer, "Love is ■ Spendthrift", (New York : Harper & Brothers, 1961). (٣)

« الوالد » لدى كل منهما لمعرفة كيف أن هذه المعلومات القديمة تستثمر في السيطرة وتخريب علاقتهما في الحاضر .

وضما يخرب العلاقات المشتركة الآراء المطلقة مثل : « هكذا أنا - لا تحاول أن تغيرنى » - ومن يتمسك بالمبدأ المتشدد : « اننى صعب المراس حتى أتناول أول فناجين القهوة » يلقي بوزر أخطائه على طبيعته بدلا من أن يعتبر أن أخطائه هي السبب في سوء طباعه . ومنزل هذا الشخص يكون مصدر ازعاج لعائلته في كل صباح ، مع أن الصباح يمكن أن يكون أفضل أوقات اليوم . ولكنه يتحول من نقطة انطلاق للعمل والنشاط ، الى محنة جنونية مفعمة بمشاعر اليأس والعداء . يذهب الأبناء الى المدرسة وهم يثثمرون ، ويندفع الزوج خارجا الى عمله وقد أصيب بعسر الهضم . وتشعر الأم بالهبوط لأنها فقدت فستمعيها المرغمين على الاستماع اليها . والحقيقة هي أنه ليس من حق أحد أن يرغبى ويزيد حتى يتناول أول فناجين القهوة أو في أى وقت آخر . ان كل انسان لديه الاختيار ، طالما أن راشدته قد تحرر .

تقول أغنية فرنسية قديمة : « الحب هو طفل الحرية » ويحتاج الحب في الزواج الى حرية « الراشد » لفحص « الوالد » لقبوله أو رفضه على أساس سياق أحداث اليوم الحاضر ، وأيضا لفحص موقف « الطفل » والتعويضات المشاكسة ، أو الألعاب التي يمارسها حتى ينضو عن نفسه حمل (الشعور بأنه ليس على مايرام) .

ان الأزواج الذين يدخلون في مجموعات العلاج انما يفعلون ذلك لعدة أسباب « البعض قد سمح عن تحليل المعاملات وجاء « ليتعلم شيئا جديدا » والبعض الآخر يأتى للبحث عن اجابة السؤال الباهت غير المستقر . ولكنه يتوازى مع « ألا يوجد في الحياة ما هو أكثر من ذلك » ، والبعض الآخر جاء لأن صغاره يقعون في المتاعب . ويأتى الكثيرون لأن علاقتهما الزوجية تمر بمرحلة حرجة . وكان العديد من الأزواج السبعة والثلاثين الذين عالجتهم على فترة أربع سنوات يفكرون في ، أو على الأقل قد ناقشوا « الطلاق » كاسلوب وحيد للتخلص من مشاكلهم . وكان البعض قد بدأ الاجراءات الشرعية وأحال الموضوع الى محاميه أو قاضى محكمة الأحوال الشخصية . وكانت أزمة سبعة عشر من هؤلاء الأزواج (٤) (٤٦ ٪) قد

(٤) في هذه الفقرة من الموضوع يجد إلغاري أن كلمة زوج تعنى اثنين أما كلمة أزواج فتعنى مجموعات مكونة من اثنين هما الزوج والزوجة معا - المترجم .

ظهرت مع نقل أحد الشريكين الى المستشفى بسبب هبوط شديد مع الميل الى الانتحار أو محاولة الانتحار بالفعل - وكان بين المرضى الذين نقلوا الى المستشفى أربع عشرة زوجان وزوجان • وتضمنت جالة واحدة فقط زوجا وزوجته معا خسب طلبهما « ليجعلا الأشياء متساوية » • ولم يكن أى من هؤلاء الأزواج قد مضى على زواجهما أقل من عشر سنوات • وكان لديهم جميعا صغار ، كما كان لدى بعضهم أحفاد •

وقد تعلموا نموذج « الوالد - الراشد - الطفل » اما فى مجموعات بالمستشفى ، أو فى جلسات فردية بمكتبى • وعندما كانوا يفهمون المبدأ ، كانوا يعبرون عن الاشتياق للانضمام الى احدى مجموعات الأزواج الموجودة التى يتكون كل منها من خمسة أزواج ، وكان متوسط عدد جلسات العلاج لكل زوج هو سبع عشرة جلسة ، بمعدل جلستة كل أسبوع على مدى أربعة شهور • وكان هناك جدول زمنى لمجموعات الأزواج حتى آخر ساعة فى اليوم بمعدل ساعة واحدة وأحيانا كانت تزيد عن الساعة • ومن بين هؤلاء الأزواج السبعة والثلاثين لا يزال خمسة وثلاثون زوجا متزوجين حسب علمى وانفصل اثنان فقط • وقد تخلى عن المجموعات أربعة من بين هؤلاء الخمسة والثلاثين لأنهم كان عليهم أن ينصرفوا عن الألعاب لعدم رغبتهم فيها • أما الواحد والثلاثون زوجا الآخرون فقد قرروا أنهم يتمتعون بمعاملات طيبة فى زيجاتهم • حيث يجد كل شريك الآن • السعادة فى الأهداف الجديدة ، مع الغياب النسبى للألعاب القديمة المدمرة ، وتحقيق الألفة • وبذلك تحقق أحد الأهداف الأصلية للعلاج وهو انقاذ الزواج بحيث نستطيع أن نحقق النجاح مع هذه المجموعة بنسبة ٨٤٪ •

ان العلاقة بين الأزواج العديدين تمثل شبكة معقدة من الألعاب حيث ينتج تراكم مشاعر الاستياء والمرارة • نسخا معقدة ومكررة من المشاجرات « انها غلطتك وحدك » أو « عيب عليك » أو « والدك رجل مشاكس » أو « لولاك لكنت كذا وكذا ••• » • ان القواعد والأنماط فى هذه الألعاب المذكورة بتفصيل عظيم فى كتاب برن : - Games People Play - ألعاب يلعبها الناس » الذى يعتبر دليلا من أعظم الأدلة المثالية نوصى كل زوجين بقراءته فى حالة العلاج • وتتطور هذه الألعاب كلها من لعبة الطفولة المعروفة باسم « ما لدى أفضل » التى صممت للتغلب على الخوف الاصيل لدى الانسان من الوقوع فريسة للخداع • وقد كشف ادوارد ألبى ببراعة فى مسرحية « من يخاف فرجينيا وولف ؟ » التى سبق ذكرها ، عن أحد أساليب الحياة القائمة على الألعاب • وهذه المسرحية تصور أنه بالرغم من

كل اليأس الناتج ، فلا تزال هناك فوائد ثانوية بما فيه الكفاية للقول بأن الألعاب يمكن أن تبقى على الزواج وبعض الزوجيات يمكن أن تظل قائمة بفضل شريك « مريض » وإذا بدأ هذا المريض في التحسن « وبدأ يرفض الاندماج في الألعاب القديمة ، فإن الزواج يبدأ في التصدع » وقد دعاني أحد الأزواج وكانت زوجته قد خرجت من المستشفى بعد عشرة أيام من دخولها ، وكان في حالة من الذعر وقال : « ان زوجتي تبدو أسعد وأحسن ، ولكنني الآن لا أستطيع أن أتماشى معها مطلقا » - ان الزواج مثل بدن الانسان ، اذا بدأ أحد الكتفين في التهدل كان حتما أن يتكامل معه الكتف الآخر فيتهدل بدوره حتى تحتفظ الرأس بوضعها العمودي بالنسبة للقدمين . وكذلك اذا تغير أحد الشريكين فلا بد من حدوث تغيرات أخرى تكمله لكي تحتفظ العلاقة بوضعها السليم . وتعتبر هذا أحد تقائض نوعيات العلاج النفسي القديم ، حيث كان الطبيب النفسي يعالج أحد الشريكين وحده ، ويرفض حتى مجرد الكلام مع الشريك الآخر . وكان التركيز يدور حول العلاقة التي أقيمت بين الطبيب النفسي والمريض ، تاركا العلاقة الزوجية خارج الباب . ورغم تغير ولاء المريض وسلوكه ، إلا أن الزواج كان يعاني من المتاعب غالبا ، لأن الشريك الآخر لم تكن لديه الأدوات الإدراكية التي يفهم بها ما كان يجري ، أو يفهم معنى ما تراكم لديه من الغضب واليأس .

وإذا كان في وسع الطرف الآخر العلاج فقد يلجأ للعلاج مع طبيب آخر لتزداد الفجوة بين الزوجين اتساعا حيث يغير هذا الطرف أيضا موطن عاطفته ، واذ تضيق قاعدة الاتصال بين الزوجين ، يصبح الطريق مفتوحا لطرق جديدة أفضل لممارسة لعبة « ما لدى أفضل » في شكل « طبيبي نفسي أفضل من طبيبك » أو « انني أنقلب على مشكلتي أفضل منك » أو « سأأخذ قرارا عما اذا كنت سأمارس معك الحب بعد جلسة يوم الأربعاء » . ان الاثنين قد أغرقا « طفلها » في عملية استبطان كلية قد تمدهما ببيانات مفيدة حول منشأ شعورهما ، ولكنها تعجز عن الامساك بحقيقة أنه ليس هناك شخص واحد . بل اثنان في علاقة زواج . وهناك مبدأ يجمع عليه أطباء النفس - بالرغم من أنه قد يبدو متطرفا الى حد ما ، إلا أنه وثيق الصلة بموضوعنا اذ يصير العديد من الأطباء النفسيين على أنه لا توجد صيغة للمشاعر العقلية اذا لم يواجه الانسان الحقيقة . وإذا كانت هذه هي القضية فلماذا يجعلون مرضاهم يرقدون على الأرائك حيث يسهل حلم اليقظة ؟ ربما كانت المرتبة ذات المسامير أفضل .

ويجب أن يكون كل شريك راغبا في تأكيد مسئوليته عن نصيبه
فى خلق المشكلات التى يعانى منها الزواج - ان وجهة النظر القائلة :
« انها غلطتك وحدك » قد اعتبرها امرسون حجة باطلة - فى ملاحظته عن
أنه « لا يستطيع رجل أن يقترب منى الا من خلال سلوكى الشخصى »
فاذا كان الزوج قد دأب على اهانة زوجته لمدة عشر سنوات وقد احتملت
الزوجة ذلك مدة العشر سنوات ، فانها تكون بطريقتها هذه قد شاركت
فى التغيير - واذا رفض كلا الشريكين تأكيد هذه المشاركة ، فان الأمل فى
التغيير يصبح ضئيلا .

وقد كتب آرثر ميللر فى قصته المؤثرة عن ماجى فى مسرحيته
(After the fall - بعد السقوط) (وهى قصة شخصية كانت
شديدة الشبه بزوجته مارلين مونرو) أن مسرحيته كانت تدور حول احباط
أو عدم قدرة الانسان على أن يكتشف فى نفسه بذور تدمير ذاته . « انها
نفس المعركة دائما وأبدا : « أن ندرك بشكل أو بآخر مدى تورطنا فى صنع
الشر أمر رهيب لا يستطيع المرء احتماله » ولذا فنحن نطمئن أكثر الى رؤية
العالم فى صورة الضحايا الأبرار والمحرضين الأشرار على استخدام العنف
والقسوة وهى صورة لا تؤذى احساسنا بالبراءة - ولكن ما هو أكثر
الأمكان براءة فى أى قطر ؟ أليس هو مصحة الأمراض العقلية ؟ وهناك
يمضى الناس فى ممارسة حياتهم بمنتهى البراءة - غير قادرين مطبقا على
النظر الى أنفسهم - ان كمال البراءة حقا هو الجنون (٥) .

وهذا « الهلع الذى لا طاقة لنا به » يكون مفهوما عندما يفكر المرء
فى أن الاعتراف بالمشاركة فى خلق المشاكل - يضيف حملا آخر الى حمل
الاحساس بأن المرء ليس على ما يرام ، وهو الاحساس الفظيع الذى كان
سببا للمشكلة فى المحل الأول . ان الاعتراف بالذنب ، أمر صعب .
انه الاساءة العظمى « للطفل البائس » . وهذا الحمل الإضافى الذى قال
عنه اللاهوتى الألماني ديتريش بونهوفر : « أليس هذا عبثا جديدا ثقيلا
نضيفه الى الأعباء التى تثقل كاهل البشر ؟ ، وهل هذا هو كل ما نستطيع
أن نفعله عندما تثن نفوس وأبدان الناس تحت ثقل العديد من المعتقدات
التي صنعها الانسان (٦) ويظهر لنا تحليل طبيعة (الوالد -
الراشد - الطفل) طريقة للخروج من هذه المشكلة التى تتمثل فى استحالة
التغيير بدون الاقرار بالمشاركة ، هذا من ناحية ، ومن الناحية الأخرى

A. Miller, "With Respect for Her Agony. But with love", (٥)
Life, 55 : 66 (Feb. 7th, 1964).

D. Bernhoeffer, "The Cost of Discipleship". (New York : (٦)
Macmillan. 1963).

ضرورة الاعتراف بالذنب • ونستطيع بطريقة عملية جداً أن نرى اختلافاً في كيفية مواجهة شخص بما يعمل - فإذا قلنا : « أنت انسان شاذ الأطوار » ، وسى الطباع ، وصعب ، وغير مقبول - وهذا هو الخطأ في زواجك • فإننا ببساطة نزيد من احساسه بأنه ليس على مايرام • وننتج مشاعر تجعل الشخص أكثر شذوذاً ، وأسوأ طباعاً ، وأشده صلابة ، وغير مقبول • اما ذلك • واما أن تدفعه إلى الحزن العميق • وإذا إستطاع الانسان من جهة أخرى أن يقول مشجعاً : « انه • طفلك • الذى ليس على مايرام هو الذى يسبب لك الضيق ويدمر فرص السعادة فى الحاضر بطريقة الشاذة وطباعه السيئة » فان هناك بعض الايجابية فى المشكلة • ويرى الشخص نفسه ليس صفراً كاملاً ، بل خليطاً من الخبرة الماضية ومن الايجابية والسلبية ، التى تنتج الصعوبة • وعلاوة على ذلك فإنها تتيح الاختيار • ويستطيع الشخص أن يؤكد هذه الحقيقة عن نفسه بدون الانزال ، ويمكن أن يبدأ هذا التأكيد لتقوية « راشده » للقيام بعمل اختبار « الوالد » • « الطفل » والطريقة التى تنتج بها هذه التسجيلات القديمة طغيان الماضى •

وبدون الأقرار بدور المرء فى صنع المشاكل التى يواجهها ، يمكن لتحليل المعاملات أو تحليل الألعاب أن يصبح ببساطة أسلوباً آخر للتعبير عن الكراهية : (اللعنة عليك وعلى « والدك ») أو « لقد عاد طفلك الشقى » أو « هل ستلعب نفس اللعبة من جديد ؟ » • وحينئذ تصبح هذه التركيبات نعوتاً ساخرة ومهينة فى لعبة جديدة تسخر من مسميات التحليل • وبينما نرى المشاكل التى تظهر ، فإننا نبدأ فى فهم معنى الفكرة التى يعبر عنها عنوان موضوع آرثر ميللر حول هذه المسرحية : « مع احترام غداً بها - ولكن بالحب » •

إن الإلتزام بهذه الفكرة هو المطلوب من الأزواج الداخلين فى العلاج إذا أرادوا النجاح فى بناء شيء من القيمة فى زواجهم وهنا يبرز سؤال أخير هو : « ماذا نفعل عندما نتوقف عن الألعاب ؟ ماذا يوجد غيرها ؟ ماذا نفعل ؟ بالراشد » المتحرر ؟ •

وضع الأهداف :

إن السفينة التى ليس لها ميناء وصول تنحرف وتحملها الأمواج على غير هدى فتعلو وتهبط بها • وتتلعب بها الرياح فى عرض البحار • فإذا هدأت العاصفة ، أخذت تنساب فى هدوء على صفحة الماء • انها تسائر

البحر في حركته - وهناك العديد من الزيجات التي تماثل حالة السفينة هذه - انها تظل طافية ولكن على غير هدى . وتكون أولوية المعلومات الدخلة في صنع القرار هي : ما الذي يفعله الآخرون ؟ ان أفراد هذه الزيجات لا يشذون عن دائرتهم الاجتماعية في الملبس والسكن وتربية الصغار والقيم والتفكير - أما النموذج الذي يتبعونه فيما يفعلون فهو : « مادام الآخرون يعملون ذلك ، فلا بد أنه على ما يرام » - « اذا كان كل فرد يشتري نوعا معينا من السيارات الفخمة فانهم أيضا سيشترون واحدة » حتى اذا كانوا غارقين في الديون - انهم لم يقيموا بناءهم الخاص من القيم المستقبلية الذي ينتمى الى واقع حياتهم ، ولذلك فانهم ينتهون غالبا الى خيبة الأمل والوقوع في براثن الاستدانة .

و « الراشد » فقط هو الذي يستطيع أن يقول : « لا » لمطالبة الطفل « بشيء أكبر أو أحسن أو أكثر » لكي يشعر أنه على ما يرام أكثر - و « الراشد » فقط هو الذي يستطيع أن يسأل السؤال : « اذا كانت أربعة أزواج من الأحذية تجعلك سعيدا ، فهل عشرة أزواج منها تجعلك أكثر سعادة ؟ القاعدة هي أن كل زيادة في الممتلكات المادية تسبب سعادة أقل بالنسبة للزيادة السابقة عليها - واذا استطاع انسان قياس السعادة كميا فسيجد أن زواجا جديدة من الأحذية يسبب سعادة بالنسبة للصغير أكثر مما تسببه السيارة الجديدة بالنسبة للرجل البالغ - وكذلك فان السيارة الأولى تسبب سعادة أكثر من الثانية ، والثانية أكثر من الثالثة - وقد قال هـ . ل . منكين (٧) : « يتذكر الرجل دائما الحب الأول ، أما ذكريات الحب التالية فتتوه بين حشد الذكريات » .

ان « الطفل » داخلنا يحتاج الى المزيد مثلما يحدث في صباح عيد الميلاد : يصرح الصغير المحاط بالهدايا ، « هل هذه هي كل الهدايا ؟ » لقد سئل ولد صغير في برنامج تليفزيوني للصغار عما حصل عليه من أجل عيد الميلاد - فقال في أسى : « لا أدري ، لقد كان هناك الكثير من الهدايا » .

ويمكن « للراشد » اذا فحص واقع عائلته أن يتبين ما اذا كان احراز

H. L. Mencken, "The Vintage Mencken, gathered by Alistair (٧) Cooke, (New York, 1956).

أَحَدَ الممتلكات المحددة يساوى بمفهوم السعادة - رهن عقار ، أو يطاقه
 تأمين ، أو تحويل النقود عن شيء آخر . ويستطيع « الراشد » أيضا أن
 يشبع حاجة « الطفل » لتكديس الممتلكات بممارسة هواية مثل جمع
 الطوابع ، أو العملات ، أو الكتب النادرة . أو نماذج معدات السبائك
 الحديدية ، أو الزجاجات ، أو الصخور . ويستطيع « الراشد » تقرير ما إذا
 كانت تكلفة هذه المجموعات واقعية ، ولكن متى يكون هذا التكديس
 ضارا . إذا كان للهواية فهو لون من ألوان المرح واللهو . أما إذا أدى
 ذلك الى افلاس الأسرة (مثل تجميع الفيلات ، وسيارات السباق ، ولوحات
 بيكاسو الأصلية) فان « الراشد » هنا قد يقول « لا » بالنسبة للهو
 « الطفل » . أما القرارات بخصوص الهوايات والممتلكات ومكان الإقامة
 وما يتحتم شراؤه . فيجب أن تتم حسب مجموعة من القيم والاعتبارات
 الحقيقية القريفة بالنسبة للزواج . والاتفاق حول هذه القرارات شديد
 الصعوبة إذا كانت أهداف الزواج لم تتحدد بعد . وقد يتعلم الزوجان من
 خلال العلاج أن يلاحظا الفارق بين (الوالد - والراشد - والطفل)
 الا أنهما لا يزالان في نفس الموقف من الرؤية الاجتماعية ، وإذا لم يرسما
 خطا للسير فانهما وان تمتعا ببصيرة نفاذة . يستمران في التراجع يمينا
 ويسارا . صعودا وهبوطا . ويظنان يمارسان الألعاب القديمة . وقد
 يتطلب زواجهما شيئا آخر أكثر من الامام بتلك النظرية حتى يصمد أمام
 أعاصير الحياة الاجتماعية وتياراتها ، إذ يحتاج الزوجان الى انشاء واقعة
 خط سير جديد في اتجاه الأهداف التي يتم التوصل اليها عن طريق
 « الراشد » . وأما أن يبدأ الناس مسارا جديدا . أو ينحرفوا من جديده
 مع التيار مهما عظمت معرفتهم بأساليب مكافحته إذا ظلت هذه المعرفة
 نظرية . هنا تصبح لدراسة القيم السلوكية والأخلاقيات والمعتقدات أهمية
 بالنسبة لمسار الزواج . ويجب على كل من الرجل والمرأة القيام ببعض
 التحقيقات الرئيسية حول ما يعتبرانه مهما لرسم مسارهما . ويصور ويل
 ديورانت المشكلة الأخلاقية الأساسية في شكل السؤال القائل : « هل من
 الأفضل أن تكون طيبا أو تكون قويا ؟ » (٨) وهذا السؤال يمكن أن يوجه
 بطرق عديدة في اطار الزواج : هل الأفضل أن تكون رحيما أم غنيا ؟
 وهل من الأفضل أن تقضي الوقت مع الأسرة أو أن تقضيه في الأنشطة
 المدنية ؟ وهل من الأفضل تشجيع صفارك على « قبول الهجوم » أم يردون
 الهجوم بمثله ؟ وهل من الأفضل أن تعيش اليوم مبتدرا أم تدخر كل قرش

فى البنك لأجل الغد ؟ وهل من الأفضل أن تكون معروفًا بأنك تراعى مشاعر الجيران أو أن تكون معروفًا كقائد ؟

وهذه هى الأسئلة التى يمكن أن تقود الى الوقوع فى شبكة لا أمل فى الخروج منها الا اذا قام « الراشد » بتوجيهها ، لأنها حتى ذلك الحين سديدة الصعوبة .

ولا تكفى معرفة الآراء التى يتضمنها « الوالد » فى كل من الشريكين ردا على هذه الأسئلة . ولا تكفى معرفة أن مشاعر « الطفل » تحتاج الى مساهمة كل منهما . وإذا كانت معلومات « الوالد » أو « الطفل » غير متوافقة ، فلا بد أن تكون هناك بعض النماذج السلوكية التى يقبلها الطرفان . والتى تعطى توجيهها لمسار الزواج ، وقيمة لكل القرارات التى يجب اتخاذها . لقد قيل أن « الحب ليس هو تبادل النظرات بين اثنين ، ولكنه نظرة مشتركة من الاثنين الى الخارج وفى نفس الاتجاه » وقد يقود « الوالد » و « الطفل » فى كل شريك الى الخلف فى انفراجات متشعبة . والالتقاء ميسور من خلال « الراشد » فقط ، ولكن لا يستطيع الزوجان أن يرسموا هدفهما المشترك بدون الاعتبار السلوكية والأخلاقية . وهذا هو أحد أسئلتى التى أوجهها كثيرا الى الزوجين فى المواقف التى لا مخرج منها عن « ما العمل الآن » والسؤال هو : « ما هو الشيء الذى تحبان القيام به ؟ » وما هو الحب ؟ وما هى نوعية كلمات مثل « يجب » و « يلزم » .

سندرس هذه الأسئلة بعمق فى الفصل الثانى عشر - وعنوانه : نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) والقيم الأخلاقية .

الفصل التاسع

نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) والأطفال الصغار

(ان هؤلاء الذين لا يتذكرون الماضي • قد حكم عليهم بان يكرروه -
جودج سانتايانا) •

ان افضل طريقة لمساعدة الصغار هي مساعدة الابوين • فاذا لم يحب
الابوان ما يعملهم صغافهم • فلن يكون الصغار فقط هم الذين يجب أن
يتغيروا • واذا كان جودج يمثل مشكلة ، فلن يمضى فى طريق التحسن
بتحويله من أخصائى الى أخصائى ، اذا لم يتم عمل شيء بالنسبة للموقف
فى البيت • لقد كتب هذا الفصل لمعاونة الابوين على مساعدة الصغار •
لأن الأخصائيين لا يستطيعون أداء العمل الذى يعملهم الابوان •

اننا نسلم بوجود أخصائيين عديدين فى تربية الصغار ، بما فيهم
الاطباء النفسيون وعلماء علم نفس الطفل الذين يقومون بالاختبار وأداء
العلاج ، ولذلك فان البعض يترأى له أن احضار التلميذ الصغير الى
الطبيب النفسى للصغار قد يعنى ضمنا • تجديد الطفل • أو ربما • حل
الطفل • • واذا لم يكن الابوان قد تجددوا معا فى وقت واحد ، فأننى أعتقد
أن معظم هذه الجهود ليست الا مضيعة للوقت والمال • اننى أعتقد أن معظم
الوالدين يشعرون فطريا بنفس هذا الأسلوب • ولكن بعض الآباء والأمهات
لا يعرفون ماذا يفعلون خلاف ذلك ، أو أنهم لا يريدون أن يورطوا أنفسهم ،
فيتمسكون بفكرة علاج الصغير • اذا كانوا يستطيعون تخيل تكاليفها •
ويخجل الكثيرون من الآباء والأمهات الآخرين بسبب النتائج غير المعروفة
التي تترتب على لجوئهم الى طلب المعاونة فى تربية الصغار ، وينظرون الى

موقفهم هنا كما لو كانوا أمام معضلة تستعصى على الحل متوجسين متخوفين ربما من الفشل أو عدم التوفيق . انهم ينظرون الى موقفهم هنا كما لو كانوا أمام صندوق باندورا (١) الذى كان من الأفضل أن يترك مغلقا .

انهم يقرأون أحدث الكتب « ويستشيرون كتاب الأعمدة بالجرائد » ويلعبون لعبة « أليست فظيعة ؟ » بعد تناول قهوة الصباح . انهم يتذرعون « بالصبر » بدون تقديم ردود على أمل أن الصغير « يمر بحالة » . ويؤسسون آمالهم على مبدأ غير يقينى وهو أن « الاباحية » (٢) شئ جيد . ولا تأتى الردود التى يبحثون عنها ، ويعانون الأمرين من تربية الصغير ويلتمسون شيئا من العزاء فى قولهم : « حسنا ، على الأقل أنا أكبر منه » . وبعض الآباء والأمهات يمارسون هذه الحقيقة المتعلقة بأنهم كبار فى قسوة ، بالتعدي والتعذيب لصغارهم بحجة تقويمهم . وسرعان ما يأتى الحساب يوما ، خلال فترة المراهقة ، عندما يصبح « أكبر منى » . وينتشر الشقاء فى كل اتجاه بالنسبة للأبوين والأبناء . ان هذا لن يكون - والمقصود بهذا الفصل تحسين صورة تربية الصغار بتطبيق نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) ليس فقط على العلاقة بين الأبوين والصغار ، بل أيضا تلك العلاقة بين الصغار وغيرهم من الصغار .

ويعتبر العلاج النفسى للصغار ، تطورا حديثا نسبيا ، فبينما أكدت أفكار التحليل النفسى المبكرة أهمية ما حدث للصغير فى بداية حياته العائلية . نجد أن العمل مع الصغار مباشرة لم يكن جزءا من التطبيق المبكر لهذه الفكرة فى مجال العلاج ، وهناك صعوبة تتمثل فى مشكلة التواصل بالنسبة للشخص الصغير . أما المشكلة الأخرى فهى المعرفة المبكرة بأنه لا يمكن تطبيق ذلك لتحقيق الكثير فى العمل مع الصغير بدون ادخال الكبار الذين يلعبون دورا هاما فى بيئته المحيطة خاصة أبويه .

لقد تأسست أول مستشفى شامل مفهوم لعلاج الصغار فى العشرينيات من هذا القرن العشرين تحت اسم : Child guidance clinic - ومعناه :

(١) كانت باندورا حسب الأسطورة الاغريقية - هى أول امرأة فى الوجود ، ولقد إغراها حب الاستطلاع بأن تفتح الصندوق المنوع ، وبذلك سمحت بخروج كل شرور العالم التى هربت من الصندوق لكى تهيب الجنس البشرى - المترجم .

(٢) المقصود هنا هو الحرية المطلقة فى ممارسة شئون الحياة دون تدخل من الآخرين ، وهو المبدأ الذى تستند اليه الديمقراطية الليبرالية - المترجم .

مستشفى ارشباد الصغار . ونطور هذا الى « تجربة مشتركة » لعلاج « الوالد » « الطفل » . وننحصر في معالجه الصغير بأسلوب أطلق عليه اسم : العلاج النفسى عن طريق اللعب ، ومعالجة الأب بمساعدته عن طريق الاستشارة المعروفة باسم : Case work - أى دراسة حالات العجز عن التكيف الاجتماعى . وتتركز الطريقة فى إتاحة الفرصة للابوين والطفل معا للتعبير عن المشاعر بغرض ازالة مصدر قوى من المصادر التى تؤدى الى ظهور السلوك السلبنى والمدمر . وينم نشجيع الصغير على مواجهة من يقلقه وهما الابوان وذلك عن طريق استخدام اللعب وغيرها من الوسائط الرمزية للاتصال . مع التخلص من « المشاعر السلبية » المكبوتة . وعلى ذلك فإنه عندما يلقي التلميذ الصغير بالعروسة التى تمثل الأم فى دورة المياه ، أو يكسر ذراعى العروسة التى تمثل الأخت ، يقوم المعالجون بتدوين ذلك لطرحه فى الجلسة الثانية من المشاورات ، وهى من الأنشطة المهمة التى يقوم بها العاملون فى العيادة . ويتركز هذا الغرض فى أن هذه التعبيرات قد تفسح الطريق لتطور المشاعر الأكثر ايجابية القائمة على الرؤية الجديدة التى قد يستخلصها الابوان من عملهما مع الباحث الاجتماعى - بحيث أنه بعد عدد محدد من مقولات « انى أكرهكما » تجيء تباعا مقولات : « انى أحبكما » . ولكن عدم كمال فهم الابوين للأفعال ، أو المعاملات الذى يترتب عليه ظهور المشاعر غالبا ما يترك الموقف معلقا . وفى الحقيقة أن الموقف يتطور الى الأسوأ لأن الصغير قد قيل له : « ان التعبير عن المشاعر شئ طيب » وبذلك تتحول الأسرة الى ميدان معركة يخوض فيه الصغير حربا شعواء . وتصير الحالة مثل نقط الأنف ، انها تخفف الاحتقان لحظة . ولكنها لا تساعد على منع الاحتقان فى الغد . ان بعض الناس يمضون فى الحياة معبرين عن مشاعرهم ، ولكن قد يظهر أن نشاطهم يتجه الى الجانب الخطأ فى الأشياء . وليس التعبير عن المشاعر أو استخدام نقط الأنف هو المفيد فى العلاج النفسى ، لأن هناك ما هو أكثر من ذلك . كان التشجيع فى هذه الأساليب المبكرة للعلاج يركز على ما يمكن أن يحققه الصغير وكيف يمكن لسلوكه أن يتغير بالرغم من وجود بعض التأكيد على ضرورة اشتراك الابوين . ويتركز تشجيعنا فى تحليل المعاملات على ما يستطيع الانسان المتمثل فى الابوين تحقيقه لكى تتغير طبيعة المعاملات بين الأب والصغير . وعندما يحدث ذلك سيتبعه التغير فى « الطفل » على وجه السرعة .

ويعرف كل واحد التعقيد المتزايد للبناء الثقافى والاجتماعى الذى نعيش فيه اليوم ، مع الضغوط العديدة التى تتجه الى اضعاف بل تدمير

الأسرة . مثل البنساء الاجتماعى الابتدائى المتعلق بمقابلة الاحتياجات العاطفية لدى الصغار . وتحت دافع الشكوك ، وتدفق وسائل الاعلام والنرفية . وفيض الحاجات ، شعر الأم الحديثة بأنها محاصرة وعلى حافة الاختلال العقلى فى معركتها مع الاحباط . ان كل شىء حولها متضارب . وحساسيتها معتمدة ، كما لو أنها وجدت جهاز التليفزيون ينتقل من تقارير الحرب السريعة الى اشراقات الحياة الجديدة مع الأحلام . ان « والدها » فى صراع مع « والد » زوجها حول أدق نقاط التربية الجيدة للصغير . ويتفوق « والدها » على « طفلها » فى حوار داخلى يجعلها تشعر بالفشل كأم . ان صغارها يصرخون أحدهم فى الآخر ، وفيها . انها تقرأ للحصول على معلومات أوفر . ولكن المعلومات تتضارب . تقول إحدى السلطات « عاقبه بالضرب » بينما تقول أخرى « لاتعاقبه بالضرب » وتقول ثالثة « عاقبه بالضرب أحيانا » . وفى نفس الوقت تنور مشاعرها الى الدرجة التى تريد فيها أن « تطفى » الحجيم المستعر فى داخل الاشرار الصغار . ان منزلها يغص بالأجهزة التى تبسدها فى كل شىء بمنتهى السهولة . ولكن ما تحتاجه بالاكثر هو أداة لاعادة النظام الى الفوضى الموجودة . بتحديد أى الأهداف مهم وأيها غير مهم . وإيجاد اجابات وإقعية للسؤال المتكرر « كيف أربى صغادى تربية سليمة » .

وعلى الجدة أن تلاحظ هذا السؤال بحكمة : « لم نواجه مثل هذه المتاعب كلها فى أيام الماضى المجيدة قبل ظهور كل هذه الكتب التى تدور حول علم النفس الحديث » . ان الجدة لها وجهة نظرها حول وجود قدر كبير من الخير فى الأيام الماضية . وقد لاحظ جيسيل والج أن :

فى الأزمنة القديمة . جلا . امتد عالم الطبيعة والعلاقات الإنسانية بطريقة منظمة الى حد ما . متمشية مع نضوج الصغير . كان البيت واسعا والأسرة متعددة الافراد ، ومع ذلك فقد كانت الأسرة عادة تتوقع ميلاد المزيد من الصغار وكان هناك شخص ما قريبا لرعاية الصغير الذى لم يصل الى سن المدرسة وقيادته فى عالمه المتزايد الاتساع . فى مراحل متدرجة خطوة ، مع التزايد التدريجى فى احتياجاته . وكانت حرية السير مباحة حول منزله أو فى الحقل أو المراعى أو بسستان الفاكهة . وكانت توجد حيوانات فى الحظيرة . والحوش ، وعشة الدجاج . والمرعى . وكان بعض هؤلاء الرفاق صغار العمر مثله . وكان يستطيع أن يملأ عينيه منهم ويلبسهم وأحيانا يحتضنهم .

وقد لعب الزمن لعبة التغيير فى هذه البيئة . لقد حرم « صغير الشقة » ، أو حتى على المجال الأوسع قليلا - « صغير الضاحية » - من

رفاقه السابقين « من البشر أو ما دون البشر » الفضاء الذي كان يعيش فيه ، فقد انحصر في حدود قليل من الحجرات أما الشرفة والحوش « فربما تحولوا الى حجرة واحدة بسباك واحد أو اثنين (٣) »

لقد تباكوا على فقدان الصغير اليوم « للاتصال الفسيح النابض بالحياة النامية ، مع الصغار الآخرين ومع تشكيلة من البالغين » « ولا يبدو فقد أن هناك فقداناً ملحوظاً لهذه التجارب المبكرة الطيبة ، بل أن هناك أيضاً فيضاً من المعلومات المخيفة الواردة ، ومن الطبيعي القول بأنه كانت هناك دائماً « حروب وأعمال وحشية » ، ولكنها لم تحدث في غرفة المعيشة على شاشة التلفزيون ، فالصغير قبل أن يستطيع أن يتمشى مع الصعوبات الأولية المتعلقة بالتوافق مع الأسرة بوقت طويل ، يكون قد تصرف الى ما تسميه ابنتي الصغيرة « عالم مجنون » ، يتألف من الاضطرابات العنصرية ، والصغار المساجين المعصوبي العينين الذين يجبرون على السير بالسونكي ، والقتل الجماعي ، وقادة العالم يتجادلون حول امكانية ابادة سكان الكرة الأرضية . ويضاف الى ذلك الصعوبة التي تواجه الصغير في التفرقة ما بين الحقيقة والخيال : هل هذه هي نشرة الأخبار أم أنها فيلم سينمائي ؟ هل هذا هو رئيس الفرسان الفارس أم أنه المحافظ ؟ هل يسبب التدخين السرطان أم أنه نسيم الربيع ؟

أثناء الأزمة الكويتية التي حدثت سنة ١٩٦٢ كانت ابنتي هايدى في الحضانة حيث كانوا يعلمون الأطفال « تدريبات القنبلة الذرية » فقالت لأمها : « ماما ٠٠ دعينا نتحدث عن الحرب والقنبلة وهذه الأمور » فأجابت الأم : « انني موافقة يا هايدى - فماذا نقول عنها ؟ » فردت هايدى قائلة : « قولي جميع الكلمات يا أمي . انني لا أعرف كلمة واحدة من الكلمات التي تتعلق بذلك » .

اذن فهذا هو العالم كما نراه ، ليس بعضاً من المناظر الريفية التي تغطيها الحملان الصغيرة والأزهار الصفراء والمصاصة التي يحبها الصغار ، ولكنه عالم يضج بأصوات الغضب والتصادم . وعلى نفس هذا المستوى من التضخم نواجه الاغراء ، بصرف النظر عن ذلك كله ، ولا نهتم بالاختلاف بين الحلم والجريمة ، أو الاختلاف بين اغتيال رئيس والوفاة المضحكة لمصارع ثيران ذي قبعة سوداء .

Arnold Gessel and Frances Ilg, "Infant and child in the Culture of Today," (New York : Harper, 1943). (٣)

قال ويل روجرز مرة : « ان المدارس لم تعد كما كانت فى الماضى » ولم تكن كذلك أبدا » . ربما لم تكن الأيام الخوالى الطيبة « طيبة » ولكن الشر لم يمس **الصغار** مبكرا وبعمق كما يحدث فى هذه الأيام . ولا يغير هذا من المشكلة ولكنه يجعلها أكثر الحاحا عن ذى قبل لأن **الأبوين** لديهما الآن أداة لمساعدة **صغارهم** على تطوير « الراشد » مبكرا للتمشى مع ظروف العالم كما هى بالفعل .

من أين نبدأ :

من الناحية المثالية ، نحب أن نبدأ من البداية ، لقد اتضح أحد التطبيقات الفعالة لتحليل المعاملات فى برنامج تعليمى للآباء والأمهات الذين ينتظرون الانجاب . وتم تنفيذ هذا البرنامج فى ساكرامنتو سنة ١٩٦٥ على يد الدكتور ايروين ايشهورن وزوجته - وهو طبيب لأمراض النساء وأخصائى فى التوليد - أما زوجته فهى مدرسة بكلية ساكرامنتوسيتى - ان معظم تدريبات الاستعداد لولادة **الصغار** تتضمن فى العادة - تعليمات لمن سيرزقون بأولاد - خاصة الأمهات - حول ما يتوقعنه خلال فترة الحمل والمخاض وولادة **الصغير** ، مع معلومات فياضة حول العناية البدنية **بالصغير** - وغالبا ما كانت تضاف الى هذه الدراسة كتب وأفلام مختلفة ، تصور الحياة المثالية مع **الوليد** . وتدور بعض المناقشات حول الجوانب السلبية للتجربة ، مثل احتمالات ظهور علامات زرقاء على جلد الأم عقب الوضع ، أو الاجهاد أو المص ، ولكن نادرا ما كان يعرج فحص خاص متعمق حول العلاقة بين الزوج والزوجة ، وهما الأم الجديدة والأب الجديد وهذا الشخص الجديد الجميل والمفرح أحيانا ألا وهو **الصغير** . ويجب معظم أطباء التوليد مساعدة الزوجين فى هذا الصدد ، ولكن لا يوجد نظام معين يمكن تدريسه بسرعة وفهمه ببساطة وجاهز للاستخدام . وقد صرف عدد كبير من أطباء التوليد ساعات عديدة فى مناقشات مشجعة حول المصاعب المحيطة بموقف الأسرة ، مخففين من التوتر بإجابة الأسئلة ، ومحاولة تسكين الخوف بالمساعدة الرقيقة ، واعتمد عدد آخر منهم على الموقف الأبوى الذى يقول بالضرورة : « اتبع تعليماتى » ونفذ ما أقوله . وسيكون كل شئ على ما يرام .

وعلى أية حال فانه اذا كانت هناك مشاكل جديدة فى العلاقات بين الزوجين فان هذا النوع من الأساليب قد يبعد هذه المشاكل مؤقتا الى قائمة الأولويات حيث ان **الصغير** بعد كل شئ ، يجب أن يأتى أولا .

ولكن مع عدم توافر الحل ، فإن المشاكل تظل مصدرا للمضايقات والغربة المستمرة للأم والأب كليهما خلال الشهور أو الأعوام الأولى من حياة الصغير ، وهي التي تحدث خلالها الانطباعات الأساسية لدى الصغير .

وبدأ الزوجان « ايشهرون » وهما عضوان في مجلس ادارة معهد تحليل المعاملات ، في التعرف الى تدريس نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) لفصل الآباء والأمهات الذين كانوا ينتظرون الانجاب سنة ١٩٦٥ . لقد نظمت لقاءات مسائية لكل من الزوج والزوجة أسبوعيا . وكان الحضور اجباريا ، ولكن معظم الأزواج كانوا يحضرون بانتظام . وبالإضافة الى التعليمات المنتظمة حول الحمل والمخاض والولادة ، كانت تدرس أصول تحليل المعاملات ، تلك التي كانت تدرس بمفاهيم التجربة الحقيقية التي يمر بها الزوجان . وهي تجربة الحصول على صغير . انها أداة وضعت لتحقيق غرض خاص ، ولكنه غرض وجد الأزواج أنه يمكن استخدامه لحل مشاكل عديدة أخرى في الحياة بعد وصول الصغير . ويبلغ مجموع محاضرات نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) لكل زوج حوالي أربع وعشرين ساعة ، ولكن اللغة المستخدمة قدمت الأساس الصالح لاجراء مناقشة أوسع عندما تصل الأم الموشكة على الوضع الى مرحلة اختبارات الولادة . وفي صحبتها زوجها غالبا ، وهو الذي يشعر بجزء من المسؤولية أكثر من أن يكون مجرد متفرج .

لقد اتضح أن فهم نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) مبكرا أثناء الحمل قد ساعد الزوجين على فهم مصدر بعض المشاعر الجديدة المعقدة التي ليست ايجابية كلها . ان الشباب الذين يتضمن « والدهم » تسجيلات عديدة ملحة وغير مميزة حول الاتصال الجنسي والحمل ، يجب ألا يندهشوا عندما تدار هذه التسجيلات خلال هذه التجربة المشحونة بالانفعالات . ان الزوجين الغائبين حتى اذا كانا قد خططا وانتظرا الحمل بشغف ، فانهما سيجدان أنهما معرضان لفترات من الاحباط ، الذي ليس له تفسير » . ان عقد الزواج وعش الزوجية الرومانتيكي غير كافيين لمحو شريط « الوالد » القديم الذي سجلت به عبارة « أنا حامل » على أنها خبر فظيع حقا ، ولن تغيرا أيضا شريط « الوالد » لدى الزوج الذي يظهر بالطريقة القديمة عندما يعرف النبا « لقد جعلتك حاملين » . وهناك مشاعر متوترة أخرى مرتبطة بالحمل . أشار اليها جيرالد كابلان على أنها « فترة تزايد الحساسية الى درجة التآزم ، وأنها فترة يترأى فيها

للزوجين أنهما يواجهان مشاكل عويصة متزايدة (٤) . وبالإضافة الى التغيرات الخارجية الاقتصادية والاجتماعية توجد تغيرات داخلية كيميائية وعاطفية وهي التي تعطي دورا جديدا بالنسبة للأم خاصة اذا كان هذا هو صغيرهما الأول . فهناك الوحدة أثناء المخاض ، والوحدة بعد العودة الى البيت مع الصغير ، خاصة اذا كانت زوجة عاملة ، وعليها أن تتحمل المسؤولية الجديدة المتعلقة بتنظيم الوقت . وهناك حقيقة أصيلة بالنسبة للأم التي تستقبل مولودها الأول وهي أنها لن تعود طفلة صغيرة مرة أخرى ، وأنها قد باتت تنتمي الى الجيل الأكبر سنا : انها الآن أم . وهذا هو نفس الشعور الذي يخامرنا بأن الحياة قصيرة . ومرور الزمن بلا توقف . وهو الاحساس الذي يجعل الناس ييكون أثناء حفلات الزفاف ، والمناسبات الجليلة تفتح الأبواب للمستقبل . وفي ذات الوقت توصد أبواب الماضي بلا عودة . وهذه هي مشاعر الأم الشابة أيضا . وأحيانا تصبح هذه المشاعر كثيفة جدا حتى أنها تؤدي الى ما يسمى : **Post-Patrum** أى : اختلال ما بعد الولادة . وفي هذه الحالات وتصبح غير قادرة تماما على العناية بالمولود . وهناك مريضة واحدة ، الكامل « للراشد » . ولا تستطيع الأم التعامل مع احتياجاتها المتزايدة ، وتصبح غير قادرة تماما على العناية بالمولود . وهناك مريضة واحدة ، كنت قد رأيتها أولا في حالة اختلال مزمن بعد ولادة صغيرها الأول . ولكنها باتت قادرة على ترك المستشفى بعد ثلاثة أسابيع بعد التعرف الى نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) . وكانت قادرة على مباشرة العناية بصغيرها ، وصار « راشدا » أكثر قوة ، مع استمرارها في حضور مجموعات العلاج ، وجاء الاختبار الحقيقي لهذه القوة عند حملها للمرة الثانية بعد ذلك بعامين . اذ اكتسبتها التجربة السابقة احساسا بالخوف والقلق خلال هذا الحمل . ولكنها كانت قادرة على مناقشة هذا الموقف مع أخصائي التوليد حسب مفاهيم نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) . (ان حقيقة وجود طبيين أحدهما أخصائي توليد والآخر أخصائي نفس ، يتكلمان نفس اللغة . كانت مشجعة في حد ذاتها) . ووضعت صغيرها وظلت تتمتع بروح معنوية عالية خلال فترة « اختلال ما بعد الولادة » (ولس من غير العادى أن تتكرر الإصابة بحالة اختلال ما بعد الولادة - مع كل حمل) .

هذه اذن هي بعض المشاعر التي يمكن فهمها والتغلب عليها من

خلال نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) حيث صار الزوج والزوجة قادرين معا على استخدام لغتهما المكتسبة حديثا . وقد شاركنا سويا في الاستمتاع بالاثارة التي تتولد من نرقب الحدث السعيد . ويقرر ايشهورن أنه اذا استطاع الطبيب استخدام « راشد » الزوج ، فانه يسهل على الزوج أن يصبح أبا ، ان علاقة (والد - طفل) بين بعض أطباء التوليد ومريضاتهم نستبعد الأب بالضرورة ، وتظهر الأم والطبيب مندمجين في نشاط يظهران من خلاله مهارة فنية استثنائية ، بينما يترك الزوج ليتأمل دخان سجائره المحترقة في غرفة الانتظار . وتسمح معظم المستشفيات الحديثة للزوج بالبقاء مع زوجته ومساعدتها خلال ساعات المخاض . ويقرر ايشهورن أن نظام (الوالد - الطفل) يعمل مبكرا خلال ممارسته . ويصبح الزوج منشغلا بما يستطيع عمله لمساعدة زوجته أثناء المخاض ، كيف يدلك ويخفف الضغط البدني ، كيف يستطيع أن يحمي زوجته من المخاض ، وكيف تستطيع هي في الحقيقة أن تكذب على « راشده » حتى اذا كان « طفلها » هو الذي يسيطر أثناء احساسها بالتعب والخوف . وعندما يمر الزوجان معا بأزمة من هذا النوع ، فان مواجهة أى أزمة أخرى في الحياة يكون لها سابقة « اذا عملنا ذلك فاننا نستطيع أن نعمل أى شئ ! » وسرعان ما يتحدث هؤلاء الآباء عن « مولودنا » ويشعر كل من الأب والأم بالرضا عن نفسيهما ، وينتقل ذلك الى الصغير . لقد وجد هؤلاء الأزواج المعاونة في أن يعرفوا مبكرا خلال الحمل كما يقول كابلان :

« المرأة العامل تحتاج الى حب اضافي مثلما تحتاج الى فيتامينات او بروتينات اضافية » ويحدث هذا خاصة في الشهور القليلة الأخيرة من الحمل . وخلال فترة الرضاعة . وغالبا ما تصبح خلال الحمل في حاجة الى المساعدة ، وتميل الى الانطواء ، وكلما كانت أكثر قدرة على تقبل هذه الحالة ، مع تزايد الحب والعناية اللذين تحصل عليهما من الناس المحيطين بها ، تتزايد قدرتها على ممارسة امومتها نحو صغيرها . ان المتخصصين لا يستطيعون أن يقدموا لها الحب الذي تحتاجه ، ولكنهم يستطيعون تحريك أعضاء أسرتها ، وخاصة زوجها ، لتقديم ذلك الحب . ونجد في الحضارة الغربية أن الزوج والأقارب الآخرين يخشون غالبا افساد الأم المستقبلية والمطلوب جهود خاصة لمقاومة هذا الموقف .

ان وجود الزوجين معا أثناء عملية الوضع نفسها هو ذروة المثالية بالنسبة لكليهما ، ولكن حتى اذا كان الزوجان متباعدين أثناء الوضع فان

نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) لايساعدهما فقط أثناء وقت الحمل ، بل يسمح أيضا بأقصى الحرية للتخلص من الصراعات ، وهو أمر أساسى لتوفير بيئة مثالية ينمو فيها الوليد خلال سنواته الأولى .

إنّ الأم الدافئة الحنون هي الأم المتحررة من حوار (الوالد - الطفل) الداخلى الذى يثير فى نفسها موقف (لست على مايرام) ان « راشدها » المتحرر يستطيع أن يسمح الحقائق ، وأن يطرد النصائح والوصفات القديمة ، ويستطيع أن يستجيب لمشاعر الأمومة العفوية التى تثير الرغبة فى حمل الوليد وتدليله ومداعبته دون أن تتوقف الأم لتفكر ما اذا كانت هذه الرغبة سليمة أم لا . وهناك فكرة من أفكار « الوالد » التى يكثر التعبير عنها ، فى مجموعات الأزواج الذين سيرزقون بالصغار ألا وهى « عليك ألا تكثر من حمل الصغير حتى لا تفسده » . وإذا أدير هذا الشريط فى كل وقت تذهب فيه الأم الجديدة لمداعبة صغيرها ، فمن الواضح أنه ستحدث مشكلة تصل الى « الوليد » بطريقة ما . ان « الراشد » فى الأم يستطيع فحص هذه الفكرة ويمضى مع تقدير الأم للموقف الذى سيقترّب من هذا المعنى « اذا عاملت الصغير فى طفولته على أنه صغير ، فلن تحتاج الى أن تعامله كذلك بقية حياته » . (هذه الاصطلاحات : افساد الصغير ، أو منعه من عادة تعودها ، قد بدت بالنسبة لى دائما فظة جدا ، وقاسية عند تطبيقها على البشر ، ولابد أنها من اختراع زوجة أب شريرة من أولئك المذكورات فى قصص الجنيات - كانت تعيش فى برج مظلم ورطب فى مكان ما على الأرض البور !)

وتستطيع الأم ذات « الراشد » القوى أن تعالج مواقف أمها أو حماها التى غالبا ما تكون من المواقف المشحونة بالتوتر (بطريقة تقلل المعاملات المتقاطعة المدمرة - انها تستطيع أن تقدر أن الجدة أيضا لديها (والد - وراشد - وطفل) وأن « والدها » و « طفلها » كليهما معرضان للوقوع فى المصيدة ، أو أن « راشدها » قد يقول لحمايتها أن لديهما خادمة للعناية بالمنزل وأن الأم تعتنى بالصغير . ويستطيع « راشدها » أن يدع التراب يتجمع أثناء اهتمامها بالصغير . حتى اذا كانت عمثها الغنية أجانا ستصل فى هذه الليكة بالذات ومعها هدية ، وباختصار فان الأم والأب الجديدين لديهما الاختيار فيما يتعلق بكيفية المضى فى الابقاء على هذه الوحدة الجديدة الثمينة - عائلتهما - التى جاء إليها وليدة وأب جديد وأم جديدة .

ومن أهم المفاهيم المعاونة فى تربية الأطفال الصغار هو وعى الآباء والأمهات بموقف (أنا لست على مايرام ، وأنت على مايرام) . ان

« الطفل » يبقى طافيا بفضل احساس الأم بأنها على مايرام . انه يشعر بموقف (أنه ليس على مايرام) ، ولكن طالما كانت هي على مايرام فهناك شيء يستطيع أن يستمسك به . ان قيمة حنان الأبوين بالنسبة للصغير تعادل تماما القيمة التي يراها الصغير في أبويه . ومن الواضح أنه عندما يقع « طفل » الأم في الفخ . وتصبح داخلة في علاقة (طفل - طفل) مع الصغير ، فإنه يشعر بأن عالمه كئيب حقا . انه « طفل » (ليس على مايرام) من جهة . ومن جهة أخرى فهو « طفل » أم (ليست على مايرام) . وإذا ساد هذا النوع من المعاملة في حياة الشخص الصغير المبكرة ، فإن الطريق سيكون مفتوحا لظهور موقف (أنا لست على مايرام ، وأنت لست على مايرام) أو المبالغة في موقف (أنا على مايرام ، وأنت لست على مايرام) . ويجب أن تكون الأم والأب (خاصة الأم لأنها الطرف الأكثر تأثرا في السنوات الأولى) حساسة لموقف « الطفل » الذي يشعر بأنه (ليس على مايرام) الكامن فيها . ونستطيع أن نتوقع انتشار الحقد الناتج عن موقف (ليس على مايرام) ، ويصير أشد طالما أن الأبوين خاصة الأم لم تطور الحساسية الضرورية ، والقوى الإدراكية ، والاهتمام بتطبيق أدوات مثل نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) في تربية الصغير . وان كان « الطفل » في الأم يتمتع بموقف « لست على مايرام » قوى ، وأنه يتأثر بسهولة بمصاعب الحياة وعقباتها ، أو عدم التوفيق ، مثل السلوك العنيد للصغير الذي لديه هو أيضا « طفل » (ليس على مايرام) . ويصير الطريق مفتوحا لسيطرة « الطفل » على « الوالد » مما يطلق سيلا من المواقف التي تؤدي الى انتكاس المرء الذي يأخذ في ممارسة أشواط من اللعبة القبيحة . وتكسب الأم الجولة الأخيرة لأنها تدرك أنها أقوى وأكبر .

ومن السهل أن نرى أنه من خلال « الراشد » فقط يستطيع الصغير أن يتعلم أساليب أكثر فاعلية للحياة ، ولكن على الصغار أن يسألوا جيدا : كيف يتطور « الراشد » بدون رؤية أحد ؟ ان الصغار يتعلمون بالتقليد ، ومن أفضل الطرق التي يستطيع بها الصغير أن يتطور « راشده » مع تزايد الدوائر القوية للتحكم هو إتاحة الفرصة له لملاحظة أحد أبويه عندما يستثار في موقف ، ويناضل لتكون له الغلبة بثورة غاضبة ، ولتتحكم في « طفله » ويجعل استجابته إستجابة « الراشد » أى استجابة منطقية ورشيدة .

ان توضيح ماهية « الراشد » بتجربة عملية أكثر فاعلية من محاولة تعريفه نظريا . وهذا يثير السؤال عما اذا كان يجب على الأبوين أن يعلموا

صغارهما نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) أم لا ؟ وبالنظر الى تقارير (الوالد - الراشد) الصادرة عن الذين يدرسون النموذج من آباء الصغار ، نجد أن الصغير يستطيع أن يفهم مبادئ نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) في سن مبكر مثير للعجب وهو سن الثالثة أو الرابعة . ويمكن الوصول الى ذلك عن طريق تعريض الصغير لتحليل المعاملات الخاص بأبويه . وعند انخراط الأبوين في تحليل المعاملة ، وتأديتها باستمتاع واضح ، فإن الصغير يلتقط معنى ما يجرى . لقد اندهش آباء أطفال صغار في سن الثالثة أو الرابعة لدى سماع الصغير وهو يلقي بملخوطة يستخدم فيها كلمتي « والد » و « طفل » استخداما سليما .

وعندما يقول صغير في الخامسة (أبى ، لا تستنفذ « والدك » كله) ، فإنه يفهمنا أن آباءه ينقسم الى أجزاء ، وأن لديه « والد » و « طفل » يمكن وقوعهما في الفخ . وعندما يقول الأب لصغير الخامسة ، « اذا استمررت في عمل ذلك ، فإنك ستستثير » والدي » وليس هذا في صالح أى منا . ويصير الطريق مفتوحا لقبول معاملة (راشد - راشد) بحيث يدرك كل من الصغير وآباءه أن لكل منهما مشاعر وأنه من الممكن استثارتهما . ومعاملة (راشد ، راشد) هذه لا يستطيع أن تتطور اذا زجر الأب قائلا : « افعل ذلك ثانية » فاضطر الى صفعك أيها العبيط ! » . وكل ما سيؤدي إليه هذا القول هو اغلاق الكومبيوتر في الصغير . انه لا يستطيع أن يتدبر مزاييا ومساوئ . « ما كان يفعله » فيما عدا حقيقة أنه سينال صفة وأنه عبيط . وهكذا ينتهي الدرس . ولا بد أن الأب قد سبها بنفس الطريقة عن أبيه ، الى ما لا نهاية . اننا نحذر الأبوين هنا من أن أى اشارة الى نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) خاصة (الدعوة الى الألعاب) عندما يستثار « الطفل » في صغيرهما لأن الصغير سيعتبرها « والدا » ، وهذا يعنى أن الفكرة كلها يمكن أن تنسب الى « الوالد » مما يضعف من فائدتها كأداة لانتاج معاملات (راشد - راشد) في البيت .

انك لا تستطيع تدريس نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) لصغير غاضب ومشحون بالأدريين . أما نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) فيمكن الحديث عنه أكاديميا في مناسبات أخرى ، مع اعطاء الصغير المعلومات التي يستطيع أن يصل بها الى تجربته التي يكتشف من خلالها حقيقة الأمر ويتفهمه أى « ماذا ؟ أهذا ما أفعله ! » واستخدام هذه الكلمات في الوقت المناسب ييسر للصغار البدء في التعبير عن مشاعرهم بكلمات بدلا من تمثيل الاحباط الذي حدث لهم في شكل سورة غضب لاحتواء الموقف بالأداة الوحيدة التي يملكونها وهي مشاعرهم .

وعندما يتدبر الانسان الفواصل التي تكاد أن تكون منيعة والتي تحول دون تطور « الراشد » في الطفولة ، فلن نعجب من وجود هذا القدر من الحماقات في حياتنا . ان حب الاستطلاع في الصغير ، وحاجته الى المعرفة - يعبران عن « راشده » النامي ويقدمان الحماية والمساندة للوالدين الحساسين والمدركين . وعلى أية حال فقد يكون من المتعذر على الزوجين أن يمتعا بالقدر الكافي من الحساسية والادراك اذا وجدا صعوبة في تقبل الحاح صغارهما عليهما بالطلبات لأنها يعطيان الأولوية « للطفل » و « الوالد » الكامين في نفسيهما .

ان خروج « الراشد » من البيانات المختزنة في الذهن يمكن أن يجعل تلك المواقف الايجابية كالصبر ، والشفقة ، والاحترام ، ومراعاة شعور الآخرين - موضوعا للاختيار . والاختيار هو واحد من أمرين : اما الاستمرار في مساعدة الصغير ، أو قمعه باستخدام أساليب العنف القديمة « الوالدية » التي أفرزتها أجيال لاحصر لها من الآباء والأمهات الذين يرون أن الحق دائما معهم وأن الأبوين لا يخطئان .

إذا كان الفيلسوف معتادا أن يسأل في كل معاملة : « وماذا بعد ؟ » فان الأب قد يجد من المفيد أن يتساءل : « ماذا حدث من قبل ؟ » ماذا كانت المعاملة الأصلية ؟ من قال ذلك ؟ أما استجابات الصغار فليست بعيدة عما يثيرهم . ان التدريب على توجيه الأسئلة الصحيحة ، والانصات الى الاجابات ، سيقودنا سريعا الى مصدر الصعوبة . فإذا جاء الصغير الى أمه باكيا ، فانه يتحتم عليها القيام بعملين : أحدهما هو تهدئة « الطفل » المشوش ، والآخر هو أن تدفع « الراشد » للعمل . انها تستطيع أن تقول : « أستطيع أن أرى البعض قد ألمك ، فالضغار دائما يعانون من المتاعب ... وفي بعض الأحيان لا أستطيع أن تفعل شيئا سوى الصراخ ... هل تستطيع أن تذكر لي ما حدث ؟ ... هل إهانك أحد ؟ » وسرعان ما يخبرها بما حدث . وتستطيع الأم والصغير أن يتحدثا عنها (راشد - راشد) .

وأحيانا نجد الصغار يستغلون بعضهم ، فعلى سبيل المثال نجد أن الأخت الكبرى تحتال على الأخت الصغرى للاستيلاء على بعض النقود فتتعمد ارباكها ، وسرعان ما نعاقب الأخت الكبرى من أجل هذه المعاملة الاستغلالية ، ولكن علينا أن نسأل أنفسنا : « أين تعلمت هذا ؟ » ربما تكون قادرة على الابتكار بالفطرة ، أو قد يكون ذلك نتيجة درس تلقنته عن الأم والأب : كونى ذكية واحصلى على نقود كثيرة ، لأنها أهم من

للمناس (حنى الأخوات الصغيرات) = ونحن غالبا ما ننسى كيف تنعكس
نظرتنا الى القيم على تصرفات صغارنا . ويحكى هـ . ألن سميث ، قصة
كتبتها صغيرة فى سن التاسعة : « حدث مرة أن كانت هناك فتاة صغيرة
تدعى كلاريسا نانس ايموجين لاروز » ولم يكن لديها شعر ، كما كانت
أقدامها ضخمة ، ولكنها كانت غنية جدا ، فكان الباقي سهلا » .

ويستطيع « الراشد » بجانب سؤاله : « ماذا حدث من قبل ؟ »
أن يسأل أيضا : « ما هو الاعتبار المهم هنا ؟ » ان الوالد هنا فياض فى
المتبايع والتعبير ، ويستطيع أن يورد العديد من الأسباب والمبررات التى
تحمّل الانسان أو لا تحمله على العمل ، وهذا الاستنكار لتصرفات
« الطفل » الصغير كما لو كان يتعرض لهجوم بمدفع رشاش فلا يسمع
شيئا بالمرّة . ويستطيع « الراشد » الاختيار ، ويعرض أفضل الجوانب
وليس كل الجوانب .

ان المعاملة التى تنبش الصغير هى تلك التى يعمد فيها الأب الى
الرد على أحد أسئلته بأن يقدم فى ضجر كل الأسباب التى تبرر لماذا
لا يجب أن يفعل شيئا بدلا من أن يذكر السبب الرئيسى ببساطة ، وإذا
لم يكن هذا السبب الرئيسى فويا بما فيه الكفاية بحيث يمكن تقديمه
فى مفردات بسيطة ، فقد يجدر بنا أن نغفله .

تدخل الصغيرة ذات السنوات الست الى المطبخ وخلفها أربعة من
رفاق اللعب ، الوقت هو الخامسة الا ربعا بعد الظهر . والأم تجهز
الغداء (٥) وتتذوقه أيضا . تقول الصغيرة ذات السنوات الست :
« يا أمى . . ألا يوجد شيء نأكله ؟ » وتجيب الأم من خلال فمها الممتلئ :
« لا . . سيكون ذلك وقت العشاء » أنت تأكلين حلوى كثيرة . وهذا
يضر أسنانك . ستملئين معدتك (والأم الآن تملأ معدتها) . اذا أكلت
الآن فانك لن تأكلى عشاءك . (والأم تأكل الآن) . اذهبي خارجا
والعبي . انك توشخين المطبخ دائما . لماذا لا تضعين الأشياء بعيدا ؟
ان هذه فرصة عظيمة « لوالد » الأم لكى يعذب الصغيرة بسلسلة كاملة
من التوبيخات « بالاضافة الى » . يزمجر الصغار ويخرجون ، ويعودون
خلال عشرة دقائق الى المزيد من « التسلية واللعب » .

كان السبب الحقيقى لضيق الأم هو : « لماذا يجب أن تدخل معك

(٥) لعل القارئ يتذكر أنهم فى الغرب يتناولون أربع وجبات ، وتطلق كلمة الغداء
dinner على الوجبة الثالثة - المترجم .

دائما كل أولاد الجيران ؟ اننى متضايقه من اعطاء كل كمية الجيلاتنى لأولاد الجيران ، ولا يتبقى لنا شيء » وفى هذه اللحظة الخاصة يكمن السبب الحقيقى ، وهو سبب سارى المفعول ، ولكن نظرا لعدم قدرة الأم على الافصاح عنه بصورة طبيعية ، حملت ابنتها سيلا من المعلومات التافهة ، وبدلا من تطوير هذا النوع من المعاملة ينكمش الصغير ويبدأ فى تعلم الأساليب التافهة أو (المعوجة) لكسر التقاليد . وإذا كان الأدب قد منع أمها من اظهار السبب الحقيقى ، فانها ستكون أفضل لو قالت ببساطة : « لا - سنتحدث عن ذلك فيما بعد » . ثم تستطيع أن تكشف السبب الحقيقى لابنتها فيما بعد فى غياب الصغار الآخرين . أو تخرع أكلة يمكن أن يتناول منها الصغار الآخرون دون أن تضطر الى استنفاد الأكلة » المرتفعة التكلفة « ألا وهى أكلة الجيلاتنى » .

وكما حدث ، فانها حملت المعاملة تناقضات تؤدي الى اثاره أسئلة فى ذهن الصغيرة : « كيف يتسنى أن تأكل أنت ، ولا نستطيع نحن أن نأكل ؟ وما هو الخطأ فى ملء المعلقة ؟ انك تملئين معدتك » وأنت توسخين المطبخ أيضا . انك تأكلين . كم ثمن « الحلوى الكثيرة » ؟ ان فى ذلك قسوة ان لم يكن الموقف مهيجا للصغير بصورة تماثل ما يمكن أن يحدث للشخص البالغ عندما يسأل رئيسه علاوة ، فاذا به يجبره على سماع موعظة مملة » .

ان الرجل الناجح يعتمد الى اثبات أى نقطة يريد اثباتها بأوضح دليل ، ولا يشوه قضيته بالخروج عن الموضوع . وتنطبق نفس هذه القاعدة على الأبوين . . انهم ينجحون فى النظام اذا التزموا بأحسن الأسباب . وهذا يعطى « راشد » الصغير شيئا صلبا يستطيع أن « يصنفه » ، ولا يصير الكومبيوتر الخاص به مكتظا بالمعلومات غير المنطقية . وتكون لديه الفرصة أيضا للخروج من المعاملة مرفوع الرأس بدلا من الاحساس الطاغى بأنه ليس على ما يرام . وعليك أن تحجم عن وعظ الموظف العامل لديك لأنك تحترم « راشده » وإذا أردت « للراشد » فى صغيرك أن ينمو فعليك أن تحترمه أيضا .

الطفل فى سن المدرسة : -

عندما يبدأ صغير الخامسة فى الخطو لهذا اليوم الذى يحتفل فيه أبواه بدخوله الحضانة ، فانه يأخذ معه حوالى خمسة وعشرين ألف ساعة من تسجيلات الشرائط المزدوجة . يمثل أحد نظاميها « الوالد » بينما يمثل

النظام الآخر « الطفل » ، ولديه أيضا حاسب عظيم يستطيع أن يستبعد الاستجابات ويقدم أفكارا لامعة بالآلاف ، اذا لم ينغمس تماما في حل مشاكل (لست على ما يرام) - ان الولد الصغير المشرق هو ذلك الذي نال قدرا كبيرا من الحنان ، وهو الذي تعلم أن يستخدم ويشق في « راشده » والذي يعرف أن « والده » (على ما يرام) ، وسيظل كذلك حتى عندما يشعر بموقف (ليس على ما يرام) • سيكون قد تعلم فن « الراشد » في الحلول الوسط (بالرغم من توقع حدوث ارتداد) ، ولديه الثقة التي تنمو من السيطرة الناجحة على المشكلات، وسيشعر بالرضا عن نفسه - ومن الناحية الأخرى فهناك الخجل ، والصغير المنسحب الذي تدور تسجيلاته ذات الخمسة وعشرين ألف ساعة في تنافر ناتج عن التوجيهات الحادة والانتقادات اللاذعة والايقاع المنخفض والمنظم لاحساس المرء بأنه ليس على ما يرام ، ولئن كان لديه حاسب عظيم الا أنه لم يستعمله كثيرا • لقد علق لويجي بونبنييري في كتاب صغير مشهور عن عزف البيانو - علق على كيفية استخدامنا الضئيل للجهاز الطبيعي العظيم المتمثل في الجسم الانساني - قائلا : « ان ذلك يشبه أكمل أجهزة القياس التي صممت ونفذت لكي يستخدمها أكفأ الفنين ، واذا بنا نسند استخدامها الى أقل المهندسين خبرة ، ولذلك فانه سيشكو في النهاية من قصورها » (١) .

واذا لم يستطع الصغير أن يستخدم هذا الحاسب ، فمن المحتمل أن يكون ذلك في الغالب : اما لأنه لم يشاهد واحدا يستخدم من قبل ، أو أنه لم يجد من يساعده في تعلم كيفية استعماله • واذا كان ضعيفا في المدرسة ، فانه سيغير عن شكواه من قصوره بقوله : « أنا غبي » • وسيكون قول والده : « انه لا يعمل بكامل طاقته » - وتتركز المشكلة الأساسية في شدة موقف (أنا لست على ما يرام وأنت على ما يرام) • ان المدرسة لو لم يكن بها مدرسون أكفاء • فسيزداد الطالب المجد علما ويزداد الطالب المهمل جهلا • اما الصغير الذي يعاني من مشكلة في المدرسة - فاما أن يكون قوضى السلوك ، أو شارد الفكر ، أو قليل الانجاز - وفيه نتوقع أن نجد موقف (أنا لست على ما يرام ، وأنت على ما يرام) يشغل باله باستمرار • ان المدرسة تمثل موقفا تنافسيا يحفل بالعديد من التهديدات الايجابية للصغير مع القليل من الفرص (عند البداية) التي يتمكن فيها الصغير من تحقيق بعض الانجازات الرمزية التي تخفف من حدة شعوره بأنه ليس على ما يرام - ويمكن لسنوات الدراسة

L. Bonpensiere, "New Pathways to Piano Technique", (New York, Philosophical library, 1953). (١)

المبكرة أن تكون بداية لنوع من معاملات الاختبار المتكررة التي تؤكد موقفه (أنا لست على ما يرام) بما يصاحبه من مشاعر عدم الجدوى واليأس -

ويتمثل المظهر الحقيقي العاجل لهذا الموقف في أن الحياة كلها منافسة ، ابتداء من الحياة في الأسرة - وامتدادا بفترة الدراسة كلها وعالم الكبار في المجتمع . وخلال الحياة تستطيع المشاعر والأساليب الخاصة بالتكيف مع موقف (لست على ما يرام) التي يؤسسها الولد الصغير في نطاق الأسرة والمدرسة أن تستمر خلال سنوات الرجولة ، وتنكر عليه الانجازات والتعويضات التي نشأت مع الاحساس الحقيقي بالحرية لتقوده الى مصيره الخاص به .

وتتركز نصيحتي لأبوى الصغير الذي يواجه صعوبة بالمدرسة في تعلم نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) للتعامل مع الصعوبة الماثلة بجدية ، والبدء في تولي مسئولية التعامل مع صغيرهما بأسلوب معاملة (راشد - راشد) مع طلب مساعدة الطبيب النفسي عند الضرورة . ويجب أن يتذكر دائما التأثير المبدئي لحالة (لست على ما يرام) - والقاعدة هي : عندما تكون في شك ، قدم الحنان . وهذا كفيل بتهذبة الصغير الخائف والمنفعل ، بينما يتعامل « الراشد » مع حقائق الموقف . وهذه الحقائق في الغالب غير واضحة بالنسبة للصغير . ويقول الدكتور وارن برنتيث أستاذ التعليم بكلية مدينة ساكرامنتو ، وعضو مجلس معهد تحليل المعاملات « أن التلميذ الذي يأتي الى المنزل بالشهادة وعليها الملحوظة القائلة « حاول أن تبذل جهدا أكبر » يفسر الملحوظة على أنها صادرة عن موقف (أنت لست على ما يرام) الأبوى غير المميز ، بينما ما يحتاج لمعرفته هو « جرب ما هو أصعب » . أما عبارة « بطيء جدا » فانها تثير السؤال القائل : « كم هي سرعة الاتجاه نحو الرأي الصائب ؟ » يقول برنتيث أن الطفل يحتاج الى المساعدة لتحديد المناطق التي هو ناجح فيها أو يمكن أن ينجح فيها ، ولا يتم هذا عن طريق اختبار تحريري ، حيث أن هذا الأسلوب يثير الشريط القديم القائل : « أنا لا أستطيع أن أعملها ، فلماذا أحاول ؟ » ويتم انجاز ذلك بالاستماع والحديث مع الصغير . ويقول أنه اذا كانت هناك مشكلة تواجه الصغير في المدرسة فمن غير المجدي القول بأن البقاء أكثر في مدرسة صيفية ، أو في أيام العطلات سيساعده اذا لم تفصل المشكلة المحددة وتتم مواجهتها « يقول « الوالد » : « اعمل أكثر من هذا » ويسأل « الراشد » : « ماذا أعمل أكثر ؟ » (٦) نشرت جريدة

كانساس سيتى ستار خبرا يتعلق بموظف عمومى أعلن عن تردد الكثير من الأحداث على حانات البيرة ، وعقبت الصحيفة قائلة : انه يقول ان الصغار يغشون الحانات . ولكنه كعادته يغفل الاشارة الى كيفية التزام الطريق القويم .

بعد أن ألفت كلمة عن تحليل المعاملات على فريق من الدارسين ، قيل لى : « المفروض أن ندرس ذلك فى المدارس ؟ » ووافقت بالتأكيد ، كما يوافق كذلك العديد من الآباء . وقد وجهت السؤال القائل : « هل يجب تعليم تحليل المعاملات فى المدارس ؟ » الى ستة وستين من الآباء والأمهات الذين أكملوا دراسة سلسلة محاضرات فى تحليل المعاملات ، استغرقت ثمانية أسابيع . وردا على السؤال أجاب ٩٤٪ من الآباء بالاجاب بالنسبة للمدارس العليا ، بينما أجاب ٨٥٪ بالاجاب بالنسبة للمدارس الاعدادية والابتدائية .

ان التعليم هو أعظم علاج لأمراض البشرية ، تلك الأمراض المتأصلة فى السلوك . ولذلك يستطع « التعليق المتعلق بالسلوك » من خلال نظام سهل الفهم مثل نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) أن يكون الشيء الأعظم أهمية الذى نستطيع أن نعمله لحل المشاكل التى تحاصرنا وتهدد بتدميرنا . ان المهمة المطلوبة تستعصى على الفهم . لكن علينا بطريقة ما - أن نوقف مسيرة الأجيال الحالية المندفعة نحو الجنون أو غيره من أشكال تدمير الذات التى تعود فى أصلها الى الطفولة .

علاج ما قبل المراهقة :

ينظر بعض الآباء الى فترة ما قبل المراهقة على أنها فترة الدفاع المستميت التى تسبق ظهور هورمونات المراهقة وتقاليدها ، التى تسبب التعقيد فى العلاقة الصعبة بين الصغار وآبائهم . وهذا هو الوقت الذى يتعرض فيه الصغار أقصى التعرض للأفكار الجديدة عن العالم المحيط بهم ، فى المدرسة وفى الاتصالات الاجتماعية . انه الوقت الذى ينفذ فيه الصغار ألعابهم المبكرة بحركات جديدة مبتكرة ، تدفع بعض الآباء الى الارتباك ، والبعض الآخر الى الطبيب . وعلينا أن نتذكر أن الصغير يحتاج الى الأمان الناتج عن الانتماء ، والثبات ، والحنان ، والتقدير ، والتوافق ، والمساندة .

لقد وجد بعض الصغار أن أنجح طريقة لتحقيق هذا الأمان هي الامتثال ، والتعاون والابتكار اذا سمح الأبوان ، وسيستمر الآخرون الذين لم يتعلموا الحصول على الحنان بهذه الطريقة فى استخدام أساليب التعامل المبكرة الخاصة بالسنة الثالثة من العمر ، مثل التمثيل ، الاختبار ، والتنافس ، والمراوغة ، والاختلاس ، والاغراء . ويمكن لهذه الأسباب أن تعمل على بث الفوضى فى الأسرة خاصة عندما يستخدم صغير ما قبل المراهقة تفكيره الحاد للوصول الى الكمال .

لقد بدأت فى سنة ١٩٦٤ مع مجموعة ممن هم فى سن ما قبل المراهقة ، الصغار الذين تتراوح أعمارهم ما بين تسع سنوات ، الى اثنتى عشرة سنة . وكان أفراد المجموعة يتقابلون كل أسبوع مرة . وكانت مجموعة من آبائهم تتقابل مرة كل أسبوعين مساء . واستمرت هاتان المجموعتان فى الحضور على مدى العام الدراسى . وعند نهاية العام دعى كل صغير مع أبويه للحضور لاستعراض النتائج . وكانت النتائج باهرة ، ذلك أنه حتى الشكل البدنى للصغار كان قد تغير .

جسد العديد من الصغار احساسهم بأنهم ليسوا على مايرام فى تعبيرات وجوههم وايماءاتهم ، وكان هناك تحسن ملحوظ فى المجموعتين . وأفاد الجميع بحدوث تحسن فى الاتصال . وشعر الصغير بقدرته على الحديث عن مشاعره ، وتوضيح وجهة نظره بدون اثاره عاصفة من الأب ، أو موقف عابس . واكتشف الآباء قدرتهم على وضع مطالب واقعية . وفرض الحدود المعقولة ، بدون استثارة أنواع سلبية من السلوك يحاصرهم بها الصغار . وتجاوز صغار سن ما قبل المراهقة مع آبائهم باستخدام مفهوم « العقد » الذى ينص على ما يتوقعه كل طرف من الآخر ، ومناقشة التوقعات واستعادتها من وقت لآخر على مستوى (راشد - راشد) . وحيث أن العقد كان واضحاً فإنه تضمن ما يجوز عمله وما لا يجوز مع نتائج الخروج على العقد . وتحسنت العلاقة بين الأب والابن بصورة ملحوظة . ويعتبر العقد واحداً من أحسن الأدوات التى أعرفها لتأكيد الثبات فى الاتجاه والنظام ، وذلك لأنه عقد بمعرفة « الراشد » ، ويمكن فحصه من وقت لآخر بمعرفة « الراشد » مع الاستفادة القصوى من المحافظة عليه مجدداً ومرناً بما فيه الكفاية لمواجهة الحقائق المتغيرة . ويعامل العديد من الآباء الصغار الذين فى سن ما قبل المراهقة بنفس الطريقة التى عاملوهم بها عندما كان عمرهم أربع سنوات ، وذلك فى الغالب بسبب أنهم لا يقدرّون مدى تغير الصغير من عام لآخر ،

وازدیاد قدرته على استخدام « راشد » - وبعد كل شيء فان تعلم الصغير التحكم الداخلى الحقيقى أمر يعود الى « الراشد » . ان ادراك الصغير أن لديه « راشد » وأنه لم يعد مجرد « ولد صغير أحمق » يستبعد قدرا كبيرا من المتاعب والاحتكاكات من حياة الأسرة .

وتعلم مرضاى الذين فى سن ما قبل المراهقة نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) بسهولة ، ووجدوه ممتعا ومفيدا . ومما ساعد على ذلك تشجيع آباؤهم الذين اهتموا بتلك التجربة - وسرعان ما تطور فهمهم لتحليل المعاملات - وبينما أصبح الحوار الداخلى والخارجى بين (الوالد والطفل) أقل حدة ، تحرر « الراشد » ليتولى مهمته الخاصة باكتشاف شئون الحياة . وهذا هو الوقت الذى يشرد فيه فكر الأولاد والبنات حول ما يريدون أن يكونوا عليه - وعندما يبدأون فى وضع مثل سامية ، ويشعرون بتقارب جديد فى العلاقات مع أصدقائهم يكون هذا هو الوقت الذى يبدأون فيه توجيه الأسئلة الصعبة حول الصواب والخطأ - انه الوقت الذى يعطى فيه توم سويرز وهكليرى فينز « وعدا بالدم » (*) ويريدان من الحياة الأكثر والأكثر - وهذا هو الوقت الذى يصبح فيه الصغير حساسا بالنسبة لنوعية الحياة التى يحياها أبواه . ويظهر خلال سنوات ما قبل المراهقة أنه لايكفى أن تكون مجرد أب طيب ، كما لو أن تلك كانت هى الوظيفة الوحيدة للوصول الى سن الرجولة ، ولكن المطلوب أن تكون شخصا طيبا له اهتمامات واسعة وخلاقة فى كل مناحى الحياة ، وليس مجرد شخص قلق وانطوائى يدور اهتمامه حول « صغيرى » وأسرته ، واذا ما كنت أبا طيبا من عدمه .

ويتحدث آلان واطس القس الأنجليكانى المتخصص فى الفلسفة الشرقية عن موقف الانهزامية فى الأب الذى يجلس فى المنزل ويتساءل فى حيرة عما اذا كان يوفر للصغار خير رعاية لأنه يظن أن كل ما عليه تقديمه فى الحياة هو صغير حسن التربية » - ويقول القس أيضا : « ان المشكلة هى أننا جعلنا الأب والأم فى عائلات كثيرة جدا يحسان بالذنب فيما يتعلق بمدى صحة الأسلوب الذى يتبعانه فى تربية صغارهما . انهما يظنان أن السبب الوحيد الذى يدفعهما للاخلاص فى القيام بأعمالهما المحترمة هو الحصول على نتيجة طيبة فى الصغير . ان

(*) اشارة الى بطل رواية « توم سويرز » لمارك توين ، وهما طفلان يعقد ميثاق صداقة بينهما بالدم - المترجم .

ذلك يشبه محاولة أن تكون سعيدا مجرد أن تكون سعيدا - وإن السعادة ناتج ثانوى . وكذلك الطفل الدمث الاخلاق (٧) . ولو كان الشيء الوحيد الذى يجب على الصغير أن ينظر اليه عندما يكبر هو أن يكون أباً أو أما عليه أو عليها أن يعتنى بصغير غر (مثله) ، فلماذا يهتم بأن يصبح رجلاً أو (امرأة) صالحاً ؟ هنا يجدر بالأبوين أن يتساءلا : « كيف نتصرف كأشخاص أمام صغارنا ؟ » بدلا من : « الى أى نوع من الآباء أنتمى أنا ؟ » أريده أن يكون سعيدا ، فهل هناك بهجة فى بيتنا ؟ وأريده أن يكون مبتكرا ، فهل أنفعل أنا ازاء الأشياء الجديدة ؟ وأريده أن يتعلم شيئا ، فكم كتابا قرأت أنا فى الشهر الماضى ؟ أو العام الماضى ؟ أو الأعوام الماضية ؟ وأريد أن يكون له أصدقاء ، فالى أى مدى أنا ودود ؟ وأريد أن يكون لديه مثل عليا ، فهل عندى أنا مثل عليا ؟ وهل هى مهمة بما فيه الكفاية حتى أعبى عنها فيما أفعل ؟ هل حدثته أبدا عن آرائى ومعتقداتى ؟ وأريده أن يكون كريما ، فهل أنا أشفق على أى فرد خارج أسرتى ؟ ان الناس يتعلقون ليس بما يريدونه ولكن بما هم عليه - والناس أيضا لا يربون الصغار الذين يريدونهم ، ولكن الصغار هم الذين يكررون ما عليه آباؤهم - ومع « انسحاب » الآباء يستطيع الصغار أن يبدأوا فى رؤية الطريق الذى يبعدهم عن الخضوع لموقف (أنا لست على ما يرام) . ان الصغير يبدأ فى اكتساب التجربة باحتكاكه مع العالم الخارجى والناس حيث يمارس الحياة وحيث يبدأ الراشد . فى اكتساب المزيد من القوة . وتولد التجربة مشاعر (أنا على ما يرام) التى تعمل على مواجهة الاحساس بأنه ليس على ما يرام ، وتمحو احساسه باليأس .

الطفل المتبنى :

ان فترة ما قبل المراهقة صعبة ، خاصة بالنسبة للصغار الذين يناضلون ضد الاحمال الزائدة . وهذا هو على سبيل المثال - الوقت الذى يبدأ فيه الصغير المتبنى فجأة فى التمرد المؤسف على أبويه ، رغم تأكيد أبويه له مرارا أنهم قد اختاروه ولم يفرض عليهم فرضا ، ولذا فهو يفضل الأبناء الآخرين . ومنذ وقت ليس بالقصير بدأت مؤسسات التبني تدعو الآباء المتبنين الى مصارحة الصغير مبكرا بحقيقة وضعه على قدر الاستطاعة ، قبل أن يصير « راشده » كفؤا للمعاملة - وكل ما يحصل عليه من ذلك

A. Watts, "A Redbook Dialogue", Redbook, Vol. 1, 127, No. 1 (V)
"May 1966".

هو الشعور بأنه مختلف ، اذ أن الصغير فى سن الثالثة أو الرابعة ليس بقادر على فهم معنى التبني . وكل ما يحتاجه هو احساسه بالانتماء لشخص ما ، لأبويه . ان العناصر الدقيقة للميلاد البيولوجى لا تعنى شيئا بالنسبة له فى هذه السن ، ولكن بعض الآباء البدلاء يحدتون صغارهم فى هذا الموضوع انطلاقا من حقيقة أنهم اختاروه من بين الآخرين مما يفرض على الصغير التزاما لا يستطيع أن يرده ، ونعنى بهذا أنه يتساءل : كيف يمكن أن أكون طيبا بما فيه الكفاية بالنسبة لكما مثلما كنتما بالنسبة لى عندما اخترتمانى ؟ » انه احساس بالخجل يرادو الصغير يشسبه ذلك الاحساس الذى نراه عندما يشعر انسان بالحاجة لأن يقول : « أشكرك لشخص آخر لمجرد أنه يعامله كبشر ، ومثل أن يتقدم عجوز بالشكر لشاب لأنه يرحب به (*) ويستطيع احساس الطفل المتبنى بالاختلاف ، أن يعلو بموقف « أنا لست على ما يرام » حتى يصبح صرخة مدوية وينقلب الى يأس مقمع بالاضطراب . أما موقفى بهذا الصدد فانه يتلخص فى أن مناقشة التبني يجب تأخيرها حتى اللحظة التى يصبح فيها لدى الصغير راشد « قوى بما فيه الكفاية » وربما يحدث ذلك فى سن السادسة أو السابعة .

وهنا قد يشور الأبوان ويؤكد ان الحاجة الى « الأمانة المطلقة مع الصغير » . وربما ينطبق هنا مبدأ مهم أكثر من الأمانة المجردة وهو الاهتمام الحقيقى بالصغير ، الذى من المحتمل ألا يستطيع تصنيف كل المعلومات المعقدة المتعلقة بهذه المعاملة . اننا نتقدم ونحمى الصغار من الأشياء الأخرى التى يكونون غير قادرين على فهمها بسبب صغر السن ، فلماذا لا نتقدم هنا ونحميهم من « حقيقة » لا يستطيعون فهمها ؟ ولكن قد يعترض الأبوان لأنه سيمسح الحقيقة من صغار الجيران ! حقيقة « انه سيفعل » أما كيف تسجل هذه المعلومات عند الشخص الصغير فان ذلك يعتمد الى حد كبير على « كيف يكون رد الفعل لدى أبويه ، اذا دخل صغير فى الرابعة وذكر أن الأولاد الآخرين يقولون أنه متبنى » ما معنى كلمة : متبنى - هذه ؟ « تستطيع الأم تحويل ذلك لشيء غير مهم نسبيا فتؤكد للصغير مثلا « أنت تنتمى الينا » وأعتقد بشرف أنه من الأفضل أن يقال للصغير : « نعم أنت جئت من بطن ماما » حتى ولو بشبهة الكذب ، أفضل من

(*) المؤلف يعبر هنا عن موقف كبار السن فى المجتمعات الأوربية حيث يعانون فى الغالب من اهمال الشباب واستخفافهم بهم ، وهذا الأمر للأسف بدا يظهر مؤخرا فى مجتمعاتنا الشرقية وان كانت روح الدين لدى بعض الشباب تخفف من وطأته لدى الشيوخ - المترجم .

الدخول في تفاصيل كثيرة عن النمو في بطن أم أخرى . وإذا جعلنا الشخص الصغير يشعر بأنه ينتمي حقيقة لأبويه الجديدين ، فسيكون لديه فيما بعد « راشد » قوى بما فيه الكفاية - ليعرف لماذا كذبا عليه : انهما بصرف النظر عن محبتهم له ، أرادا أن يجنباه عبء الحقيقة المربكة والمقلقة .

علينا أن نفحص الحقائق المجردة لدينا . هل الشرف التام هو الالتزام الأفضل دائما ؟ وعلى أية حال يبدو أنه كما يشير تروبلاد : « نحن دائما مهتمين بالتبسيط المخل عندما نشدد فقط على مبدأ واحد من عدة مبادئ وثيقة الصلة » (٨) .

وهو يرى في المثال التالي أن الاهتمام برفاهية شخص أو أشخاص أمر أهم وأثمن من التزام الشرف المحض :

إذا تدبرنا عواقب قول الصدق في كل موقف ، فما قولك في هذا الموقف : افترض أنك في بلد شموي ، وضع فيه رجل ذو مبادئ سامية وشجاعة في السجن . وحدث أن رأيت يهرب في شارع معين . وسرعان ما رأيت بعد ذلك أن حراس السجن يبحثون عنه ، وأنت متأكد منطقيا أنه إذا أعيد إلى السجن بعد القبض عليه ، فسوف يعذب . فإذا سئلت عما إذا كنت قد رأيت يجرى في الشارع فإن اجابتك المحتملة ستكون « نعم أو لا » إذن فما هو واجبك الأخلاقي في هذا الموقف الخاص ؟

انه موقف يجب أن تتخذ فيه قراراتنا بوضوح - عن طريق موازنة الصعوبات النسبية - وهذا هو ما يجب أن يعمل الأبوان عند مواجهة مشكلة ماذا يجب أن يقال للصغير المتبنى ؟ من الصعب أن تصارحه ، ومن الصعب ألا تقول له وهو سيعرف حتما ، ولكن الأبوان يستطيعان تعديل القول بطريقة تحمي من التورط في الاحساس بأنه ليس على ما يرام . عن طريق اختيار الوقت ، والوسيلة . والتفاصيل ، وقد يكون من السهل بالنسبة للصغير عندما يكون قد طور « راشده » أن يقبل القول : « لقد كذبنا لأننا أحببناك » . أفضل من الاعلان في سن مبكر أنه يختلف عن أي شخص آخر من حيث عمق النظرة والأهمية . ليس في الاستطاعة تحديد ما يقال ، ولكن من المستطاع مساعدة الأبوين في التعرف على احساس الصغير بأنه ليس على ما يرام ، والتأثيرات المختلفة لنموذج (الوالد - الراشد - الطفل) الخاص بهما . وبهذه المعرفة يستطيع

Elton Trueblood, "General Philosophy," (New York : Harper (٨) and Row, 1963).

الأبوان الاستمرار في « عزفها سماعيا » في السياق التالي ، مرة أخرى .
كما حددها تروبولاد في نفس الكتاب قائلا :

ان الأفضل هو أى موقف واقعي يتمشى مع « الأقل ضررا » . وهنا
ضرر معين في كل الأكاذيب ، لأنها تنحو نحو كسر قاعدة الثقة ، وهناك
ضرر في إعادة مظلوم الى السجن . وعلى الرجل الصالح أن يزن هذه المعاني
كأفضل ما يستطيع ، وواجبه هو الالتزام بالأقل ضررا . لأن الاختيار
الوحيد أسوأ . وحتى في مثل هذا الموقف فإننا نرغب في تفادي الاختيار
القاسي ، ولكننا لا نستطيع ، لأننا سنواجه بما أسماه وليم جيمس :
اختيارا إجباريا . والفشل في اتخاذ قرار هو قرار في حد ذاته . ربما كان
قرارا يتجه نحو أسوأ الاختيارات المتاحة ، ومن الواضح أن الرجل الذي
يرفض اتخاذ القرار لا يتحرر من المسؤولية بل أنه يستحق اللوم . اننا
مسئولون عن الضرر الذي نسهج بحدوثه كمسؤوليتنا عن الشر الذي
نرتكبه .

ولذلك علينا أن نتلمس طريقنا على أساس ما نعرفه . ان معرفة
موقف الصغير تمثل بناء من المعرفة يساعد الأبوين في اتخاذ تلك القرارات
التي ستفيض حنانا وتهديء من احساسه بأنه ليس على ما يرام وتؤكد على
حقيقة (أنت تنتمي إلينا) ومثل هذا الفهم سيساعد أيضا الأبوين
القائمين بالتبني على أن يكونا حساسين بالنسبة لصغيرهما الذي يشعر
بأنه ليس على ما يرام . والعديد من الذين لا يستطيعون الانجاب يشعرون
بموقف لست على ما يرام لدرجة أنهم يطلبون في الحاح أن يتبنوا صغيرا
ويؤكدون أن هذا الصغير لن يجلب العار للأسرة . . . الخ .

ان عبء الاحساس بأن المرء ليس على ما يرام أشد وطأة بالنسبة
للصغير المتبني . ولكن ، كما هو الحال مع كل صغير ، علينا أن نبدأ
من حيث نقف . اننا لا نستطيع العودة الى الوراء وإعادة بناء الظروف
لتشكيل حالة لم تكن موجودة . وتكمن فائدة نموذج (الوالد - الراشد -
الطفل) في بث النظام في فوضى المشاعر اذ أنه يفصل ما بين « الوالد » ،
« والراشد » ، « والطفل » . وبذلك يجعل الاختيار ممكنا . وقد أتيت
لى الفرصة من خلال عملي لسنوات طويلة كمستشار « لشعبة الطفل »
بهيئة ولاية ساكرامنتو للخدمة الاجتماعية للعمل مع عدد كبير من الصغار
المتبنين وأبائهم البدلاء . ووجدت أننا لو استطعنا أن نطور لدى كل من
الأبوين والصغار ، حساسية نحو تأثيرات « الوالد » ، « الطفل » في
كل منهم . لاستطعنا أن نبدأ في استنباط أفضل الطرق لمساعدة هؤلاء
الصغار للتغلب على تسجيلات الاحساس بأنهم ليسوا على ما يرام .

القوية والهدامة والتي تكونت خلال شهورهم وسنواتهم المبكرة التي قد تؤدي الى اصابتهم بالصدمات النفسية .

أما صغار المطلقين فهم ضحايا عاصفة أخرى : عاصفة الخوف ، والاحباط ، والانفعال التي فرقت الأسرة . وفي أفضل الحالات نجد ان الطلاق هو موقف (أنا لست على ما يرام) الذي يصيب « الطفل » الذي يشعر بأنه (ليس على ما يرام) الكامن في سائر الأطراف المعنية . وعادة ما يفتقر هؤلاء الأطراف الى « راشد » قوى . وهذه هي المشكلة الأساسية . ان الأم والأب محاصرين كلية بالمؤثرات الضارة في معاملات متقاطعة بحيث يترك الصغار في حيرة خلال معاملاتهم الخاصة . وبالرغم من أن الأبوين قد يكونا مهتمين بمعالجة الأمر ، الا أنهما غالبا لا يستطيعان تقديم المساعدة الكافية لتمكين الصغار من الحياة في خضم الأسر الممزقة دون التعرض للمخاوف والاهانات التي تسبب موقف (أنا لست على ما يرام) بشدة . وفي هذه الحالة ، كما يحدث في كل الحالات التي يعيش فيها الصغار خلال فترات الضغط الشديد ، توجد امكانية تخليص أنفسهم من قبضة الماضي اذا ساعدناهم على معرفة أن لديهم « راشد » يستطيع مساعدتهم للعثور على حقيقتهم وطريقهم خارج غابة المشاعر التي يعيشون فيها .

الطفل وسوء المعاملة : -

حينما يتعرض الصغير لمعاملة سيئة فاننا قد نصنع منه عدوا للبشر . وهذا هو الصغير الذي يتكرر ضربه بطريقة وحشية تؤدي الى تمزيق جلده ، وتكسير عظامه . ما الذي سجل في « الطفل » ؟ وما الذي سجل في « الوالد » لدى هذا الصغير وهو يتعرض للضرب ؟

لقد سجلت في « الطفل » مشاعر الفزع والخوف والكرهية المفجعة ، والصغير يناضل ويتخبط في هذا الكابوس الذي يثور داخله (ضع نفسك في مكانه) . لو كنت كبيرا مثلك كنت قتلتك ! وهنا يحدث التحول الى الموقف المعقد (أنا على ما يرام . وأنت لست على ما يرام) أي أن « الوالد » يسجل رخصة تخول له ارتكاب القسوة ، ان لم يكن الاذن بالقتل ، بل وأدق تفاصيل أسلوب ارتكاب الجريمة .

وخلال مسار الحياة فيما بعد ، قد يفسح هذا الشخص الطريق لهذه التسجيلات القديمة تحت الضغط الشديد ، ان عنده الرغبة في القتل « الطفل » ، والاذن بالقتل « الوالد » . وهكذا يقدم على القتل !

لقد سنت العديد من الولايات الأمريكية قوانين لحماية الصغار ، تفرض على الأطباء الذين يتشككون في حدوث معاملة وحشية تكون قد أدت الى حدوث الاصابات التي يعالجونها ، أن يبلغوا شكوهم تلك الى السلطات . والسؤال هو : « ماذا يحدث بعد ذلك ؟ » أقول أن فرصة العلاج ستكون ضئيلة اذا لم يتلق الصغير ، في فترة ما قبل المراهقة ، علاجاً مكثفاً حتى يستطيع أن يفهم مصدر مشاعره . الميلالة للعنف ، ويفهم بعد ذلك أنه بالرغم من ماضيه ، الا أن أمامه أن يختار مستقبله . أما المجتمع الذي يقدم للصغير المحطم أقل من هذا ، فإنه يلعب بالنار .

ويوجد بالطبع درجات من سوء المعاملة ، واعتقد أن العنف الجسدي واستخدامه مع الصغار ينتج مشاعر تدعوهم لاستخدامه . والأمر المسجل هو : « عندما تفشل كل الوسائل ، اضرب ! ان حكم الاستئناف النهائي هو العنف ، وأنا لا أرى ضرورة لعقاب الأطفال بالضرب الخفيف الا مع استثناء واحد : عندما يكون الطفل أصغر من أن يفهم الخطر ، عندئذ يصبح الضرب هو الأسلوب الوحيد لمنعه من النزول الى الشارع . وهو فعال جداً في مثل هذا الموقف اذا لم يستخدم يومياً بالنسبة للانتهاكات غير الخطيرة مثل سكب اللبن ، أو ضرب الأخت . اننا لا نستطيع أن نعلم الصغار نبذ العنف بالعنف . وعلى أية حال فإن الآباء بشر وليسوا ملائكة ولذا فقد يندفع الوالدان في عقاب الصغار . ولكن مشاعر الأب والصغير يمكن تحليلها من خلال نموذج (الوالد والراشد والطفل) وبذلك يمكن أن يخرج الأبوان بشيء بناء من الواقعة : كيف نمنعها من الحدوث ثانية على سبيل المثال . ومن المهم للأبوين أن ينظروا الى العقوبة البدنية على أنها نابعة من « الطفل » الكامن فيهما ، وليست صفة ايجابية تدرج تحت عنوان : التأديب والتهذيب . ويقول برونو بتلهاييم عن ذلك :

« دعنا نتوقف لحظة » ونتمعن في كلمة - تأديب - وهي مرادفة لكلمة : نظام discipline - اذا عدت الى قاموس Webster ، ستجد أن هذه الكلمة مشتقة من كلمة : تلميذ disciple ، والتلميذ ليس شخصاً تضربه على رأسه . انه شخص يتلمذ نفسه على أستاذ ويتعلم عنه صنعته ليعمل في نفس المهنة . وهذا هو مفهوم النظام . ولذلك فانك اذا أوضحت لصغارك : عندما تغضب - اضرب - وهذه طريقة جديدة للحصول على الأشياء - فانهم يسجلون ذلك . ثم نشكو من العنف المنتشر في مدننا » . (٩) .

B. Bettelheim, "Hypocrisy Breeds the Hippie: ?" Ladies Home (٩)
Journal March 1968.

تدريس نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) للمعوقين :

عندما نعرف أن جميع الصغار يناضلون تحت وطأة الاحساس بأن المرء ليس على ما يرام ، فاننا نبدأ في تقدير قسوة الحمل الذي يحمله الصغير المعوق ، انه لا يشعر فقط بأنه ليس على ما يرام ، ولكنه في الحقيقة أقل مواءمة من ناحية الموهبة الذهنية بالنسبة للصغار الآخرين ، ويصحب تخلفه الذهني في الغالب نقائص بدنية أخرى وعاهات ظاهرة ، تستدعي من الآخرين استجابات تكشف عن ضعف تقديره لنفسه ، أما بالنسبة للمنافسة مع الصغار الآخرين ، فان موقفه يتأكد دائما ، ويضاعف من مشاكله تصارع المشاعر الشائرة في داخله ، انه في الحقيقة ، يجد صعوبة في استخدام حاسبه لأنه يتأثر الى حد بعيد بالتأثير الهدام المستمر لموقف (أنا لست على ما يرام) .

أما عجزه عن تثبيت نفسه في مجتمع يخضع للمقارنة والمنافسة ، فانها تخلق أحيانا متاعب تتطلب رعاية في معهد خاص تخفت فيه حدة هذه المنافسة ، الا أن اضطرابه الانفعالي يظل يعذبه هو والذين حوله . وتعتبر فاعلية العلاج بالتحليل النفسى مع المعوق موضوعا مثيرا للجدل الكثير ، ولا يوجد في مادة الطب النفسى الا القليل عن علاج المعوقين . أما أسلوب العلاج الجماعي فلم تجر عليه حتى الآن سوى القليل من التجارب ، وتتضمن الأساليب التقليدية المستخدمة في معظم المعاهد التي يقيم فيها المعوقون ، أسلوب الحضانة الأبوى ، وتنظيم الوقت ، وتجنب المنافسة الزائدة عن الحد ، وفرصة للنجاح النسبي في الأعمال التي يقدر المعوق على أدائها . وهذه النوعية من الأساليب أثبتت نجاحا معقولا في تقديم حياة آمنة ، وأحيانا سعيدة بالنسبة للمعوقين ، وعلى أية حال فقد جرى تنسيق هذه الأساليب في الغالب انطلاقا من معاملات (الوالد - الطفل) التي لها تأثير في معاونة الصغير على تنمية التحكم الداخلى بتقوية « راشده » رغم أن هذا التأثير محدود ، وكانت المشكلة الدائمة بالنسبة للمشرفين على السكن تتمثل في التعامل مع المواقف الانفعالية وهي مهمة تستنفد الكثير من الوقت .

لقد جرى تنفيذ برنامج جديد لتعليم نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) للمعوقين في ساكرامنتو وذلك خلال شهر يناير ١٩٦٦ على يد د. ديس ماركس - وهو عضو مجلس ادارة معهد تحليل المعاملات - كما أنه أخصائي ومدير مستشفى لوريل هيلز ، الذي أقيم فيه مؤخرا مركز يشمل مائة سرير للمعوقين - أحس ماركس بأن نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) كان نظاما من السهل فهمه لدرجة أنه يمكن تدريسه

للمقيمين في المراكز الذي أنشأه . وتتراوح الأعمار ما بين ستة شهور - إلى سبعة وأربعين عاما . وهي تمثل المحور العمري الكامل للاعاقه .

وتتراوح درجة ذكاء هؤلاء الذين يحضرون مجموعات (الوالد - الراشد - الطفل) ما بين ٣٠ - ٧٠ . وثلاث هؤلاء من المصابين بمعوقات بدنية جسيمة . بينما أصيب الكثيرون منهم باضطرابات عصبية . وقد وضع ثلثهم في أماكن منفصلة . أما الثلثان الآخران فقد كانا تحت اشراف جمعيات عامة مثل : هيئات الرعاية الاجتماعية . وأحيانا هيئة مراقبة المحكوم عليهم . وهم يحضرون من الدور الخاصة ، والملاجئ ، وأحيانا المستشفيات الحكومية ، أو اصلاحيات الأحداث . أما بخصوص العمر الزمني . فان معظمهم من المراهقين . وصغار البالغين .

ان وجود الصغار المعوقين الذين لا حول لهم . يجعل من الضروري استبعاد الصغار الذين لا يستطيعون التحكم في سلوكهم العدواني . وكذلك فان الطبيعة المفتوحة للعلاج (لا أبواب مغلقة) تستدعي استبعاد الصغار ذوي المشاعر المدمرة أو شديدة العدواة للمجتمع ، أو هؤلاء الذين يعتمزون الهروب . وعلى أية حال فان التخطيط يتيح حرية ملحوظة . ويمكننا من التعامل مع الصغار المفرطى النشاط والمشاغبين . ولذلك فان أكثر المشاكل الحاحا تتمثل في مشكلتين هما تهدة الصغير الثائر الميال للقتال ، وكيفية منع الصغير من الهروب . ويقرر ماركس أنه قد حدث نجاح ملحوظ في هذين الموقفين بالذات - من خلال استخدام تحليل المعاملات .

وتتقابل مجموعة الصغار الثلاثين (نستخدم هنا اصطلاح الصغار للإشارة الى مدى العمر الكلى نظرا لعدم وجود اصطلاح أفضل) ، مرة كل أسبوع في حجرة معيشة واسعة في الوسط . ويجلسون في دائرة واسعة بحيث يظهر ماركس والسيورة لكل فرد من المجموعة . مع العلم بأننا (نحن هنا لتعلم نموذج : الوالد - الراشد - الطفل) - الذي سيساعدنا على فهم كيف يعمل الناس لكي نستطيع مقايضة احساسنا بالتهاسة والغضب ، بوقت عامر بالسعادة والنشاط . وتتعرف المجموعة أولا الى مبادئ نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) : تتميز هذه العناصر الثلاثة للشخصية ، المثلة في الدوائر الثلاثة (الوالد - الراشد - الطفل) . ويساعد ماركس الصغار على تمييز : « أى العناصر هو الذى يتحدث » . عندما يقول أحد الأعضاء عبارة . وعلى سبيل المثال فانه يسأل المجموعة : « الآن . . من الذى يتحدث ؟ » (هل هو « والد » جون أم « راشده » أم « طفله » ؟) وبهذه الطريقة يتعلمون أيضا تحديد الكلمات . « اذا نظرت الى قطعة من الفاكهة الفاسدة - فتقول : « انها رديئة » والمتحدث.

هنا هو « الراشد » . وإذا نظرت الى صورة يرسمها شخص ولم تعجبك الصورة - فتقول : « انها رديئة » والمتحدث هنا هو « الوالد » . ان الموقف حرج وأنت تطلق حكما . وإذا جئت عدوا الى حجرة اللعب وعينك مغرورقتان بالدموع وأنت تصيح : « اننى أرى كل الناس أشرارا » فالتحدث هنا هو « الطفل » . وبهذه الطريقة يتعلم الصغار سريعا تحديد الكلمات والأفعال . انهم يجدونها مجزية وتجربة تساعدهم على معرفة أن لديهم « راشد » أو حاسب .

ان كلمة « حاسب » كلمة أخرى يرتاح اليها الصغار . وعندما يفهمون أن « راشدهم » شئ شبيه بالحاسب الالىكترونى يصبح من اليسر الحديث عن التخلف العقلى بصورة قد لا تتاح لنا فى ظل معظم التقاليد الاجتماعية . وهذه هى الطريقة التى يقدم بها ماركس هذا الموضوع الى المجموعة .

بعض الناس لديه حاسب يساوى مليوناً من الدولارات ، والبعض الآخر يساوى حاسبه عشرة آلاف دولار - ولكننا لن نقلق لهذا الأمر - وكل ما علينا هو أن نكتشف أفضل طريقة لاستخدام الحاسب الذى لدينا . ورغم كل ذلك لن نحتاج الى حاسب يساوى مليون دولار لكى تعامل الناس بلطف ، أو تؤدى عملا طيبا .

ويفسر البرنامج كله العبارة الكثيرة التكرار « أنا على ما يرام وأنت على ما يرام » والصغار يكررونها فى تآلف عند بداية ونهاية كل فترة . وتصبح فى حياتهم اليومية مفتاحا يخلق المشاعر السلبية ويفتح « راشدهم » . انهم يتلقون المساعدة ليفهموا أن المقارنة هى من شأن « الطفل » الكامن . فيهم - ويشرح ماركس ذلك قائلا : -

يريد « الطفل » أن يقول « ما لدى أفضل » و « لدى حاسب أفضل مما لديك » . وهذه هى إحدى الوسائل التى يشعر الصغير بالتحسن من خلالها . ان « الطفل » دائم القلق حول من هو الأكثر وسامة . ولكن « الراشد » يستطيع رؤية أنه : اذا كانت الوسامة هى أهم شئ فى الحياة « فحينئذ سيكون هناك عدد محدود من الناس السعداء فى العالم » أى أن أحسن رسام « أو أحسن عالم فى الرياضيات « أو أحسن موسيقار « أما الباقون فيسيكونون غير سعداء لأنهم ليسوا فى نفس مستوى الوسامة . وتلتقط المجموعة هذا المفهوم وتقدره .

أما بخصوص مشكلة التحكم فى السلوك العدوانى « فان ماركس يقرر أن الصغير الشديد الازعاج والميال للقتال ، يمكن تهدئته فى خلال

دقيقتين أو ثلاثة . ويوضح أن العمل التحضيرى قد أجرى على هذه المجموعة ، وفسرت أساليب التحكم على أنها تنتمى الى ثلاثة أنواع : « الوالد » - « الراشد » - « الطفل » . ويبدأ بأن يستثير أحد الصغار ويتظاهر بأنه سيضربه ويقول : « ثم أجذب ذراعه وأمسك به » ثم يسأل المجموعة : « كيف أتحكم فى جو ؟ » ويوافقون على أن هذا تحكم من « الراشد » لأنه يوقفه عن الضرب . ثم يتظاهر ماركس بأنه يضرب الولد ، وسرعان ما يعرفون ذلك بأنه تحكم من « الطفل » . ثم يتظاهر ماركس بأنه سيحمله على ركبتيه ويضربه على مؤخرته ، وسرعان ما يفسر ذلك بأنه تحكم من « الوالد » . أما طريقة استخدام هذا المفهوم فى التحكم فى المشاعر فقد سردها ماركس كما يلى : -

دخلت فى أحد الأيام حجرة كان بها ثلاثة أشخاص يمسون صغيرا كان فى حالة هياج شديد . ويتنفض من الغضب ، ويناضل لكى يضرب كل واحد من حوله . كان ولدا فى درجة ذكاء تساوى خمسين . وكان جذابا ومبهجا بوجه عام ، فسرت اليه وأحطته بذراعى بشدة لوقفه . كان يرتضى ويصرخ : « دعنى وحدى ، دعنى وحدى . . . » وبعد حوالى عشرين ثانية قلت : « الآن ياتوم . كيف أتحكم فيك ؟ هل هذا التحكم من « الوالد » . أم « الراشد » ، أم « الطفل » ؟ فصاح : « من الوالد » .

فقلت : « غير حقيقى ياتوم . اننى لست أعاقبك والعقاب تحكم من « الوالد » - ولست أشاجر معك ، فماذا يكون ذلك ؟ » فاجاب توم : « برأشدك » . فقلت : « موافق » . هذا صحيح ياتوم . والآن سنوضح لهؤلاء الناس كيف نهمل ذلك . عليك أن تأخذ يدى الآن وسنقول ما نقوله دائما . فتناول يدى وغمغم قائلا : « أنا على ما يرام ، وأنت على ما يرام » ودخلنا معا الى غرفة التلفزيون حيث اقترحت عليه أن ينضم الى الصغار الذين كانوا هناك يشاهدون أحد البرامج .

وقد استغرق الموقف كله منذ الالتقاء المرتعش ، المشحون بالأدراكين ، والمفعم بالغضب - حتى الدخول معا الى غرفة التلفزيون - ثلاث دقائق بالتمام . وتمثل المفتاح فى اخلاق « الطفل » وتشغيل « الراشد » . وتم ذلك باستخدام السؤال البسيط : « كيف أتحكم فيك ؟ » ولم تكن هناك طريقة للتعامل مع هذه الكتلة الغاضبة المتأججة بالانفعالات والتي تسمى « الطفل » . ومن المؤكد أنه لم تكن توجد فى هذه اللحظة طريقة للتوصل الى معرفة ما يضايقه . وكان هدفى فى تلك اللحظة هو ببساطة تعديل سلوكه ، وتجاوز الموقف اذ لم يكن من الممكن قول او سماع شىء معقول عندما كان هذا الصغير واقعا تحت سيطرة « طفله » .

وكان من الممكن للأسلوب التقليدي في معالجة هذا الموقف أن يستغرق وقتاً أطول ، فضلاً عن شعوره بأنه « ولد سيء » نظراً لاحتساس « الطفل » بأنه ليس على ما يرام فضلاً عن شعوره في تلك اللحظة بأنه أسوأ من المعتاد ، وكما رأينا فقد بث المعالج شيئاً من الاحتساس بالمشاعر الايجابية والثقة في شكل « الراشد » ، والقدرة على التحكم في الذات والعودة الى ممارسة النشاط الجماعي .

ويستجيب الصغار بسهولة لأسلوب تشغيل « الراشد » وإغلاق مفتاح « الطفل » الخائف أو « الوالد » المدعى (كما يحدث لجهاز التلفزيون) .

ويقدم ماركس مثالا آخر يتعلق بمعالجة موقف الهروب . انها فتاة خجولة في سن الثامنة عشرة ، درجة ذكائها ثمانية وستون . تتحدث بصوت رقيق ، وهي في العادة لا تقول الكثير . وفي أحد الأيام تمشى ماركس بجوار حجرتها ووجد أنها قد حزمت كل متاعها استعداداً للرحيل . ولما رآته ، قالت من خلال الدموع التي انسابت على وجهها : « لا أحتاج الى هذا المكان أكثر من ذلك . انني راحلة ! » .

ان التدخل العادي قد ينكر عليها مشاعرها بعبارة مثل : « بالطبع أنت لست راحلة » اذهبى الآن الى الغداء مع الصغار الآخرين ، لن نذهبى الى أى مكان . وبالإضافة الى ذلك ، أين وسيلة المواصلات التي ستنتقلين بها ؟ » .

ومثل هذا القول قد يجعل « طفلها » أكثر تصميمًا ، وأكثر عنادًا ، وأكثر غضبًا . انه لا توجد وسيلة « للمجادلة العقلية مع « الطفل » المنفصل عندما يكون هو المتحكم » وبدلاً من ذلك جلس ماركس على سرير البنت ، وقال :

« هل أنت متأكدة » ياكارولين أنك لا تشعرين بالرضا اليوم ؟ لابد أن شخصاً ما قد أوقع « طفلك » في الفخ » .

فأجابت بسرعة « نعم » .

فقال ماركس : « حسنا ، ماذا حدث ؟ »

فقالت كارولين : « لن يسمحوا لى بشراء أحد كتب الجيب » .

فقال ماركس : « أنت تعلمين أنني أحب « طفلك » (الشقي) ، ولكننى الآن أريد أن أتحدث الى « راشدك » . ولذلك سأقول لك ماذا . . . اقبضى على يدي ، وسنقول : « أنا على ما يرام . وأنت على ما يرام » ومهما كان ما عمله ، فانه كان هو المفتاح الذى تشكل خلال أسابيع الدراسات

منذ بداية العام • ثم أصبح ماركس قادرا على الحديث الى « راشدها » • واستطاع « راشدها » معرفة انه لا يوجد أحد هناك يستطيع أن يخرج في ذلك اليوم ليشتري لها كتاب الجيب الذي أرادته ، وربما أمكن غدا أو بعد غد • وكان ذلك الأمر بسيطا حيث عاد « راشدها » للسيطرة ، التي كانت مستحيلة عندما كان « طفلها » هو المسيطر • ووضعت حقائبها وذهبت للغداء • واستغرقت العملية كلها أربع دقائق • وعلق ماركس قائلا : -

« لقد حققنا ما أردناه في هاتين الحالتين كليهما » • لقد أخضعنا الموقف الانفعالي • وأثرينا علاقتنا • وأخاطر بالقول بأنه لو توفر لهؤلاء الصغار قدر كاف من العلاقات • فإنهم في خلال بضعة شهور ، وربما عام يستطيعون أن يتعلموا بقدر كاف - التحكم في الذات • وتصنيف المعلومات ، ليتمكنوا من الاحساس والتصرف الحسن •

وقد نقول في اختصار أن حل مشاكل جميع الصغار • بصرف النظر عن موقفهم • هو نفس الحل الذي يطبق على مشاكل الكبار • علينا أن نبدأ انطلاقا من حقيقة أننا لا نستطيع تغيير الماضي • وعلينا أن نبدأ من حيث نقف • اننا نستطيع فقط أن نفصل الماضي عن الحاضر • باستخدام « الراشد » الذي يستطيع أن يتعلم تحديد تسجيلات « الطفل » مع مخاوفه القديمة ، وتسجيلات « الوالد » مع الاعادة المقلقة للحقيقة الماضي • وسيجد الابوان اللذان تعلمنا أن يفعل ذلك من خلال فهمهما وتطبيقهما لنموذج (الوالد - الراشد - الطفل) أنهما قادران على مساعدة صغارهما على التفرقة ما بين الحياة كما رأوها أو تعلموها (والد) • وبين الحياة كما أحسوا بها (الطفل) ، والحياة كما هي في الحقيقة • والحياة كما يمكن أن تكون (راشد) • وسيكتشفون أن نفس هذا الاجراء سيكون له أعظم أهمية خلال فترة التغيير القادمة وهي سنوات المراهقة • التي سنفحصها في الفصل القادم •

الفصل العاشر

نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) والمراهقون

« أنا أردت أن نتحدث معي فعليك أن تحدد معاني مصطلحاتك -

فولتير »

في أحد الأيام ذكر أحد أفراد مجموعاتي من المراهقين وكان عمره ستة عشر عاماً - الواقعة التالية : « كنت أقف في ركن من الطريق ، وكانت الإشارة حمراء » فقال « والدي » : لا تعبر - بينما قال « طفلي » : امض في أي اتجاه ، وبينما كنت أناقش ما يجب أن أفعله ، تغيرت الإشارة إلى اللون الأخضر » .

إن سنوات المراهقة تمضي على هذا المنوال . ويواجه المراهقون قرارات ضخمة وصغيرة في آن واحد ، ولكنهم في الغالب « ينتظرون الظروف التي تتيح لهم اتخاذ القرارات ، لأنهم في الحقيقة ليسوا أحراراً في اتخاذ قراراتهم بأنفسهم » . إن عقولهم تقترب من النضج ، وأجسادهم ناضجة . بينما هم غير مستقلين قانونياً واقتصادياً . وغالباً ما تنقطع محاولاتهم للتحرر في العمل لدى معرفة أنهم لا يستطيعون بأية حال اتخاذ قراراتهم بأنفسهم . إذن فما فائدة اتخاذ قرارات صائبة ؟ أنهم يشعرون كما لو كان تيار الحياة يجرفهم خلال سنوات المراهقة . وينتظرون أن تتحول الإشارة إلى الضوء الأخضر . بالطبع فإن « الراشد » لا ينمو تحت هذه

الظروف - وتأتى الصدمة عندما يتحررون قانونيا فيجدون أنهم لا يعرفون ماذا يفعلون . ويقضى العديد منهم الوقت على أمل حدوث شيء ، أو حضور شخص ، أو يغيرهم شخص ما بطريقة ما .

وعندما هذا الحد يكون قد انقضى ربع عمرهم . وتراجع معاملات المراهقين فى الغالب الى الأنماط القديمة التى تمثل (طفل - والد) بسبب الضغوط الخارجية والداخلية . وخلال فترة المراهقة يعاد تشغيل الشريط الخاص بمشاعر (الطفل) وبينما يزداد افراز الهرمونات . وينفصل المراهق عن أبويه بصفتها المصدر الرئيسى للحنان ، وينضم الى أقرانه التماسا لحنان من نوع آخر . تدور شرائط (أنا لست على مايرام) بايقاع متزايد ، ولكن أساليب الموازنة التى تعلمها فى الطفولة للتقليل من سيطرة موقف (أنا لست على مايرام) يمكن الآن أن تكون خطيرة . فأسلوب التدلل الذى تصطنعه الفتاة الصغيرة يجب أن يوضع تحت السيطرة لحراستها من التطورات الجديدة الخارجية والداخلية ، أما العناد المائل فى لعبة « ما لدى أفضل » عند الولد الصغير ، فيجب أن يتطور الى قواعد السلوك والأدب وهو يخوض التجربة المؤلمة التى يتعلم فيها كيف يضبط نفسه ويكبح جماح ذاته . كذلك يجب إعادة تعليم وتعديل مفهوم الاتصال . ان المراهق يندفع الى المسرح وفى يده نص جديد ، لم يقرأه ، ولذلك فان السطور غير واضحة فى البداية ، مما يجعله مثل طائفة تنطلق بأقصى سرعتها بين طبقات السحاب المتراكمة . وتحت الطائفة توجد سحب الرغبات الجنسية الفوارة ، والنضال الثانى من أجل الاستقلال الذاتى . وهى سحب آخذة فى الارتفاع ، بينما تحوم وتهبط فوق الطائفة سحب القلق والرفض الصادرة عن « الوالد » . انه يشعر بالأشياء تطبق عليه ويبحث عن مخرج .

وتبدو الصعوبة الرئيسية فى أنه هو وأبواه فى الغالب ، يظنون يعملون حسب شروط عقد معاملة (والد - طفل) . وبينما يرى نفسه ناضجا ، فانه لا يزال يشعر شعور الطفل . وربما يقترح الأبوان ما يعتقدان أنه مسار منطقي تماما للعمل ، ولكن رفضه لوصايتهم قد يثيرهما ويشعرهما بالاضطراب والاحباط مما يثير « طفلها » . وتنتج المشكلة فى كثير من الأحيان من أن المراهق يخلط بين أبويه الخارجيين و « الوالد » الكامن فيه . انه لايقدر أن يسمع الأب والأم أثناء سنوات المراهقة لأن الشرائط القديمة تعيد رواية الأب والأم المسجلة فى سن الثالثة ، بما تتضمنه من الصفعات ، والنظرات المرعبة ، وكلمات « لا » التى ترتفع كالرعد خلال تلك السنوات المبكرة . ويصدم الحافز الخارجى « الوالد »

و « الراشد » و « الطفل » في المراهق في آن واحد . والسؤال هو : أى من هذه العناصر الثلاثة سيقوم بالمعاملة ؟ كان « الطفل » هو الذى يستثار دائما خلال الطفولة . رغم أن « الراشد » كان يتولى العديد من المعاملات ، ويختلف كم هذه المعاملات باختلاف الشخصية . ان من السهل استشارة « الطفل » الكامن في المراهق خلال هذه الفترة من الحياة المشحونة بالمشاعر . وبينما كان من الممكن سرعة تبرير تصرفات الصغير باعتبارها حماقات طفولية ، الا أن نفس هذه التصرفات تأخذ مظهرا مروعا في عيون الأبوين ، فإغلاق الباب بشدة من قبل صغير في الخامسة ، يتحول الى وقاحة مفزعة في عيون أبويه حينما يصدر منه وهو في الخامسة عشرة من عمره . وطوله يناهز طول أبيه ، أما مص الاصبع الذى قد يتجاوزان عنه مع ابنتهما الصغيرة ، يصبح عادة قبيحة بشعة حينما يصدر من ابنتهما المراهقة ، أما الخيال الخصب والبراعة فى نسج القصص فيتحول فى سن المراهقة الى وضمة « الكذب » . ولا تتغير التسجيلات القديمة ، فالكثير من الأساليب التى كان « الطفل » يلجأ إليها للتعامل مع المواقف أثناء الطفولة ، تستمر فى سنوات المراهقة . ويروى برتراند راسل :

لقد حرمت على ممارسة الكثير من الأشياء . الا أننى اكتسبت عادة الخداع ، تلك التى داومت عليها حتى سن الحادية والعشرين . وبت اعتقد أنه من الأفضل الا افشى لأحد بما أقوم به من أعمال مهما كانت ، حتى بات هذا الاعتقاد عادة لصيقة . ولم أتغلب مطلقا على دافع اخفاء ما أقوم بقراءته عند دخول أحد الى الغرفة . ولم أستطع التغلب على هذا الدافع الا بقوة الإرادة (١) .

وقوة الإرادة هنا هي « الراشد » . ان « الراشد » يستطيع تحديد التسجيلات القديمة ، كما يستطيع أيضا معرفة أخطاء ونقائص إعادة الاستماع إليها فى فترة المراهقة . اذن فالحاجة الرئيسية هي ضرورة أن يكون « الراشد » مسيطرا على هذا الجسم الذى يخصه لكى يستطيع حقائق الوقت الحاضر أن تكتسب الأسبقية بالنسبة لحقائق الماضى . ان الشيء الذى يشكل المحور الأساسى فى العلاج هو تحرير « الراشد » فى كل من المراهق وأبويه لكى يمكن عمل عقد (راشد - راشد) . وبدون الراشد المتحرر تصبح الحياة عقدة مزدوجة غير محتملة

B. Russell ; The Autobiography of Bertrand Russell", (Boston : (١) Little Brown, 1967).

للطرفين كنيهما = ان مشكلة المراهق تنحصر فى وجود « والد » مشاغب فى داخله ، بينما هو مجبر على الحياة فى داخل البيئة التى يتطور فيها هذا « الوالد » ، حيث أن هذا « الوالد » الذى فى الداخل ، يلقي التدعيم من الأبوين . وبينما يصبح الأبوان مهددين وخائفين ، فانهما يجدان نفسيهما يدوران أكثر وأكثر حول « والدهما » طلبا للحلول عن طريق الأجداد . تلك التى يمكن أن تكون غير كافية مثل محاولة تشغيل الطائرة النفاثة بالتبن بدلا من البنزين . ويصل التهديد فى كل من الأبوين الى درجة عزل « الراشد » فى كليهما . ويتصرف المراهق حسب مشاعر « الطفل » . أما الأبوان المتخوفان من ترك مشاعرهما للعمل ، فانهما يحولان المعاملة الى « الوالد » (الجدة والجد) . ولا يستطيع الابن مشاركة أبويه فى الواقع دون عقد (راشد - راشد) ، ومن ثم يتوقف الاتصال بدونه . لقد أعجبت كثيرا بالاحتفال اليهودى المسمى بارميتسفا Barmitzva ، وهو طقس رمزى وعمومى لعقد جديد ، أو اعلان عن توقعات الأبوين من ابنهما ، وأنه عند نهاية العام الثالث عشر من عمر الصغير اليهودى يصبح رجلا يتحمل المسئولية والواجبات الدينية وهو لايقوم بذلك دون استعداد . ويعتبر هذا الاحتفال تحقيقا لهدف تم اعداده منذ فترة طويلة ، وهو اعداد الصغير لقبول تحمل المسئولية بالتدريب والنظام الصارم حسب القانون اليهودى . واعتقد أن مثل هذا الاحتفال يؤثر تأثيرا ايجابيا على شخصية المراهق . اننى أعرف أسرة غير يهودية عقدت احتفالا مشابها ، بمنزلها - فى عيد الميلاد الرابع عشر لابنها ، حيث قيل له انه صار الآن مسئولا عن كافة قراراته الأخلاقية . وقد تقبل هذه المسئولية بجدية : وبالرغم من أنه أبدى بعض الاهتمام حول النتائج ، الا أن هذا يعتبر فى صالحه لأن هذا الشاب تم اعداده لتحمل هذه المسئولية ، ولقى المساعدة فى اتخاذ القرارات الأخلاقية منذ طفولته المبكرة . ولاحظ أبويه وهما يتخذان قرارات صعبة حول القيم الأخلاقية لديهما .

وغالبا ما نسال المراهقين : « ماذا ستصبح ؟ » ومن الصعب أن نخرج باجابة تنطوى على فكر خلاق ، اذا انشغل وقت الحاسب دائما بالتفكير فى الماضى ، مثلما تقول ميراكوماروفسكى :

من الناس من يسير فى حياته كما لو كان يركب حافلة وجهت مقاعدها الى الخلف بما فى ذلك مقعد السائق ، ويشبه ذلك موقف الطالب

**الذى يحشو رأسه بالمعلومات الأكاديمية ، وعليه بالرغم من تطوره العاطفى
أن ينظر الى الخلف وليس الى الامام (٢) .**

وإذا كان ذلك الماضى مفهوما ، وتم تصنيفه ، فإن الحاسب لن يكون مشغولا دائما بالتفكير فى الأحداث السابقة ، بل سيكون حرا فى الانتظار والتمشى مع مواجهة الواقع . وحينئذ يستطيع المراهق أن يركب حافلة تنجيه مقاعدها الى الامام ، وبهذه الطريقة يستطيع الحصول على اختيار سارى المفعول ، وحر ، ويستطيع أن يرى الى أين يمضى ، ويتخذ قرارات صعبة حول المكان الذى يريد الذهاب اليه ، بدلا من قبول طريق حتمى لم يختره بنفسه .

وقد تعاملت أثناء عملى مع مراهقين عديدين ، كانوا يتقابلون أسبوعيا . وكانت هناك أيضا فرصة الالتقاء بالآباء فى المساء . لقد كانت المشكلة الرئيسية هى الاتصال ، إذ أدت المعاملات المتقاطعة المتكررة الى اقتصار الحديث على عبارات نمطية مثل « هات الزبدة » ، و « اننى أحتاج عشرة دولارات لنهاية الأسبوع » . والخطوة الأولى فى العلاج هى تعليم كل من المراهقين وأبويهم لغة ومفاهيم نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) وهذه أداة تصنيف كافية تستخرج الموضوع من بين كتلة المشاعر المضطربة والأوامر المانعة التى تنتمى الى « الوالد » ، والتى توجد فى كل من المراهق وأبويه . ان الأبوين خليط من الخوف ، والاتهام ، وعدم اليقين ، والتفكير الذى يعتقد فى صحة الأمر لمجرد رغبة المرء فى أن يكون ذلك صحيحا . وكذلك يتكون المراهقون من نفس هذا الخليط . وهكذا نجد أن هناك قدرا كبيرا من الجوانب المشتركة بين الأطراف . خاصة فيما يتعلق بنموذج (الوالد - الراشد - الطفل) . أما أكثر اكتشافات المراهق حيادية فهو اكتشاف أن أبويه لدهما « طفل » مشحون بالتسجيلات المؤلمة مثل « طفله » هو . وبهذه اللغة الجديدة يبدأ بحر الاضطرابات فى السكون . وقد قال أحد مرضاى من المراهقين : « انه لعظيم حقا أن تكون قادرا على الحديث عن الأفكار فى البيت ، وليس مجرد الناس والأشياء » . وقال آخر : « ان أعظم شئ حقيقى متعلق بنموذج : « الوالد » - « الراشد » - « الطفل » ، هو أنه يخرج علاقتنا من نطاق (أنا - أنت) ويقسمها الى

M. komarovsky, "Social Role and the Search for Identity". (٢)

محاضرة القيت فى ندوة عن : السيل البيولوجى يتحدى النساء
The Challenge to women-Biological Avalanche
عقدت بكلية طب جامعة كاليفورنيا -

سان فرانسيسكو ، يناير ١٩٦٥ .

سنة أشخاص » . ويتراءى لبعض الأفراد فى معظم العائلات أنهم سجناء وأن الآخرين هم السجنانون ، يقول الصغير : « أنت لاتستطيع أن تهجر أبويك لأنك لن تجد مكانا آخر تذهب اليه » . وتقول الأم : « كنت سأحب ابنتى لو كانت جارتى ، ولكننى لا أستطيع أن أعيش معها فى نفس المنزل » . ويمكن الحديث حول هذا الأمر من خلال نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) بوصفه مشكلة مشتركة ، ويمكن أن تتجه الجهود المشتركة ليس فقط لتحويل الأسرة الى جماعة يستطيع كل فرد فيها أن ينعم بالحياة بين بقية أفرادها . بل أيضا تحويلها الى أسرة مبهجة ومثيرة .

وعلى أى حال ، فانه ليس من السهل ، تغيير أسرة من أرض المعركة الى الهدوء العائلى .

وبعض المراهقين لايتخلون بسهولة عن لعبتهم المفضلة : « انها غلطتهم » حتى اذا عرفوا أنها مجرد لعبة يلعبونها وليست حقيقة . ويميل الأبنون أيضا الى لعبة : « انظر كم حاولت بشدة » ، عندما يصير الموقف فى البيت صاخبا وعدوانيا الى حد بعيد ، تصبح الطريقة الفعالة لفض الاشتباك هي إدخال المراهق مستشفى للعلاج لفترة قصيرة . كأسبوع مثلا . وهذا لن يؤكد حقيقة أن بعض الأشياء فى البيت خطأ ، بل يخرج المراهق أيضا من المنزل الذى يسيطر عليه « الطفل » ، ويضعه فى بيئة مساعدة حيث يستطيع تشغيل « راشده » ثم يبدأ فى التعلم . وفى نفس الوقت يتعلم أبواه نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) ويطلب اليهم حضور مجموعات الآباء والأمهات . وعندما يخرج المراهق من المستشفى يلتحق بمجموعات المرضى الخارجيين الذين يترددون على المستشفى للاستشارة والكشف والمعالجة ، وذلك بغرض استكمال العلاج .

وهن سوء الحظ أن العلاج أحيانا يبدأ بداية سيئة ، عندما يجبر المراهق على الحضور للعلاج . قال أحد الأولاد : « لقد دفعت بين هذه المجموعة مما استشار « الطفل » الكامن فى ، فلم يخبرنى أحد أننى سأحضر هنا حتى صباح أول يوم حضرت فيه . لقد أدخلنا هنا لأننا سيئون » ولكن منذ بدأ تعلمنا نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) ونحن نشعر بالتحسن ، ولكننا عندما نعود الى المنزل نتعرض للسخرية أو للزعاج . وعندما أحاول تفسير الأشياء يقاطعنى أبى قائلا :

« دعك من هذا الكلام الفارغ عن (الوالد والراشد والطفل) وافعل ما أقوله لك . والحقيقة أننى قد أشعر بالتحسن لو استطعت أن

أرى أبوى مهتمين مثلى بتعلم ما نتعلمه حتى يقلعا عن أسلوبهما العتيق .
لم يلتحق الأبناء بمجموعة الآباء فى البداية . ولكنهما أقنعا بذلك مؤخرًا
وتعجبا لكيفية سرعة تحسن العلاقات فى البيت .

اننا قد نستمد بعض الأفكار الرائعة من مجموعات المراهقين . التى
تتراءى لى أحيانا فى شكل ثمانية أو عشرة حاسبات مخصصة لتصنيف
المعلومات فى المجموعة بهدف انتزاع المعانى الجديدة . وعلى سبيل المثال
قال أحد المراهقين فى احدى الدورات : « أظن أن (الوالد) أكثر اهتماما
بمؤسسته منه بالشخصية ككل » « الراشد » فقط هو الذى يستطيع
أن يفهم أن « طفلى » لديه أيضا مشاعر مهمة . « وفى موقف آخر قال أحد
المراهقين : « أظن أن الجزء المفكر فىنا هو الذى يأتى متأخرًا ، وأن الجزء
الذى يشعر منا كان موجودا أولا . ان القول « أشعر » أكثر احاطة من
القول « أفكر » وكلمة « أفكر » تستطيع أن تتخلل عنها ، ولكن كلمة
« أشعر » تحتوى وجودى . » وقال مراهق آخر :

« يستطيع (راشدى) فقط أن يحترم أبى وأمى . أما « طفلى »
فهو نكد مشاكس . » ان الكثيرين من الآباء يخشون أن يثقوا فى « الراشد »
فى أبنائهم عند اتخاذ القرارات الصعبة . وقد قال أبو احدى المراهقات ما يلى :
« عندما كانت طفلة فى الخامسة ، وكانت تلعب بالموسى . كنت آخذه
منها . والآن ها أنت تراها تلعب بنوع آخر من الأمواس ، وكل ما أقوله
هو : استمرى فى اللعب بها . وجوهر الاختلاف هنا هو أنها وهى فى
سن الخامسة لم يكن لديها معلومات كافية لكى تفهم تماما النتيجة المميتة
المحتملة لجرح نفسها بالموسى ، أما فى سن الرابعة عشرة ، فان المراهقة
لديها ، أو تستطيع أن يكون لديها المعلومات الكافية لفهم كافة أنواع
العواقب - وهذا هو ما يحدث لو كان الأبناء قد عكفا على مدى الأعوام .
على تلقينها القيم والحقائق وأقدار الناس وقدرها هى . »

ان الثقة فى « الراشد » هى الطريقة الوحيدة البينة لمواجهة الأقوال
التى يفاجئ بها المراهق أسرته عند عودته الى المنزل . فإذا عادت الفتاة
المراهقة الى البيت وقالت فى اكتئاب : « أنا حامل » فمن المحتمل أن تفجر
براكين اللهب فى البيت . سيمر « الوالد » فى الأبوين ويبدى سخطه .
وسيبكى ويحزن « طفلها » (فشل آخر) ويغضب (كيف تفعلين هذا)
ويشعر بالذنب (حيث أن « الوالد » الداخلى يعذب « الطفل » باحساس
أنه ليس على مايرام) . ما الذى سيقابل اعتراف الفتاة داخل الأبوين ؟
إذا اكتفى « الوالد » و « الطفل » بالحزن والأسى ، فيمكننا القول بأن

« الراشد » يغلى الماء أى يفكر فيما ينبغى عليه أن يعمل - ان « الراشد » يستطيع تحديد أن أجزاء « الوالد » « الطفل » يمكن اظهارهما كمعلومات بناءة ، وفى ذات الوقت يساعدان الفتاة على معالجة هذا الموقف الصعب - ومن أشد الأمور فاعلية فى تدعيم القوة الداخلية للفتاة أن ترى أبويها وهما يدخلان المعركة ضد مشاعرهما اليائسة - ويعملان على استمرار سيطرة « الراشد » على تفكيرهما ، بحيث يوجههما الى النهج السليم القائم على أساس الواقع وما يكتناه لابنتهما من حب واعزاز - انها ستكون فى حاجة لقدر كبير من هذا النوع من ضبط النفس خلال الشهور القادمة - و « الراشد » يستطيع أن يتعامل مع كافة الحقائق : مشاعر الأبوين والفتاة ، والألم الناتج عن الحوار الداخلى فى كليهما ، وطغيان موقف « لست على مايرام » الذى يتردد فى كليهما - والعار الذى لحق الأسرة والذى لابد أن يعاني منه كلاهما ، وصعوبة عمل ما يجب عمله ، والقرار مع أو ضد الزواج ، والقرار مع أو ضد التبنى - وباختصار ، مواجهة النتائج -

وقد تكون الصدمة النفسية أشد عند الكثير من العائلات عندما تعلن الابنة : « سأخرج الليلة مع جون - انه زنجى - » ان المجتمع لايرحب بالحمل قبل الزواج ، ولكنه ينظر شذرا الى الزواج بين الأجناس المختلفة - وقد يزيد بعض الآباء من حدة هذه المشكلة بأسلوبهم : « أمضى الى الجحيم ! اننى اذا سمعت أنك حتى تتحدثين مع هذا الولد فسأكسر رأسك الأحقر » - بالطبع ، فان هذا الرأس يشتمل على معرفة أن جون رئيس الفصل وأنه ينحدر من أسرة طيبة وسيدخل الكلية ، وهو فى الحقيقة شخص مثالى بالرغم من أنه أسود - ويضاف الى المشكلة حقيقة أنها قد درست عن المساواة فى المدرسة العليا ، كما أن المدرسة تعمل على انهاء التمييز العنصرى وادانة التطرف الفكرى - ان استخدام « الوالد » الكامن فى « الأبوين » للتعامل مع هذه المشكلة قد فاقم من اتساع الهوة الفاصلة بين الفكر والواقع - وهناك طريقة أخرى للتعامل ونعنى بها « الراشد » الذى يرى الحقيقة ليس باعتبارها شيئا ضارا بصالحه ، بل كجزء ضرورى لتقييم ما يجب عمله - ان العلاقة بين جنسين على مستوى « الراشد » « بالراشد » تتطلب شخصا يتمتع بدرجة فائقة من الادراك والأمانة - والحقيقة هى أن المجتمع لم يقرأها بعد - وكذلك الأقارب أيضا - ولا يعترف بذلك أيضا معظم رجال الكهنوت الكنسى بالرغم من تعارض ذلك مع تصريحاتهم الرسمية - ولكن هذا قد يتغير فى المستقبل - والسؤال هنا هو : « هل لدى هذين الاثنين (راشد) قوى بما فيه الكفاية لبناء علاقة

كريمة في ظل هذه الأحوال ؟ » ان البعض لديه ، فهل لهذين الانين « راشد » بهذه القوة ؟ ان الرؤية الواقعية للعواقب هي الوسيلة الوحيدة للتعامل مع هذا الموقف . وهناك مخاطرة . ولكن هناك أيضا احتمال وجود « راشد » قوى يجهز نفسه للاستقلال الكامل .

ويعتبر موضوع ممارسة الجنس قبل الزواج منالا على ضعف بعض القرارات الابويه وعدم مواظمتها للظروف ففي الماضي كان يكفي رفع الاعلام الحمراء التي تحذر من العمل قبل الزواج وتخويف الأبناء من الأمراض التناسلية لكبح جماحهم ، ولكن هذين التهديدين قد انهارا نتيجة لاكتشافات العلم ، ولكن لاتزال الأسر تخشى أن يلحقها العار من جراء ذلك رغم أن هذا الخوف لم يعد بنفس القوة التي كان عليها في الماضي ، لان ممارسة الجنس بلا زواج نراها منتشرة هذه الأيام . بل وتلقى موقفا ايجابيا بين العديد من مجموعات الآباء والأمهات المتناظرة . وكذلك فانها تلقي التشجيع من مجلة بلاي بوى Play boy ، ومن الاعلانات ، والأفلام . والحقيقة أن ذلك التشجيع موجود في عالم الكبار (٣) . ويمكن أن تكون وجهة نظر المراهق مختلفة ، لأنه يسأل السؤال « ما أثر ذلك على الأشخاص ؟ » ويعبر نيافة الأب الورع فورست أ . ألدريس عن هذه الورطة في المحاضرة التي ألقاها في مؤتمر الأسرة للكنيسة المشيخية الذي عقد في زفيروينت Zephyr Point بولاية نيفادا يوم ٣٠ أغسطس سنة ١٩٦٦ فيقول :

يرى العديد من الشباب أنه : اذا اتفق اثنان على ممارسة الجنس مع اتفاقهما على أن هذه الممارسة ليس لها صفة اللوام . مع عدم الاساءة الى أحد . فليس اذن من ضرر في ممارسته !! ان الضرر يتمثل في أن شيئا له قيمة وهو الجنس قد انحدرت قيمته . فاصبح شيئا عرضيا ولا يستحق كل ما يترتب عليه . وصار الهدف هو الدخول في التجربة بسلام . ان خطيئة ممارسة الجنس قبل الزواج لا تعني منح شيء ، بل تعني أن ما تم منحه لم يكن كافيا .

وليسبت هناك أفكار مطلقة عدا الشر الناجم عن استخدام الأشخاص كما لو كانوا أشياء ، حتى لو كان أحد هؤلاء الأشخاص هو القابل ذاته . واذا حدث على المدى الطويل أن أنتجت العلاقة العابرة فقدان

(٣) الأوضاع الخاصة بالممارسة الجنسية قبل الزواج وما يرتبط بها من نتائج مؤسفة - في الغرب بوجه عام والحمد لله أن بلادنا العربية والحريصة على الالتزام بالعفة وتطبيق تعاليم الأديان التي تحرم الزنا وكافة العلاقات التي تدرج تحتها - خالية من هذه الأوضاع المخجلة والمنافية للأخلاق القويمة - المترجم -

احترام الذات ، وتقوية موقف (أنا لست على مايرام) ، فان ممارسة الجنس خارج الزواج لاتقدم سوى تنفيس للنوتر الذى فى الجسد ، ولكنها عندما يكون هناك كثيرون يتقاسمون عواطف الشخص ؟ وكذلك فان منهما . فكيف يستطيع الانسيان أن يحترم هذه العلاقة بطريقة غير محدودة عندما يكون هناك كثيرون يتقاسمون عواطف الشخص ؟ وكذلك فان هناك فتيات كثيرات قررن أن هذه التجربة لم تكن سارة . وأنهن كن غير قادرات على الوصول الى ذروة اللذة . وقد قالت احدى الفتيات :

« من المفروض أن تكون هذه العملية ممتعة ، ولكننى لم أشعر بذلك » . وقد سئل أحد الشبان عما اذا كانت الفتاة المصاحبة له قد شعرت بهذا الشبع ، فقال : - « أواه .. لم أسألها فى ذلك ، فليست علاقتنا وثيقة الى هذا الحد » .

ان ممارسة الجنس بدون الألفة الشخصية لاينتج عنها سوى فقدان احترام الذات . ويصدق هذا على الزواج أيضا .

وهناك كتاب عظيم تعرض بالفحص لكافة الحقائق المتعلقة بالجنس بالنسبة للمراهقين ، وكذلك آبائهم ، وهو كتاب الأسقف جيم بايك ، وعنوانه : المراهقون والجنس Teenagers & sex - ويدور حول أن الانغماس فى الجنس يحمل فى طياته مسئولية أخلاقية فيقول :

« اننا لانتعامل مع المبادئ والقوانين ، ولكن مع التأثيرات المباشرة التى تكون لقرار الفرد بالنسبة للآخرين ، سواء بالاحسان أو الاساءة . وكما اشار الفيلسوف وعالم اللاهوت مارتن بوير ، فان : علاقتنا بالله ليست بمفهوم العلاقة بينى وبينه (أنا - هو) بل بمفهوم العلاقة بينى وبينك (أنا - أنت) ولذلك فان أى علاقة بين شخصين يجب أن تكون علاقة « أنا - أنت » ويمثل ذلك معيارا اخلاقيا أساسيا يتركز فى علم معاملة الأشخاص كالأشياء » (٤) .

ومهما كان القرار فى كل حالة على حدة فان الهدف يتركز فى أن القرار يجب أن يتخذ من موقع المسئولية - ويستمر الأسقف بايك قائلا :

« ان المهم ليس هو ما سيفعله أولادنا أو يقلعوا عن فعله ، بل انه مفهوم الجنس ذاته باعتباره طقسا له دلالة روحية ، وعلامة ظاهرة » .

J. Pike, "Teenagers and sex, (Englewood Cliffs, N.J. : Prentice-Hall, 1965) (٤)

مرئية للنعمة الروحية الداخلية • ولا يعبر الفعل الجسدى عن الاندماج الروحى والعاطفى للرجل والمرأة فقط • بل أنه أيضا وسيلة يقوى بها هذا الاندماج • انه عمل رفيع ، وأية موانع تحظره سواء من الجانب المتزمت أو الجانب الوجودى • يجب أن تنبنى على الأساس المنطقى الذى يقر بأنه عمل طيب ، وصالح للدرجة أنه لا يجب اخضاعه لظروف معينة • وإذا قام الحظر على أساس حقيقة أن الممارسة الجنسية شيء صالح • وليس على أساس أنها شر • فإن الشىء سيقدمون على الزواج من موقف أكثر صحة • وتزداد فرصتهم لتحقيق الاشباع الجسدى عن طريق هذا الزواج »

وستظل المشكلة هي : كيف يمكن لأفكار مثل هذه أن تكور موضوعا لمحادثة بين مراهق ، وشخص ناضج ، إذا قام بين الاثنين حاجز من الصمت والحرج وفقدان الثقة أو السخط ، لأن المراهق يعتنق مبدأ رفض الحديث الى الأم أو الأب (لماذا يتحتم على ذلك ! اننى أعرف ما سألقاه من توبيخ !) وتصور المحادثة التالية التى دارت بينى وبين فتاة مراهقة فى سن الخامسة عشرة ، طريقة استخدام نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) للحديث عن المشاكل المعقدة المتعلقة بالعلاقات التى تواجه المراهقين بما فيها الجنس • وعندما حدثت هذه المقابلة كانت هذه الفتاة قد شوهدت أربع مرات فى دورات العلاج الفردى وثمانى مرات فى مجموعات للعلاج • واليك ما دار فى واحد من اللقاءات الفردية معها • ويرمز الحرف « د » للدكتور ، كما يرمز الحرف « س » لأسسم سالى وهو الاسم الرمزى للفتاة وليس اسمها الحقيقى :

س : هل تعرف أنك تشبه الأطباء النفسيين حق الشبه ؟! بالطبع أنت تعرف ذلك ، لأن هيتك تمثل الهيئة النموذجية للأطباء النفسيين •

س : لماذا لاتحدثين عن نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) ؟

س : لا أستطيع اليوم • لا أستطيع استخدامه • ولست استخدمه الآن • اننى أتعامل مع كل شيء تعاملًا خاطئًا •

د : أتعرفين معنى ما تقولينه ؟

س : لا •

د : انك تقولين لهذا الرجل الذى يقوم بدور الطبيب النفسى : « أتحداك أن تغيرنى » • أليس هذا هو ما تقولينه ؟

س : متى قلت لك ذلك ؟

د : حسنا ، ان هذا هو ما تقصدينه ضمنا . اننى أسألك ، لماذا لا تستخدمين نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) لديك ، فتقولين : « اننى لا أستخدامه ، ولن أستخدامه ، وأتحدثك أن تجعلنى أستخدامه » .

س : لم أقل أن ذلك سيستمر دائما . قلت عن اليوم فقط اننى لا أستخدامه ، ولا أحس بالرغبة فى استخدامه . اننى متوترة ، وهذا هو كل ما فى الأمر . اننى أعانى من التوتر منذ يومين .

د : اذن فأنت تريدين تمثيل التوتر اليوم ؟

س : لا ، لا أريد أن أمثل شيئا . اننى أريد مهدئا أقوى .

د : أتريدين مهدئا أقوى ؟

س : لم لا ؟ اننى أحتاج مهدئا أقوى . وكان الواجب يقتضينى ألا أحضر اليوم ، وأنت تعرف اننى لم أرغب فى الحضور .

د : أنت تريدين مهدئا أقوى لأنك كسولة جدا لدرجة عدم الرغبة فى استخدام نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) لديك .

س : كنت أستخدامه ، وحاولت ، ولكننى متوعدة المزاج ، وأنا .

د : اذن فما هو الجديد ؟

س : اذن ما هو الجديد ؟ (تضحك) لم يكن ذلك لطيفا منك . ولكننى أقصد اننى متوعدة المزاج جدا ، ولم أكن كذلك عندما خرجت من المستشفى .

د : هل هذا هو الاختيار الوحيد بالنسبة لك - أن تكونى متوعدة المزاج ؟

س : لا ، ليس كذلك ، وأنا أحاول ألا أكون كذلك ، ولكننى أكون كذلك . أحيانا .

د : لقد ثرت ثورة عارمة ؟

س : ليست الى هذا الحد . ولكن الغضب تملكنى . وعندما أكتب مشاعرى بداخلى ، يتركبنى الاضطراب . هل تفهم ؟ اننى أكره .

هذا ، وآكره كل الناس اليوم . سأتوقف عن العلاج النفسى ،
والآن ألا أبدو فى عينيك صورة نموذجية للمريضة النفسية .

د : (بابتسامة) اننى سعيد لأنك تبتسمين .

س : أواه ، اننى أبتسم حيال الموقف . اننى . . انه يجعلنى متوترة
الأعصاب . ولكن هل تعرف ماذا أفعل ؟

د : ماذا ؟

س : اذا ابتسمت ، فاننى بعد ذلك أضحك ، ثم أصبح منزعجة ، و -

د : هل تستطيعين أن تذكرى لى ماذا يزعجك ؟

س : لا ا

د : هل أنت على وشك البكاء ؟

س : أرجو ألا يحدث ذلك . لا . اننى على مايرام . اننى منزعجة اليوم -
أعرف ذلك - اننى أكره أن أكون كذلك . اننى لا أرى فائدة من
هذا ، لماذا لا نوقف علاجى النفسى ، وسأأخذ أقراص الدواء ،
ما الذى بى أكثر من نوبات الصداع والغضب الذى يتمكنى فى
نوبات متتالية - ما هى مشكلتى ؟

د : انك لا تريدن النمو .

س : هذا هو ما قتلته لى مرة ، قلت أننى لا أريد أن أكبر ، وهذا
غير صحيح .

د : أنا لا أدرى ما تعنيه كلمة « الكبر » ، اننى قلت : « النمو » .
كما تعلمين ، افتحى عقلك لقبول بعض الأفكار الجديدة .

س : لأية أفكار ؟

د : نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) .

س : لقد فتحت عقلى لذلك عندما كنت فى المستشفى . وعدت الى المنزل
وأنا أشعر بأننى سليمة .

د : لماذا لاتستخدمين « راشدك » اليوم ؟

س : لا أدرى .

د : كل ما تستطيعين الحديث عنه هو : اننى متوترة ، لا أستطيع .
كان يجب ألا أحضر هنا اليوم ، أنت طبيب نفسى متقدم فى السن ،
وأنا مريضة .

س : حسنا ، هذا هو حالنا اليوم .

د : حسنا ، ان هذا قول صائب ، وقد جاء عن طريق « الراشد » :
« هذا هو حالنا اليوم » .

س : لا أستطيع أن أطبق نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) كل يوم .
د : حسنا ، لن تكون هذه فكرة سيئة . أنا أطبقه كل يوم .

س : هنيئا لك ، لو استطعت أن تنفذه ، أما أنا فلا أستطيع أدائه أداء
صحيحا الآن .

د : أواه . . لم لا ؟

س : لأننى -

د : ان « طفلك » يجب أن يتولى الزمام .

س : حسنا ، اننى أشعر من حين لآخر أنه يسيطر على ، ولكننى
لم استخدم نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) طوال حياتى ،
أو حتى لمدة عام أو شهر . اننى لا أعرف .

د : وماذا عن حياتك مع أبيك ؟

س : كنت طيبة مع أبوى .

د : كيف حال أمك ؟

س : طيبة ، لقد بنتا أكثر قربا مما كنا فى الماضى . لقد كنت مغرمة
بهما كليهما ، وكنت أحاول أن أكون بنتا من النوع الذى يحبانه
الآن ، لا أدري ، اننى أطور عقدة ذنب تجاه - اننى أشعر بأننى
كنت سيئة جدا ، وكل شيء .

د : حسنا ، دعينا نخصص حوالى ستين ثانية لذلك ، لأننى لا أستطيع
أن أرى فى ذلك جدوى - أعنى التفكير فى مدى السوء الذى
نتحدثين عنه .

س : اذا ظللت تمارس معى هذا الاسلوب من العلاج النفسى ، فسأظل
أحلل نفسى الى أبد الدهر .

د : وهل فى ذلك ضير ؟

س : نعم .

د : لا . اذا كان ذلك سيقدم بعض الاجابات .

س : لا ، ليس كذلك دائما ، لى صديق حميم وهو دائما فى وعيه .
أظن ، أنه لن يذهب الى طبيب نفسى ، لقد عرفته منذ سنوات ،
وهو يعيش فى عزلة عن الواقع ، ان حالته تدعو للرثاء ، وهو
يعالج نفسه طول الوقت ، يقرأ كتباً .

د : هل هو مراقب .

س : نعم .

د : حسنا ، أن تعالجى نفسك دون أدوات ، هذا شيء ، ولكن لديك نموذج
(الوالد - الراشد - الطفل) لمعالجة نفسك ، وهذا النموذج
يعطيك الاجابات التى تحتاجين اليها .

س : حسنا ، سأظل (على ما يرام) سأذكر لك شيئا . اننى لا أعرف
ما اذا كنت أريد أن أستخدم « راشدى » طوال الوقت أم لا .
اننى أحيانا لا أريد ذلك . انه نوع من القتال . انه يكاد أن يكون
كاملا فهو يتعامل مع كل شيء بالأسلوب السليم وفى الوقت
المناسب . ولكنه يتراعى لى فى بعض الأحيان بأنه غير انسانى .

د : أعرف ما تقصدينه . بالطبع فاننا قلنا من قبل أن « طفلك » هو
الذى يجعلك سعيدة ومبتهجة مع الآخرين ، ولذلك فلسنا نريد أن
نقذف « الطفل » خارجا . ولكن دعينا نقول أن نموذج (الوالد -
الراشد - الطفل) موجود ، أقصد أن يكون « الوالد » « الراشد »
و « الطفل » حاضرين دائما . وحقيقه أن « الطفل » قد يزاحم
« الراشد » وتتولى العواطف الزمام ، ولكننى أعتقد أن المطلوب
هو أن نستخدم « الراشد » دائما حتى اذا كان « الطفل » يؤدي
دوره . واذا أراد « الطفل » أداء دوره ، اتركى « الراشد » يستمر
لتأكيد أن كل شيء يبقى سليما ، لأن الفتيات يقعن فى المتاعب ،
حينما يؤدي « الطفل » دوره لأنه يؤدي ألعابا خطيرة ، أليس هذا
صحيحا ؟

س : نعم ، أنت تقصد أنه يشبه المشكلة العويصة ، أو ما شابه ذلك .

د : حسنا .

التوافق النفسى - ٢٠٩

س : ألا يعرف متى يتوقف ؟

د : نعم - انه غير قادر على هذا ، وعندما لا يكون « الراشد » قادرا على أن يقول : لا « للطفل » فان أيا منا يلقى المتاعب .

س : وهل ينطبق هذا على كل شيء ؟

د : هذا صحيح ، كل شيء . قد يرغب « الطفل » في أن يأخذ شيئا لا يخصه ، أو قد يرغب في استغلال شخص آخر . وقد يرغب « الطفل » في التلاعب بشخص آخر .

س : آه ، توقف عن الحديث بهذه الطريقة .

د : لقد رأيت أطفالا صغارا يتلاعبون بالكبار .

س : أنا أتلاعب - هذا خطأ تماما !

د : حسنا ، اننى لا أعرف ما اذا كانت الكلمة المقصودة خطأ أم لا ، ولكنك اذا كنت تتلاعبين بالآخرين وأصابهم ذلك بالاحباط ، أو جعلهم يشعرون بالضيق ، أو أزعجهم ، فانا أنصحك حينذاك بأن تكفى عن هذا . أو اذا سمحت لنفسى بأن أصبح العوبة ، فانى سأزعج . واذا تلاعبت بالآخرين ولم أعرف ذلك ولكنهم تنبهوا لذلك ، فانى سأزعج . أترين ذلك ؟ اذن فمتى تعلمنا أن نتلاعب بالآخرين ، أو أن نسمح للآخرين بأن يتلاعبوا بنا ؟ لقد كان ذلك فى سن الثالثة أو الثانية .

س : حسنا ، كيف يكون ذلك ؟ أعنى كيف يستمر ذلك ، لقد كنت أتلاعب بأبى ومازلت أفعل ذلك بدرجة ما ، اننى لا أعرف . وربما كنت أنت تسميه تلاعبا أو سيطرة على الناس ، ولكننى أنا أستطيع - لماذا ؟ نعم ، اننى أستطيع . وهو قد سمح لنفسه بأن يكون منقادا - لأننى لم أكن أعرف ماذا أفعل . ربما تلاعبت به ، وربما لم أتلاعب .

د : حسنا ، ان ما يدور بينك وبين أبىك ربما كان فيه شيء من التلاعب . ولكنك تعرفين أن سعادة الأب بابتنته المراهقة ، تدخل كجزء منها . انه يستمتع بأن يراك سعيدة ، ويستمتع بأن يراك تعملين أشياء . كما يستمتع باعطائك أشياء . فهذا جزء منه كأب لفتاة مراهقة سعيدة ، ولكنك تستطيعين أن تستغلى كرمه . كما تعلمين ، أن تستغلى مشاعره . وهذا ليس مقبولا بالنسبة لك أو له لأنه يقودك الى نوع من المشاحنات الطويلة التى لا تنقطع .

س : أنا فعلت ذلك .

■ : ماذا فعلت ؟

س : استغلّيته . واستغلّيت مشاعره ، توقعت أن أحصل على كل ما أريده ، توقعت كل - حسنا ، كنت أحسب أنني سأنال قسطا من مشاعره ، وكانت مشاعره نحوى فياضة . ولكنني لم أكن أسمح له بأن يلمسني طالما لم أكن معتدلة المزاج . كنت أنقلت منه ، كما كنت قاسية في بعض الأحيان . وكان ذلك يحدث حتى في المستشفى . وفي إحدى الليالي قلت شيئا مريعا عندما كان آتيا بي الى المستشفى وهو يهيم بالنزول في المصعد ، وأراد أن يضمّني الى صدره على ما أظن ، فتحرّكت بعيدا عنه وطلبت منه ألا يفعل ذلك . ثم ضحكت وقلت : « ان هذا يصيبك بالاحباط . ليس كذلك ؟ » كما لو كنت أحاول حقيقة أن أخرج مشاعره ، فقال : - « نعم » ووافقني على ذلك مما جعلني أشعر بالأسى .

د : اذن فهل ضمّنته أنت الى صدرك ؟

س : لا .

د : هذا أمر مؤسف ، لأن « راشدك » كان سيترك « طفلك » يحتضنه ، لأن « الراشد » يحترم مشاعر الآخرين .

س : ومع ذلك فقد تجاهلت هذا . اذا أراد أن يحتضنني كنت أتركه يحتضنني ، وحينما كنت عازفة عن اظهار مشاعر الود والحنان ، كنت أكتفى بالسماح له باحتضاني لا أكثر ولا أقل . ولكنني كنت أبدى له حبا وحنانا .

د : ألا تريد أن تبادلّيه العناق ؟

س : حسنا ، الآن سأذهب وأقبله على خده أو أي شيء مثل ذلك ، وسأظهر له بعض المحبة ، وسأكون لطيفة جدا . وقد فعلت ذلك بالنسبة لأمي أيضا . لقد فعلت ذلك عندما لأعبر لهما عن محبتي ، حسنا ، لم يكن ذلك مجرد تمثيل لأنني أعني أنني شعرت -

■ : كما ترى ، ان المشكلة هنا تتعلّق بالمحبة ، أي بالجنس الآخر ، وتتلخّص في أن « الطفل » خائف من الجنس سواء كان شعورا ، أو ما يظنه الآخرون . ان « والدك » الداخلي يراقب « طفلك » .

و « طفلك » خائف من الجنس بسبب « الوالد » الداخلى - ولكن
 « راشدك » يستطيع أن يقول : « أنظرى - ان هذا صحيح تماما ،
 ومناسب لك تماما أن تمنحى أباك المحبة ، فى شكل احتضان
 بدنى . اذا استطعت أن تفعل ذلك فسيكون شكلا من أشكال
 سيطرة « الراشد » على « الطفل » .

س : لقد قمت بذلك .

د : حسنا .

س : كنت أقوم بذلك خير قيام .

د : ولكنك كنت تعرفين أنها مشكلة بالنسبة للمراهقين .

س : حسنا ، لم أكن أعرف ذلك .

د : هذه هى الحقيقة .

س : هل هى كذلك ؟

د : توجد هنا كلمة ضخمة هى ما نسميه : المحظور .

س : لا أعرف لماذا .

د : لا . لقد امتد ذلك على مدى الأجيال . المحظور ! انه لا يرى ضيرا فى
 الحب مع اقترانه بالجنس اذا لم يكن هناك روابط الدم . ان ذلك
 محظور عظيم . ولكن علينا أن نميط اللثام عن تلك المعلومة المسجلة
 فى الذهن . اننى أجد نفسى قادرا على مساعدة أى مراهق على أن يكون
 طبيعيا ومحبا ومتوافقا مع والديه . اذا استطعت مساعدتهما على
 اخراج البيانات المختزنة فى « راشدهما » وأنت لاتستطيعين أن
 تحبى الجنس الآخر . انتبهى لذلك . انك تبدئين عاجزة عن التمييز
 والاختيار ، ولكن ما أن يعرف الانسان تلك البيانات ، ويفطن الى
 معناها ، يصبح فى وسعه أن يتعامل من منطلق الود والحب على
 مستوى « الراشد » وعلى مستوى « الطفل » وسيتولى « الراشد »
 العناية « بالوالد » . ولن يكون « الطفل » خائفا من « الوالد » لأن
 « الراشد » يصنف المعلومات باعتبار ما هو حقيقى . ومعلومات
 « الوالد » تعود الى تاريخ معين ، كما تعرفين - فى أى سن

س : الثالثة .

د : هذا صحيح وهو يختلف تماما عما هو حقيقى اليوم . والى جانب ذلك ، كما نعرف كلانا ، فان لديك أبا وسيما ، وعندما أراكما معا ، وأراه ينتظر اليك ، أدرك أنه يعتبرك بهجة حياته .

س : أنا لست كذلك . اننى سيئة . ان ذلك يثير المشاعر أحيانا .

د : حسنا ، لماذا أنت سيئة ؟

س : لأننى سببت له مثل هذا الشقاء ، اننى أشعر بالأسف .

د : حسنا ، لابد أنك تحبينه جدا حتى أنك - كما قلت لى مرة - تعملين هذه الأشياء لكى تحافظى على وجود مسافة . بحيث لا تقتربان من بعضكما البعض .

س : نعم اننى أحبه هو - هذا لسوء الحظ - لا الرجال الآخرين . ولكنى سأتغلب على ذلك . . . حقيقة أننى سأحاول . . . ان لدى مجموعة كبيرة من الأصدقاء الشبان ، وهناك شىء فيهم أكرهه . انهم يفكرون كثيرا فى الجنس ، وفى العادة فان الكثيرين منهم عندما ينظرون لى . يبدو أنهم يريدون منى شيئا ، و -

د : ما شعورك ازاء ذلك ؟

س : ليس شعورا طيبا ، لا أدرى ، أنا لا أحب أن يلمسنى أحد ، اذا لم أرغب أنا فى ذلك . والأولاد يحبون أن يلمسوا البنات وهذا يضايقنى . لقد واجهت أوقاتا صعبة كنت أقول فيها : لا . أستطيع أن أقول : لا . ولكننى أحس بالرعب ، وعموما فانهم يتفهمون الموقف ، أما اذا لم يفهم أحدهم ، فاننى أثور ثورة عارمة ، ولذلك فاننى أخذ حذرى .

د : حسنا ، دعينا نرى . يوجد دائما ثلاثة مجموعات من المعلومات . بالخجل ، أو « التزمى حدود الأدب » ، أو « الأفضل لك أن تلزمى بالخجل » ، أو « التزمى حدود الأدب » ، أو « الأفضل لك أن تلزمى الجزء من الحقيقة التى يديرها » الراشد » يتركز فى : « ماذا تعنى هذا الموقف . أما « الراشد » فسيأخذ فى الاعتبار أن « الطفل » يريد أن يلعب و « الوالد » لا يريد أن يوافق ، و « الوالد » عنده قائمة طويلة من النماذج القياسية التى تظهر فى الصورة . ولكن الجزء من الحقيقة التى يديرها » الراشد » يتركز فى : « ماذا تعنى المعاملة بالنسبة لك فى حقيقة الأمر » وعلى سبيل المثال : ماذا

تستخلصين منها ؟ ما هي الأخطار ؟ ما نسبة المخاطرة ؟ ما هي النتائج ؟ وهل تذكرين أن الفتيات اللائي كن يعانين من المضايقات - فى المجموعة - لم تكن أى منهن تحسب حسابا للعواقب ؟ طبعاً ، فنحن نعرف أن « الراشد » هو الذى يتعامل مع العواقب التى لا يحسب لها « الطفل » حساباً . ان « الطفل » يريد فقط أن يلعب . وكم واحدة من تلك المراهقات اللائي كن يعانين من المضايقات قد تدبرت العواقب بعناية قبل اتخاذ القرار ؟ حسناً . سأقول لك كم كان عددهن - صفر . وهناك أخريات كان لديهن « راشد » جيداً ، وكان عددهن قليلاً . لقد رأيتهم بين الأخريات ، لأن الكثيرات منهن كن يدرسن هنا مع المجموعة لتطوير « الراشد » .

س : لذلك ، انه من الصعب أن أتعلم ، ولكن هذه قيم أخلاقية تحصل عليها من أبويك فى العادة ، مثلما هو الحال معى . انكم تتعلمون من بعضكم البعض ، أما المراهقون فانهم يتحدثون فيما بينهم .

د : حسناً ، هذه قيم أخلاقية ، ولكنها حقيقة ، أو أنها قيم تنتمى الى « الراشد » تدور حول « لاتجعلنا نصاب بضرر » ، أو اذا كنت أهم شخص فى العالم ، عليك أن تعتبر نفسك كذلك بشكل ما ، فانت لاتود أن تؤذى هذا الشخص أو أن تزج به فى مواقف تؤذيه . أنت تعرفين ما أرمى إليه .

س : هل تعرف ماذا أفعل ؟

د : ماذا ؟

س : أحب أن أغيظ الآخرين ، والواقع أن الأولاد قد أسموني « المعاندة » وليس هذا بالشئ اللطيف .

د : حسناً ، ماذا يقصدون ؟ هل يقصدون أنك تدفعينهم الى مطاردتك ؟

س : نوعاً ما . . بلمحة ، أو نظرة ، أو حتى مجرد وجودى هناك بل وعندما أقوم بأى شئ ، أحياناً أفعل ذلك دون قصد ، وأحياناً أكون متعمدة .

د : حسناً ، هناك طريقتان للنظر الى ذلك . احدهما هي أنك مرحلة وجذابة ولطيفة المعشر ، وهذا شئ طيب ، أما الشئ الآخر فهو أنك الجميلة الغاوية . . .

س : الشريرة . . وأحياناً أفعل ذلك .

د : حسنا ، أتعرفين أين تعلمت فن الاغراء ! ان الاغراء لعبة تتعلمها الفتيات الصغيرات مبكرا جدا لأنها تجلب لهن الحلوى ، ولذلك فهن يتعلمن الاغراء مبكرا -

س : متى ؟

د : ينظر الأب الى محبوبته الصغيرة التي تتدلل عليه ، ويخرج الأب قطعة من الحلوى ، ويخرج لعبة ، وهكذا تنال أجرا مقابل تدللها .

س : (ضاحكة) ربما يكون هذا هو المكان الذي تعلمت فيه . اذن فالخطا هنا هو خطأ أبى .

د : ليس فى ذلك خطا . ان فى ذلك متعة للأب والابنة .

س : نعم . ولكنك لاتفعل ذلك مع الآخرين .

د : حسنا . انه نوع من التسلية ، ليس كذلك ؟

س : أوه . نعم .

د : انه نوع من التسلية اذا كان « الراشد » متوافقا مع « الطفل » عندما يلعب « الطفل » لعبة مثل لعبة الاغراء ، أو لعبة الاغاطة ، أو أى اسم تحبين اطلاقه عليها . لأن « الراشد » سيتعامل مع المعاملة عندما يحين دورها .

س : لم يكن الأمر قاصرا على الأولاد ، بل الرجال . اذا نظر رجل نحوى فائنى أشعر بالزهو أحيانا ، اذا لم تكن نظرته قدرة ، والواقع أننى دائما أريدهم أن ينظروا ، ولكنهم عندما ينظرون الى نصف الوقت أو أكثر من النصف ، فائنى فى الواقع ، كما تعلم ، لا أشعر بالاهانة بل يساورنى شيء من الخوف ، ولا يملكنى الخوف عادة ، ولكننى لا أنظر اليه مرتين .

د : هذا هو ما يقوله ، وما تقولينه : انه يقول : « أنظرى ، أود أن أستغلك » وأنت تقولين : « أعرف أنك تريد ذلك ، ولكنك ستنال جزاءك » . وهنا نعود مرة أخرى الى التلاعب ، كما تعرفين . أنت تحبين أن تلعبى لعبة الاغراء أو الاغاطة لأنها تروق لك . وهنا نعود مرة أخرى الى دراسة فائدة المعاملات المربحة . تقولين أن ذلك يرفع من روح المعنوية . حسنا ، انك فى الحقيقة لاتحتاجين الى ذلك . ان كل امرأة تلعب هذه اللعبة التى تبني صورة الأنثى وترفع الزوج

المعنوية لها . ولكن الشخص الذى يقدم لك هذه المتعة يريد شيئا فى المقابل . وأنت تعرفين . وهذا هو ما يجهز « الراشد » نفسه للتعامل معه . وهذا هو الموضوع - ان بعض هؤلاء الأفراد لديهم ما يمنحونه . ان الشراء يبدو عليهم . انه موقف صعب ، فالشباب قد يكون من نوع جذاب طويل القامة ، ووسيم ، وعريض المنكبين ، ومتعالى . ولكن كل ما عليك أن تفعله هو . كما يجرى فى محادثتنا هنا ، أن تخرجى البيانات المختزنة الى النور ، ولك الخيار طالما أنك ستتعاملين معها من خلال « الراشد » وليس عليك أن توغلى فى ممارسة هذه اللعبة ، مثل بعض الفتيات ، لأن ذلك هو اختيارهن الوحيد . ان لديك « راشد » جيد ، ولذلك لديك اختيار الاستمرار فى اللعبة الى حد معين . ثم تقولين ، حسنا ، لقد سعدت بمعرفتك وبعد ذلك ليكن ما يكون . . .

س : أوه - ان هذا يروعنى . اننى لا أستطيع أن أسمح بحدوث ذلك ، الا اذا حدث بالقوة ، لأنه يروعنى . أنا لا أريد شيئا من ذلك .

د . ماذا يخيفك ؟

س : لا أدري . ولكنه يروعنى .

د : ربما أنت بحاجة للشعور بالخوف حتى لا يخرج « طفلك » عن سيطرتك ، ولكن طالما أنك تبين الثقة فى « راشدك » وأن لديك « راشدا » جيدا ، فقد نجحت ، لأن « راشدك » يستطيع التعامل مع كل معاملة ، حتى اذا كان « الطفل » مستمتعا بالمعاملة فان « الراشد » يطلق الاشارات ، وهذا هو ما سينقذك .

س : أرى أن وقتى قد انتهى ، سأراك عندما تبدأ المجموعة الثانية - الى اللقاء .

د : اتقننا ، وتذكرى (أنا على مايرام ، وأنت على مايرام) - تنتهى المقابلة .

فى خلال سنوات المراهقة الحافلة بالمتاعب ، نخال أن الشباب عازف عن سماع نصائح آبائهم الملهوفين ، والواقع أنهم راغبون فى سماع عبارات الحب والاهتمام من الأب والأم . وفى تجربة ذلك الحب والاهتمام . وقد لمست هذا بطريقة مذهلة مع ابنتى جريتن ذات الخمسة أعوام . عندما وصلت أمها ، كانت جريتن تحاول السير على الحافة الضيقة

لسور حوض الزهور لتختبر قدرتها على حفظ التوازن ، فقالت الأم :
« انتبهى والاستسقطين بين هذه الزهور » فقالت جريتنس : « هل تهتمين
بالزهور » أم نهتمين بى ؟ » .

ان « الطفل » الكامن فى المراهق ، يسأل نفس السؤال . ولكنه
لا يذكره فى كلمات كثيرة . ان الأبوين اللذين يفتنان لهذا التساؤل ،
الذى لا يعبر عنه المراهق بالكلام ، والذى يجيبان عنه بأفعال تعبر
عما يكنانه من حب ورعاية واهتمام واحترام ، يؤكدان فى ذات الابن دائما
« أنه هو الذى يهتمان به » ، وسيجنى الأبوان من ذلك الكثير من المسرات
والمفاجآت المفرحة التى قد لا يحسبان لها حسابا فى فترة مراعاة الأبناء .

الفصل الحادى عشر

متى يكون العلاج ضروريا ؟

(اننا لانفكر الا عندما نواجه مشكلة - جون ديوى)

اذا التوى كاحل شخص ، فانه يمكن أن يعرج فى سيره ، وسرعان ما تتحسن حالة الكاحل ، ولكنه يظل يستعمله بشكل محدود عندما يعرج فى سيره ، واذا كسرت ساقه فانه يحتاج الى ضمادة تسندها ، بينما تأخذ العظمة فى الالتئام ، والمشكلة الاولى هى اعتلال الضحة ، أما المشكلة الأخرى فهى العرج ، وربما تكون الرعاية الطبية مفيدة فى الحالة الاولى بينما هى ضرورية فى الحالة الثانية .

وبنفس الطريقة نستطيع أن نرى ضرورة العلاج للمشاكل العاطفية . ان « راشد » الشخص قد يلحق به الضرر بسبب التسجيلات القديمة من الماضى ، ولكنه يستطيع أن يقفز فوق المصاعب أو خلال المشاكل بدون علاج لأن العلاج يمكن أن يخففها ، ولكن « راشد » لدى بعض الناس يصاب بالضرر الى الحد الذى يعجزهم عن العمل . انهم يعرجون بسبب الفشل المتكرر ، أو تشل حركتهم بسبب الشعور بالذنب . وهناك فى الغالب أعراض بدنية ، فلا تستطيع الأمهات تأدية وظيفتهن كأمهات ، ولا يستطيع العمال أداء أعمالهم ، ويترك الصغار المدرسة . أو يصبح سلوك بعض الناس فى غير محله الى حد الخروج على القانون . والعلاج ضرورى بالنسبة لهؤلاء الناس لأن كلا منهم يستطيع الاستفادة منه . يستطيع كل الناس أن يصيروا محللين للمعاملات ، والعلاج ببساطة

يعجل بالتقدم . أما العلاج بأسلوب تحليل المعاملات فيعتبر تجربة تعليمية ضرورية من خلال ما يكتشفه الفرد حول تصنيف المعلومات التي تدخل في قراراته . وليس هناك سحر فيما يطبقه الاختصاصي الخبير . لأن الطبيب النفسي يستخدم الكلمات لنقل ما يعرفه ويستخدمه في معاملاته الى الشخص الذي يأتي طلبا للعلاج . ولذلك فهو يستطيع أن يعرف ويستخدم نفس الأسلوب . وقد قال أحد أصدقائي من أطباء التحليل النفسي : « اننى أعرف واحدا من أحسن محللي المعاملات » وهو سائق سيارة نقل .

والهدف هنا ينحصر في تحويل كل شخص تحت العلاج - الى اختصاصي في تحليل معاملاته الذاتية .

وتباين أشكال العلاج النفسي ، كما أن صوره مختلفه في أذهان الناس . ولهذا السبب فان قرار الذهاب الى محلل نفسي بصفة عامة ، لا يتخذ بدون قدر كبير من الحوار الداخلى . ويشعر الكثير من المرضى بالنعاس عند طرح فكرة كشف حقيقة أنفسهم على شخص ما ، حتى لو كان هذا الشخص اختصاصيا أو مرشدا محترفا ، مثل المحلل النفسي ، وعندما يفتح المريض الباب الى المكتب لأول مرة ، فانه غالبا ما يشعر بالوحدة ، والخوف والخجل - أمام احتمال الفشل . وحتى اذا قاد « الراشد » الشخص الى مكتب المحلل النفسي ، فإن « الطفل » سرعان ما يتولى الزمام ، ويتم تطوير معاملة (والد - طفل) . ويعبر « طفل » المريض عن المشاعر ، ويتوقع العلاقة مع « والد » المحلل النفسي خلال معاملات الساعة الأولى . ويطلق المحللون النفسيون على هذه الحالة اسم : « النقل - أى أن المريض فى موقف يعمل على نقل المشاعر والسلوك المرتبط بها من الماضى ، عندما كان المريض صغيرا ، الى الحاضر ، الذى فيه يستجيب « الطفل » فى المريض ، كما كان يفعل قبلا بالنسبة لسلطة « الوالد » . وليست هذه « المعاملة » أو الموقف بالشئ القليل النادر فى حياتنا ، بل أننا نمر بها مرات ومرات ، وهناك عناصر منها ، مثلما يحدث على سبيل المثال عندما يوقف رجل المرور قائد سيارة . ويتأكد المحلل النفسي أن المريض قد تحسن عندما ينجح فى منع هذا النوع من المعاملات . من نقل أو تحويل المشاعر عن الطفولة . وعند هذه النقطة من التحليل لا يكون المريض مرغما على أن يختار ما سيكشفه عن نفسه للمحلل .

وبكلمات أخرى ، نقول أنه ليس على المريض أن يخشى « والد » المحلل . ويطلق على هذا الموقف فى التحليل النفسى اسم :
انتصار المقاومة أو مقاومة الخوف overcoming resistance

ونحن نتجنب أثناء تحليل المعاملات ، الكثير من الآثار المعوقة لعملية النقل ، والمقاومة الناتجة عن شكل ومضمون نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) ذى المشاركة المتبادلة . وسرعان ما يجد المريض أنه يتعامل على قدم المساواة مع انسان آخر أتى لمساعدته ، وهو انسان مهتم بتطوير معرفة المريض لذاته سريعا حتى يستطيع أن يصبح المحلل النفسى المفضل لديه بأسرع ما يمكن . وإذا تملكك المريض مشاعر النقل والمقاومة ، فان تلك المشاعر ستعالج مباشرة خلال الساعة الأولى بعد أن يتعرف الى « الوالد » و « الراشد » و « الطفل » .

وقد تطورت الساعة الأولى - من خلال ممارستى - الى نموذج ثابت . حيث يخصص النصف الأولى الصعب من هذه الساعة لسماع حكاية المريض عن مشكلته ، بينما يخصص النصف الثانى لتعريفه بأسس نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) وبعد أن يفهم المريض معنى النموذج ، تدور مناقشة مشكلته باستخدام اللغة التى تعلمها لتوه . وهذه المعاملة كفيلة باستحضار « الراشد » ويكون المريض متشوقا لسماع الأكثر . ولا يستسلم « الطفل » المتضايق بسهولة . وقد يقاوم أو يعاود اظهار « المقاومة » فى جلسات علاج فردية متتابة ، أو فى مجموعة علاجية ، ويحدث تفسير علاقة (راشد - راشد) فى كل مرة يظهر فيها « الطفل » بالكشف عن طبيعة المعاملة المتأصلة فى « الطفل » والحمل المسبب لمشاكل معاملات الفرد فى الحياة .

ويعتبر تحليل المعاملات فى المرحلة التمهيدية ، وسيلة ضرورية للتعليم والتعلم بفرض غرس معان محددة كأساس للاستكشاف المتبادل لكيفية ظهور (الوالد والراشد والطفل) فى معاملات اليوم .

واعتقد أن عملية ارساء أصول لغة ذات معان محددة فى المرحلة التمهيدية للعلاج ، هى سمة يتفرد بها هذا الاسلوب فى العلاج ، وهى مسئولة عن التعبيرات التى تجسد احساس المريض بالتحسن مثل قوله : « أشعر بتحسن كبير » ، أو « هذا يمنحنى الأمل » . وهى أقوال نستمتع اليها غالبا عند نهاية الساعة الأولى .

وتتضمن الساعة الأولى أيضا مناقشة « عقد العلاج » ونحن نستخدم كلمة « عقد » للدلالة على التوقعات المتبادلة (اننى هنا لكى أعلمك شيئا . وأنت هنا لتتعلم شيئا) . وهذا لايعنى أن الشفاء مضمون ، ولكنها تعطى ببساطة وعدا بما سيفعله الطبيب النفسى المعالج وبما سيفعله المريض نفسه . وإذا حاد أى منهما عن الاتفاق الاصلى ، يكون من السهل اعادة

النظر في العقد - وتصير هذه المحاولة ميسورة باستخدام اللغة الجديدة ،
التي تشق طريقها نحو الخصوصية . ويوافق المريض على تعلم لغة تحليل
المعاملات ، واستخدامها في فحص معاملاته اليومية . ويهدف العلاج الى
شفاء العرض الحالى ، أما طريقة العلاج فتتركز في تحرير « الراشد »
لكي يمارس الفرد حرية الاختيار . وخلق اختيارات جديدة ، أرفع وأبعد
عن تأثيرات الماضي المحدودة .

تشخيص المرض :

يسأل المريض أحيانا خلال مسار الساعة الأولى من العلاج - قائلا :
« ما هو تشخيص حالتى ؟ » فى صوت متهدج ، مرنعش النبرات ،
كما لو كان استجداً . ويشير هذا معاملة (والد - طفل) فأتجنبها بسؤال
مثل : « هل تحتاج الى تشخيص ؟ » أو « وماذا سيفعل التشخيص .
بالنسبة لك ؟ » وفى اعتقادى أن أشخاصا كثيرين قد أضرخوا من أسلوب
العلاج بسبب خطأ التشخيص النفسى . ويوافق كارل ميننجر على ذلك
قائلا : « لا يأتى المرضى إلينا لكي يدمغوا بسمة المرض ، ولكنهم يأتون
ليتلقوا المساعدة . ويستطيع الناس أن يشفوا من أعراض المرض العقلى .
ولكنهم لا يشفون من صدمة وصفهم بهذه الصفة » .

ويعتبر التشخيص فى التقليد الطبى ، طريقة كافية لاقامة الاتصال
من ناحية الأطباء . ان معرفة التشخيص تساعدهم على معرفة ما يجب أن
يفعلوه . ان اصطلاحات مثل : التهاب مزمن فى الزائدة الدودية ،
أو التهاب الكيس الزلالى ، أو سرطان فى أنسجة الرئة ، أو انسداد عضلة
القلب - تبين حالة معينة وتستدعى علاجاً معيناً ، أما فى العلاج النفسى
فسنجد أن أسلوب التشخيص التقليدى يفشل فشلاً ذريعاً فى تحقيق
الغرض الأصلى منه وهو تحقيق الاتصال بين المريض والطبيب . وقد وردت
صفحات عديدة عن التشخيص فى (دليل جمعية الطب النفسى الأمريكية) .
وفىما عدا بعض الاستثناءات ، فإن المعلومات التى يقدمها كل تشخيص
غامضة ، مثل اصطلاحات الأنا الأعلى والأنا والهو . ان القول بأن المريض
مصاب بانفصام مزيف ، أو قهر عقلى ، أو اعتماد سلبي ، أو قلق عصبى ،
أو وقوع تحت تأثير الماضى . هذه التشخيصات النفسية لن تفيد المريض
بل ستجعله يعتقد أن العلاج سيبستغرق وقتاً طويلاً . ان القول بأن المريض
يعانى من الانفصام لايفيد كثيراً لأننا نفتقر الى تعريف واضح للانفصام .
وقد يجده المريض بعض الراحة عندما يعرف أن عنده مثل هذا المرض .

الغريب ، والصعب . ويتفق القليل من الأطباء النفسيين على طريقة علاج الانقسام أو متى يجب استخدام الملاحظة ، إذن فإن الاصطلاحات التشخيصية من النوعية التي ذكرناها ليس لها معنى ، ونساعد فقط على اكساب جهود علماء النفس سمعة طيبة . وتحقيق متطلبات قسم الملفات بالمستشفى . إن كل كلمة تفشل في تحقيق الاتصال غير مفيدة ويجب نبذها . وفي التحليل النهائي ونقول أن ما نعرفه هو الذى يبين الاختلاف . أما الكلمات التى تطمس الحقيقة فيجب نبذها واستخدام تلك الكلمات البسيطة والدقيقة والمباشرة التى تعبر عنها علما بأن معرفتنا للطريقة التى ركبنا بها ، كقيلة بتحرير نفوسنا وكسر قيودنا .

أما لغة تحليل المعاملات ، وملاحظة الوحدة المتفق عليها (المعاملة) والتعريفات المحددة للوالد ، والراشد ، والطفل ، فإنها جميعها تتيج أسلوب اتصال جديد وغنى بالمعاني ودارج - ليس فقط بين الأطباء الذين يستخدمونه ، ولكن أيضا بين الأطباء والمرضى .

إن الشخص الواقع تحت سيطرة « الوالد » مع « راشد » موصد ، يعرف أين تكمن مشكلته . ويستطيع أن يتحرر من الماضى بدون الرجوع الى حقيقة أنه يعانى من حالة القهر العقل ، والوقوع تحت تأثير الماضى . وعندما يصير عضو بالمجموعة على معرفة بتشخيص مرضه فيتساءل : « من أنا ؟ أخبرونى بأى حال من الأحوال من أكون ؟ » فأننى فى العادة أجيب بصيغة يستطيع أن يفهمها ومبنية على أساس معرفتى به تلك التى اكتسبتها من مراقبته فى مجموعته . ومثل هذه الصيغة يجب أن تكون كما يلى : (إن لديك قدرا كبيرا من الأحساس بأنك لست على مايرام فى « طفلك » مع قدر متوسط من افساد « راشدك » مما يجعلك تضى فى بعض الأحيان على غير هدى . وتعطى « لوالدك » المتأرجح فرصة ليضرب « طفلك » فما هو مصدر احساسك بالذنب ؟) .

إن اهتمام المريض بأعراض مرضه ، يمكن أن يسبب نفس الضرر الذى يناله من احساسه بالحاجة الى تشخيص لمرضه . وقد فشلنا فى الحصول على سند يدعم فكرة أن المناقشة المتكررة للأعراض المرضية ، مثل الهبوط ، والصداع ، والأرق ، أو آلام البطن ، تنفع فى تخفيف الأعراض ، ولكننا أثبتنا أن التقليل من حدة الصراع الداخلى يمكن أن يصنع العجائب بالنسبة لآلام البطن . وكذلك فإن التشخيص واعراض المرض ينتهيان الى دائرة الألعاب التى يولع البشر للأسف . بممارستها ، أو بالاحساس بالتفوق على الآخرين مثل « مالى أفضل » أو « لا أحد يعرف كم أعانى » .

وماذا عانى « - وإذا عانى شخص من مشاكل فى حياته بصرف النظر عن ماهية هذه المشاكل ، وطلب المساعدة فى حلها « فمن المستطاع تعليمه تحليل المعاملات لفحص معاملاته الحالية فى الحياة « والتي يستطيع نتيجة لها أن يكشف التأثيرات القادمة من الماضى البعيد والتي تعود اليها متاعبه .

وفى العادة فانه يجرى خلال الساعة الأولى توجيه السؤال التالى : « كم من الوقت سيستغرقه ذلك ؟ » وقد كانت الاجابة عن هذا النوع من الأسئلة متحفظة ، على الأقل فى كثير من ممارسات العلاج النفسى ، ان لم يكن فيها كلها . أما مغزى السؤال فهو الاشارة الى أن العلاج سيستغرق دهورا - وقد أوضح جبروم د . فرانك أن توقعات المرضى عن فترة علاجهم تمثل عوامل أساسية فى تحديد طول المدة التي يستغرقها تحقيق نتائج نفسية مشابهة . وهو يستشهد بمجموعتين من المرضى « كانوا يعانون من أمراض سيكوسوماتية » فى نفس الوقت ولكن احدهما استغرقت ستة أسابيع ، بينما استغرقت الأخرى عاما كاملا للشفاء ، وكان الاختلاف هنا راجعا الى توقعاتهما فيما يتعلق بطول المدة التي يحتاجها كل فريق . وأظن أن المفتاح الى التوقع هو فهم نتائج العلاج النفسى التي يتم التوصل اليها .

وقد حددنا هدفنا من العلاج باستخدام اللغة الجديدة التي نعلمها للمرضى قبل علاجهم ، وعلى ذلك فان المريض يعرف الدور الذي يؤديه . وأنا أحب أن أعود مرضى على التفكير فى نطاق الحدود التي يفرضها عليهم واقع الزمن والمادة بوصفها تحديات لا موعقات . وحينما أبرم اتفاقا مع أحد المرضى أقول له عادة : « دعنا نرتب لك الحضور مع مجموعة الساعة الثانية يوم الثلاثاء لحضور عشر جلسات ، وسنرى ما نستطيع أن نعمله لك خلال هذه الفترة » .

أما اذا أراد المريض أن يستمر بعد هذه السلسلة فاننا نستطيع ترتيب عشر جلسات أخرى - وهو يعلم أنه يستطيع العودة . أما متوسط طول الوقت فى أى مجموعة من الذين يتدربون معى ، فانه يستغرق عشرين ساعة . وبالطبع توجد اختلافات ، تبدأ بالاختلافات الفردية . اننا نختلف فى (الوالد والراشد والطفل) كما نختلف فى مصاعب أوضاعنا المعيشية : مشاكلنا الزوجية ، والعمل غير المناسب ، وعدم وجود مجال لتمضية وقت الفراغ . الخ لقد كان هناك مرضى حققوا تفوقا فى خلال ثلاث أو أربع جلسات ، وهذا يعنى أنهم كانوا قادرين على أن يحرروا

ما يكفي من « راشدهم » بحيث اسنطاعوا أن يبدأوا في التفرقة بدقة ما بين « وانداهم » و « طفلهم » وما بين الاثنين والحقيقة - أى العالم الخارجى -

ومن بين الدلائل الأولى على هذه التفرقة قول المريض : « ان طفلى الذى ليس على مايرام ، كان ٠٠٠ » أو « يكون ٠٠ » ان استعمال هذا الاصطلاح يبين تحقيق فصل مفهوم ومحدد وحقيقى - « لطفل » المريض عن « راشده » وهذا يعنى أنه قد تكاملت فى شخصيته كافة الجوانب العقلية والداخلية والخارجية -

لماذا يستخدم العلاج الجماعى :

ان علاج الأفراد فى جماعات هو أسلوب الاختيار بالنسبة لتحليل المعاملات . هل هذا أسلوب طيب أم ردىء ؟ هل علاج الأفراد فى جماعات يمثل « أسلوبا اقتصاديا فى العلاج ؟ » ان رد فعل الكثيرين بالنسبة لكلمة «مجموعة» يشبه رد فعلهم ازاء الاصطلاح الذى استخدمه فرانكلين روزفلت « الرجل العادى » (*) من يريد أن يكون « عاديا » ؟ من يريد تذويب ذاته فى اطار عضوية جماعة ؟ ماذا يدور فى العلاج الجماعى ؟ ماذا يدور فى العلاج الجماعى باستخدام أسلوب تحليل المعاملات ؟ ان الانطباع العادى هو أن الناس من خلال العلاج الجماعى بأسلوب تحليل المعاملات يعبرون عن المشاعر « يخرجونها من داخلهم » ويقولون للآخرين ما يظنونهم عنهم . وعن « أى شىء يخطر فى بالهم » . وفى الحقيقة فان الكتابات العديدة عن العلاج الجماعى قد شجعت وجهة النظر هذه . وقد ذكر س. ر. سلافسون أحد رواد تطوير أساليب العلاج الجماعى - فى كتابه « The practice of Group Therapy أى : ممارسة العلاج الجماعى - ما يلى :

ان القيمة الرئيسية العادية للمجموعة تتمثل فى أنها تسمح باستخراج الدوافع الغريزية التى تتزايد سرعتها بسبب التأثير المساعد للعوامل الأخرى . فهناك حرص أقل وانطلاق أكبر فى المجموعة التى يلقى من خلالها المرء فى رفيقه سنداً ، كما يتضاءل الـ وف من تعرية النفس ، ونتيجة لذلك فان المرضى يكشفون عن مشاكلهم بسهولة ، مما يجعل العلاج النفعى ، وتمكش الدفاعات . وفى اطار هذه البيئة السهلة « واقتداء بالآخرين - تبدأ الصفحات التى تفرضاها النفس لجهانتها فى التلاشى » وبالرغم من أن المجموعات تخفف من دفاعات « الراشد » كذلك « فان هذا

(*) أى يعبر عن الازدراء - المنرجم .

يصدق أيضا على الأطفال والمراهقين - أن حرية التصرف والحديث تؤدي إلى الرضا - وهي في نفس الوقت تجعل المريض يتقبلون مع مشاكلهم وجهها لوجه في مرحلة مبكرة من العلاج - وكذلك تقلل الدفاعات التي يحاول بها المرء حماية كبريائه الشخصي - أن المناخ الودود للمجموعة ، والقبول المتبادل يجعلان الفرد في غير حاجة لموقف الدفاع - فالجميع لديهم نفس المشاكل ولا يتوقع أحد ردود فعل سلبية - أن الوضع قد تأكد ولم يعد هناك خوف من الانتقام أو الإقلال من القيمة (١) .

وخلال ممارستى للعلاج ، لم أستطع أبدا أن أقر العبارة السابقة - أن السماح للصغير بالتعبير عن دوافعه الغريزية - وأداء الألعاب كيفما اتفق من خلال مجموعة العلاج ، ليس الا اضاعة لوقت المجموعة وعدوانا على حقوق وأهداف كل عضو في المجموعة - وإذا سمح للصغير بالاستمرار - فانه سيخرب « العقد العلاجي » لتحليل المعاملات - وحتى يكون كل عضو على الأقل قد بدأ في تحرير « راشده » سعيا للخلاص ، فان العائد المتوقع من « كرسى الاعتراف » سيكون ضئيلا - ان كان هناك ثمة عائد - في علاج أى من أفراد المجموعة - ولا يجعل الا بالمحافظة على وضع « الراشد » في موقع المسئولية - و « الراشد » فقط هو الذى يستطيع أن يكشف « الطفل » أو « الوالد » - ان الكشف عن المشاكل يمثل دعوة للمشاركة فى الألعاب « لماذا لاتفعل - نعم ولكن » - ان التعبير عن المشاعر و « الحديث من خلالها » قد ينتج الرضا بالنسبة « للوالد » و « الطفل » - كما يحدث فى الحياة اليومية ، ولكن من خلال مجموعات العلاج تتداخل هذه المعاملة مع اكتساب احساس المرء بأنه على مايرام ، والمفاهيم الضرورية للوصول الى « الراشد » المتحرر .

لا يوجد سحر فى كلمة « مجموعة » لأن تحليل المعاملات فى مرحلته المبدئية ليس الا تجربة تعليم وتعلم - وأسلوب المجموعة له مميزات عديدة واضحة تجعله يتفوق على الأسلوب التقليدى للعلاج الفردى (طبيب + مريض) - وكل ما يقال فى المجموعة يراه ويسمعه كل عضو فيها - تستوى فى ذلك كافة الأسئلة والأجوبة والمعاملات - ويحتاج المريض الى التعرف على الطرق المتعددة الخفية التى يكشف بها « الوالد » عن نفسه فى المعاملات - فلا بد من تعريفها وتعلمها - ولا بد من معرفة كل من التهديدات الداخلية والخارجية التى تهدد « الطفل » أولا بشكل عام ،

S. R. Slavson, "The Practice of Group Therapy", (New York : International University Press, 1947). (١)

يتبعها التطرق الى الخصائص الفريدة والمحددة « للطفل » فى كل فرد من أفراد المجموعه . وهناك يواجه المريض الالعب والواقع الذى يعيش فيه بأسلوب يختلف عن الحديث المتنقى والمتسامح الذى يدور همسا بين المعانج والمريض فى أسلوب العلاج الفردى . أما فى علاج المجموعات فان الناس تظهر فى الوسط الطبيعى مندمجة مع غيرها بدلا من انفصال كل شخص على حدة ذلك الانفصال الذى لن ينعكس على الخارج أبدا . وتتركز الفائدة الأساسية من علاج الناس فى مجموعات باستخدام أسلوب تحليل المعاملات فى أنهم يتحركون أسرع نحو الشفاء ، والعودة الى الحياة ، والبدء فى الرؤية ، والاحساس بما هو حقيقى ، أو « النمو » . ومهما كان عذف الفرد من العلاج فلا بد من الكشف عنه عند نهاية الساعة المثيرة من خلال المجموعه . وقد قال واحد فى احدى المجموعات : « اننى أشعر كما لو أن طولى عشرة أمتار » .

وقبل فحص هذه الفائدة الأولية « قد يكون من الأفضل الاشارة الى الاجابة التى يقدمها العلاج الجماعى عن التكلفة المرتفعة المعروفة للعلاج الفردى » والتفاوت بين عدد الأشخاص المحتاجين للمساعدة والعدد المتاح ممن يقدمون هذه المساعدة اننا نعيش فى عصر الاحساس بالتكلفة والوقت ، كما أننا نشعر دائما بضرورة مديد العون لهؤلاء الذين يعانون وهم كثيرون . وعلينا ونحن نبحث عن الحل أن نفحص واحدا من أهم الانتقادات الموجهة للعلاج بالتحليل النفسى : انه ارتفاع التكلفة ، والوقت الطويل الذى يتطلبه حتى تتحقق النتائج التى قد تكون غير مؤكدة . ولا نستطيع أن نتجاهل هذا الانتقاد بسهولة ونقول ان الذين يتمسكون بوجهة النظر هذه عاجزون عن تقييم الأولويات الحقيقية ، مثل ذلك الذى يعانى من مشكلة ولا يجد لها حلا الا فى اقتناء سيارة حديثة الطراز بدلا من البحث عن من يساعده فى ايجاد حل حقيقى للمشكلة .

ويوجد اليوم العديد من الأفراد الذين على الرغم من قبولهم الكامل لفكرة أن « الصحة النفسية مهمة » ، الا أنهم لا يزالون عاجزين عن تحمل نفقات العلاج الطويل المدى بالتحليل النفسى مع ارتفاع تكاليف المعيشة التى وصلت الى أقصاها ، ومن هؤلاء الكثير من أبناء الطبقة الوسطى وجميع المجموعات ذات الدخل المحدود . فهل تقتصر الصحة العقلية على الأغنياء ؟ وهل العلاج بالتحليل النفسى ، هو كما سمعت زميلا من المحللين النفسيين ، نوع من الرفاهية ؟ وهل فى الامكان مساعدة عدد أكبر من الناس عن طريق العلاج الجماعى ؟ وهل يمكن اعتبار الرعاية النفسية جزءا من العلاج مثل الجراحة الطارئة ؟ ان الدكتور ليونارد شازمان وهو

طبيب بالمركز الطبى لجامعة كاليفورنيا - قد أكمل فى سنة ١٩٦٦ دراسة ميدانية لخمسة عشر مركزا طبيا على مدى نمائة أعوام ، غاص خلالها بين المحللين النفسيين والأطعم العاملة معهم . ومن خلال الدراسة التى نشرها سنة ١٩٦٦ بمجلة *San Francisco Chronicle* ، لاحظ أن :

الاسلوب العلاجى القديم القائم على النظام الفردى (طبيب + مريض)
يستخدم الإنرياء ، مع التجاسل العامل للطبعت الصغيرة . وسدا الاسلوب لم يعد الآن كافيا حيث يحتاج السدن الدين يتزايد عددهم اليوم - الى خدمات نفسية أكثر . كذلك فإن الطبيب النفسى الذى يستخدم اسلوب التحليل النفسى يلتزم بمكتبه ويقدم الخدمة الشخصية الى عدد محدود من المترددين ، وعليه أن يتعامل مع الناس الأكثر ثراء لتغطية تكاليف أعوانه . ويتم تفصيل الخدمة حسب حالة العميل من حيث كمالها . أو رداءتها . أو بين هذا وذاك . كما أن الطبيب يقدمها فى شيء من الكبرياء والتناق . ولكن من يشتري الحل الجاهزة ؟ من الذى يأكل دائما فى المطاعم الشهيرة التى تقدم الطعام ومعه النبيذ على ضوء الشموع ؟ من الذى يقود السيارات المصنوعة حسب الطلب ؟

ومن الممكن لعلاج الأفراد من خلال المجموعات أن يقلل من تكلفة العلاج الى الدرجة التى يمكن عندها قبول العلاج لدى القائمين به . ومن خبرتى أيضا أقول أن العلاج الجماعى باستخدام تحليل المعاملات ، قد قلل من طول فترة العلاج التى ترتب عليها أيضا خفض التكلفة بالنسبة للمريض . ويتركز العامل الثالث فى أن « عقد » العلاج ، والجراءات المستخدمة ، أصبح محدودا جدا لدرجة اعتقادى بأن هذا الشكل من أشكال العلاج سيدخل نظام التأمين على نطاق واسع وإذا استطعنا التأمين على تعليم أولادنا ، فمن الممكن أن نؤمن أيضا على نوع خاص من التأمين المتعلق بالسلوك .

وعلى أية حال فهناك ما هو أهم من هذه الاعتبارات ، وأعنى به حقيقة واعتمادا على خبرتى - أن بعض الأفراد تتحسن حالتهم أسرع من خلال مجموعات العلاج باستخدام تحليل المعاملات ، أكثر مما يحدث باستخدام علاقة الاسلوب الفردى التقليدى (طبيب + مريض) . وأقصد بالتحسن هنا تحقيق الأهداف المنصوص عليها فى عقد الساعة الأولى ، والتى من بينها هدف تخفيف حدة الأعراض الحالية (منها على سبيل المثال : انحلال الزواج ، والارهاق ، والصداع ، والفشل فى العمل . . الخ) والهدف الآخر هو تعلم استخدام نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) بدقة .

وتفاءة - ومن بين المعاييس التي تبين شفاء المريض ، مقدرته على در ما حدث في اى معامه بطريقه مفهرمه لبعيه افراد المجموعه « واذا در الى شخص انه صبي فسرء طوينه فى العراج وانه « دن معيدا » ولذنه لم يستطع الاجابه عن سؤالى : « ماذا حدث خلال العلاج ؟ » فاننى لا أشعر بانه قد حقق السيطرة على افعاله الداتيه - وانا اطبى هنا فكرة ارسطو الثالثه بان « ما يعبر عنه - ينطبع فى الدهن » . واذا استطاع المريض أن يعبر بالكلمات عن : لماذا عمل ما عمله ، ويعرف كيف توقف عن عمله ، فانه يكون قد نال الشفاء . مادام يعرف ماهو العلاج ويستطيع أن يستخدمه مرارا « بمرارا » . ومادام المريض قد تعلم مبادئ نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) فانه يستطيع أن يرى مجموعته تحليل المعاملات كشخص يختلف كثيرا عن ذلك الذى تعود أن يراه عن طريق « والده » « طفله » . وربما يكون قد تعلم مبكرا : « لاتنشر غسيلك القذر أمام الآخرين » . أو « لاتبج بأسرار العائلة » . ويحدث هذا من خلال شريط واضح التسجيل يعمل عن طريق « الوالد » . ومن الجهة الأخرى فان « الطفل » يريد احتلال الملعب فترة الساعه بكاملها ، وذلك بالاستمرار فى لعبة « أنا مسكين » . والشخص الذى يريد أن يلعب لعبة « الاعتراف » و « الطب النفسى » ، و « أليس هذا فظيما ؟ » « انها غلطته هو وحده » ، سرعان ما سيجد أنه لا أحد من المجموعه يريد أن يشاركه اللعبة . ان دور المعالج النفسى هو دور المدرس ، والمدرّب ، ورجل الأبحاث الذى يشجع بشدة على الاندماج ، ويسمح بشئ من الضحك ليوفر احساسا مريحا للحاضرين يقيهم من الشعور بأن هذه التجربة التى يمرون بها تجربة مزعجة . ويسعى كل عضو بالمجموعه نحو غرض واضح ، ومحدد ، ومن السهل ذكره : معالجة المريض بتحرير « راشده » من التأثيرات المثيرة للمتعاب ، ومطالب « والده » و « طفله » . ويتحقق هذا الغرض بتعليم كل عضو بالمجموعه ، كيف يعرف ويحدد ويصف « الوالد » و « الراشد » و « الطفل » كما يبدو كل منهم له من خلال المعاملات داخل المجموعه . وحيث ان السمة الأساسية للمجموعه تتركز فى التعليم والتعلم والتحليل ، فان فاعلية المحلل النفسى تقوم على حماسه وقدرته كمدرّس واستعداده لمجاراة كل اتصال أو اشارة صادرة عن المجموعه ، سواء كانت لفظية أو بطريقة أخرى . ويظهر « الوالد » عند تنظيم المجموعه بطرق عديدة : هز اصبع السبابة ، رفع الحاجب ، زم الشفتين ، أو بعض العبارات مثل : « ألا توافق ؟ » أو « كل شخص يعرف أن ٠٠٠ » أو « يقولون ٠٠٠ » أو « بعد كل شئ ٠٠٠ » أو « سأعرف الحقيقة ولن تستطيع خداعى بعد ذلك أبدا » .

ويظهر « الطفل » أيضا بوسائل يسهل التعرف عليها مثل : البكاء ، والضحك ، والحياء ، وقضم الأظافر ، والعض ، والحركات العصبية ، والانسحاب ، والتكشير ، بالإضافة الى مجموعه العاب « الطفل » مثل : « أنا مسكين » و « أليست رائعة » . « عدنا لهذا من جديد !! » ويساند أعضاء المجموعة احساس « الطفل » بأنه ليس على مايرام ، الكامن في زميلهم . ونادرا ما يعمدون الى تقريره منلما يفعل « الوالد » . وهناك تمهيد تشجيعى مثل : « أستطيع رؤية أن - « طفلك » - قد أضر » فما سبب ذلك ؟ « أو « هل تستطيع أن تذكر لى ما الذى استثار « طفلك » ؟ » .

ويبدأ المرضى سريعا فى استكمال المعلومات الخاصة « بالوالد » و « والراشد » و « الطفل » - فى كل منهم - من خلال العديد من المعاملات . وهذا هو تقييم المجموعة ، ليس بالنسبة للمعلومات التى دفنت مدة طويلة ، ولكن بالنسبة للبيانات التى تتكشف أمام أعينهم ، اليوم ، فى المعاملات التى يدخل فيها كل منهم . ان المجموعة تتالف من مشاركين لا من مراقبين يؤمنون ايمانا عميقا بما يقال لهم ويطلق عليهم اسم : فريق العلاج . ولكن القليل من المرضى هم الذين يستطيعون تحمل اسم فريق العلاج ، وقليل من الأطباء النفسيين هم الذين يستسيغونه لمرضاهم . يقول أفروم جاكوبسون ، مدير الطب النفسى بمركز جيرس شور - ما يلي :

وتستمر العيادات على أية حال ، فى « تقييم » المرضى عن طريق الفريق الجماعى . وهذه عملية قاسية وطويلة بالنسبة للمريض ، تتطلب طقسا لجمع لمعلومات بواسطة الباحث الاجتماعى [الذى ينقب فى خفايا النفس] ، والفحص بواسطة الطبيب النفسى الذى يساهم بالقليل فى تكوين الانطباع الطبى للتعامل النفسى والوقت الذى يجب أن يقضيه فى اجتماع الانصات لجميع التقارير - التى جمعت بعناية على مدى فترة تقدر بعدة شهور - يمكن أن يستفيد منه بقضائه فى الاتصال المباشر بالمريض .

ويشير الى دراسة سابقة عن احدى العيادات : أوضحت أن معظم وقت العيادة كان مخصصا للتركيز على تشخيص أمراض المرضى الذين لم يكن من المتوقع أن يأتوا للعلاج (٢) .

A. Jacobson, "A Critical Look at the Community Psychiatric Clinic," Supplement to The American Journal of Psychiatry, Vol. 124, No. 4 (October, 1967).

وفى الأيام الأولى لاستخدام نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) كان بعض المرضى يأتون من الدخول فى مجموعة « ويصرون على أساليب العلاج التقليدى » اى انهم يأتون ليسردوا مشاكلهم بشكل خصوصى ، كما أنهم لا يوضعون فى مجموعات على أساس التشابه فى الأعراض ، عن ذلك شيء بطريقة أو بأخرى « . وقد تغير هذا الموقف كثيرا بسبب التفارير الطبية عن فعالية العلاج الجماعى . وفى الآونة الأخيرة يأتى الى مرضى بناء على نصيحة بعض المصادر الخارجية بالتزام العلاج الجماعى . أو يطلبون السماح لهم بدخول مجموعة لأنهم سمعوا عن مثل هذه المجموعة من صديق . ولا يتم اختيار أعضاء المجموعة حسب تصنيف التشخيص ، كما أنهم لا يوضعون فى مجموعات على أساس التشابه فى الأعراض . ليس فقط لأن ذلك ضروريا ، بل للتخفيف من الاحساس بالاهانة التى يشعر بها المرء حينما يصنف كمرضى نفسى يعانى من عقدة معينة . وليس من المفيد وضع جميع مدمنى المسكرات ، أو جميع الشواذ جنسيا ، أو جميع المتسربين من التعليم ، فى مجموعة واحدة . اذ قد يؤدى هذا الى ظهور نغمة واحدة « ألسنا كلنا فى الهواء سواء ؟ » مع نشاز واحد هو صوت الطبيب المعالج »

وعلى ذلك فان المجموعة قد تشمل كافة مستويات التشخيص بما فيها ذوى الذكاء المحدود ، وهؤلاء الذين عجزوا عن الاستمرار فى التعليم الرسمى . وقد استطاع الكثيرون من الأفراد الذين « تعلموا بمجودهم الشخصى » أن يصبحوا محللين للمعاملات . وقد أتاحت الفرصة للعديد من مرضاى لرؤية مريض من المجموعة يدخل فى حالة نفسية حادة ويخرج منها (افساد الراشد) والتعبير الحر عن الأوهام العديدة (التى يباشرها « الطفل » القديم) . وقد لاحظوا من خلال المجموعة واستمعوا الى مرضى كانوا يهذون فى هسائية بحوار (الوالد - الطفل) الذى يعتمل فى المريض والذى وصفه بأنه آت من خارج ذاته . أما المرضى الذين تحرر « راشدهم » فلا تقلقهم هذه المظاهر الخاصة بالاضطراب العقلى المرحلى ، ويميلون الى أن يكونوا معاونين ، ومؤكدين ، ومحبين . مع تجاهل ما هو غير عادى .

وتتقابل كل مجموعة من مرضى تحليل المعاملات الموجودين عندى أسبوعيا فيما عدا مجموعات المستشفى التى تتقابل يوميا . وعند انتهاء مدة البقاء فى المستشفى ، التى تقدر بنحو أسبوعين فى المتوسط ، يدخل المريض احدى المجموعات فى مكتبى . وقد تعلم أعضاء المجموعة أن يكونوا حذرين بالنسبة ليل « الطفل » للمقارنة . « اننى أتعلم أسرع منك »

أو « أنت أشد منى مرضا » - ولذلك يحس المرضى الجدد الذين يدخلون مجموعة من « قدامى المترددين » براحة البال ، ويتقدمون سريعا الى ممارسة تحليل المعاملات - أما تنظيم حضور المجموعة فهو مريح ، ويتيح الاستماع الواضح ، فكل شيء يمكن سماعه - بما في ذلك صوت التشاؤب - وتحتل السبورة (التي تستعمل غالبا وفي كل جلسة لبيان الرسوم التوضيحية اللازمة للاستعادة الرمزية للتركيبيات المهمة) مكانا ظاهرا من الحجره .

ينطلق بعض الناس بمهارة الى تحديد « الوالد » و « الراشد » و « الطفل » ، والأساليب التي تنخرط بها هذه العناصر في المعاملات الجارية - بينما يحتاج البعض الآخر الى وقت أطول - أما هؤلاء الذين قد يبطئ العلم في الوصول اليهم - فانهم يطورون الفراسة والبصيرة في الوقت المناسب ، بحيث تتركز مقاومتهم للتعلم في « الطفل » (ليس على مايرام) الذي يعمل تحت ستار حقيقة قديمة لم يكن الصغير قد سمح لنفسه خلالها بأن يفكر لذاته .

ان معرفة وجود حالة (ليس على مايرام) لدى « طفل » الفرد ، تمثل أول وأهم الخطوات في معرفة أساس السلوك - وهذا يبين بداية التقييم الموضوعي لبناء شخصية الفرد - ان فهم هذا أكاديميا شيء ، أما الشيء الآخر فهو التعرف على هذه الحقيقة في الفرد - ان « الطفل » الذي ليس على مايرام قد يغدو فكرة طريفة ومثيرة في عين المريض الذي يتباهى بأن « طفله » الذي ليس على مايرام - حقيقة واقعة .

ويتصل مضمون معاملات المجموعة في الغالب بمشاكل الأعضاء في اليوم الحاضر - ان ما حدث بالأمس ، أو ما حدث في الأسبوع الماضي هو موضوع النقاش - وليس ما حدث منذ زمن طويل - ويتعلم الأعضاء كيف يتعرفون على « والدهم » و « راشدهم » و « طفلهم » لدى ظهورهم في معاملات الحاضر خاصة المعاملات التي في نطاق المجموعة نفسها - ويختلف هذا تماما عن نوعيات المعلومات التي نحسبها أحيانا وليدة أبحاث علم النفس - وفي حديث موجه للاتحاد الأمريكي لعلم النفس خلال شهر سبتمبر سنة ١٩٦٧ - أكد رئيس الاتحاد أ.ه.ام ماسلو أن زملاءه بصفة عامة يسرفون في حشد الحقائق « التافهة » تحت زعم البحث العلمي - ودغم أن المعلومات التي يجمعونها مفقدة ، الا أنها تنجو نحو السطحية ، وإلى أن تكون مجرد كومة من الحقائق الجزئية ... ولكن العديد من علماء

النفس عاكفون على دراسة موضوعات أرقى من « ربع الدائرة الأيسر من مفلة بين شخص ما » (٣) .

ان القيمة النهائية للبحث بصرف النظر عن هيئته « تتركز في المعلومات التي تتيح للناس أن يتغيروا » وسرعان ما يظهر من خلال المجموعة التغير الناتج في الأفراد كأن يبدأ « راشدهم ؟ في تحمل المسؤولية » كما يظهر أيضا لأفراد الأسرة الآخرين « وقد يترتب على ذلك في الغالب عقبات معينة بالنسبة للشخص » لقد اشكى أحد الأزواج الذي كانت زوجته ضمن إحدى مجموعاتي قائلا : « ما الذي يدور في هذه المجموعة ؟ ان زوجتي تبدو أكثر سعادة ، ولكن حياتنا الزوجية في مهب الريح » . وفي مثل هذه القضية أدعو الزوج الى جلسة منفردة لشرح مفاهيم نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) والأفضل أن يدخل الزوج والزوجة معا في مجموعة للمتزوجين « ومن البديهي أنه اذا دخل فرد من الأسرة في مجموعة وبدأ يتغير ، فإن الأسرة كلها يجب أن تتغير لأن نموذج اللعبة قد انفرط عقده »

واذا كان أحد أفراد الأسرة على سبيل المثال هو « الشاة السوداء » ثم بدأ في الخروج على هذا الدور ، فإن أدوار الآخرين خاصة الصغار الذين ينتمون للأسرة ، قد ترتبك ، أو تنعكس ، أو تنقلب . وهذا هو السبب في النتائج الممتازة التي تتحقق عندما يشتمل العلاج النفسي الأسرة كلها . ان العقد في مجموعات المراهقين التي عندي ، يدعو الى اشتراك الأبوين أيضا في العلاج . ومن أهم الموضوعات التي تتكرر مناقشتها في اجتماعات هذه المجموعات هو : « كيف تخرب العلاج النفسي ؟ » ان بعض الآباء يقوضون جهود العلاج دون معرفة لأنهم في الحقيقة لا يريدون أن يتخلوا عن علاقة (الوالد - الطفل) التي يحسون بأنها كانت « تعمل بصورة جيدة » في الماضي . ان موقعهم كمركز قوة مهدد حيث ان المراهق يبدأ عمله في « الراشد » . واذا لم يكن الأبوان متعادلين في قوة « الراشد » مع الابن ، فان المعاملات ستتقاطع ، ويرى هذان الأبوان أن استقلالية صغارهم تهدد سلطانهما عليه ، رغم انهما قد اقرا بخاجة ابنهما لهذه الاستقلالية وذلك قبل العلاج . وقد تبدو المتاعب العادية أكثر اجتلابا للراحة للأبوين الخائفين أكثر من المخاطرة بالثقة في « طفلهما » المراهق وهي الثقة اللازمة لكي يطور سيطرته الذاتية على نفسه . ويتم تشجيع أعضاء المجموعة على عرض علاقاتهم بطريقة مسئولة ومقعدة بالصحب . وبعض العلاقات تستمر

بفضل الألعاب . أما إيقاف اللعب فانه يعنى انتهاء العلاقة - ولا يعبر هذا دائما عن الحب أو يعكس الواقع - واذا كانت قد رتبت زيارات الجدة على مدى السنوات العشرين الماضية عن طريق مجموعة ألعاب « كم هو مرعج » فان وقف زيارات الجدة لا يعبر عن الحب ، لأنك لا تستطيع أن تمضى فى هذه اللعبة - وهناك اختيار أمام « الراشد » : أن يلعب أو لا يلعب - أن يعدل اللعبة الى شىء أقل تدميرا ، أو يحاول أن ينفذ الى باطن الشىء ويشرحه للآخرين حتى يقلعوا عن تلك اللعبة ، ولكننا على أية حال بشر ، والبشر مصابون بهذا الداء (الألعاب) أيا كانت طبيعتها - واذا أردنا ألا يهزمنا الشر ، فعلينا أن نهزم الشر بالخير - ولن نستطيع أن نفعل ذلك اذا انسحبنا من كافة العلاقات التى تتضمن الألعاب .

وافضل أن تعود من وقت لآخر الى الاحتياطات الوقائية الكامنة فى نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) - ويحيط بى أثناء كتابة هذا الكلام صفوف من أرفف الكتب تثقلها مجلدات مكرسة لأساليب العلاج النفسى ، معظمها يسرف فى رواية حكايات مقبضة حول ما يسمى : « المرض العقلى » أو الشقاء الانسانى ، ويتبعها بأحدث المناقشات التقنية عن الأخطار المتضمنة فى العلاج النفسى - ان الكثير من تلك المتاعب النفسية يمكننا أن ندرجه ضمن اطار ما يسمى : « مشاكل التحويل والمقاومة » التى تتركز فى التحليل النفسى - والكثير من هذه الكتابات يسهب فى شرح كيفية حماية الطبيب النفسى أكثر من كيفية معالجة المريض . واذا كان المحلل النفسى هو البطل فى التحليل النفسى ، فان المريض هو البطل فى أسلوب تحليل المعاملات الذى ينطوى على احتياطات (الوالد - الراشد - الطفل) الوقائية التى يتشارك فيها أعضاء المجموعة ، مع اللغة التى تشكل الأساس لعلاقة (مريض - مريض) وعلاقة (مريض - طبيب نفسى) حتى يتمكنوا من فحص ذواتهم وكافة مظاهر السلوك والمشاعر بصرف النظر عن طبيعتها - ويقوم الأعضاء فى فريق (الوالد - الراشد - الطفل) بدور كل من التأثير المقاوم والتأثير المساند - بالنسبة لكل منهم .

وفى تلك الجلسات تتلاشى صورة الطبيب المسيطر الجالس فى الركن المظلم مع مريضه الصغير المسكين المستلقى أمامه ، فكلاهما يأنف من الكتابة - وكلاهما واع لأخطارها - ويسمح أحد بنود « عقد » مجموعة (الوالد - الراشد - الطفل) « للطفل » بالظهور ، كما يشجعه وذلك فى كل عضو من المجموعة بما فيهم الطبيب ، على الضحك . ان مجموعات (الوالد - الراشد - الطفل) تمتاز بخاصية الضحك ، وتتمتع بقدرة

عظيمة على مراعاة « الوالد » الذى يغذى فى النفس الانسانية بالقواعد
والمثل . بينما تبحث عن اجابات جديدة لمشاكلها مع « الراشد » المتنبه
والواعى .

اذن فالخطر يتركز فى أن الطبيب لايعرف ، أو من ناحية هذا الأمر
فان أحدا لايعرف مايستطيع موقف (أنا لست على مايرام) لدى «الطفل»
أن يفعله بالنسبة لحياة الشخص وحياة الآخرين الذين حوله .
وعندما يعلن أحد أعضاء المجموعة : « لقد استشرت - « طفلى » - الذى
ليس على مايرام عندما قلت ذلك » فان الطريق ينفتح لفحص أحد أسرار
وجودنا ، والذى سيبرهن ناتجه على أنه متزايد الفائدة لكل أعضاء
المجموعة .

الفصل الثانى عشر

نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) والقيم الأخلاقية

(اننى أعرض حل مشكلة التوتر القائم بين العلم والدين . ليس عن طريق التجاهل أو الازدواج . بل عن طريق التوفيق - تيهار دو شاردان) .

انك تطلب من ابنك الذى عمره ست سنوات أن يخرج ويضرب ذلك الولد فى أنفه « بنفس الطريقة التى ضربك بها » فلماذا ؟

أنت تسير ضمن مظاهره تعارض حرب فيتنام - لماذا ؟

أنت تعطى عشر ايرادك للكنيسة . لماذا ؟

أنت لا تخطر جهة الضرائب المختصة بالإيرادات الداخلية عن صديقك الحميم ، بالرغم من معرفتك أنه متهم بالتهرب من دفع ضرائب ضخمة . لماذا ؟

أنت تتحمل مسئولية خطأ أحد الموظفين . لماذا ؟

أنت تؤيد اصدار قوانين عادلة للاسكان . ولكنك تنسى أن تدلى بصوتك . لماذا ؟

أنت تطلب من ابنتك أن تكف عن مصاحبة صديقة معينة تنحدر من بيت مشبوه . لماذا ؟

أنت لا تشئ بزميل سيمى الخلق ، حتى وأنت تعرف أنه يعرض الناس للضرر . لماذا ؟

ان الناس يتخذون كل يوم قرارات من هذا النوع ، وهى كلها قرارات أخلاقية ، أو قرارات تتعلق بالصواب والخطأ - فمن أين تأتى البيانات التى تدخل فى صنع هذه القرارات ؟ انها تأتى من « الوالد » و « الراشد » و « الطفل » - انك بعد أن تفحص كافة بيانات « والدك » وتحتفظ ببعضها بينما ترفض البعض الآخر ، فماذا تفعل إذا لم تشعر بأن لديك المؤشرات الضرورية لاتخاذ القرار ؟ هل تتنازل ؟ وإذا كان لديك « راشد » متحرر - فماذا تفعل به ؟ أما من جهة الأسئلة الأخلاقية ، فهل تستطيع أن تفهم الأشياء بنفسك ؟ أم تذهب لسؤال « المختص » ؟ هل نستطيع جميعا أن نحض على التمسك بالأخلاق ؟ أم أن ذلك يقتصر على الأذكياء والعقلاء من الناس ؟

وإذا اتضح لنا أننا لا نتصرف كما يجب ، فالى أين نذهب لطلب المعلومات الجديدة ؟ أين هى مواضع القصور لدينا ؟ وأى نوعيات الحقيقة يستطيع « الراشد » أن يفحصها ؟

ان الحقيقة هى أكثر أدوات العلاج أهمية لدينا ، أما ما نفهمه من دراسة التاريخ وملاحظة الانسان ، فهو أيضا حقيقة نستخدمها كأداة نبني بها نظاما أخلاقيا سارى المفعول - ولن نكون منطقيين إذا سلمنا بأن الحقيقة الوحيدة عن الانسان - موجودة ضمن خبرتنا الشخصية أو فهمنا الذاتي - ان الحقيقة لدى بعض الناس أوسع مفهوما عنها لدى البعض الآخر ، لانهم رأوا أكثر ، وعاشوا أكثر ، وقرأوا أكثر ، وفحصوا أكثر ، وفكروا أكثر - أو لأن حقيقتهم ببساطة تختلف عن حقيقة غيرهم -

ان حاجتنا للاهتمام الى الاتجاه فى رحلتنا خلال الحياة تشبه المشكلة الملاحية بالنسبة لقائد الطائرة - كان الطيارون فى الأيام الأولى للطيران يطيرون - حسب سرعة الحركة - معتمدين على الرؤية - مع مقارنة ما يشاهدونه من المعالم الأرضية : الأنهار ، والجداول المائية - وخطوط السكك الحديدية ، والمدن - بالخرائط التى ينشرونها أمامهم - وبالطبع فإن هذا الأسلوب لم يكن جديرا بالاعتماد عليه عند تدهور الرؤية - ولو لمدة قصيرة ، ولذلك اخترعت أجهزة الارشاد الملاحة لتحديد الاتجاه بالنسبة لموقعين (هذان الموقعان هما محطات للارسال اللاسلكى تطلق كل منهما إشارة تبين للطيار المسار الذى تتخذه طائرته بالنسبة للمحطة) ثم يرسم المسارين فى شكل شعاعين على الخريطة التى أمامه ويحدد تقاطع الشعاعين موقع الطائرة - أما إذا حدد موقعه بالنسبة لاتجاه واحد (من إحدى المحطتين فقط) فلن يجد موقعه - قد يكتشف أنه يطير فوق خط

الاستواء ولكن على أى جزء من خط الاستواء ؟ كان عليه أن ينظر فى اتجاه آخر (الشعاع القادم من المحطة الثانية) بحثا عن المعلومات التى تعجب عن هذا السؤال (١) .

اننى أشعر بأن الكثيرين من الأطباء النفسيين يذنبون فى ممارسه العلاج حينما يسرون به « فى اتجاه واحد » بحيث يخصصون كل وقتهم للنظر فى حقيقة واحدة فقط هى - التاريخ الماضى للمريض - ماذا فعل ؟ - ويتجاهلون فحص نوعيات الحقيقة التى ربما تساعد فى فهم ما يجب أن يعمل .

ويتضاءل رصيدنا من البيانات اذا اعتقدنا أن حقائق صحتنا العقلية لاتنبع الا من حالات معينة مثل أن نقول : « أنا كذا وكذا وكذا ، لأننى عندما كنت فى سن الثالثة ، ضربت أمى أبى يطبق فى ليلة عيد الميلاد » . ويزكرنى هذا اللون من الحقائق فى كهوف الذاكرة بقصة هـ . ألن سميت عن بنت صغيرة كتبت مذكرة شكر لجدها لأنها أعطتها كتابا عن طائر البطريق بمناسبة عيد الميلاد فقالت : « جدتى العزيزة ، أشكرك كثيرا جدا من أجل الكتاب اللطيف الذى أرسلته لى بمناسبة عيد الميلاد » . وهذا الكتاب يمدنى عن طائر البطريق ، بمعلومات أكثر من حاجتى » .

ونستطيع أن نقضى حياتنا فى التنقيب خلال آكفان التجارب الماضية، كما لو كان ذلك هو المكان الوحيد الذى تعيش فيه الحقيقة . وتتجاهل دائما الحقائق القهرية الأخرى « مثل حقيقة الحاجة الى وجود نظام للقيم الأخلاقية » .

لقد رأى الكثير من علماء النفس أن ارساء أحكام خاصة بالقيمة هو انحراف شنيع عن الأسلوب العلمى « يتحتم تجنبه مهما كانت التكلفة » . ويصر بعضهم على أن البحث العلمى لايمكن تطبيقه على هذا المجال « انه حكم تقييمى » ولذلك لانستطيع أن نفحصه . « انه فى مجال العقائد » ولذلك فائنا لانستطيع أن نجمع بيانات صادقة ، ولكنهم ينسون أن المنهج

(١) الأسلوب الذى أشار المؤلف الى أنه كان مستعملا فى الأيام الأولى للطيران هو الطيران حسب قواعد الرؤية VFR ولا يزال مستخدما حتى اليوم لمعظم الرحلات القصيرة التى تقطعها الطائرات الصغيرة . أما أجهزة الارشاد الملاحي التى أشار اليها فى محطات المدى VOR . وقد تعددت نوعيات أجهزة الارشاد الملاحي حاليا واتسعت خدماتها لتأمين سلامة الطائرة فى كل لحظة من لحظات طيران الطائرة - انظر كتابنا : الطيران المدنى والسلام العالمى - نشرته الهيئة العامة للكتاب ضمن سلسلة : المكتبة الثقافية - (المترجم » .

العلمى نفسه يعتمد تماما على قيمة أخلاقيه - هى الثقة فى هؤلاء الذين يكتبون التقارير عن الملاحظة العلمية . لماذا يذكر العالم الحقيقة ؟ لانه يستطيع أن يثبت ذلك فى العمل . لقد خصص ناثانييل براندن ورقة لبحث المشكله الجدية التى رفعها هؤلاء الذين يرون أنه ليس للعلماء أن يشغلوا أنفسهم بالقيم الأخلاقية - قال فيها :

من أهم القضايا المحورية فى علم النفس ، قضية أو مشكلة الحافز .
 وأساس العلم هو الإجابة عن سؤالين أساسيين هما : لماذا يفعل الرجل ما يفعله ؟ وما الذى يحتاجه الرجل لكي يتصرف بطريقة مختلفة ؟ ويدمن مفتاح الحافز فى نطاق القيم . ان مأساة عالم النفس اليوم هى أن العلماء يتغاضون عن مناقشة قضية القيم بوجه خاص ، ولكن من الخطأ أن نعتقد أن مجرد استحضار المشاكل فى الشعور المدرك يضمن أن المرضى سيحلونها ، لأن الأجوبة على المشاكل الأخلاقية ليست واضحة فى حد ذاتها . انها تحتاج الى عملية يشترك فيها الفكر الفلسفى مع التحليل، وكذلك فإن العلاج النفسى الفعال يحتاج الى ميثاق أخلاقى . واع . ومنطقى، وعلمى - نظام للقيم مؤسس على حقائق الواقع ومناسب لمتطلبات حياة الانسان على الأرض (٢) :

ان براندن يحمل أطباء وعلماء النفس مسئولية أخلاقية جسيمة اذا أعلنوا أن « القضايا الفلسفية والأخلاقية لانعنيهم ، وأن العلم لا يستطيع أن ينطق بأحكام تقييمية » وأيضاً اذا لم يبالوا بالتزاماتهم المهنية بحجة عدم امكانية اصدار ميثاق أخلاقى عقلانى . ومع صمتهم فانهم يحكمون على حلهم هذا بالموت الروحى .

ما هو الميثاق الأخلاقى العقلانى :

ان الجواب الطبيعى لمثل هذا السؤال هو : « اذا عاش كل انسان حسب القاعدة الذهبية فان كل شيء سيكون طيباً » ويمكن عدم كفاية هذا الجواب فى حقيقة أن ما نفعله للآخرين « حتم ، اذا كان هو نفس ما ننتظر منهم أن يفعلوه لنا ، قد يكون مدمراً . ان الشخص الذى يحاول أن يحل

(٢) عن محاضرة التامام
 Psychotherapy and Objective Ethics :
 عنوان
 Nathaniel Branden
 أى : العلاج النفسى والأخلاقيات
 الموضوعية - فرع علم النفس بالجمعية الطبية لمقاطعة سان ماتيو - ٢٤ يناير سنة ١٩٦٦ .

مشكلة « لست على مايرام » بممارسة لعبة « اركلنى » القاسية باستمرار ، لا يصنع معروفا حينما يفرض هذا الحل على غيره . ان القاعدة الذهبية ليست مرشدا كافيا ، ليس لأن مفهومها المنالى خطأ ، ولكن لأن غالبية الناس لا يوجد لديهم المعلومات الكافية حول ما يريدونه لأنفسهم . أو لماذا يريدونه ؟ انهم لا يعرفون موقف (أنا لست على مايرام وأنت لست على مايرام) وغير مدركين لمغزى اللعبات التى يلعبونها للتخفيف من أعبائهم النفسية . ان من بين مهام « الراشد » المتحرر أن يفحص « الوالد » حتى يمكنه قبول بياناته أو رفضها ، وأن يسأل : « هل هناك شيء يستحق الانقاذ من تلك البيانات ؟ » ومن الواضح أن معظم معلومات « الوالد » يمكن الاعتماد عليها ، فثقافتنا قد انتقلت من خلال « الوالد » - ويذكر عالم الأنثروبولوجيا رالف لينتون أنه « بدون وجود الثقافة التى تحفظ مكاسب الماضى ، وتشكل كل جيل تال حسب النماذج التى تقدمها ، فإن الجنس البشرى لن يتميز على أدنى أنواع القردة ، الا باختلاف طفيف فى البنية البدنية » وتفوق قليل فى الذكاء . وكان سيصبح صنوا للشيمبانزى أو الغوريلا (٣) .

وعلى ذلك يمكن اعتبار أن القيم الأخلاقية تظهر أولا فى « الوالد » . ونحن ننظر الى كلمتى « يجب » و « يلزم » على أنهما صادرتان عن « الوالد » . والسؤال الرئيسى فى هذا الفصل هو « هل يمكن لكلمتى « يجب » و « يلزم » أن تصدرا عن « الراشد » ؟

هل من الممكن الاتفاق على القيم الأخلاقية ؟

هل توجد قيم أخلاقية ايجابية تصدق على جميع الناس . أم يجب علينا أن نبنى شخصيتنا وأخلاقياتنا الراهنة ؟ ويعلق فيكتور فرانكل على اليأس المتفشى هذه الأيام بين الشباب الذين يجدون أنفسهم حسب قوله : فى فراغ وجودى ، يكون فيه كل فرد هو محور عالمه الخاص ، وحيث يتفشى انكار وجود أية التزامات تأتى من خارج ذاته (٤) وتعتبر كل الأخلاقيات فى هذا النوع معايير ذاتية . ولو صح هذا لكان علينا أن نقر اذن بأنه يوجد فى العالم ستة بلايين نظام أخلاقى بقدر عدد سكان

R. Linton, "The Study of Man", (New York : Appleton — Century — Crofts. 1936). (٣)

(٤) محاضرة للأستاذ V. Frankl بجامعة ولاية ساكرامنتو يوم ١ مايو ١٩٦٦ .

الكرة الأرضية الذين يسير كل منهم حسب هواه ، منكرًا وجود أية مبادئ موضوعية تحكم صلة الانتماء بين الناس ، ولكن الحقيقة هي أن البحث عن هذه المبادئ الأخلاقية الموضوعية مع الرغبة في الانتماء إنما يشكل واقعا عالميا ، ويمكن الاحساس به أيضا كواقع شخصي وتجريبي . والحقيقة هي أن الناس لا يستطيعون ولا يريدون أن يعيشوا دون انتماء إلى الآخرين . ان بعض الأشخاص الذين اعتادوا ادمان عقار الهلوسة LSD يؤسسون اعتيادهم هذا على ما يسمونه : تسامي التجربة الخاصة بالهلوسة ، التي يكتشفون عن طريقها جوهرًا عامًا يربط جميع الناس معا ، بالرغم من أن وسيلتهم للتسامي قد تكون موضع خلاف .

وعلينا أن نأخذ في الاعتبار هذه الرغبة في الانتماء ، وطاقة الشعور بالاندماج في الواحد ، ونمو العقل البشري إلى الحد الذي به نفهم ونشعر ونقبل التسليم بأن البشرية عليها التزامات نحو بعضها البعض بسبب انتمائها إلى بعضها البعض .

والرغبة في الانتماء واقع ، حتى إذا لم يكن من السهل التوصل إلى المبادئ التي تحكم هذا الانتماء بأسلوب تجريبي . ولكن كما يقول تروبلاد فإن المناقشات الحادة حول الموضوعية الأخلاقية لا تجري حسب منهج تجريبي ، ولكنها جدلية دائما فيقول : « عندما نتدبر هذا متذكرين أن النسبية الذاتية يمكن أن تتردى حتى تصل إلى مرحلة اللا معقول ، فسنؤمن حتما بوجود نظام أخلاقي حتى وإن غاب عن أذهاننا مغزاه خلال فترة ما أو في ثقافة ما . ولكن ماذا نعني بالنظام الأخلاقي الموضوعي ؟ » اننا نقصد به الحقيقة التي يمكن الاستعانة بها لتحديد تورط المرء في الخطأ حينما ينحو إلى اختيار أخلاقي زائف سواء في سلوكه أو في حكمه على الآخرين .

ونخلص من هذا إلى وجود مثل ذلك النظام الأخلاقي الذي يتطلبه المنطق الجدلي - وأهم من وجوده هو التعرف بدقة أو حتى بالتقريب على طبيعة المتطلبات الأخلاقية ، واختلاف الناس حول المعايير الأخلاقية لايسوغ لنا التخلي عن محاولة اكتشاف السلوك الذي ينبغي أن نحتديه (٥) .

هؤلاء الذين يرفضون فكرة وجود نظام أخلاقي موضوعي ، أو عالمي « ملزم » فيجب عليهم النظر في المصاعب التي تنبثق عن هذا

(٥) Elton Trueblood, "General Philosophy, (New York : Harper, 1936).

الرفض • لقد رفض الوجوديون هذا المفهوم • وزعم سارتر أن الانسان يخلق ماهيته الانسانية خلال سلسلة من الاختيارات • ومن الأفعال التي تميزه • وذكر أن الانسان يضع بأفعاله تعريفة للانسان ، أى أنه يصنع وجوده الانساني فالانسان يسبق جوهره الانساني ولا يخلق فقط جوهره الانساني ، ولكنه يخلق في نفس الوقت الكرامة الانسانية بأسرها • انه يستطيع أن يختار فقط ما ينفعه ، ولكن ما ينفعه يجب أن ينفع كل الناس • ويذكرنا جوزيف كولييجنون بأن هناك وجها آخر للعملة - فيقول :

لذلك يجب على الانسان أن يتحمل مسؤولية كل فعل • ليس فقط لمصلحته بل لمصلحة جميع الناس • وليس ذلك بدون سبب • ولذلك يجد سارتر أن « الألم • والاستسلام • واليأس » هي من نصيبه ، ونصيب كل شخص موجود ، لأنه اذا لم يجد المرء شخصا يركن اليه • او عقيدة تساعد حينما يكون عليه أن يتخذ قرارا (يتصل بالآخرين) • فان الانسان سرعان ما يتخيل اليأس في طيات مثل هذه الفلسفة ... وتجد الوجودية تعاطفا بين الشباب الذين يجدون نشوة غامرة في الفن بأن العالم لامعقول ، لأن ذلك يعطيهم احساسا بالتفوق على النظام القائم ، والسيطرة على أنفسهم • ان العالم بالنسبة لهم يتجرد من وحدته الفلسفية المعدة سلفا وفق نظام معين • فينفسح امامهم للعمل لكي يضعوا صورة للكرامة الانسانية وحتى وان كانت خاصة بهم وحدهم • ومنذ عام • ألقيت محاضرة عن الوجودية ، ووجدت العديد من الطلبة قد استقبلوا هذه الفلسفة بحماس حار • وقد قوطعت المحاضرة بسماع الخبر المفجع عن موت الرئيس كيندى • وخلال الصمت المذهل الذى تلى ذلك • سمعت صوتا نائرا ومتهورا وعاليا - يقول : « كان ذلك عملا وجوديا متكاملا » • وبالرغم من أن بقية الطلبة قد دعوه الى الهدوء بعبارات قاطعة فقد انخرط الكثير منهم فى البكاء • نعم • لقد كان ذلك عملا وجوديا كاملا ولا يمكن الجدل فى ذلك ، فقيام المرء بتصرف فردى نابع من ذاته أمر رائع • ولكن من يستطيع أن يتحكم فى عملية اغتيال نابعة من ارادة حرة • وموجهة ضد رئيس شاب أفنى زهرة شبابه فى خدمة بلاده ؟ ان عملية الاغتيال يمكن أن تكون تجربة رائعة نافعة للشباب لى أوزوالد فى ممارسته الحرة لارادته • ولكن • وقعها على الآخرين سواء فى الولايات المتحدة أو فى غيرها من بلدان العالم ؟ ...

وإذا لم يوجد « التزام » أخلاقي عالمي ، فلا يمكن القول بأن ألبرت شفيترز (٦) كان رجلاً أفضل من أدولف هتلر - وإذا لم يكن الأمر كذلك ، فإن الملاحظة الوحيدة التي علينا أن نأخذ بها ، هي أن ألبرت شفيترز قد عمل كذا وكذا ، وأن أدولف هتلر قد عمل كذا وكذا ، وحتى لو أننا كتبنا ملحوظات تالية تفيد بأن ألبرت شفيترز قد أنقذ العديد من الأرواح بينما تسبب أدولف هتلر في ازهاق أرواح الملايين من الناس ، فلن نرى ذلك إلا مجرد اشارات احصائية على صفحة التاريخ ، ونتجاهل أى تفكير أخلاقي ينحو الى تعديل السلوك الانساني . وبعد كل شيء فإن قيمة الناس أو الأشخاص لا يمكن تقديم دليل علمي عليها . لقد ظن ألبرت شفيترز أنه على حق ، كما ظن أدولف هتلر أنه على حق . أما القول بأن كلا منهما على حق ، فإنه يمثل تناقضاً واضحاً . ولكن ما هو المقياس الذي نحدد به أيهما كان على حق ؟

قيمة الأشخاص :

أرى أن التمهيد المنطقي لهذا النظام الأخلاقي الموضوعي ، أو المعبر عن الحقيقة النهائية ، يتمثل في أن أهمية الفرد تنبع من ارتباطه بالآخرين في انتماء عالمي يتجاوز وجودهم الشخصي . هل هذا اقتراح منطقي ؟ ان مفهوم الصعوبات النسبية سيساعدنا كثيراً عند الإجابة عن هذا السؤال . فمن الصعب الاعتقاد بأهمية الأفراد ، كما أنه من الصعب أيضاً الاعتقاد بأنهم ليسوا مهمين . ان انكار أهمية البشر يبطل كل جهد نبذله لصالحهم . ولماذا كل هذا اللغط حول العلاج النفسي اذا لم تكن هناك أهمية للأشخاص ؟ ان فكرة أهمية الانسان هي فكرة أخلاقية بغض النظر عن جدوى أى من الأنظمة المتعلقة بفهم الانسان . ولكننا لانستطيع التذليل على هذه الأهمية باستخدام القياس المنطقي . ان التاريخ قديم وحديثه ، بكل ما يفيض به من روايات عن إبادة البشر وانزال صنوف الهوان بهم ، يبدو على العكس من ذلك . أنه يجعلنا نتأكد من أن الكائنات البشرية ليست بذات قيمة كبيرة . ولو لم يكن هناك اتجاه أو تخطيط لمسار البشرية لكان مولد تلك البلايين من البشر وموتهم وعذاباتهم شيئاً من اللعب ، لاتجدى معه جهودنا المبذولة لفهم عقلية الانسان ، وتغيير السلوك الانساني . اننا لانستطيع تقديم الدليل على أهمية هذه الجهود ، ولكننا نؤمن بضرورتها . لأنه من الصعب أن نعتقد في غير ذلك .

(٦) طبيب من منطقة الألزاس التي تنازعتها فرنسا وألمانيا ، كرس حياته لخدمة الأفريقيين البسطاء - المترجم

وقد كتب تيار دو شاردان قائلا : « سيستمر الانسان في البحث ، طالما لم تخمد في نفسه جذوة الاهتمام بما حوله ، وهذا الاهتمام يعتمد على الايمان الذي لا يستطيع العلم أن يدل على صحته . انه الايمان بأن العالم يخضع لتوجيه محدد (٧) » ولن نكون علماء شرفاء اذا تجاهلنا حقيقة أن « جذوة الاهتمام » هذه قد استمرت خلال تاريخ الانسان . رغم المذابح وعصور الظلام والحروب ومعسكرات الاعتقال . قد نؤمن بأن العالم يخضع لتوجيه محدد ، وقد لا نؤمن بذلك ، ولكننا لانستطيع — كعقلاء — أن نتجاهل حقيقة أن مسألة أهمية الانسان ، كانت دائما لغزا فلسفيا ملحا . واذا لم نستطع تقديم البرهان على أهمية الأشخاص ، أو تقديم سبب معقول يبرر تجاهل هذه القضية والتفكير فيها ، فماذا نفعل ؟ ان كل ثقافة تختلف في تقديرها لقيمة الأشخاص ، وتنتقل المعلومات الخاصة بذلك عن طريق « الوالد » ولذلك ليس أمامنا من سبيل سوى الاعتماد على « الوالد » للوصول الى أى اتفاق حول قيمة الأشخاص . وفي العديد من الثقافات بما فيها الثقافة الأمريكية ، نجد أن « الوالد » يسمح بالقتل . وعلى ذلك فان قيمة الأشخاص مشروطة . وفي الحرب يباح القتل ، ونجد كذلك أن عقوبة الاعدام شرعية في العديد من الأقطار . وقد مارست العديد من الثقافات المبكرة واد الأطفال « متعللين بحجة الإبقاء على أفضل الأجناس » . وهناك العديد من الروايات عن واد الأطفال حتى في خلال القرن العشرين ، فعلى سبيل المثال يوجد بين قبائل التانالا Tanala في مدغشقر فئتان من الناس مختلفتان في لون الجلد اختلافا ملحوظا ، بالرغم من أنهما يظهران شديدي التماثل في بقية خصائصهما البدنية ، وهما متماثلتان تقريبا في الثقافة واللغة ، وهاتان الفئتان تعرفان باسمين اصطلاحيين هما : العشيرة الحمراء « والعشيرة السوداء » والأفراد العاديون من العشيرة الحمراء لون جلدهم بني فاتح ، أما الأفراد العاديون من العشيرة السوداء فان لونهم بني غامق جدا . واذا ولد للعشيرة الحمراء طفل أسود اللون فلا منازع في انتمائه اليها ، فانهم يعتقدون أنه عندما يكبر اما أن يصير ساحرا أو لصا أو يرتكب جريمة الزنا مع المحارم (ذوى القرابة) أو يصاب بالبرص . ولذلك فانهم يحكمون عليه بالموت (٨) . وهذه العقيدة عن قيمة « هذا النوع من البشر » تنتقل من جيل الى جيل من خلال « الوالد » . ان « الوالد » الثقافى لغالبية البلدان الغربية لايوافق على ذلك ، ولكنه

Pierre Teilhard de Chardin, "The Phenomenon of Man", (New York : Harper, 1959). (٧)

Ralph Linton, "The Study of Man" (٨)

يوافق على التسامح فى أشكال أخرى من التفرقة التى قد تنتهى كذلك بالموت . اننا لانستطيع أيضا الاعتماد على « الطفل » فى التوصل الى اتفاق حول قيمة للبشر . فان « الطفل » الموصد بسبب موقفه الذى ليس على مايرام . ليست لديه سوى معلومات ايجابية قليلة عن قيمته الذاتية ، فما بالننا بقيمة الآخرين ! « والطفل » فى أى ثقافة ، اذا أثر بما فيه الكفاية ، قد ينفجر فى ثورة قاتلة ، أو يقتل نفسه ، وربما يقترب جريمة قتل جماعى .

« الراشد » المتحرر فقط ، هو الذى يستطيع أن يصل الى اتفاق مع « الراشد » المتحرر فى الآخرين ، حول قيمة الأشخاص . ونستطيع أن نرى كيف أن كلمات مثل : « الضمير » ليست كافية . علينا أن نتساءل : « ما هو هذا الصوت الهامس فى داخلنا ؟ ما هو هذا الضمير الذى نعيش به ؟ وهل ينتسب الى « الوالد » أم « الراشد » أم « الطفل » ؟ ان برتراند راسل الذى يأبى أن يدع عقيدة جامدة تستقر على جمودها ، يقول : « ان هذا الصوت الداخلى ، تلك الهبة الربانية قد ترك مارى الشريرة تحرق البروتستانت ، فهل هذا هو الذى يتحتم علينا نحن الكائنات العاقلة أن نتبعه ؟ اظن أن هذه فكرة مجنونة ، وأنا أحاول أن أتبع المنطق بقدر الاستطاعة . »

أنا مهم ، وأنت مهم :

ان « الراشد » هو الجزء الوحيد منا الذى يستطيع أن يختار النطق بعبارة (أنا مهم ، وأنت مهم) . ان « الوالد » و « الطفل » ليسا متحررين لكى يقدموا على هذا القول . لأنهما أسيرا أغلال ماشاهدا وتلقيا من تغليطات فى الحضارة التى ينتمى لها الشخص ، ومن ناحية أخرى هما مكبلان بما أحساه من مشاعر وما استوعباه من مفاهيم (٩) .

وتصریح « الراشد » بأن الأشخاص ذوى أهمية ، يختلف تماما عن العبارة التى ذكرتها امرأة مريضة عندما قالت وهى تكور قبضتيها بشدة : « اننى أحب الناس » . وهذا التعبير المختلف جاء عن طريق طفلها الذى فرض عليه التكيف مع موقف ما : « الآن اذهبى يا حبيبتي ،

B. Russell, "The Autobiography of Bertrand Russell", (Boston : Little Brown, 1967). (٩)

وقبلي العمة ائيل ! » وهذه الجبينة التي عمرها أربع سنوات انما تفعل ذلك أداء للواجب . حتى لو كانت العمة ائيل تسبب لها الانزعاج ، ولكنها تؤدي ذلك ، وتوضحه قائلة : « اننى أحب العمة ائيل » ثم ترفع من قدرها قائلة : « اننى أحب الناس » ، وهي لاتزال تجمع قبضتيها .

وعلىنا جميعا أن نفحص النسخ الخاصة بنا من عبارة « اننى أحب الناس » لنفهم حقيقة شعورنا ، ومن أين تأتي هذه المعلومات . ان أغلبنا يتمسك بمعتقدات معينة ، ولكنها ناتجة فى الغالب عن قبول « الطفل » ما لقنه له « الوالد » ، أكثر من كونها استنتاجات عن طريق « الراشد » على أساس القدر الهادف من المعلومات التي يحتفظ بها .

وعلى العكس ، فإن اقتراب « الراشد » من تحديد قيمة الأشخاص ، انما يتم باتباع هذه الخطوط :

اننى انسان ، وأنت انسان ، وبدونك لا أكون انسانا ، لأن اللغة تصبح ممكنة من خلالك ، ومن خلال اللغة فقط يصبح التفكير ممكنا ، ومن خلال التفكير فقط تصبح الانسانية ممكنة . انك جعلتني مهما . ولذلك أنا مهم – وأنت مهم ، فاذا قللت من قدرك ، فاننى أقلل من قدر نفسى . وهذا هو الأساس المنطقى لموقف (أنا على مايرام ، وأنت على مايرام) . ومن خلال هذا الموقف فقط نشعر بأننا أشخاص وليسنا أشياء . ان اعادة الانسان الى الاحساس بانتمائه الى الآخرين ، هى نفسها فكرة الخلاص . أو الصلح . أو الاستنارة . التى تتمحور حولها كافة أديان العالم . والحاجة الى هذا الموقف تتركز فى أن كلا منا مسئول عن الآخر ، وهذه المسئولية هى المطلب النهائى الذى فرض على جميع الناس بالتساوى ، وعلى ذلك فإن أول استنتاج نستطيع أن نخلص اليه هو : لا يقتل أحدكم الآخر .

هل هى طريقة مجدية ؟

فى ظهر أحد الأيام واجهنى زميل فى موقف سيارات الأطباء ، وقال مازحا : « اذا كنت أنا على مايرام – وأنت على مايرام . فلماذا تغلق سيارتك » .

وكذلك فإن مشكلة الشر أيضا حقيقة فى العالم . وفى مواجهة كافة الشرور التى نراها سيظهر هذا الموقف الرابع (أنا على مايرام – وأنت

على مايرام) بوصفه حلما مستحيلا ، ربما لأن حضارتنا تتجه بسرعة نحو مواجهة مع الشر لا سابقة لها ، وعلينا اما أن نحترم كل منا وجود الآخر ، أو تهلك كلنا . وقد نقول « حتى ولو بدا قولنا غريبا ، انه من العار أن يدمر الانسان في لحظة ما بناء في قرون »

أما تيهار ، الذى تملكه الدهشة حينما يتكشف له أن العالم يسير فى عملية تطور ترتقى به ، فانه ينهى كتابه العظيم : الظاهرة التى تسمى الانسان The Phenomenon of Man - بتعليق مرير ، وهو يتأمل الشر الذى فى العالم « فيتساءل فى دهشة : « ألا تنم ألوان الشقاء والفشل والحسرات والدموع والدماء عن جنوح فى مسار الطبيعة يستحيل علينا فهمه ، اذا لم نصف الى تأثير التطور ، تأثيرا هائلا نابعا من كارثة أو انحراف ما حدث فى بدء الخليقة ؟ » وهل نمثل نحن خطأ فى التطور ؟ أم هل تنبىء اللحظات البراقة فى تطور الانسان عن مستقبل أكثر اشراقا ؟

ويتحدث تيهار عن هذه اللحظة التى انعكس فيها حال الانسان الاول حينما عرف عن نفسه أنه « طفرة من الصفر الى كل شيء » .

ربما كنا نقرب من نقطة أخرى ذات معنى حيث تدفعنا ضرورة حفظ الذات الى معاناة طفرة أخرى ، وسنكون قادرين على القفز مرة أخرى ، لكى نفكر (والأمل يحدونا بعد أن تكشفنا لنا حقيقة تكويننا ، ويردد كل منا « أنا مهم - وأنت مهم » ، (أنا على مايرام - وأنت على مايرام) .

اننى أعتقد أن تحليل المعاملات قد يقدم نبوءة عن مصير الانسان ورغم أن هذا القول يبدو أقرب الى الحدىس منه الى الواقع . الا أننى أستمد جراتى على تقديم تلك النبوءة من الرؤية التى طرحها ج . روبرت أوبنهايمر والتى تستشرف قيام حوار عام وتفاعل مستمر بين دنيا البشر بعمومها ، والفنانين ، والفلاحين ، والمحامين ، والقادة السياسيين ، وقد كتب سنة ١٩٤٧ قائلا : « ٠٠٠ ونظرا لأن معظم العلماء ، مثلهم مثل كل الدارسين ، ينحون الى القيام بدور المدرسين ، فانهم يتحملون مسئولية توصيل الحقائق التى اهتموا اليها » .

وقد بين فى وجهة نظره التى عبر عنها سنة ١٩٦٠ ، أن الناس الذين يتمتعون بمكانة عقلية رفيعة ، يجب أن يساهموا فى الثقافة العامة ، ليدور الحديث ، ليس عن حقائق الطبيعة فقط ، ولكن عن طبيعة المأزق الانسانى ، وعن وضع الانسان « وعن القانون ، وعن الخير والشر ، وعن

الأخلاقيات ، وعن الفضيلة السياسية ، وعن السياسة (١٠) . اننا نتحمل مسئولية تطبيق اكتشافاتنا التي توصلنا اليها من مراقبة المعاملات بين الأشخاص ، على المشكلة الأوسع وهي مشكلة المحافظة على الجنس البشرى (*) .

■ هو العلاج النفسي باستخدام الواقع ■

ذكرت في هذا الفصل مبكرا أن الحقيقة هي أعظم أدوات العلاج أهمية . ومضيت في مناقشة عدد من الحقائق . وفي ختام هذا الفصل أود أن أعقد في إيجاز مقارنة بين تحليل المعاملات ، والعلاج النفسي باستخدام الواقع الذي طوره الدكتور وليم جلاسر (١١) .

يتمسك جلاسر بأن مشكلة الانسان الأساسية هي الأخلاقيات بمعنى أن الإحساس بالمسئولية هو ما تحتاجه الصحة العقلية .

واعتقد أن كلا المدخلين وهما : تحليل المعاملات ، والعلاج النفسي باستخدام الواقع ، يمكن اعتبارهما انتصارا جديدا في العلاج النفسي — بعد أن سئم العلماء تلك الأنماط العلاجية والطبية التي تبعد الأخلاقيات عن بؤرة العلاج .

وهو يرى من أسلوب تحليل المعاملات ، والعلاج النفسي باستخدام الواقع ، أن الناس مسئولون عن سلوكهم . غير أن هناك فارقا هاما ، فأنا لا أوافق جلاسر على انكاره العمومي لأهمية الماضي في فهم سلوك الحاضر ، ولئن كنت لا أؤمن بلعبة نبش الماضي ، إلا أنني لا أستطيع أن أتجاهله كل التجاهل ، فالرجل الذي يتجاهل ماضيه يشبه — من وجهة نظري — شخصا يقف تحت المطر ، يتجادل حول البلبل ، وهو غارق فيه . أن مطالبة المريض بضرورة أن يكون مسئولا ، ليست مثل تحمل المسئولية

Thomas B. Morgan, "With Oppenheimer, Look, Jan, 27th (١٠)
1966).

(*) لجأنا الى حذف جزء من هذا الفصل تعرض فيه المؤلف في هذا الموضع بالانتقاد للمسلمات الدينية التي تحترمه مع العلم بأنه لا يضيف الى الآراء العلمية التي أوردتها ، كما أن حذفه لا يؤثر في ترابط هذا الفصل — المترجم .

W. Glasser, "Reality Therapy," (New York : Harper & Row, (١١)
1965).

بالفعل . وتحليل المعاملات هو أيضا « علاج نفسى باستخدام الحقيقة » ولكنه يقدم اجابات لا أعتقد أن جلاسر قدمها . وعلى سبيل المثال : ما هو عيب من لا يستطيع أن يدرك الحقيقة « أو من يدركها بصورة مشوشة ؟ ما هى الاجابة التى تقدمها لهؤلاء الذين يعرفون ما يجب أن يعملوه ، ولكنهم يفشلون دائما فى عمله ؟

يقول جلاسر : « اننا لانشغل أنفسنا بعمليات اللاشعور العقلى . . اننا لانبالى بتاريخ المريض لأننا لانستطيع أن نغير ما حدث له ، أو أن نقبل حقيقة أنه محدود بماضيه » .

اننا لانستطيع أن نغير الماضى . ولكن الماضى يحشر نفسه دائما فى حياتنا الحاضرة من خلال « الوالد » « الطفل » . واذا لم نفهم لماذا يحدث ذلك ، ونوافق على حدوثه ، فلن يكون لدينا « راشد » متحرر نستطيع به أن نتحول الى الأفراد المسئولين الذين نصحبنا جلاسر بأن نتحول اليهم . علينا أن نفهم نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) الخاص بنا قبل أن نقلب صفحة الماضى . عندما يقول لنا الطبيب النفسى أنه يجب علينا ، فهذا القول ينطلق من « الوالد » . واذا اخترنا أن نفعل ذلك بارادتنا لأننا نفهم حقيقة أنفسنا المركبة ، فهذا هو « الراشد » . ان قوة صمود قرارنا تعتمد كلية على ما اذا كان القرار صادرا عن « الوالد » أم « الراشد » .

ولى تحفظ آخر على العلاج النفسى باستخدام الواقع - وهو عدم استخدامه لغة خاصة يقرر بها « ماذا حدث ؟ » ويقول جلاسر : « ان قدرة الطبيب النفسى على الاندماج ، هى المهارة الأساسية اللازمة لتطبيق أسلوب العلاج النفسى باستخدام الحقيقة ، ولكن من الصعب جدا وصفها » كيف يستخدم الانسان الكلمات ليصف عملية بناء سريعة لعلاقة وجدانية قوية بين شخصين غريبين نسبيا »

أما فى تحليل المعاملات فلنا تعقيب : يبدأ المريض باستشارة « طفله » ويرى الطبيب النفسى فى صورة « الوالد » ، وفى الساعة الأولى من العلاج يتحدد « الوالد » و « الراشد » و « الطفل » . ثم تستخدم هذه الاصطلاحات الثلاثة لتحديد « العقد » أو التوقعات المتبادلة المنتظرة من العلاج . ان الطبيب النفسى موجود هناك ليعلم ، والمريض موجود هناك ليتعلم ، والعقد هنا (راشد - راشد) . واذا سئل المريض : « ماذا حدث ؟ » فانه يستطيع أن يحكى ما حدث . لقد تعلم أن يحدد « والده » « راشده » و « طفله » . وتعلم أيضا كيفية تحليل معاملاته . لقد اكتسب أداة لتحرير

وتقوية « راشده » ، وهذا « الراشد » فقط هو الذى يستطيع أن يكون مسئولاً .

اننى أسلم بضرورة تركيز الضوء على المسؤولية . كما لا أختلف على مثالية الوصايا العشر والقاعدة الذهبية ، أما الحقيقة التى تعينى على أية حال ، فهى لماذا لا تنتج هذه النصائح أشخاصاً قادرين على تحمل المسؤولية دائماً ؟ ان محاولة إعادة صياغة تلك الوصايا والقواعد لن تؤدي الى الغرض المنشود .

اننا لن نستطيع تنشئة أشخاص قادرين على الاضطلاع بالمسؤولية حتى نساعدهم على اكتشاف موقف (أنا لست على مايرام - وأنت على مايرام) الذى يحدد الألعاب المعقدة والمدمرة التى يلعبونها . ومادما نفهم الموقف والألعاب ، فان حرية الاستجابة تبدأ فى الظهور كمسؤولية حقيقية . وما دام الناس مقيدبن بالماضى « فانهم ليسوا أحراراً فى الاستجابة للمتطلبات وتطلعات الآخرين فى الوقت الحالى » . ويقول ول ديورانت : انك « لكى تقول أننا أحرار ، فلا يعنى ذلك الا أننا نعرف ما نعمله » (١٢) .

W. Durant, "The Story of Philosophy." (New York : Simon and Schuster, 1963), p. 339. (١٢)

الفصل الثالث عشر

المفاهيم الاجتماعية لنموذج (الوالد - الراشد - الطفل)

(يمتلئ التاريخ بالطفاة الذين دوعوا العالم بأفعالهم ، ولكن بنية الحياة لاتزال يانعة - البحث عن الانسان ، فيلم تسجيل من انتاج محطة تلفزيون ABC)

هل يسلط فهمنا للأسباب التي تدفع الأفراد لعمل ما يعملون ، أى ضوء على الأسباب التي تدفع الجماعات الانسانية كالأمم لعمل ما تعمله؟ من المهم لنا أن نسأل هذا السؤال ، لأننا اذا لم نطرحه الآن ونجيب عنه ، فلن تكون هناك جدوى من اهتمامنا بالأفراد . هل تصدق حقاً أن الانسان كائن عاقل ؟ ، لقد أجاب السناتور وليم فولبرايت فى جلسة استماع للجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ الأمريكى - عن هذا السؤال قائلا :

« اننا نفتك فى فيتنام بالوف البشر لكى نتيح لهم أن يمارسوا حق الانتخاب الذى لم يسبق لهم أن مارسوه من قبل » وهذا يبدو لى أمراً غير منطقي . »

ولما كانت أنماط السلوك الشخصية والجماعية تنتقل من جيل الى آخر عن طريق « الوالد » فمن المهم بالنسبة للأمة أن تتمعن فى تقاليدها من اجراءاتها الحالية لصالح الفرد - ان الولايات المتحدة تعطى حرية كاملة

لهذا اللون من ألوان الفحص النقدي ، ولكن ما مدى فاعلية ممارستنا. لهذه الحرية ١١ اننا فى بعض الأحيان نحمل « والدنا » القومى أو الجماعى بصورة عشوائية ، ويبدو أننا ننسى أن الأمم الأخرى تفعل نفس الشيء . ونطلق على دفاعنا هذا اسم « الوطنية » ، بينما نطلق على دفاعهم اسم « الاستعباد » . ان جميع الأمم تعيش خلف ستار ، ربما كان هو نفس الستار . ويعرف ماكس رافرتى المشرف العام على مدارس كاليفورنيا « المواطن الصالح » بهذه الكيفية ١

« يقوم المواطن الصالح بالنسبة لوطنه ، مقام الابن بالنسبة لأمه » .
انه يطيعها لأنها أكبر منه ، ولأنها تمثل فى ذاتها حلم الكثيرين ،
ولأنه يدين لها بميلاده وتربيته .

انه يحترمها أكثر من كافة الناس ، ويجعل لها فى قلبه محرابا يوقد امامه شموع الاحترام والاعجاب الى الأبد .

انه يزود عن حماها ويهب روحه فداء لها .

انه يهيم بها فى تواضع دون زهو ، ولئن كان يوقن أنه يقاسم غيره.
هذا الحب ، الا أن طبيعة عاطفته متفردة وذاتية ، تتدفق من أعماق كيانه .
وتعود اليه فى صورة حنان دافق .

هذا هو المواطن الصالح . وعندما ينتشر هذا النوع من المواطنين .
تزهو الجمهورية العظيمة (١)

والجواب الطيب الوحيد على مثل هذا التصريح هو : « ان فى ذلك ، قولين : ان احترامنا وطاعتنا وحمايتنا لأمننا أو « والدنا » القومى يتوقف فى حقيقة الأمر على طبيعة « الوالد » . اننا نعجز أحيانا عن التحقق من الفكرة لأننا نشعر أنه من المحتم علينا الايمان بهذه الفكرة ، وذلك أشبه بذلك اللون من المقدسات الذى يجعل سكان الهند يسمحون للقثران بأن تأكل ٢٠٪ من مواردهم الغذائية المحدودة ، أو يجعلون المرأة الهندية تلد عشرة أطفال ليموتوا جوعا فى الشوارع لأن « والدها » لايسمح لطبيب من الذكور بوضع لولب منع الحمل داخل الرحم . ان « والدها » لا يعترض على الوسيلة ، ولكنه يعترض على الطبيب الذكر . ولا يوجد العدد الكافى من الطبيبات لعمل هذا الاجراء على نطاق واسع . اننا نرى دلائل

Max Rafferty, "California Education, Vol. 2, No. ١ (April, 1965)". (١)

«العمى» فى كل أنحاء العالم ، ومع ذلك فلم ندرك حتى الآن أن هذا العمى أصبح قاسما مشتركا بين جميع الناس . انه نفس العمى الذى أصاب الولد الصغير المذكور فى الفصل الثانى عشر ، الذى يتحتم أن يعتقد بأن : « رجال الشرطة أرياء » رغم الدليل المضاد الذى يراه بعينية ويسمعه بأذنيه . انه الخوف الأصيل ، وشعور الاعتماد على الغير الكامن فى « الطفل » الذى يفترض ضرورة قبول أوامر « الوالد » للمحافظة على حياته . ونستطيع أن ننظر الى حيرته بعين العطف . وربما اذا تجاهلنا « والد » أعدائنا « العالميين » وتعمقنا فقط فى « طفلهم » على أمل إقامة اتصال (راشد - راشد) فقد نستطيع أن نطرح الشعور العدائى ونشرع فى تبني وجهة نظر أكثر تسامحا نقيم بها الخطوات التى يمكننا أن نتخذها .

ان مخاوفنا تشتط علينا على سبيل المثال - أن نرى فى الصين الشعبية فقط « الوالد » المرعب ، الذى يهدد ، الذى ينذر بالشر ، والغاضب ، والقوى ، ولكن هناك وجهة نظر مخالفة عبر عنها اريك سيفاريد فى تقييمه للموقف الذى اتخذته السيناتور ولم فولبرايت فيما يختص بالصين وهى :

قد يجد فولبرايت كناس للتاريخ ومتقلباته التى يستحيل التنبؤ بها ، أن مثل هذه المخاوف طفولية . انه يميل الى تفسير صرخات ابواق الدعاية الصينية بطريقة يوثائق سكرتير عام الأمم المتحدة ، لأن ذلك هو السلوك الطبيعى لنظام حكم غارق فى المتاعب الداخلية ويشعر بأن الدائرة « تضيق حوله » بواسطة قوة روسيا والولايات المتحدة . ان ذهن فولبرايت يعمل بطريقة تجعله يتخيل رد فعل دولته ، اذا حارب جيش صينى فى جنوب المكسيك على سبيل المثال ، وأخذت طائرات الصين تلقى بقنابلها على بعد أربعين ميلا من مدينة ريوجراند .

انه يحاول استبعاد حدوث مشكلة دولية . ليس فقط لى يفهم الاهتمامات الأساسية لخصمه ، بل ويحاول أيضا أن يتخيل ما هية شعوره الداخلى نحو هذه الاهتمامات المضادة لأنه يظن أن العالم سيواجه أخطارا شديدة اذا تصرف على خلاف ذلك (٢) .

(٢) مقابلة مع السيناتور وليم فولبرايت - مضجعة الكونجرس - ٢٠ أبريل.

سنة ١٩٦٦ .

وقد أجاب على سؤال فولبرايت الدكتور جيروم فرانك أستاذ الطب النفسي بجامعة جون هوبكنز الذي كان حاضرا جلسة الاستماع التي عقدتها لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ - قائلا : « اننا لا نلتزم العقل الا بين الحين والحين ، وأظن أننا نتحرك ونحن مثقلون بالخوف والتوتر العاطفي ، مما ينعكس على صفاء التفكير . ولنا الحق في أن نرهب الأسلحة النووية » .

الطفل الصغير له الحق أيضا في الخوف من أن يتعرض لعقاب أب قاس ، ولسنا هنا في مقام التساؤل عن جدوى الخوف ، بل علينا أن نتساءل : ماذا بوسعنا أن نفعل حياله ، عندما يسيطر الخوف على حياته ؟ سيتلاشى كل احتمال لقدرة المرء على التعامل مع البيانات المخترنة في عقله والتي يستمدّها مما حوله . تعاملنا صحيحا ، وهو التعامل الذي يكفل له العلاج والشفاء (على المستويين الفردي والعالمي) أي (أنا على مايرام وأنت على مايرام) .

وقد عبر السناتور فولبرايت عن ذلك في مناسبة أخرى من خلال خطبة ألقاها سنة ١٩٦٤ فقال :

ان نقائص العقل الانساني [« الراشد » الواقع تحت تأثير « الطفل » او « الوالد »] تؤدي الى انحراف حتمي ما بين العالم كما هو [كما يراه « الراشد » المتحرر] والعالم كما يدركه الناس [كما يراه « الوالد » او « الطفل » او « الراشد » المغلق] ، وطالما كانت مداركنا قريبة من الحقيقة الموضوعية [الخالية من التأثير] فمن الممكن لنا أن نتصرف في مشاكلنا بطريقة عاقلة ومناسبة [« الراشد »] ولكن عندما تفشل مداركنا في التمشي مع الأحداث [مدارك قديمة] وعندما نرفض تصديق شيء لأنه لايسعدنا [« والد »] او يخيفنا [« طفل »] او لأنه ببساطة مفرع بشكل غير عادي ، فان الفجوة بين الحقيقة والوهم . تصبح هوة متسعة ، ويصبح التصرف غير مناسب وغير معقول (٣) .

ما مدى عدم معقوليتنا ؟

ان الفزع الذي أحس به معظم الناس - حينما تكشففت لهم فظائع النازية خلال الحرب العالمية الثانية ، دفع الكثيرين الى الاعتقاد دون سند

W. Fulbright, "Foreign Policy — Old Myth and New Reality" (٣)
ties, The Congressional Record, March 25th, 1964.

من الواقع - بأن « هذا لا يمكن أن يحدث في أمريكا » ، وأنا لا يمكن أن
نسمح بمثل هذه الأعمال الوحشية الغربية .

هل نحن لا نستطيع أن نقترف مثل هذه الفظائع ؟ ماذا حدث في
ألمانيا النازية ؟ هل جميع الناس عرضة للانزلاق في هوة اللا منطق ؟ وإلى
أى مدى ؟ ومن يرسم الحدود ؟ لقد أصابتني القشعريرة وأنا أطلع عرضا
قدمه الطبيب النفسى رالف كراوشو لكتاب عنوانه : الأرض الفاسدة -
الأخلاقيات الاجتماعية في أمريكا الحديثة

"The Corrupted Land : The Social Moralities of Modern
America.

من تأليف فريدج - كوك - ونشرته : دار ماكميلان للنشر - كتب
كراوشو يقول :

ان كوك يتحدث في كتابه أساسا عن أن المواطنين الأمريكيين قد
تخلوا عن مبادئهم الاخلاقية النابعة من الذات ليتبنوا اخلاقيات مختسبة من
التقاليد الجماعية والمؤسسات . لقد تخلوا عن معتقداتهم الحسنة
لينزلوا الى العواطف الرخيصة والمبادئ الشعبية الفجة ، أى أن المواطن
هنا يتحمل مسؤولية الطاعة والاذعان للمجتمع . وهذا دواء عسير على المرء .
ويعنى ان نتخفى دائما خلف حقيقة « اننا لا نمتلك دليلا احصائيا »
و « ان هذا هو انطباع المرء ولذلك فهذا الراى غير مهم » فهل هذا
غير مهم حقا ؟ (٤) .

واقبس هنا جزءا من المقال يعرض فيه كراوشو بحثا اجراء
ستانلى ميلجرام بجامعة ييل - وهو يقدم الدليل للاجابة على هذا
السؤال :

يبدأ بحث ستانلى ميلجرام فى وضع اساس علمى تركز عليه
استنتاجات كوك . لقد قام ميلجرام بسلسلة من التجارب النفسية عن
الطاعة . واخذ عينة تمثل قطاعا عرضيا من الاشدين (تتراوح اعمارهم
بين عشرين الى خمسين عاما) من بين السكان الذكور فى مدينة بريدج
بوروت فى ولاية كونكتيكت . من بين العمال ذوى الياقات الزرقاء الى
المهنيين وكانت التجربة تنحصر فى تحديد مدى العقوبة التى يمكن أن

Ralph Crawshaw, "But Everybody Cheats" Medical Opinion (٤)
& Review, Vol. 3, No. 1 (January, 1967).

ينزلها شخص بآخر عندما تصدر له الأوامر بذلك . وقد قيل للمشاركين في إجرائها أنها دراسة تقوم بها « جمعية أبحاث بريدج بورت » لاحتبار أساليب التعليم . وقد اختيرت العينة عشوائيا ، ودفع لكل من أفرادها أربعة دولارات ونصف مقابل اشتراكه في التجربة . وسيطلق على كل منهم اسم : الموضوع Subject وسيلعب كل منهم دور المدرس . ربط دارس في « كرسي كهربائي » كان « الموضوع » قد جلس عليه وتلقى صدمة تجريبية قوتها ٤٥ فولت لإقناعه بأن الكرسي يعمل . ثم جلس « الموضوع » أو « المدرس » في حجرة مجاورة وطلب منه توجيه أسئلة للدارس ، وعليه أن يرسل صدمة قوية له . عند كل إجابة خاطئة . وبالطبع فإن الدارس لم يصعق ولكن إجاباته تحولت إلى شريط من الهمهمة والشهوات والتوسلات وصرخات الفزع التي تتناسب مع قوة الصدمة المرسله . وكانت الإجابات فيه سبق إعدادها بعرفة المشرف على التجربة ، ولذلك فقد كان العامل الوحيد الذي يمنع المدرس من إرسال أقصى جهد للصدمة هو عطفه على الإنسان الذي يعاني من الألم . وكانت مشكلة المدرس وهو يمثل الإنسان العادي ، هي الصراع بين طاعة نظام متجبر وعقيدته التي تمنعه من إيذاء شخص آخر .

■ هي نسبة الذين أكملوا الدورة الكاملة وأعطوا أقصى الصدمات من بين هؤلاء الذين قاموا بلور « المدرس » ■

قبل أن تخمن ، عليك أن تنصت أولا إلى صوت الرجل ويدعى مستر افريمان عند توصيل التيار :

أعطيت ١٥٠ فولت « اتريدنى أن استمر ؟ » (أمر)

أعطيت ١٦٥ فولت : « هذا الشخص يصرخ من الألم هناك . يوجد هنا الكثير منهم . انه معرض لصدمة قلبية . هل تريدنى أن استمر ؟ » (أمر)

أعطيت ١٨٠ فولت : « انه لا يتحملها . لن أقتل هذا الرجل الذي هناك ! ألا تسمعه يصرخ ؟ انه يصرخ . انه لا يتحملها . ماذا لو حدث له شيء ؟ هل تعرف ما أعنيه ؟ أعنى أنني أرفض أن أتحمل المسؤولية . »
 (يقبل المشرف على التجربة أن يتحمل المسؤولية) « حسنا »
 ١٩٥ فولت ، ٢١٠ فولت ، ٢٢٥ ، ٢٤٠ ، ٢٥٠ . وهلم جرا .

وقد أطلع المدرس المشرف على التجربة دائما . ما هي نسبة الذين أكملوا الطريق إلى غايته من بين المدرسين الذين بلغ عددهم الألف ؟ عليك أن تخمن ذلك قبل أن تدع عينيك تشردان بعيدا . وقد تنبأ الفريق

المكون من أربعين طبيبا نفسيا الذين درسوا هذه التجربة ، بأن العدد كان عشر الواحد في المائة . أما في التجربة الفعلية ، فقد أطاعت نسبة ٦٢٪ أوامر المشرف على التجربة بالضبط - ما قولك أنت ؟

وتوصل ميلجرام الى أنه « مع الرقابة التي تبعث التحذير ، وابتداء الناس الطبيعيين ، يضعون لمطالب السلطة ويرتكبون أعمالا ارهابية وقاسية - ان الناس الذين كانوا في الحياة اليومية مسئولين ولطفاء قد أغرتهم فخاخ السلطة بالوقوع تحت سيطرة الوهم ، والقبول الأعمى لأوامر المشرف على التجربة الذي يحض على ارتكاب أفعال العنف » .

ان نتائج هذه التجربة التي ظهرت في المعمل وأحس بها القنانون عليها ، تثير الانزعاج في نفس هذا الكاتب ، فهي تشير الى أن نوع الشخصية التي أنتجها المجتمع الديموقراطي الأمريكي لا يمكن الاعتماد عليها لوقاية المواطنين من التورط في أعمال العنف الوحشي والمعاملات اللا انسانية ، عندما يقعون تحت توجيه سلطة شريرة (٥) .

ان مضمون هذه التجربة مخيف حقا اذا ما نظرنا الى النتائج على أنها تنبئ بجانب شرير في الطبيعة الانسانية ميئوس من علاجه ، وعلى أية حال فاننا نستطيع أن نتحدث عن التجربة بصورة مختلفة عندما نستخدم تحليل المعاملات ، نستطيع القول بأن نسبة ال ٦٢٪ من المبحوثين ، لم يكن لديها « راشد » متحرر تفحص به السلطة الموجودة في « والد » المشرفين على التجربة - وبلا شك كان هناك فرض لم يختبر وهو « أن التجربة العلمية أيا كانت ، تعتبر في نظر العالم تجربة جيدة ، اذا كانت ضرورية لاجراء بحثه » . وربما كان ذلك هو نفس الفرض الذي ساعد العلماء « أصحاب السمعة الطيبة » على المساهمة في فظائع المعامل التي جرت في ألمانيا النازية .

وقد تعلم معظمنا في طفولته أن « يوقر » السلطة . وكانت هذه السلطة ممثلة في رجل الشرطة ، وسائق الأتوبيس ، ورجل الدين ، والمدرس ، وساعي البريد ، وناظر المدرسة ، وأيضا الشخصيات البارزة في المجتمع مثل المحافظ ، وعضو المجلس النيابي ، والجنرال ، والرئيس .

أما استجابة العديد من الناس لدى ظهور رجال السلطة هؤلاء فانها

نحدث تلقائيا - وعلى سبيل المثال اذا كنت تقود سيارتك متجاوزا السرعة المقررة - ثم صادفت فجأة سيارة دائرية المرور ، فانك لن تبرر شعوريا أسباب إبطائك للسيارة ، حيث ترفع قدميك تلقائيا عن دواسة البنزين . ان التسجيل القديم القائل : « من الأفضل أن نحتاط » يهتف بك . ويستجيب « الطفل » تلقائيا ، كما يفعل دائما . وعلى العكس فان « الراشد » يعرف أن قوانين ضبط السرعة ضرورية ، ولذلك فان الاستجابة التلقائية مطلوبة في هذا الموقف .

وليست كافة الاستجابات للسلطة طيبة ، فقد تكون هناك مخاطرة عظيمة في الإذعان اذا فشل « الراشد » في تصنيف المعلومات الجديدة في عالم متغير . ولدنك فانه بالرغم من خشيتنا من هذه التجربة ، الا اننا قد ننظر بالامل الى المناخ الحالي الخاص بالمعارضة والاستجواب في بلدنا . وتبين المظاهرات والاسئلة الصعبة من الشباب أن هناك صحة وقوة في رفضهم الانحاء الاعمى للسلطة أو قبول القوانين التي يعتبرونها معادية للعدالة والبقاء ، بدون نقاش . ان القوانين ليست هي الحرية الحقيقية ولا الحقيقة النهائية . وقد كانت القوانين السيئة موجودة دائما الى جانب القوانين الطيبة . وقد تغير الكثير من القوانين الرديئة نتيجة للمعارضة من النوع الذي نراه اليوم ، واذا لم نأخذ في الاعتبار المعارضة السلمية ، فاننا سنلمس دليلا متزايدا على تحكم « الطفل » في سلوكنا وذلك في أعمال الاثارة والعنف . واذا لم نستجب للمنطق ، فان استجاباتنا سيغلب عليها الخوف أكثر وأكثر . وفي نفس الوقت علينا أن نأخذ في الاعتبار متطلبات العملية الديمقراطية التي لا تستطيع أن تعمل بدون القوانين . وكما قال تشرشل : « ان الديمقراطية هي أسوأ أشكال الحكومة التي يمكن للانسان أن يتخيلها حتى يحاول أن يجد شكلا أفضل منها » . ولكن الديمقراطية تستطيع فقط أن تعمل مع ناخبين أذكاء . والناخب الذكي هو « الراشد » الناخب . ان الحكومة المنبثقة عن « الوالد » ولصالح « الوالد » وبمعرفة « الوالد » ستبديد من على وجه الأرض .

هل هذا الجيل الشاب مختلف ؟ :

ان الكثير من الآباء يضيقون ذرعا بالأساليب الاستقلالية التي يمارسها الشباب هذه الأيام ، ولسنا نرحب بدعوة الآباء الى الإفراط في التساهل مع الأبناء ، بل أن البعض يرى أنه اذا كان علينا أن ننصح

بشيء فعلياً أن ندعوهم الى تشديد الضغط . ان الكثير من الآباء لا يستطيعون تصور أن ذهن طالب جامعي طويل الشعر ويحمل شعارات المعارضة على صدره ، ويدخن الماريجوانا ، يمدن أن يحتوى على افكار بناءة . حتى ولو عجز هؤلاء الآباء عن تقديم مبرر منطقي لتمسكهم بحلقة شعورهم أو مراسم حفلات الكوكتيل التي يقيمونها . وقد أخبرني أحد هؤلاء الآباء الساخطين على الحركات الداعية الى حرية القاء الخطب والاحاديث في الجامعات : « ان هؤلاء الاولاد الفاسدين يدمرون كل شيء تعبنا جدا في بنائه » . وهذا القول صادق ، لأن الشباب يمكن أن يتطلقوا في التدمير ، والبعض منهم كذلك بالفعل . انهم لم يدفعوا الضرائب ، ولم يساعدوا في بناء المعاهد العلمية التي يهاجمونها . ومن الجهة الأخرى فانهم لا يستطيعون الادلاء بأصواتهم . ولكنهم مطالبون بدفع ما هو أكثر من الضرائب ، انهم مطالبون بتقديم أرواحهم في الحروب التي لا يؤيدها الكثيرون منهم »

ويقدم اختبار نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) بالنسبة لطالب الجامعة اليوم - فهما جديدا لسلوكه ، الذي أعتقد أنه يساعدنا على اخراج هذا الموضوع من السياق القديم (الجيل القديم في مواجهة الجيل الجديد) بما فيه من ايماءات وتعبيرات تدل على التأفف والغضب مثل لعبة « أليس هذا فظيحا ؟ » التي لا تثمر شيئا نافعا .

وفي سنة ١٩٦٥ صدمت واحدة من أعظم المؤسسات التعليمية في العالم ألا وهي جامعة كاليفورنيا في بركلي - بسلسلة من المعاملات المثيرة ، التي انتشرت في العالم كله ، وظهر « طفل » الكثير من الطلاب الثائرين في نداءات مثل : « لاثق في أى شخص تجاوز عمره الثلاثين » ، كما ظهر « الوالد » أيضا في الرد الغاضب الذي أبداه رئيس مجلس الأوصياء حيال الاستخذام القبيح لبعض الكلمات البذيئة . وظهر أيضا « الراشد » الرائع في كلارك كير رئيس الجامعة حينذاك الذي فصل من عمله في يناير سنة ١٩٦٧ . (القرارات التي اتخذها « الراشد » لاتضمن الثناء أو الشعبية أو السلامة خاصة بين هؤلاء المتخوفين من الحقيقة بحيث لا يعادون النظر في قراراتهم) .

ما حقيقة ذلك الذي كان يحدث في حرم جامعة بركلي ؟ ما هي المعاني الحقيقية للكلمات البذيئة ؟ لماذا كان الطلبة في مؤسسة علمية معروفة بأنها واحدة من أكبر المؤسسات العلمية تحررا في الولايات المتحدة

بأكملها - يطالبون بالحرية غير المحدودة ، بأسلوب صارخ يندد بكل السلطات الجامعية ؟ لقد علق ماكس ويزر على انتفاضة بيركلي قائلا :

لا توجد مؤسسة علمية تستحق لقب « الطاغية » اقل من جامعة كاليفورنيا . حيث يستنبح الطلبة - نما يفعل معقلهم في بيركلي - ان يعيشوا خارج الحرم بدون أى اشراف جامعي على سلوكهم . أما مجال الاختيار الدراسي فهو واسع ولا تثقله الا قيود قليلة تمليها متطلبات المنهج الدراسي . حقا ، ان العديد من طلبة بيركلي يشكون . ولكن شكاياتهم التي ترجمت الى مطالبات بالتزويد من الحرية تنبع من نظام يعتبر حرية رائدة عن الحد بالنسبة لغيرها من الجامعات (٦) .

وقد لاحظ بعد ذلك أن خبرة الطلاب غير الكافية بهذا النمط من أنماط الإدارة الجامعية ، الذي تتحدد فيه السلطة من خلال قواعد غير شخصية ، يجعل كلا من الجامعة - والمجتمع - يبدو أمام العديد من الطلاب كمؤسسة استبدادية » .

ان فكرة الخبرة فكرة مهمة . دعنا نفحص السنوات الخمس الأولى لعظم الطلبة الذين كان معظمهم اما مشتركا في الثورة « أو متعاطفا معها » . ان متوسط أعمار الطلبة يتراوح ما بين ثمانية عشر - الى عشرين عاما . وقد ولد معظم الطلبة المعارضين ما بين سنوات ١٩٤٣ - ١٩٤٦ ، وقضوا معظم سنوات تشكيل شخصياتهم اما خلال سنوات الحرب أو ما بعد الحرب . وقد تميزت هذه السنوات بالطوالع الأسرية غير المستقرة . مثل التنقل الدائم من مكان لآخر مع غياب الآباء اذا لم يكونوا قد ماتوا بالفعل ، والأمهات المرهقات اللاتي يعانين من القلق ، وغير ذلك من النماذج الاجتماعية العامة التي تزيد من عدم الاستقرار في البيت . ويلاحظ أن كثيرا من آبائهم قد عادوا للالتحاق بالجامعات والمعاهد بعد انتهاء الحرب العالمية وتسريحهم . وقد أكسبتهم سنوات الحرب الضائعة مرارة ، وجعلتهم ينظرون بتجهم الى هذا العالم الذي يطالبهم بالكثير ، فانعكست المرارة التي أفعمت قلوبهم ونفوسهم الجريحة في كلماتهم التي تلعن الحرب والدمار . ولم يستسلموا بسهولة للمؤسسات التي تهاوت والعناوين الضخمة التي عفا عليها الزمن والتي كانت ترسم للانسان في الماضي صورة صالحة . أما أطفالهم الذين وصلوا الآن الى الجامعة فلم يروا الحياة ملجأ للهدوء .

M. Wavy, "On the Campus : A Troubled Reflection of the (٦)
U.S. Fortune, September-October, 1965).

المنزلى أو عالما آمنا للديموقراطية ، وانما رأوا فى سن مبكر صور معسكرات الاعمال ، وسجلوا سلوكهم ضمن كافة هذه المعلومات فى « الوالد » ومن جهة اخرى فان العديد من هؤلاء الاطفال نسلخوا رموز الرفاهية التى أعدها عليهم أبائهم فنعموا ببيوت وأجساد نظيفة ، وعنايه طبيه فائقة وتعليم جيد . ولكن كافة هذه المميزات لم تمنح التسجيلات المبكرة التى نستمتع اليها الآن وهى تعمل فى الانشطة غير المعقولة للطلاب المعارضين . ومن المهم أن نؤكد أننا لا نستطيع تعميم هذا الكلام على جميع الطلاب ، أو جميع الطلاب المعارضين ، فمن المؤكد أن هناك استثناءات ، لأن بعض المعارضين كانوا متفاوتين فى السن ، والبعض أنى من بيوت كانت مستقرة خلال سنوات الحرب . على ذلك فان هذا التحليل مهم ، لأنه من خلال هذه النوعية من التساؤلات نستطيع أن نتجاوز لعبة « أليس هذا فظيلا ؟ » عن الجيل الجديد .

ولا يعنى التعرض المبكر للمصاعب والتناقضات أن هؤلاء الشباب يستطيعون التهرب من المسئولية المتعلقة بسلوكهم ، وعلى أية حال فان فهم المعلومات المسجلة فى « والد » وفى « طفل » هؤلاء الطلبة يجعل مواقفهم مفهومة . ونحن نعرف أن المعلومات القديمة لا تأتى من « الطفل » النائر والقلق . بل أيضا من « الوالد » الذى يحتوى مضمونه على آثار عديدة للقلق والنورة وسوء الظن والارهاق فى عالم يبدو غير قادر على البقاء بدون حرب فترة طويلة .

وأصبح عدد لا بأس به من الطلبة ، الذين لم يعيش عدد كبير منهم مع سلطة يستطيعون الثقة فيها أو التعامل معها ، مستعدين الآن للمعارضة ضد السلطة كلها ، بما فيها سلطة الجامعة . لقد نالوا قدرا كبيرا من الراحة المادية . ولكنهم لم ينالوا القدر الكافى من الدلائل التى تجعلهم يؤمنون بأهمية البشر ، وأن الحياة لها هدف . لقد تحطم « والدهم » وأحبط « طفلهم » أما « راشدهم » فانه يسأل فى عجلة : - « هل من مزيد ؟ » -

وكانت بعض الانتقادات العديدة التى أنيرت خلال المناظرة التى جرت فى الجامعة تتضمن أن الجامعة قد أصبحت مقرطة فى الضخامة وهذه ملحوظة تصدق أيضا بالنسبة لعدد سكان العالم . وقد أجاب فرانكلين مورفى مستشار مجلس ادارة الجامعة ، وهو طبيب بشرى - عن هذا السؤال باستخدام استعارة بيولوجية مدهشة ، لاتخلو من الدلالة . حول العالم الذى « بات مقرطا فى الضخامة » :

لا ، ان العالم ليس مفردا في الضخامة ، ولكنه اتسع سريعا في السنوات العديدة الماضية = لقد انصرفنا في الماضي الى تشريح الوحوش اكثر من دراسة وظائف الأعضاء الخاصة بها = واداء سبق الجسم الجهاز العصبي ، تصاب حركته بالتخلل = ويترنج أحيانا . أما بالنسبة للجامعة فعلى الآن أن نخلق نظاما عصبيا يلائم الحيوان = والأمر يحتاج الى جهاز عصبي خبير بشئون الحياة لكي يتعامل مع التعقيدات ، وينقل الرسائل بين العناصر المختلفة . ان الجامعة تحتاج الى لا مركزية أكثر وأفضل ، كما تحتاج الى تعاون أكثر وأفضل .

ان وظيفة « الجهاز العصبي » للجامعة تشبه وظيفة الجهاز العصبي في الجسم الانساني - الاتصال . وهي أيضا نفس وظيفة الجهاز العصبي الذي يربط العالم كله معا . والتعمق في الاتصال - الذي يسهل هذه الوظيفة أو يوقفها - هو الذي سيخرج أسلوبا جديدا الى النور يتلاشى أمامه الميل القديم للعنف ، الذي يتجلى في أشكال عدة مثل الحرب ، أو العمل البوليسي ، أو التدخل المسلح . والمعنيون بحل تلك المشاكل ، سواء كانت عالمية أو محلية ، يتحدثون باستمرار عن « الحاجة للحوار » بدون أدنى اعتبار للحاجة الى تحديد معاني المصطلحات . أما في تحليل المعاملات فقد طورنا نظاما موحدا في :

١ - تحديد المعاني المصطلحات . ٢ - قصر السلوك على وحدة أساسية للملاحظة . ولكي يكون للحوار فائدة ، يجب أن نتفق على الظاهرة التي نفحصها ، والمصطلحات التي سنصف بها ما نلاحظه . ونؤسس عليها الحوار ، والا فائنا بكل بساطة ، سننتشر في الكلمات ، مثل ذلك الرجل الذي وصف صديقا له قائلا : « كان متعصبا في وطنيته » وفي معتقداته السياسية ، ولكن لا يعني هذا أنه لم يكن بالشخص الرزين » . ان كلمات مثل متعصب أو رزين - لا تفيدنا في تحليل السلوك أو التنبؤ به . والكثير من محاورتنا غير مفيد لنفس السبب حيث يقال الكثير ولكن المستمعين لا يفهمون شيئا .

تحليل المعاملات الدولية :

إذا كان تحليل المعاملات يتيح لشخصين أن يفهما ما يدور بينهما . فهل يمكن لنفس اللغة أن تستخدم لفهم ما يجري بين الدول ؟ وكما هو بين الأفراد ، فان المعاملات بين الدول يمكن أن تكون تكميلية فقط إذا كان

الموجهون متوازنين على صفحة المعاملة • وتعتبر معاملات (راشد - راشد)
 هي المعاملات التكميلية الوحيدة المتكاملة في العالم اليوم من جهة ظهور
 وتقرير مصير أصغر الدول • أما علاقة (والد - طفل) التي كانت موجودة
 من قبل بين الدول الكبيرة والصغيرة - فلم تعد مجزية الآن • ان الدول
 الصغيرة تنمو • ولا تريد أن تكون « الطفل » مرة أخرى • ونجيب على
 انتقاداتها المرة أحيانا قائلين : « كيف تشعر هذه الدول بهذه الطريقة
 بعد كل ما عملناه معها » • اننا نأمل أن تنجح الأمم المتحدة في القيام بدور
 محلل المعاملات بين الدول ، وقد عاشت الأمم المتحدة رغم العديد من
 المعاملات المتقاطعة مثل أن يقرر رئيس إحدى الدول العظمى المنصبة
 بحذائه ليووقف الاتصال ، أو أن يهدد بسحقنا قيسستير « الطفل » الكامن
 في نفوسنا ، ولكننا لسنا مرغبين على الرد عن طريق « الطفل » كما أننا
 غير مرغبين على الرد عن طريق « الوالد » الذي سيظهر الحسام • وهنا
 تكمن إمكانية التغيير •

قد نقول للطفل الصغير « انني أحبك » مرات ومرات • ولكن اذا قلنا
 « انني أكرهك » مرة واحدة • ففيها الكفاية لقضاء حياة طويلة يرفض فيها
 أي محاولة من أبويه للتعبير عن حبهما له • واذا عرف الشخص الصغير
 من أين جاءت عبارة « انني أكرهك » - وكيف أتير « الطفل » في أبيه لكي
 ينطق بمثل هذا القول غير المنطقي والمدمر للصغير الذي يحبه حقيقة -
 فان هذا الصغير لن يتشبث بهذه العبارة باعتبارها حقيقة واقعة •

وهذا هو الحال مع عبارة نيكيتا خروشوف « سندفكم » • وبالرغم
 من أنها كانت عبارة بذئنة الى حد ما ، ولم تطور شيئا بناء بالنسبة لبلده
 أو لأي بلد آخر ، الا أنه يمكن تخفيف بعض الإهانة التي تضمنتها لنتذكر
 أنه بشر كغيره له « والد » و « راشد » و « طفل » - يختلف مضمونهم
 عن مضمون « الوالد » و « الراشد » و « الطفل » عند أي شخص آخر ،
 خاصة رجال الدولة الأمريكيين •

أما البرهان على أنه لم يكن كائنا سياسيا من جنس أرفع فهو أنه
 قد سقط في هاوية النسيان • ولا يحتاج كشف التعبيرات والأفصال
 الخاطئة الى بحث تاريخي كبير من قادة البلاد الأخرى ، بما فيهم الولايات
 المتحدة • علينا أن نتعلم الاجابة على تعبيرات وأفعال الآخرين ليس عن
 طريق « طفلنا » الخائف والمتحفز للقتال ، ولكن عن طريق « راشدنا »
 الذي يستطيع أن يبحث عن الحقيقة • وأن يرى الخوف في « طفل » الآخرين
 بسبب ما هو عليه ، وأن يدرك الألم الذي يشعرون به من « الوالد »

الثقافى الذى يملئ المطلق والذى لم يعد يعمل من أجل بقاء الجنس البشرى .
يجب أن نعدر حتى الابتعاد عن السلاح ونظهر « والدنا » المتقف . وهناك
الكثير من العظمة فى هذا « الوالد » ، ولكن هناك أيضا الكثير من الوقاحة .
كما هو الحال فى شر الاستعباد السرطانى الذى يكتنف الأمريكيين الآن
مختلا فى مظاهر التعصب العنصرى القاتلة . سواء لدى السود أو البيض .
ونرى ذلك كتب التون قروبلاد قائلا :

« اننا نبدو فى أزممتنا الحالية كالأعبي الشطرنج الذين تحركوا الى
مواقع يتضح منها أن كل التحركات الممكنة ليست فى الحقيقة سوى
تحركات مدمرة . ونرى بالكاد أن ما يحدث . يمثّل فى بعض جوانبه عبثا
بالقانون الأخلاقى . ولكن من الصعب علينا أن نصدقه أو نفهمه . ان
استياء الآسيويين يبدو غير معقول وليس له ما يبرره اذا كنا مهتمين فقط
بالأحداث المعاصرة . ولكن ما نجنّبه الآن ليس الا « بزرائه فى الماضى
البعيد . ان كل رجل أبيض لجأ الى العنف فى السنوات الماضية ، وخرج
على مبدأ احترام الكرامة الفطرية لكل انسان عندما دعى المواطنون الصينيين
بالأولاد . ساعد على بذور بذور الكراهية الوحشية التى انفجرت أخيرا فى
وجوهنا بهذا العنف اللا معقول . فى الوقت الذى نضحى فيه بأنفسنا من
أجل المبادئ الرفيعة (٧) (٨) »

وهناك طريقة أخرى لتقرير هذا القانون الأخلاقى وهى أننا اذا قهرنا
« الطفل » فى شخص آخر لفترة طويلة بما فيه الكفاية ، فإنه سيتحول الى
وحش . ولا يدهشنا أن تنتج سنوات القهر الطويلة وحوشا عديدة فى
أمريكا تبعث فىنا الخوف . لقد علقت امرأة زنجية عقب اندلاع أحد
الاضطرابات العنصرية على سبيل التفسيرات التى قدمت لتورة واطس
الزنجية فى لوس أنجلوس (مثل اجراءات البوليس ، والبطالة ، والفقر
... الخ) بقولها : « اذا كان البيض بحاجة الى التساؤل عن الأسباب
التي دعت الى الثورة ، فلن يتوصلوا اليها أبدا » .

Elton Trueblood, "The Life We Prize". (New York : York (٧)
Harper, 1951).

(٨) ان الكاتب مثله مثل غالبية المفكرين الأمريكيين يعتبر الحرب الفيتنامية حربا
أخلاقية من وجهة نظره . لأنها تدافع عن القيم الديمقراطية الغربية فى شرق آسيا ، ضد
الدكتاتورية الشيوعية حينذاك . وفى هذا مغالطة كبرى لأن النظام الذى تصدت أمريكا
الدفاع عنه فى فيتنام كان يعبر عن الدكتاتورية العسكرية ولبست الديمقراطية - المترجم .

اننا نستطيع أن نتوصل الى تلك الأسباب لو لم يكن « طفلنا » الخائف و « والدنا » البار في نظر نفسه ، يزاحمان « الراشد » . وعلمنا أن فعل شيئا آخر أصبح الآن ضروريا ألا وهو استخدام لغة مشتركة تنتمي الى السلوك الانساني وأشعر بأن هذه اللغة موجودة لدينا في تحليل المعاملات . ان علم النفس يعرف بأنه « العلم العظيم وليد العصر الحديث » ولكنه لا يستطيع أن يقول الا القليل لكي يجعل معاركنا الاجتماعية الحالية منطقية . وقد أجب أخصائي آخر في مجال السلوك والاتصالات ، على استجواب لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ قائلا :

« انني عاجز عن متابعة الموضوع . وأشعر بأنني عرضة لأن أجعل من نفسي أضحوكة » . ان هذا النموذج من نماذج التواضع الجم ، لا يتحتم أن يجعلنا نفعل عن ضرورة اشراك هؤلاء العلماء الذين يزعمون لأنفسهم شيئا من التبصر بالسلوك الانساني في مجال العلاقات الدولية مع الشعوب الأخرى .

وأتعشم أن يتلقى السناتور فولبرايت وجميع الموظفين العموميين تعضيدا من رجال الطب النفسي « يساعده على النجاح في مهمته » . كما أشعر أن فهم نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) وإمكانية تحرير « الراشد » لدى رجال الحكم والناخبين معا ، قد يؤدي الى أعظم النتائج التي تقود الى فهم المشاكل الاجتماعية والعالمية التي تواجهنا .

وإذا استطنا أن نفهم سيطرة « الوالد » التي يطبق بها علينا « والدنا » الذاتي مؤيدا « بالوالد » الثقافي) ، وإذا استطعنا أن نفهم الفزع الكامن في « طفلنا » في وجه الثورة والحرب ، وفي سكان الهند ضحايا الجوع والخرافات ، وفي أهالي روسيا الذين يرسفون في الأغلال وتتأرجح فيهم روح التمرد على السلطة ، وفي سكان اسرائيل الذين يتعكس عليهم احساس الانتقام لقتل ستة ملايين يهودي ، وفي سكان فيتنام شمالها أو جنوبها ، وفي الخوف من النابالم وطعنات السونكي ، وفي سكان اليابان الذين يتذكرون ضربة القنابل الذرية - إذا بدأنا في رؤية هذا « الطفل » في شكل طفل صغير قائم في عالم مليء بالفزع ، وهو يريد فقط أن يتحرر من الألم ، فلا بد وأن يصير لأحاديثنا حينذاك وقع مختلف قليلا . لقد اقترح لونغفيللو ما يلي :

« إذا استطعنا قراءة التاريخ السري لأعدائنا ، فلا بد وأن نجد في حياة كل رجل الأسف والمعاناة بما يكفي لنزع سلاح كل العداوات » .

ونحن لانستطيع أن نساند موقف « الطفل » الذى ليس على مايرام لدى أعدائنا ، لاننا نخشى الألعاب التى يلعبونها لانكار هذا الموقف ، ولأنهم لا يستطيعون أن يتعاطفوا معنا لنفس السبب . اننا نشترك فى مشكلة عدم الثقة . ان الناس فى كل مكان يريدون أن يتفاوضوا ولكن حسب شروطهم الخاصة . و نستطيع أن نكون ابطالاً رئيسيين فى القضايا الصغيرة لاننا قطعنا العديد من الاختيارات فى التعامل مع القضايا الكبيرة . وقد نستطيع ابات خوفنا المتبادل ، ولكننا لانعرف ما نفعله حياله .

إذا عرف الرجال المشتركون فى المحادثات الدولية لغة نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) . وإذا عرفوا جميعاً أنه مع وجود الخوف فى « الطفل » لا توجد طريقة لعقد اتفاق عن طريق « الوالد » وأنه من خلال تحرير « الراشد » فقط يمكن التغلب على موقف (أنا لست على مايرام وأنت على مايرام) بالنسبة للعالم ، وبعد ذلك علينا أن نبدأ فى رؤية احتمالات الحلول خلف تأثيرات الماضى المحدودة . ان الكلمات الأساسية الداخلة فى تحليل المعاملات وهى (الوالد - الراشد - الطفل - لست على مايرام - أنا على مايرام - الألعاب - المداعبة) بسيطة لدرجة أنه فى حالة عدم القدرة على ترجمتها الى بقية اللغات الأخرى ، فمن المستطاع استخدامها كما هى ، مع تحديد معانيها بالفاظ اللغات الأخرى . ان كلمة OK ★ كلمة عالمية ، كذلك كلمات : «الوالد» - « الراشد» -« الطفل» - يمكن أن تكون عالمية . والآن وقد أصبح لدينا مفهوم لفهم السلوك الانسانى ، يستطيع كافة الناس أن يحيطوا بمعناه ، ويمكن صياغته فى كلمات بسيطة ، وترجمته الى أى لغة ، فاننا نستطيع الوصول الى نقطة يمكن عندها أن نهجر مخاوفنا القديمة ، القائمة على أساس مأسى الماضى ، وأن نبدأ الحديث مع بعضنا البعض بالطريقة الوحيدة التى تجعل الاتفاق ممكناً . (راشد - راشد) . ونستطيع باستخدام « الراشد » أن ننظر معاً الى الموضوعات القديمة المعلقة . ان العبارات التى لم تختبر تغلق أمامنا الاختيارات وتقضى على الآمال التى تحدونا بأن نحيا معاً على أساس موقف (أنا على مايرام ، وأنت على مايرام) وعلى سبيل المثال ، الى أى مدى نستطيع الدخول فى الدبلوماسية الدولية اذا ظلمنا نستخدم لغة مغلقة تتضمن مثل هذه العبارات الموصومة من نوع : « الشيوعية الموحدة » و « الغرب الحر » و « الصراع المعادى » ؟ وحتى كلمة « الشيوعية العالمية » التى توحى بأننا نريد استمرار الحرب تلو الحرب ، وأن نتكبد تكاليفها

(★) التى تترجم فى هذا الكتاب بمعنى « على مايرام » (المترجم) .

الباهظة ، يجب أن يعاد فحصها • كم من المعارك نلتزم بدخولها ؟ وهل تبدو لها فى ادقى بهايه ؟ هل من الممكن تحويل العالم الى اشتيوعيه ؟ وهل دل الشيوعيين ملحدون ؟ من هو الشيوعي ؟ وهل تغير خلال الخمسين عاما الماصيه ؟ وهل يتشابه جميع الشيوعيين ؟ (٢) يوجد ثلاثة بلايين شخص فى العالم • ومعرفتنا عن هؤلاء الأشخاص لافراد محدوده • ونادرا ما نفكر فيهم كافراد • وعلى سبيل المثال ، هل يرى دوله مثل الهند بقعة متسعه لتمييزها صفة خاصه ، تضم أناسا كثيرين وليس لها من أهمية سوى الطريفه التى نغير بها الميزان الدولى للقوى فى معركة أمريكا ضد الشيوعيه العالميه ؟ أم نستطيع ان نرى الهند كامه شديده التعقيد • يعيى فيها بشر عاديون يمثلون نسبة السبع من سكان العالم • وتضم بلادهم ستة مجموعات عنصريه واضحه ، و ٨٥٥ لغة ولهجه • وسبعة ديانات رئيسية ، وثقافتين متعاديتين ؟ وإذا لم يستطع • الوالد • الهندى • « الوالد » الأمريكى أن يتفقا على شئ • فهل فى وسعنا أن نتخيل كم سيكون الأمر متيرا حينما نكتشف نقاط التوافق بيننا وبينهم اذا حررنا • الراشد • ؟ اننا ننتهى أحدا الى الآخر ، ونحن أيضا أشخاص لا أشياء • وليس سكان العالم أجمع مجرد أشياء يمكن السيطرة عليها ، بل أشخاص يجب أن نعرفهم ، وهم ليسوا وثنيين يجب تحويلهم عن معتقداتهم ولكنهم أشخاص يجب أن نستمع اليهم ، وليسوا أعداء تحتم علينا كراهيتهم ولكنهم أشخاص يجب أن نلتقى بهم ، انهم ليسوا اخوة نحفظ بهم بل اخوة نتخذهم اخوة •

فى مجتمع غنى يرى مواطنوه أن مشاكل الفرد لايمكن حلها الا اذا ضحى فرد آخر بسنوات وسنوات (فترة التمرين فى مجال التحليل النفسى تستغرق من ثلاث الى خمس سنوات بعد التخرج من كلية الطب وقضاء فترة الامتياز) تصبح فكرة حل مشاكل سكان العالم اشبه بالاحتجاز أو العبث ، اذ يتطلب الأمر حينئذ بلايين السنوات لعلاج كل منهم فيقول • الوالد • : (ستظل الحروب وشائعات شؤوبها قائمة دائما) ، ويقول « الطلل » : (كل • واشرب ، واف • لأننا غدا نهوت) • ويذكر لنا التاريخ ما حدث ، ولكنه لا يستطيع أن يذكر لنا ما يجب أن يكون أو لا يكون (٣) • انه عالم مفتوح ومتطور • ولا نعرف ما يكفى عن هذا العالم

(*) بالرغم من تسلم الكاتب به قف ثلاثة من آمال شعوب العالم الثالث - خلال حدثه السابق عن الحرب فى فيتنام ، الا أنه هنا يدعو الى انهاء الحرب الباردة ويتنبأ بالانفراج العالمى الذى بدأت تاشبهه بثورة جوروباتشوف • البرستروبكا) ، التى انتهت بظهور الكومنولث الجديد - المترجم •

بحيث نتحدث عما لا يمكن أن يحدث • ويستطيع « الراشد » فقط أن يعمل على تحقيق هذه الفكرة المثيرة • « الراشد » فقط هو الذى يملك القدرة الاخلاقية •

• ويستطيع « الراشد » أن يعرف استجابات « الطفل » لدى الآخرين • ولكنه يستطيع أن يختار عدم الاستجابة النوعية ، والولايات المتحدة • على سبيل المثال ، لا يستطيع أن تجد طريقها طول الوقت • ويكتب روبرت هاتشمن عن هذه النقطة نوي افتتاحية عن : دور الولايات المتحدة - قائلا :
دعنا نسلم بسوء القصد من جهة الصين ، وتصلب فيتنام الشمالية • وعداوة الاتحاد السوفييتى ، وغرابة أطوار ديجول • وعدم استقرار العالم النامى • ودعنا نتذكر فى نفس الوقت أننا نعيش تحت تهديد الاحتراق بفعل القنبلة النووية الحرارية • فما هو الدور الصحيح للولايات المتحدة فى الشؤون العالمية ؟ ما هى السياسة الصحيحة والحكيمة المفروض أن تتبعها ؟

اننا ضحايا ، ليس لشور الأخرين فقط - وهذه وجهة نظر تعبر عن جنون العظمة - بل أيضا لأخطائنا وأوهامنا • ولا يعنى ذلك انكار أن الآخرين أشرار ، لأنهم كذلك بالفعل • وما يجب علينا أن نعمله هو تقادى شر أنفسنا ، وتقديم نموذج للقوة النبيلة والذكىة ، وتنظيم العالم لقمع الشر الذى نجده فى الداخل والخارج (٨) •

ويبدو لى أن الأسطورة الأمريكية مؤسسة على موقف (أنا على مايرام - وأنت لست على مايرام) = اننا (على مايرام) بفضل رجالنا العظام أمثال باتريك هنرى ، وتوماس جيفرسون ، وتوماس باين ، وأبراهام لنكولن • اننا ننظر الى أنفسنا فى أحسن صورة • ولكننا نرى المعارضين فى صور كاريكاتيرية • ويسأل توماس مرتون عن عالم اليوم فى كتابه الغاضب قائلا :

ماذا سنفعل عندما يتحتم علينا فى النهاية أن نعرف اننا ممنوعون من دخول منطقة البرارى والاندفاع الى الأمام فى عالم تاريخى مع كل الايطاليين والاسبان والبولنديين بوصفنا جزءا من التاريخ مثل كل هؤلاء.

(٨) مقال افتتاحى بقلم R. Hutchins نشر بمجلة سان فرانسيسكو كرونيكل - ٣١ يوليو ١٩٦٦ •

(*) يعتمد المنهج الحديث فى دراسة التاريخ والذى أرسى قواعده عالما للؤرخ أرنولد توينبى باسم : فلسفة التاريخ - على تجاوز مجرد سرد أحداث التاريخ الى النظرة التأملية الشاملة حتى يستطيع التاريخ أن يذكر لنا ما يجب أن يكون أو لا يكون - المترجم •

الباقين ؟ وهذه هى نهاية الأسطورة الأمريكية : لن نستطيع فيما بعد ان نفل سارج الجو العالى المخلخل الهواء ، ونشير الى أسفل السماء الزرقاء نحو الناس الذين على الأرض لكي نطلعهم على النظام المثالى فى بلادنا . اننا فى نفس غرفة الطعام مع باقى الناس ، فهل سندير ظهورنا لكل ذلك ؟ هل ستقف موقف المتفرج ، وتعتبر أن الأفراد الممتازين هم دائما الذين يطلقون النار مباشرة ، وهم الذين يكسبون دائما ؟ (٩) .

ان اطلاق النار المباشر والفوز - يلقيان التعظيم فى أمريكا - من الناس الشرفاء الذين يخافون ، والذين هم بطيئو الحركة وضعاف النظر ، والذين يتعجبون من العنف الذى يفرض على الأرض حاليا . كتب آرثر مبلر بعد اغتيال كيندى :

ان العنف موجود لاننا نكرس العنف كل يوم . ويستطيع أى رجل نصف متعلم يرتدى بذلة أنيقة - أن يجمع ثروة بالظهور فى عرض تليفزيونى تصور مناظره الوحشية بتفاصيل مرعبة جدا . من ينتج مثل هذه النوعية من العروض ؟ ومن الذى يدفع لتمويلها ؟ ومن الذى يتشرف بالتمثيل فيها ؟ وهل هؤلاء جميعا يعانون من شدة الاضطراب العقلى ويتسربون بطول الشوارع التى يقطنها الفقراء ؟ لا . انهم نجوم المجتمع واعمدته ، رجالنا الأشراف ، ونماذج النجاح التى نفتدى بها فى انجازاتنا الاجتماعية . ليتنا نبدا فى الاحساس بالخجل والنم قبل أن نبدا فى بناء مجتمع يشعر بالأمان ، ولنترك العالم المسالم جانبا ، فالبلد الذى لا يستطيع أن يسير فيه الناس آمنين فى شوارعهم لا يستحق التمتع بحق ارشاد الآخرين الى كيفية حكم انفسهم . ناهيك عن القاء القنابل على هؤلاء الآخرين (١٠) .

ان تكريس العنف مسجل فى « والد » أطفالنا الصغار . ويسمح ذلك بظهور الثورة والكراهية الموجودة فى « طفل » أى شخص . والنتيجة هى الحكم بالاعدام على حضارتنا اذ يبلغ عدد جرائم القتل التى ترتكب سنويا فى الولايات المتحدة ٦٥٠٠ جريمة قتل فى مقابل ٣٠ بانجلترا .

T. Merton, "Conjectures of a Guilty Bystander", (New York: Doubleday, 1966).

(١٠) مقال بقلم A. Miller وعنوانه : متاعب بلدنا - نشر فى مجلة : نيويورك تايمز . وأعيد نشره فى مجلة : سان فرانسيسكو كرونكل - بتاريخ ١٦ يونيو ١٩٦٨ - ص ٢ .

و ٩٩ فى كندا ، و ٦٨ فى ألمانيا ، و ٣٧ فى اليابان . وقد بيع أكثر من مليونى بندقية فى الولايات المتحدة سنة ١٩٦٧ كما بلغ عدد المسدسات المباعه قانونيا فى ولاية كاليفورنيا وحدها ٧٤٢٤١ مسدسا خلال الشهور الأربعة الأولى من سنة ١٩٦٨ .

وقد كلف الرئيس جونسون اللجنة الجديدة لدراسة الجريمة بالنظر فى (أسباب وظروف العنف الجسدى فى هذا البلد ، ابتداء من الاغتيل بدافع التحيز أو المذاهب الفكرية أو الأفكار السياسية أو الجنون - الى ارتكاب العنف فى شوارع المدن الأمريكية ، بل أيضا فى البيوت) .

والعنف فى بيوتنا الأمريكية هو أوضح أنواع العنف . ان « الطفل » هو الذى يرتكب جريمة القتل . وأين يتعلم « الطفل » القتل ؟ فى كل يوم يقتل بالولايات المتحدة طفل أو طفلان فى سن أقل من خمس سنوات على يد والديهم . وطبقا لما أورده الدكتوران راي ا . هيلفر . وهنرى كمب بجامعة كولورادو ، اللذان نشرنا تقريرهما فى كتاب بعنوان : *The Battered child* - نجد أن معدل قتل الاطفال أكبر من المجموع الكلى لنسبة الموتى من الاطفال بسبب الأمراض . وبالإضافة الى ذلك فإن خمسة اطفال يصابون بالأذى كل ساعة على يد الوالدين أو الاوصياء . وقال الدكتور هيلفر أن من بين المشاكل المتعلقة بمحاولة البحث عن حل للمشكلة - توفير الأطباء النفسيين اللازمين لعلاج الوالدين ، وتم التركيز على مساعدة الوالدين كحل لمشكلة العنف خلال استطلاع للرأى أجري بمعهد جالوب خلال اليوم السابق لاطلاق الرصاص على كيندى . وقد بينت الاجابات أن الحل الأول لمشكلة العنف يتمثل فى « اصدار قوانين أشد لتنظيم حمل السلاح » . وبالإضافة الى ذلك طلب الكثيرون من الذين أدلوا برأيهم - اصدار « قوانين أشد الزاما » . وحذف برامج العنف من التليفزيون . وتحسين السلطة الأبوية (بما فيها تنظيم دراسات للآباء والأمهات لتعليمهم كيفية تربية صغارهم) (١١) .

وقد عرض معهد تحليل المعاملات فى ساكرامنتو تدريس مثل هذه الدراسات منذ سنة ١٩٦٦ . وقد حضرها بالفعل مئات من الوالدين . وهذه الدراسات التى يستغرق مدة البرنامج المخصص لها ثمانية أسابيع - تبدأ بشرح لنموذج (الوالد - الراشد - الطفل) . وكان من بين الدارسين محللون نفسيون ، ومشرفو اختبارات الصلاحية للوظائف ،

ورجال الدين - وأطباء الأطفال ، والمدرسون ، وعلماء النفس ، وأحد أطباء التوليد - واستعملوا جميعا نفس اللغة أى نموذج (الوالد - الراشد - الطفل) وتم تطبيق تحليل المعاملات على الموضوعات التالية : مشكلة أريد أن أثق فيه ولكن ... » ، والتوصل الى تغيير الشباب المعارض ، وفهم القيم الأخلاقية ، والعلاقة بين الحرية والحب ، ومشاكل قلة الانجاز والاعاقة ، والتدخل فى الأزمات ، ولماذا يتصرف الأطفال بغباء ، وانقاذ واصلاح الطلبة الفقراء ، وبناء موافف سليمة نحو الجنس والزواج ، والتحكم فى العواطف - وقد ساعدت هذه المناهج الأبوين على الارتقاء الى الأفضل ، كما ساعدت على انقاذ واصلاح العائلات التى تعاني من الضيق - وقد كتبت احدى الأمهات بعد الانتهاء من أحد هذه البرامج الدراسية ، ما يلى :

« كان هذا البرنامج من أفضل مالقينا من أحداث - لقد فتح خطا جديدا للاتصال بين زوجى وبينى ، وقد استفدت منه استفادة عظيمة ، يدلل أن الأفراد الذين أعمل معهم صرحوا بأننى أصبحت شخصية مختلفة منذ بدأت دراسة هذا المنهج ، وهناك سيدة تقول لى دائما : بارك الله فى « راشدك » - ونحن أيضا نرى ماهية مشكلتنا مع ابنتنا ، ونستطيع أن نحلها بأنفسنا » .

ان معرفة كيفية وقف العنف فى البيت تقود الى معرفة كيفية وقف العنف فى المجتمع - ويجب على المشرفين على الصناعات ، ورجال الاعلان ، ومنتجى المواد الترفيحية - أن يدرسوا نفس هذه البرامج التى درسها الآباء والأمهات لأن جهود الاصلاح داخل البيت تنقوض تماما تحت هذا السيل النهمر من المعلومات المتناقضة القادمة من خارج البيت - وقد سألتنى ابنتى ذات العشر سنوات : « هل نستطيع الذهاب لمشاهدة بونى وكلايد ؟ » فقلت : « لا ، انه فيلم مشحون بالعنف ولا أحب الطريقة التى أبرز بها بعض الأفراد شديدى الانحطاط » - وبعد ذلك بأيام قليلة كان من الصعب أن أفسر لماذا تكررت قصة بونى وكلايد خلال حفل التحكيم بالاكاديمية .

وأظن أن الذين حققوا ثروات من العنف ، قد حققوا الراحة حسب وجهة نظر بعض علماء النفس الذين قرروا أن مشاهدة العنف تمثل صمام أمان يساعد الأفراد على نبذ العنف أكثر من ممارسته - وليست هناك وسيلة لاثبات صحة وجهة النظر هذه - بينما نجد هناك دليلا واضحا لمعارضتها : ان هذا الفريق من علماء النفس يمثل وجهة النظر القائلة بأن

المضاعر تتراكم كما لو كانت فى دلو ، يجب تفريغه كل فترة - وعلينا أن نفكر فى المشاعر بدقة أكثر بوصفها استعادة تشغيل التسجيلات القديمة التى يمكن محوها أيضا - وعلينا ألا نفكر فى مشكلة تفريغ مشاعرنا ، لأننا نستطيع أن نمحوها بسهولة ، وأن نمنعها من اغراق حاسبنا الآلى ، وبدلا من ذلك علينا أن نملا هذا الحاسب بأشياء أخرى - قال امرسون :
« ان الرجل هو نفس ما يفكر فيه طوال اليوم » -

وفى عصر سابق عندما كان العالم مشحونا بالاغتيال السياسى ، وبيع الناس كرقاء ، وصلب الأبرياء ، وقتل الأطفال ، وتسلية الأباطرة بمتعة مشاهدة الدم فى حلبات المصارعة - كتب رجل عاقل لجماعة صغيرة من الناس فى مدينة فيلبى قائلا : « أخيرا أيها الاخوة ، كل ما هو حق ، كل ما هو جليل ، كل ما هو عادل ، كل ما هو طاهر ، كل ما هو مسر ، كل ما صيته حسن - ان كانت فضيلة ، وان كان مدح ، فى هذه افكروا (*) » -

نستطيع أن نكره الشر بشدة ، الى الدرجة التى تنسينا حب الخير - وهناك إلخير الكثير فى أمريكا ، لدرجة أنه جذب إعجاب سائر الناس فى العالم خلال الأعوام الماضية ، وهناك أيضا الكثير الذى اجتذب المظلومين من البلدان الأخرى - وفى سنة ١٩٥٠ قال شارل مالك - مندوب لبنان فى الأمم المتحدة مايلى :

عندما أفكر فيما يمكن للكنائس والجامعات الأمريكية أن تفعله ، بأسلوب الوساطة التى تعتمد على الحب والصفح ، والتحل بضبط النفس ، وتدريب العقل على كشف الحقيقة ، وعندما لاحظ ما تستطيع صناعاتكم أن تحققه بأسلوب تغيير المادة الكلية لهذا العالم الى أداة تخفف من وطأة معاناة الإنسان ، وعندما أتأمل فيما يمكن لبيوتكم وتجمعاتكم الصغيرة أن تبتكره عن طريق الأخلاق والصلابة والاستقرار والمرح ، وعندما أعود الى وسائل الاعلام العظيمة الممثلة فى الصحافة والسينما والاذاعة والتلفزيون ومقدرتها المكثفة على توصيل الكلمة الأمريكية - عندما أفكر بتواضع وواقعية فى هذه الأشياء ، وعندما أستنبط فيما بعد أنه لا يوجد ما يمنع هذه الوكالات من تكريس نفسها لخدمة الحقيقة والحب والبقاء - فأننى أقول : « ربما أصبح يوم القيامة على الأبواب » -

(*) رسالة بولس الرسول الى أهل فيلبى - ٤ : ٨ - المترجم -

أما الشيء الوحيد الذى يمنع هذا التكريس فهو الخوف - الخوف من سائر الناس على سطح هذه الأرض ، الخوف الذى فى « الطفل » والذى سيحرف مصادرها الخيرة الى معركة متصاعدة دائما ، ونخطىء الظن بأننا سنفوز فيها .

الفائزون والخاسرون :

كما كان الاختيار الموضوع أمام هاملت هو : « تكون أو لا تكون » ، فكذلك الاختيار الموضوع أمام الولايات المتحدة هو فى اعتقادى : « نكسب أو لا نكسب » . هذا بالنسبة للمعركة ضد الشيوعية . ومفهوم (أن نكسب) هنا أهم من مفهوم (أن نكون) ، كما يظهر من وجهة النظر التى تتزايد فى الدعوة الى المغامرة باستخدام العدوان المسلح مما يقود فى النهاية الى تدمير العالم .

لقد ألقيت القنابل على إحدى القرى الفيتنامية بكثافة شديدة حتى أن القوات المهاجمة عندما دخلتها فى النهاية ، لم تجد شيئا قائما ولا شخصا حيا . وقد علق قائد هذه العملية على ذلك بقوله : « كان علينا أن نبيدهم لكي نقتلهم » . وتقع هذه العبارة وقع عبارة « الوالد » التى جاءت فى شكل مرسوم كنسى صدر قديما وبه هذه العبارة : ان هذا يؤذيتى أكثر مما يؤذيك . فهل نستطيع حقا أن نقول للقرية التى أبيتدت والتى تناثرت جثث سكانها المتفحمة فى الشوارع : ان هذا يؤذينا أكثر مما يؤذيك ؟

كيف يرى أهالى فيتنام الشمالية والجنوبية ، الديمقراطية التى يمجدها الأمريكيون ، ويصرون على أنها أفضل نظم الحكم ؟ هل يحبونها ؟ وهل يفهمونها ؟ هل يحترمونها أسلوبنا الحر فى الحياة بالنظر الى ما يرونه فى بلدنا ؟ هل يصدقون أننا حقاً نحب القوقاز الآسيويين ، بالمقارنة مع النزاع العنصرى فى أمريكا ؟ اننا نقول أن « الديمقراطية صالحة » بنفس الطريقة التى تقول بها الأم لابنها أن « السبانخ لذيذة » . لقد أجبرنا فى معاملات عديدة مشابهة على عدم الثقة فى حواسنا وعدم تأكيد مشاعرنا . هل كانت الأم متحمسة حقيقة لتناول السبانخ بنفسها ؟ ان الديمقراطية صالحة ، ولكن هل العنف والحرب هما السبيل الوحيد الذى ننشر به صلاحها وخيرها ؟

« ان الديموقراطية صالحة » . و « هذا يؤذيني أكثر مما يؤذيك »
عبارتان تعبران معا عن خطورة الألعاب الدولية من حيث أنهما تختفیان
خلف الدافع الحقيقي الذى يعنى : « يجب أن نفوز ، لأننا اذا لم نكسب
فلا بد أن نخسر » .

فهل المكسب والخسارة هما الاختيار الوحيد الموضوع أمام الأشخاص
أو الدول ؟ هل الطريقة الوحيدة لكى تظل فائزا تتمثل فى أن نحيط نفسك
بالخاسرين ؟ ألم تعد لدينا نماذج أخرى سوى نماذج الفائزين والخاسرين ؟
عندما نزع الانسان الأول من الغابات بفعل التغيرات المناخية التى قلصت
من مساحة الغابات ، لم يعد أمامه الا مخرجين محتملين للانتشار مع
الوحوش آكلة اللحوم الموجودة من قديم الزمان فى السهل الفسيح .
أما الذين كسبوا معركة البحث عن الطعام فقد استطاعوا البقاء ، وأما الذين
خسروها فقد ماتوا . ويصدق القول على القادة الدينيين والسياسيين الذين
ظهروا من وقت لآخر ، يدعون حينذاك الى ما اعتبر نموذجا جديدا ، ولكن
أفكار هؤلاء « الحالمين والمنتبئين » بدت للكثير من الناس كنوع من المدينة
الفاضلة ، أو أنها قادمة من عالم آخر ، أو أنها مستحيلة . والحقيقة هى
أن نماذج الفائز والخاسر قد انتشرت على مدى تاريخ الإنسان .

والآن ، تغيرت الظروف ، فقد أصبح من المستطاع بفضل المعرفة
العلمية انتاج طعام يكفى لتغذية سكان العالم اذا أمكن السيطرة على
الانفجار السكاني ، كذلك أتاح العلم امكانية تنظيم النسل . ونستطيع
الآن أن نتصور اختيارا آخر هو : (أنا على مايرام - وأنت على مايرام) .
وأخيرا أصبح من الممكن بقاء الجميع استنادا الى الواقع . فى البداية
نما عقل الانسان وتطور لخدمة الوجود . فهل نستطيع الآن أن نوجه
العقل لأداء وظائف جديدة ، وظائف تؤدى الى بقاء كل سكان العالم ؟ هل
تستطيع عطية الحياة والمدى المحدود لبقاء الانسان على هذه الأرض ، أن
يتيحنا الاستمتاع الكامل بالامكانيات الروحية للانسان ؟ اذا رأينا أن موقف
(أنا على مايرام - وأنت على مايرام) أصبح أخيرا ممكن التحقيق . فهل
تجرؤ على البحث عن التغيير ، والتوصل الى شىء جديد تحت الشمس ،
شىء يكبح جماح العنف الذى يهدد بتدمير ما استغرق بناؤه ملايين
السنين ؟

قال تيهار : « اما أن تعجز الطبيعة عن تلبية احتياجاتنا للمستقبل »
وفى هذه الحالة نفكر فى أن العالم وهو الذى يمثل ثمرة جهاد ملايين

السنين ، قد اختنق ، أو ولد ميتا ، أو غير كامل النمو ، أو صار لا معقول .
 واما أن تفتح ثغرة ، (١٢) .

وأظن أننا قد وجدنا الثغرة - هذه الثغرة لن يستكشفها مجتمع
 متحد بدون اسم ، ولكن جميع أفراد هذا المجتمع معا - ويمكن القيام
 بالاستكشاف فقط عندما يصير الأفراد متحررين من أغلال الماضي ، وأحرارا
 فى أن يختاروا اما قبول أو رفض قيم وطرائق الماضى - وسيظهر استنتاج
 حتمى هو : ان المجتمع لن يستطيع أن يتغير حتى يتغير الأفراد أنفسهم .
 اننا نركز أملنا فى المستقبل على أساس حقيقة أننا قد رأينا الناس يتغيرون .
 أما كيف فعلوا ذلك فهذا هو الخبر السار الذى يتضمنه هذا الكتاب .
 اننا نثق فى أن ذلك يمثل قدرا كبيرا من الأمل ، وصفحة مهمة من صفحات
 دليل بقاء الجنس البشرى .

Pierre Teilhard de Chardin, "The Phenomenon of Man," (١٢)
 (New York : Harper, 1961).

الفهرس

الموضوع	الصفحة
كلمة المترجم	٥
تعريف	٩
تنويه	١١
مقدمة	١٣
الفصل الأول : « فرويد وبنفيلد وبرن »	١٩
الفصل الثاني : « الوالد - الراشد - الطفل »	٣٥
الفصل الثالث : « مواقف الحياة الأربعة »	٥٥
الفصل الرابع : « نستطيع أن نتغير »	٧٣
الفصل الخامس : « تحليل المعاملات »	٨٥
الفصل السادس : « كيف نختلف »	١١٥
الفصل السابع : « كيف نستخدم الوقت »	١٣٢
الفصل الثامن : « نموذج » (الوالد - الراشد - الطفل) والزواج	١٤٥
الفصل التاسع : « نموذج » (الوالد - الراشد - الطفل) والأطفال الصغار	١٦٣
الفصل العاشر : « نموذج » (الوالد - الراشد - الطفل) والمراهقون	١٩٥
الفصل الحادي عشر : « متى يكون العلاج ضروريا ؟ »	٢١٩
الفصل الثاني عشر : « نموذج » (الوالد - الراشد - الطفل) والقيم الأخلاقية	٢٣٧
الفصل الثالث عشر : « المفاهيم الاجتماعية لنموذج » (الوالد الراشد - الطفل)	٢٥٣

صدر من هذه السلسلة :

اسم المؤلف	اسم الكتاب
برتراند رسل	١ - أحلام الأعلام وقصص أخرى
لي. ر. رادونسكايا	٢ - الألكترونيات والحياة الحديثة
الدس هكنسلي	٣ - نقطة مقابل نقطة
ت. و. فريمان	٤ - الجغرافيا في مائة عام
رايموند وليامز	٥ - الثقافة والمجتمع
ر. ج. فوردس	٦ - تاريخ العلم والتكنولوجيا - ج ٢ - القرن الثامن عشر والتاسع عشر
ليستر ديل راي	٧ - الأرض الغامضة
والتر آلن	٨ - الرواية الانجليزية
لويس فارغاس	٩ - المرشد الى فن المسرح
فرانسوا دو ماس	١٠ - آلهة مصر
د. قدرى حفى وآخرون	١١ - الانسان المصرى على الشاشة
أولج فولكف	١٢ - القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة
هاشم النحاس	١٣ - الهوية القومية في السينما العربية
ديفيد وليام ماك دونالد	١٤ - مجموعات النقود
عزيز الشوان	سياستها .. تصنيفها .. عرضها
د. محسن جاسم الموسوى	١٥ - الموسيقى - تعبیر ثقفي - ومنطق
اشراف س. بي. كوكس	١٦ - عصر الرواية - مقال في النوع الأدبي
جون لويس	١٧ - ديلا توماس
بول ويست	مجموعة مقالات نقدية
د. عبد المعطى شعراوي	١٨ - الانسان ذلك الكائن الفريد
أنور المعداوي	١٩ - الرواية الحديثة - الانجليزية - والفرنسية
بيل شول وأدثبيت	ج ١
د. صفاء خلوصي	٢٠ - المسرح المصرى المعاصر - أصله وبدايته
	٢١ - على محمود طه - الشاعر والانسان
	٢٢ - القوة النفسية للأهرام
	٢٣ - فن الترجمة

اسم المؤلف	اسم الكتاب
رالف ثي هاتلو	٢٤ - تولستوى
فيكتور برومير	٢٥ - ستندال
فيكتور هوجو	٢٦ - رسائل واحاديث من المنفى
ميرنر هيزنبرج	٢٧ - الجزء والكل (محاورات فى مضممار الفيزياء الذرية)
سدنى هوك	٢٨ - التراث الغامض ماركس والماركسيون
ف - ع - أدنيكوف	٢٩ - فن الادب الروائى عند تولستوى
هادى نعمان الهيتى	٣٠ - ادب الاطفال - (فلسفته - فنونه - وسائطه)
د - نعمة رحيم العزاوى	٣١ - أحمد حسن الزيات - كاتبا وناقدا
د - فاضل أحمد الطائى	٣٢ - اعلام العرب فى الكيمياء
فرنسيس فرجون	٣٣ - فكرة المسرح
هنرى باربوس	٣٤ - الجحيم
السيد عليوة	٣٥ - صنع القرار السياسى فى منظمات الادارة العامة
جوكوب برونوفسكى	٣٦ - التطور الحضارى للانسان (ارتقاء الانسان)
د - روجر ستروجان	٣٧ - هل نستطيع تعليم الاخلاق للأطفال ؟
كاثى ثير	٣٨ - تربية الدواجن
ا - سبنسر	٣٩ - الموتى وعالمهم فى مصر القديمة
د - فاعوم بيتروفيتش	٤٠ - النحل والطب
جوزيف داهموس	٤١ - سبع معارك فاصلة فى المصور الوسطى
د - لينوار تشامبرز رايت	٤٢ - سياسة الولايات المتحدة الامريكية ازاء مصر ١٨٣٠ - ١٩١٤
د - جون شندلر	٤٣ - كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة
بيير ألير	٤٤ - الصحافة
الدكتور غبريال وهبه	٤٥ - اثر الكوميديا الالهية لدانتى فى الفن التشكيلى
د - رمسيس عوض	٤٦ - الادب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها

اسم المؤلف	اسم الكتاب
د. محمد نعمان جلال	٤٧ - حركة عدم الانحياز في عالم متغير
فرانكلين ل. باومر	٤٨ - الفكر الأوروبي الحديث ج ١
شوكت الربيعة	٤٩ - الفن التشكيلي المعاصر في الوطن العربي ١٨٨٥ - ١٩٨٥
د. محيي الدين أحمد حسين	٥٠ - التنشئة الأسرية والأبناء الصغار
تأليف : ج. داهلي أندرو	٥١ - نظريات الفيلم الكبرى
جوزيف كونراد	٥٢ - مختارات من الأدب القصصي
د. جوهان دورشمر	٥٣ - الحياة في الكون كيف نشأت وأين توجد ؟
طائفة من العلماء الأمريكيين	٥٤ - حرب الفضاء
د. السيد عليوة	٥٥ - إدارة الصراعات الدولية
د. مصطفى عناني	٥٦ - الميكروكمبيوتر
اختيار وترجمة صبري الفضل	٥٧ - مختارات من الأدب الياباني (الشعر - الدراما - الحكاية - القصة القصيرة)
فرانكلين ل. بلومر	٥٨ - الفكر الأوروبي الحديث ج ٢
جابريل باير	٥٩ - تاريخ ملكية الأراضي في مصر الحديثة
أنطوني دي كرسبيني	٦٠ - أعلام الفلسفة السياسية المعاصرة
فرانكلين ل. باومر	٦١ - الفكر الأوروبي الحديث ج ٣
دوايت سوين	٦٢ - كتابة السيناريو للسينما
زافيلسكي ف. س	٦٣ - الزمن وقياسه
إبراهيم القرضاوي	٦٤ - أجهزة تكييف الهواء
بيتر ر. داي	٦٥ - الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعي
جوزيف داهموس	٦٦ - سبعة مؤرخين في العصور الوسطى
س. م. بورا	٦٧ - التجربة اليونانية
د. عاصم محمد رزق	٦٨ - مراكز الصناعة في مصر الإسلامية
رونالد د. سمبسون	٦٩ - المعلم والطالب والمدارس
و. نورمان د. أندرسون	٧٠ - الشوارع المصرية والفكر
د. أنور عبد الملك	

اسم المؤلف	اسم الكتاب
والث روستو	٧١ - حوار حول التنمية
فريد هيس	٧٢ - تبسيط الكيمياء
جون بوكهارت	٧٣ - العادات والتقاليد المصرية
آلان كاسبر	٧٤ - التذوق السينمائي
سامى عبد المعطى	٧٥ - التخطيط السياحي
فريد هويل	٧٦ - البذور الكونية
شندرا ويكرا ماسينج	٧٧ - دراما الشاشة ج ١
حسين حلمى المهندس	٧٨ - الهيروين والايدز
روى روبرتسون	٧٩ - الفكر الأوربي الحديث ج ١
فرانكلين ل - باوهر	٨٠ - نجيب محفوظ على الشاشة
هاشم النحاس	٨١ - صور افريقية
دوركاس ماكلينتوك	٨٢ - الكمبيوتر فى مجالات الحياة
د - محمود سرى طه	٨٣ - دراما الشاشة ج ٢
حسين حلمى المهندس	٨٤ - المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية
بيتر لورى	٨٥ - وظائف الأعضاء من الألف الى الياء
بوريس، فيدروفيتش سيرجيف	٨٦ - الهندسة الوراثية
ويليام بينر	٨٧ - تربية أسماك الزينة
ديفيد الدرتون	٨٨ - كتب غيرت الفكر الانساني
أحمد محمد الشنواني	٨٩ - الفلسفة وقضايا العصر ج ١
جميعها : جون - ر - بورر	٩٠ - الفكر التاريخي عند الاغريق
وميلتون جولدينجر	٩١ - قضايا وملامح الفن التشكيلي
أرنولد توينبى	٩٢ - التغذية فى البلدان النامية
د - صالح رضا	٩٣ - الفلسفة وقضايا العصر ج ٢
م - ه - كنج وآخرون	٩٤ - بداية بلا نهاية
جميعها : جون - ر - بورر	
وميلتون جولدينجر	
جورج جاموف	

اسم المؤلف	اسم الكتاب
د. السيد طه أبو سديرة	٩٥ - الحرف والصناعات في مصر الاسلامية
جاليليو جاليليه	٩٦ - حوار حول النظامين الرئيسيين للكون ج١
جاليليو جاليليه	٩٧ - حوار حول النظامين الرئيسيين للكون ج٢
جاليليو جاليليه	٩٨ - حوار حول النظامين الرئيسيين للكون ج٣
أريك موريس ، آلان هو	٩٩ - الارهاب
سيريل الدريد	١٠٠ - أخناتون
آرثر كيستلر	١٠١ - القبيلة الثالثة عشرة
جمعها : جون ر. بورر	١٠٢ - الفلسفة وقضايا العصر ج ٣
ميلتون جولد ينجر	١٠٣ - الأساطير الاغريقية
كوفلان	١٠٤ - العلم والتكنولوجيا
ر.ج. فويس ،	
ا.ج. ديكسترهوز	

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٢/٢٧٢٠

ISBN — 977 — 01 — 2998 — 4

هذا الكتاب يمثل مرحلة جديدة في التحليل النفسي وهو
يعتبر تطبيقاً عملياً للأسلوب الجديد الذي ابتكره الدكتور
إريك بيرن العلاج بالتحليل النفسي اعتماداً على استخدام
الألعاب وتدريب نموذج (الوالد - الراشد - الطفل)
لمجموعات المرضى والدارسين تحت إشراف طبيب نفسي
متخصص يقوم بالملاحظة والتصحيح . والكتاب يساعد
القارئ العادي على اكتشاف الجوانب النفسية التي تحكم
في أساليب السلوك لديه وبالتالي يستطيع أن يتقدم إلى
المستقبل مسلحاً بالتفأول والأمل وبذلك يتفاعل مع غيره من
أفراد المجتمع نحو إقامة المجتمع السليم